
قصة الالتزام
والتخلص من رواسب الجاهلية
لفضيلة الشيخ
محمد حسين يعقوب
المكتبة التوفيقية



لفضيلة الشيخ

محمد حسين يعقوب





المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق علام


بسم الله الرحمن الرحيم

قصة الالتزام

هذهِ قِصَّةُ رجلٍ «عادي»: . . . وُلِدَ هذا الرجلُ في ظروفٍ «عادِيَّة» . . في بيتٍ «عادِي» مِنْ بيوتِ المسلمينَ «العادِيين» . . نشأَ صاحِبُنا في بيئةٍ «عادِيَّة» . . وعاشَ طُفولةً «عادِيَّة» . . وأَتَمَّ تعليمَهُ «العادِي» . . وكانَ والداهُ يُعامِلانِهِ مُعاملةً «عادِيَّة» . .

عاشَ هذا الرجلُ «العادِي» حتىٰ وصلَ إلىٰ سِنِّ المراهقةِ «العادِيَّة» . . وبدأ يعرفُ الطريقَ إلىٰ ارتكابِ المعاصي «غَيْرِ العادِيَّة» . . ولكنْ في المجتمعِ «العادِي» تكونُ هذهِ الأمورُ «عادِيَّة» . .

ولِأَنَّ فِكْرَ صاحِبُنا «عادِي» لَمْ يَكْتَرِثْ . . وظلَّ صاحِبُنا يتنقلُ بينَ الظروفِ «العادِيَّة» يشربُ مِن وَحْلِ بيئتِهِ وَحْلًا في التصورات، والأفكار، والمفاهيم، والمحبوبات، والمكروهات، والمألوفات . .

ومِنْ أصحابِهِ «العادِيِّين»: زميلُ الدِّراسة . . وجارُ البيت . . والزَّميلةُ وأختُ الزَّميل . . وبنتُ الجيران . . والمدرِّسُ والمُدَرِّسة . . ومِنْ ألفاظِ الشوارع، وصُوَرِ المَجَلَّاتِ والجرائد، وحُبِّ الإذاعةِ والتليفزيون؛ شَرِبَ صاحِبُنا وَحْلًا يُغْرِقُ وَجْهَ العالمِ بأكملِه . .

فنشأَ صاحِبُنا في هذهِ الظروفِ «العادِيَّة» . . وفي فَوَرَانِ الشبابِ زادتْ المعاصي «غَيْرُ العادِيَّةِ» عَنْ حَدِّها . . ويتلفتُ صاحِبُنا وهُوَ في الظُّلْمَةِ الظَّلْمَاء؛ فلا يَرَىٰ حولَهُ إلا ظَلامًا في ظَلام . .

والتَّطَوُّرُ الطبيعيُّ للمعاصي مع صُحبةِ السُّوء.. مِنْ «تَخْمِيسِ» سيجارة.. إلىٰ حشوِها «بالبانجو».. إلىٰ «حِتَّة» حَشِيش.. إلىٰ «شَمَّةِ» هِيروِيين.. وصلَ صاحِبُنا بسهولةٍ إلىٰ كأسِ خَمْرٍ علىٰ أنغامِ الموسيقىٰ وَسَطَ الأجسادِ العارِية.

وبعدَ ارتكابِ المُوبِقاتِ والفواحش؛ بدأ صاحبنا «العادِي» يشكو أَنَّ الأحوالَ صارتْ «غيرَ عادِيَّة»!!!.. فالصداعُ المُزْمِن، والالتهابُ الحَادُّ في الشُّعَبِ الهوائية، والشعوُر الدائمُ بالاختناق وضِيقِ الصَّدْر، وتكسيرِ المَفَاصِل.. بعدَ السفرياتِ الطويلة مِنَ «السَّاحلِ الشَّمَالي» إلىٰ «العَينِ السُّخْنَة» و«فايد» إلىٰ «دَهَب».. يا قلبي فاحْزَنْ..

ولِأَنَّ صاحِبَنا شخصٌ «عادِي»، وقدْ ربَّاه والداهُ «تربيةً عادِيَّة»؛ ظلَّ يَدْفِنُ رأسَهُ في الرِّمَال.. «بكرة تعدي.. ربنا يصلح الأحوال.. بسيطة، ولا يهمك؛ إحنا أحسن من غيرنا.. ساعة لقلبك وساعة لربك.. إن اللَّه غفور رحيم.. كُلّ الشباب مَرُّوا بالفترة دي».... نَموذج «عادِي» لتربيةِ بُيوتِ المسلمين..

وفَجْأَة.. وَفي لحظةِ «غيرِ عادِيَّة» كانَ صاحِبُنا يَرْجِعُ مُتَرَنِّحًا في جوفِ الليل، يَهِيمُ علىٰ وجهِهِ لا يدرِي إلىٰ أينَ يسير، ولا كيفَ يَتَوَجَّه، ولا ماذا يفعل.. حُطَامُ إنسان.. صارَ جسدُهُ قَبْرًا لقلبِه.. يبحثُ هذا المِسكينُ «العادِي» عن شيءٍ لكنهُ لا يعرِفُه.. ويتمنىٰ شيئًا لكنهُ لا يتصوَّرُه، ويشتهي أمرًا ليسَ لهُ تفاصيل في خاطِرِه.. يُريدُ أن يبكي فلا يستطيع.. يتمنىٰ أنْ يَجِدَ مَنْ يستمِعُ إليه؛ ولكنهُ لا يعرِفُ إلىٰ مَنْ يَلْجأ..

إِنَّهُ يريدُ أحدًا يَحتَضِنه وَيَضُمّه ؛ لكنْ غيرَ الأحضانِ العادِيَّة التي تَعَوَّدَ عليها . . إِنهُ يريدُ أن يأوِيَ إلىٰ مكانٍ طاهرٍ نظيف يَحْتَمِي به من الوُحوشِ الكاسِرةِ داخِلَهُ وحَوْلَه . .

فِي تِلْكَ اللَّيلة أَصَرَّ علىٰ ألا يعودَ إلىٰ البيت . . وبينما هُوَ يَسير ؛ إذْ سَمِعَ أذانَ الفجر . . فاضطربتْ جوانِحُه ، وامتلكتْ جسدَهُ كُلَّهُ رِعْشَة . . فجرىٰ كي لا يَسْقُط . . فإذا بِهِ يصطدِمُ بشخصٍ فيطرَحَهُ علىٰ الأرض . .

وحِينَ أفاقَ مِنْ هَوْلِ المُفَاجَأة ؛ قامَ صاحِبُنا الشَّابُ العادِيّ ومَدَّ يدَهُ المهزوزةَ المُلَوَّثَةَ بآخِرِ سِيجارة ؛ ليُساعِدَ هذا الرَّاقِدَ الذي طَرَحَهُ أرْضًا . . وهُوَ يُريدُ أنْ يعتذِر ؛ ولكنْ كأنَّ لِسانَهُ قَدِ اخْتَفَىٰ فَجأَة . .

فلَمَّا اسْتَتَمَّ الرجلُ واقِفًا ظلَّ كُلٌّ منهما يُحَمْلِقُ في الآخَر . . ودارتْ في الرأسِ أفكارٌ وظُنُون . .

يقولُ الولدُ «العادِي» - في نفسِهِ دونَ أَنْ ينطِق - : مَنْ هذا؟ . . ما هذا النور الذي أرىٰ في وجهه؟ . . أَهُوَ مَلَكٌ مِنَ السَّماء؟!

- الشيخ - في نفسِهِ أيضًا ولَمْ ينطِق - : أعوذُ باللَّهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجيم . . مَنْ هذا؟ شيطان؟ . . ويَفْرُكُ عينيهِ ويُعِيدُ النَّظَر . . هل أنا في مِصر؟!! . . هلْ أنا مُتيَقِظ؟!! . .

- الشَّابُ «العادِي» : اللَّه!! . . ما هذِهِ الرائحةُ الجميلة . . كأنهُ طِيْبُ الجَنَّة . .

- الشيخ : أعوذُ باللَّه . . ما هذِهِ الروائحُ الكريهة؟! . . هَلْ خَرَجَ هذا الإِنسانُ مِنْ «بَكَبُرْتْ»؟!! . .

- الشّاب: اللّه!!.. ما هذهِ الملابسُ الجميلة؟!.. كأنَّ الرجلُ يَلْبَسُ نُورًا..

- الشَّيخ: أعوذُ باللّه.. هل هذا ولدٌ أمْ بِنت!!.. ما هذه الملابس؟!.. كأنها ملابِسُ «المَسَاخِيط»..

ثُمَّ رفعَ الشيخُ عينيه إلىٰ رأسِ الشابِّ وهُوَ يَرَىٰ سَوادًا تحتَ عينيه.. سوادًا في شفتيه.. سوادًا في أنفِه.. ويَرَىٰ «سَكْسُوكَة» صغيرة، وشَعْرًا كأنما عَبَثَ فيهِ مِقَصُّ طِفلٍ فبَعْثَرَهُ هنا وهناك.. فيتعجبُ ويندَهِشُ ويُذْهَل، فيرجع خُطْوَة للوَراء كأنَّمَا يُريدُ أن يهرب..

فيقطعَ الصمتَ الرَّهيبَ قولُ الشَّابِّ بصوتٍ مرتعِش: «أنا آسِف يا عمّ الشيخ»..

أفاقَ الشيخُ وخرجَ مِنْ حديثِ العَقْلِ ومِنْ حديثِ الأفكار؛ ليتشجعَ ويقولَ له: مَنْ أنت؟!!..

وذُهِلَ صاحِبُنا العادي من السؤال وكأنهُ مفاجَأة، وظلَّ يُتَمْتِم.. من أنا؟!!.. صحيحٌ واللّهِ، من أنا؟؟.. واللّهِ لا أعرفُ مَنْ أنا..

وضربَ الشيخُ كَفًّا بِكَفّ وهُوَ يقول: مِسكين.. مِسكين واللّهِ..

قالَ صاحِبُنا العادِي: أنا مِسكين؟!!.. أنا؟!!..

ومَدَّ الشيخُ إليهِ يدَهُ وقال: إلىٰ أين يا بُنَيّ؟!

وَتَمْتَمَ الشَّابُّ مَرَّةً أخرىٰ في كلامٍ كالهَذَيان: حتىٰ هذهِ لا أَعرِفُها.. إلىٰ أين؟!!.. لا أدري.. إلىٰ أين.. وكأنَّ الشَّابَّ وَجَدَ ضَالَّتَه في

سُؤَالَيْ الشيخ : مَنْ أنتَ ؟، وإلىٰ أين ؟ . . وظلّ يردِّد . . مَنْ أنا ، وإلىٰ أين أذهب ؟ . . لا أدري . . لا أدري . .

ومَدَّ الشيخُ يدَهُ يَرْبِتُ علىٰ كتفَيْه . . ثم يَبْسُطُ يدَهُ لهُ ويقول : هل تأتي معي ؟

قال الشَّاب : «مَعَك !» . . إلىٰ أين ؟ . .

وردَّ الشيخُ وقال : أمَّا أنا فأدري إلىٰ أين . . إلىٰ مَلاذ التَّائهين . . ومَأْوَىٰ الضَّائعين . . وضَالَّةِ الحَائِرين . . إلىٰ بيتِ اللَّه . . بيتِ ربِّي . .

يا بُنَيّ هل تُصَلِّي ؟ . . لماذا لا تُصَلِّي ؟!! . . هيَّا بِنا . . صلاةُ الفجرِ جميلة . .

وتَسَمَّرَتْ قدما صاحِبِنا . . وفَغَرَ فاهُ وهُوَ يقول : آآآه . . لا أدرِي . . كأنما السؤالانِ لا يزالانِ يَطْرُقَانِ علىٰ رأسِه . . مَنْ أنتَ ؟ . . وإلىٰ أين ؟ . . وجَرَّهُ الشيخُ من يَدِه ؛ ولكنَّ الولدَ كأنَّما تَحوَّلَ إلىٰ تِمْثَالٍ مِنْ ثَلْج . . وسارَ مع الشيخِ كأنَّهُ مَسْلُوبُ الإِرادة . . حتىٰ وصل إلىٰ بابِ المسجد . . والشيخُ يَجُرُّهُ مِنْ يدِهِ جَرًّا كما تُجَرُّ عَنْزَة . .

ومَا أَنْ وَقَفَ علىٰ بابِ المسجد حتى بَهَرَهُ النُّور . . ووقفتْ عيناه علىٰ الرُّكَّع السُّجُود . . وإذا بِلَوْحَةٍ كبيرةٍ مُعلَّقةٍ في وجْهِ البابَ لم يَلمَحْ فيها غيرَ كَلِمَة «اللَّه» كبيرة . . ثم كَلِمَة ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ . .

وتَوَقَّفَ صاحِبُنا لَحْظَة علىٰ بابِ المسجد . . والتفتَ مُشِيحًا بوجهِهِ وفي داخِلِهِ صُرَاخٌ يقول : بِكُلِّ هذهِ القاذورات أَدْخُلُ بيتَ اللَّه ؟! . . كيفَ

تَدْخُلُ كُلُّ هذهِ الظُلْمَةُ بيتَ النُّور؟!!.. كيفَ لهذهِ الكآبةِ المُظلمةِ أنْ تَعْبُرَ بَوَّابةَ الطَّهارة والنَّقاء؟!!.. كيفَ بِكُلِّ مآسي السِّنين.. خطايا.. وأخطاء.. أَنْ تَقِفَ بينَ هؤلاءِ الأطهار؟!!.. أَوَأقوَىٰ علىٰ مُفَارَقَةِ ما كنتُ فيه؟!!.. أوأستطيعُ أَنْ أَعْبُرَ هذهِ القَنطَرَة؟!!.. لا.. لا.. لا.. صِراعٌ في دَاخِلِه.

ووقفتْ عَتَبَةُ المسجد الخشبية التي تُخلَعُ عندها الأحذية كأنها سدٌّ مَنِيع يحولُ بينَ القَذارة والطَّهارة.. ويَجُرُّهُ الشَّيخ؛ ولكن تَسمَّرَتْ قدما صاحِبِنا العادِي مَرَّةً أُخرَىٰ عِندَ تِلْكَ الخَشَبَة؛ لا يستطيعُ أَنْ يرفعَ رِجْلَهُ، ولا أَنْ يَخْلَعَ حِذاءَه.. وقفتْ أمامَهُ في هذهِ اللَّحظة تِلكَ البِنْتُ التي غَرَّرَ بها وأغواها.. وذَلِكَ الوَلَد الذي عَلَّمَهُ «الشَّمّ» والتدخين.. رأىٰ وجهَ الأبِ المُكْفَهِرّ المُتَحسِّرِ علىٰ وَلَدٍ ضَاع كانَ لَهُ فيهِ أَمَل.. ووجهَ الأمِّ الباكية ليلَ نَهار؛ لا تَكُفُّ عَنِ الدعاءِ لَه.

ورأىٰ صُحْبَةَ السُّوء.. وَقَفَتْ أمامَ عينيهِ السِّيجارة.. والكأس.. وورقةُ الكُوتشِينَة.. والمايوه.. وشاشةُ السِّينما.. وخَشَبَةُ المَسْرَح.. وأموالُ الحرام.. والزِّنا.. والرَّقْص.. والشُّرْب..

وَقَفَتْ أمامَ عينيهِ ليقول: آآآآآه.. خَرَجَتْ هذهِ المَرَّة بِكُلِّ قُوَّة وهُوَ يَضَعُ يدَهُ علىٰ جَنْبَتَيْ الباب.. ويضعُ رأسَهُ علىٰ يدِهِ ويقول: آآآه.. هل أستطيع أن أتخطَّىٰ كُلَّ هذا؟؟!!..

هل أستطيعُ أن أتخلَّىٰ عَنْ كُلِّ هذا؟؟!!.. هل أستطيعُ أن أُغيِّر كُلَّ

هذا؟؟!!.. ويجُرهُ الشَّيخ.. وصاحِبُنا «العادِي» يَصرُخُ في وجهِه: لا.. لا.. لا أستطيع..

ويقولُ الشَّيخ: استعِنْ باللّهِ يا بُنَيّ.. سَتَقْدِر، ادخُل.. أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]..

ويُحَمْلِقُ الولدُ في وجهِ الشَّيخ فيَبْهرُهُ النُّور.. وينظرُ إلىٰ يَدِ الشَّيخِ الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرة.. ويَمُدُّ كَفَّهُ فيُمْسِكُ بيدِ الشَّيخ.. ولكِن بعدَ تردُّدٍ وتَرَقُّب..

فَجأة.. يَنْزِعُ صاحِبُنا «العادِي» يدَهُ بِشِدَّةٍ وقَسْوَة مِن يدِ الشيخ.. وينطلِقُ إلىٰ الظَّلامِ مَرَّةً أخرىٰ صَارِخًا: لا أستطيع.. لا أستطيع..

ويَعُودُ هذا المِسكينُ مَرَّةً أُخرىٰ إلىٰ بَحْرِ الظُّلمات.. ويسيرُ في الشَّوارِع هَائِمًا علىٰ وجهِه حتىٰ يَصِلَ إلىٰ بيتِه.. ويُهَرْوِل إلىٰ حُجرتِه فيَدْفِنَ رأسَهُ في الوسادةِ ويبكي بحُرْقَة.. ويَظَلُّ مُنهارًا وهُوَ يَسْتَرْجِعُ تِلْكَ الأحداث ويتصورُها.. كأنها ومْضَةُ نُورٍ سَطَعَتْ في ظُلُماتٍ حالِكَة..

ويَعْتَدِلُ ليجلِسَ وهُوَ يَسأل نفسَه: لماذا لَمْ يَدْخُلْ؟؟.. لماذا لَمْ يُوافِقْ؟؟.. لماذا لَمْ يَرْضَ؟؟.. ويعودُ الصُّرَاخ: أَبِكُلِّ هذا الوَحْلِ أَدْخُل؟.. كيفَ أَعُود؟.. هل أستطيعُ التَّخلُّصَ مِمَّا أنا فيه؟.. أتمنَّىٰ.. أتمنَّىٰ واللّهِ ولكن.. حَقًّا السؤال: كيف أَدْخُل؟

وَرَفَعَ رأسَهُ عَنِ الوِسَادَةِ وحَمْلَقَ في السَّقْف، ولَمْ يَجِدْ غيرَ كَلِمَةٍ واحدةٍ يقولُها: يا رب يا رب، ويَظَلُّ يَتَساءَل: هل أستطيعُ يومًا أَنْ

أستغنِي عَنِ السِّيجارة، عَنِ الشِّلَّةِ، عَنِ البِنْت، عَنِ الموسيقىٰ، عَنِ «الشقاوة»، عَنِ «الصِّياعة» ليلَ نَهَار؟.. هل يُمكن أنْ يأتيَ يومٌ وأتطهرَ وأكونَ كهذا الرجلِ النظيفِ الذي رأيتُه؟.. يا رب يا رب..

ويَظَلُّ يُفكِّر ويَتَسَاءَل ثُمَّ يَرْفَعَ رأسَهُ مُحَمْلِقًا في سَقْفِ الحُجرة، وهُوَ يقول وبِكُلِّ كِيانه، ورِعْدَةٌ تَسْرِي في جَسَدِه: يا رب..

ويَظَلُّ ليلَتَهُ - أو نهارَهُ الذي قَلَبَهُ ليلًا - يتقلَّبُ كأنَّ السَّرِيرَ صَارَ جَمْرةَ نار.. وليسَ علىٰ لِسانِهِ إلا كَلِمَةٌ واحدة: يا رب.. يا رب..

وكانَ هذا اليومُ طويلًا حَافِلًا: كانَ كُلَّما أغمضَ عينيه تَرَاءَتْ أمامَهُ صُوَرٌ وخَيَالات.. استرجَعَ شريطَ حياتِه.. المآسي والمعاناة.. المَلَذَّات والشهوات..

بَدَتْ أمامَ عينيهِ صُوَرٌ عجيبة هَرَبَ منها طويلًا، وتناسَاها كثيرًا.. ظهرتْ أمامَهُ صُورةُ صديقِهِ القديم، الشَّابّ الوَسِيم، الغنيِّ القويِّ الفَارِه، الذي ماتَ فَجْأة في شَمَّة هيرويين كانت الجرعةُ فيهِ زائدة..

وبَدَتْ أمامَهُ تلكَ البِنتُ أيضًا، التي ماتتْ فَجْأة بدونِ أسباب؛ بل وهيَ نائمة..

فارْتَعَبَ صاحِبُنا وانْتَفَضَ قائِمًا؛ فَفَجَأَهُ في وجهِه صُورةُ ذَلِكَ الحادثِ الرَّهيب لِسيَّارتينِ مِنْ أصحابِه تمزَّقتْ فيه جُثثُهم أَشْلَاءً وقِطَعًا.. سِتَّةٌ مِنْ أصحابِهِ ذهبوا ضَحِيَّةَ هذا الحادثِ الأليم..

تَذَكَّرَ صديقَهُ القديمَ الحميم، الذي يعيشُ الآنَ في إحْدَىٰ المَصَحَات

العقلية في مُستشفىٰ المجانين لا يدري عن الدنيا شيئًا ؛ بل صَارَ مَسْخًا ذاهِلًا لا يُطيق هُوَ أنْ يزورَهُ أو يتصوَّرَهُ أو يراه . .

ظَلَّتْ هذهِ الصُّورَ وغيرُها كثير تَتَرَاءَىٰ أمامَهُ . . مَنْ ماتَ ، ومَنْ في المستشفىٰ ، ومَنْ في السِّجن . . فانتفضَ قائِمًا يبكي ويَنْتَحِبُ بحُرْقةٍ شديدة . . وقال لنفسِه : ماذا أنتظِر ؟ ، هل أنتظِر لِأكونَ ضحيّةً مِثْلَهُم أو أَسْوَأ منهم ؟ . . هل أَظَلُّ علىٰ طريقِهم حتىٰ يُصِيبَني ما أَصَابَهُم ؟

ثم جَفَّتْ دمُوعُهُ فَجْأة ، واستجمعَ قُوَّتَهُ وقال : لابدَّ أَنْ أُغَيِّرَ حياتي هذه . . لابدَّ أَنْ أهربَ مِنْ المستقبل المُظْلِمِ الذي ينتظِرُني . . لابد لابد . . يا رب يا رب . .

ورَقَدَ صَاحِبُنا يُحاوِلُ انْ ينام ؛ ولكنّه لا يستطيع ، وظل يتقلَّبُ يومَهُ حتىٰ جاءَ المَسَاء .

وكالعَادة جاءَ أصحابُهُ « العادِيِّين » معَ أولِ ظلامِ الليل . . وهكذا أهلُ الظُّلْمَة يُحْيُونَ الظَّلام . . جاءتْ صُحْبةُ السُّوء . . وكالعادةِ خَرَجَ صاحِبُنا « العادِي » مَعَهُم . .

ولكِنْ هذهِ المَرَّةُ في السيارة وفي الجِلْسَة كانَ صاحِبُنا « العادِي » غَيْرَ عادِيّ . . كانَ سَاهِمًا شارِدًا ، لا يَضْحَكُ معهم علىٰ النُّكَتِ « العادِيَّة » ، ولا يُشارِكُ في « القَفَشَات » . . بل ظَلَّ في وُجُومٍ مُثِير . .

لَمْ يُفَارِقْ وَجْهُ الرَّجُلِ الطَّيِّبِ عينيه . . بل كُلَّما يتلفتُ تُفَاجِئُهُ صُورتُهُ مادًّا يدَهُ يقول : « استعِنْ باللّه ستَقْدِر » . . فيُشِيحُ بوجهِهِ مُعْرِضًا . . يُحَاوِلُ

أنْ يَنْدَمِجَ ويبدو عادِيًا مع صُحْبةِ السُّوء؛ ولكنهُ لا يستطيع.. لا تَلْبَثُ الصُورةُ أن تُفَاجِئَهُ مَرَّةً أُخرَىٰ.. «استعِنْ باللّهِ ستَقْدِر».. حَاوَلَ مِرَارًا أَنْ ينسىٰ ليلةَ الأمس بكلّ ما فيها؛ لكِنْ أَحَسَّ أَنّهُ يَتَعَذَّب..

وفَجأةً! انتفَضَ قائِمًا: أَستأذِن.. فَتَشَبَّثَتْ بِهِ شياطينُ الإنس.. «مَالَكْ؟؟!!».. «انت مش طبيعي النهاردة ليه؟؟!!».. يقول: لا شيء.. لابُدَّ أَنْ تقول.. وأَصَرَّ علىٰ كَلِمَة: لا شيء.. وحاولوا بكُلّ أساليبِ التَّرغيب والتَّرهيب أن يُثْنُوهُ عن قَرارِه؛ ولكنه أَصَرَّ أَنْ يَعُود.. وعادَ إلىٰ البيت..

ولَقِيَهُ الأَبُ المُحْبَط: خيرًا يا بُنَيّ؟!! هذا شيءٌ غيرُ عادِيّ.. ما الذي أتىٰ بك؟!!.. واحْتَضَنَ صاحِبُنا أَبَاه.. باكيًا وَهُوَ يقول: فِعْلًا سأُغَيِّرُ هذا الإنسانَ «العادِي»..

وانطلقَ إلىٰ غُرْفَتِه وانتقَىٰ بَعْضًا مِنَ ملابسِهِ.. وأسرعَ إلىٰ الحَمَّام فاغْتَسَلَ بصُورةٍ جَيِّدة، فكأنَّهُ لأَوَّلِ مَرَّة يَغْتَسِلُ في حياتِه.. يمحو عَارَ السِّنين.. يَغْسِلُ الوَحْلَ الذي سَقَاهُ جَسَدًا طالما عَصَىٰ اللّه.. أَحَسَّ أنهُ يتطهر.. يتطهرُ فِعْلًا.. وظَلَّ يَغْسِلُ جَسَدَهُ ويتشهَّد، ويَرفعُ رأسَهُ إلىٰ السَّقْفِ يرجو رَحْمَةً مِنَ السَّماء..

وعَدَّلَ مِنْ شَكْلِه، وخرج إلىٰ أُمِهِ مُنَكِّسًا رأسَه وهُوَ يقول: سامِحِيني يا أُمّي.. أينَ السَّجّادَة؟.. وبَكَتِ الأُمُّ وهِيَ تُتَمْتِمُ بالدعاءِ بالهِداية.. وبَكَىٰ الولدُ وهُوَ يقول: يا رب..

وقبل أن يُؤَذّنَ للفجر؛ خرجَ صاحِبُنا الذي تحوَّلَ إلىٰ إنسانٍ «غيرِ

عادِي » يَبحثُ عن الشَّيخِ في الطريقِ إلىٰ المسجد . . وظَلَّ ينتظرُهُ قُبيلَ المسجد حتىٰ رآه . . فارْتَمىٰ في حُضْنِهِ يُمَرِّغُ وجْهَهُ في لِحْيَتِهِ وهُوَ يقول : ادْعُ لي أيُّهَا الشَّيخ . . وفَرِحَ بهِ الشَّيخُ وهُوَ يَرَىٰ لَمعانًا جديدًا في عينيه ، وقالَ لَه : لبَّيْتَ نِدَاءَ الرَّحمن : أَحْبَبْتَنا فأَحْبَبْنَاك . . وَعَصَيْتَنا فأَمْهَلْنَاك . . وتركْتَنا فتركْنَاك . . وإن عُدْتَ إلينا قَبِلْنَاك . .

وقالَ صاحِبُنا : أُحِسُّ بِبُؤرَةِ نُورٍ انبثقتْ بداخِلي . . أرجو مِنَ اللَّهِ أَلَّا تَنطَفِئ . . ويتملَّكُنِي إِحْسَاسٌ جميل أرجو أَلَّا يضيعَ مِنِّي أبدًا . .

ودخلَ المسجدَ وصَلَّىٰ الصُبْحَ مَعَ الناس ، وقدْ مَلأتِ السَّعَادةُ جوانِبَه ؛ حتىٰ إنهُ يَكَادُ يَنفجِر . .

ويَالَهَا مِنْ صَلَاة . . . لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حياتِهِ يشعرُ بالحياةِ الحقيقية . . رَجْفَةٌ في قلبِه . . رَعْشَةٌ في جِسمِه . . انبهارٌ يَمْلأُ عينيه . . فَرْحَةٌ تَغْمُرُه . .

لِأَوَّلِ مَرَّة يَسْمَعُ القرآنَ وهُوَ يُتْلَىٰ عليه . . أَحَسَّ أَنَّ القرآنَ يغزو قلبَهُ وعقلَهُ وسَمْعَهُ وفِكْرَهُ وشعورَه . . أَحَسَّ بالآياتِ بَرْدًا وسلامًا عليه . .

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ يُحِسُّ بِالمَهابَةِ تَمْلأُ قَلْبَه وهُوَ يَضَعُ يَدَهُ اليُمْنَىٰ فوقَ اليُسْرَىٰ علىٰ صدرِه وهُوَ قائِمٌ في الصلاة في سُكُونٍ وثَبَاتٍ ، وهُدوءٍ وعدم حركة ، وتركيزِ فِكْر . . لِأَوَّلِ مَرَّة يَشْعُرُ أَنَّهُ سَعِيد . . أَنَّ لَهُ قَلْبًا يتحرَّك ويَدُق . .

أَحَسَّ أَنَّهُ ليسَ علىٰ الأرض ؛ بل في ملكوتٍ عُلْوِيٍّ جميل . .

ثُمَّ حِينَ رَكَعَ ووَضَعَ يديهِ علىٰ ركبتيه ؛ أَحَسَّ كأَنَّهُ يقولُ بُروْحِهِ لا بلسانِه : سبحانَ ربِّيَ العظيم . . أَحَسَّ بالخُضُوع للعَظَمَة . . أَمَّا حِينَ

سَجَدَ ؛ فإنَّهُ كَادَ يُغْمَىٰ عليهِ مِنْ حَلاوَةِ السُّجود وطَعْمِ التَّسْبِيح : سبحانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ . .

وفِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلاةِ يَتمنىٰ أَنْ يطولَ فلا ينتهي منهُ الإمام . . كأنَّهُ يَشْرَب وينْهَمِ شديدٍ . . . . يَسْتَمْتِع . .

وبِلَهفَةٍ في السُّجُودِ أَحَسَّ فِعْلًا بالرَّاحةِ والسَّعادةِ الحقيقية . . أَحَسَّ بمعنىٰ القُرْب . . وبَكَىٰ وبكَىٰ . . ودعا ودعا . . بِصدقٍ ومِنْ قلبِه . .

أَحَسَّ بِهذهِ الصَّلاة . . ولِأَوَّلِ مَرَّةٍ يُحِسّ ويَشْعُر . . قد يكون صَلَّىٰ قبلَ ذلكَ مَرَّاتٍ مُتفرِّقَة ؛ ولكنْ أَحَسَّ بالصَّلاةِ حقيقةً . . نعم : رَأَىٰ أُناسًا كثيرينَ يُصَلُّون ؛ ولِكنْ أَحَسَّ في هذهِ الصَّلاةِ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُصَلِّ قَبْلَهُ ، ولَمْ يُصَلِّ أحدٌ مِثْلَهُ . .

أَحَبَّ الصَّلاة . . اسْتَمْتَعَ بِكُلِّ ثانيةٍ مِنَ الثَّواني التي قضاها في هذهِ الصَّلاة . . فِعْلًا أَحَسَّ بالنَّعيم . . النَّعيمِ الحقيقي الرُّوحي . . والسعادة القلبية . .

وفَجأةً سَلَّمَ الإمام ، وانتهتِ الصَّلاة . . وتَنَهَّدَ بحُرْقَةٍ شديدة . . وجَزَّ علىٰ أسنانِهِ وحَمْلَقَ بعينيه . . ودَفَنَ وجهَهُ في يديهِ وهُوَ يقول : يا رب يا رب لا تَتْرُكْني . . لا تُضَيِّعْني . . خُذْنِي إليكَ يا رب . .

رجعَ إلىٰ آخِرِ المسجد ، وأَلْقىٰ رأسَهُ علىٰ الحَائِطِ وهُوَ يقول : أينَ كُنْتُ ؟؟ . . أينَ كانتْ كُلُّ هذهِ الرَّاحةِ غَائِبَةً عَنِّي ؟؟ . . وأقبلَ عليهِ الشيخُ بحُنُوٍّ بالِغ . . يَرْبِتُ علىٰ كَتِفَيْه . . ويَمْسَحُ علىٰ رَأْسِه . .

واعْتَدَلَ صَاحِبُنا في جِلْسَتِهِ وقال باكيًا: أيُّها الشيخ، هل يُمكنُ أنْ أتغيَّر؟.. تَظُنُّ أنِّي سأَصْلُح؟!!.. تعتقد أني سأستمِرّ؟!!.. هل الأَمْرُ سَهْل؟.. بعدَ كُلِّ ما صنعتُ هل لي مِنْ توبة؟.. هل سيقْبلُ ربِّي توبتي؟.. هل سيعينُني ربِّي ويُساعِدُني؟.. هل يُمْكِنُ أنْ يَرْضىٰ عَنِّي؟.. هل سأترِكُ المعاصي؟.. هل سأَقْوَىٰ علىٰ الطَّاعات؟.. هل سأَتَخَلَّصُ مِن الماضي؟؟!!.. هل سأتطهر.. هل سأُصْبِحُ رَجُلًا نظيفًا مُحْتَرَمًا؟!

هل.. وهل.. وهل.. وأَلْفُ هَلْ.. والشَّيخُ الطَّيِّبُ يَهُزُّ رَأْسَهُ فِي كُلِّ سُؤالٍ بِلِحْيَتِهِ الكَثَّةِ البيضاء، وابتسامتِهِ المُشْرِقَة: نعم.. نعم... وكانتْ عَيْنُ صاحِبِنا لا تُفَارِقُ وَجْهَ الشَّيخ.. فكُلَّما هَزَّ الشَّيخُ رأسَهُ وقال: نعم.. كأَنَّهُ يَفْتَحُ طَاقَةَ نُورٍ دَاخِلَ قلبِ الشَّاب وَيَهْدِمُ ماضي السِّنين..

وقال صاحبنا: إذًا كيفَ أبدأ؟.. ماذا أَصْنَعُ الآن؟؟!!..

قالَ الشَّيخ: تقولُ مَعِي الأذْكار، ثُمَّ نَتَعَلَّمُ القُرْآن..

والْتَزَم صَاحِبُنا.. وصَارَ في بيئتِهِ «العادِيَّة» إنسَانًا «غيْرَ عَادِي».. وواظَبَ علىٰ المسجد، وصَحِبَ الشَّيخ ليلَهُ ونَهارَه، ونَبَتَتْ لِحْيَتُهُ وعَفَتْ وَكَثُرَتْ، فطالَتْ وكَبُرَتْ.. وتَغَيَّرَتْ هيئَتُهُ وشِلَّتُه..

وَمَرَّتْ شُهور وسِنين؛ ولَكِنَّ صَاحِبَنَا يَشْعُرُ بينَ الحِينِ والآخَرِ أَنَّ هناكَ خطأً ما.. وخصوصًا عندما يرىٰ تَسهيلَ المعاصي الجديدة.. فبعدَ مَا كانتِ المَجلَّات التي تحمِلُ الصُّوَرَ العارية يَتِمُّ تهريبُها وتُمَرَّرُ مِنْ تَحْتِ الدِكَك و«البِنْشَات» بين الطَلَبَة والتَّلاميذ؛ صَارَ الأمْرُ أَسْهَل.. فَمِنَ «الإنترنت» إلىٰ «الدِّش».. والأسهلُ مِنْهُ «سي دي» الكومبيوتر..

فكان صَاحِبُنا يجَدُ نفسَهُ تُرَاوِدُهُ إلىٰ فعلِ تلكَ المعاصي . . فتذكِّرُهُ حيانًا بلذَّاتِها . . فإذا تَذَكَّرَ خشيةَ اللَّهِ تعلَّقَتْ نفسُهُ بالرَّجاءِ وقالتْ : «سوفَ تتوب وسيقبلُ اللَّهُ توبتَك» . . ويُزعِجُ صَاحِبَنا أنَّهُ يَجِدُ في داخلِهِ شَوْقًا إلىٰ تِلْكَ المعاصي . .

يَجِدُ نفسَهُ أَحْيَانًا يُدَنْدِنُ معَ أغنيةٍ يَسْمَعُهَا ، أو يَسْتَرْسِلُ مَعَ امرأةٍ تُحَادِثُه ، أو يُطَالِعُ صُوَرَ النساء ، أو يُتَابِعُ بَعْضَ بَرَامِجِ التِّلْفاز . . وكأنَّهُ لا يَمُتُّ للالتزامِ بِصِلَة . . ثم يُفِيقُ فيَسْتَرْجِعُ ويُحَوْقِل ويجتهدُ أنْ يتوب . . ثُمَ لا يَلْبَثُ أَنْ يَسْقُطَ وَيتَرَاجَع . .

وبَعْدَ مُرُورِ تِلْكَ السَّنَواتِ مِنَ الالتزام ، وقد سَمِعَ كثيرًا من الأشرِطَة ، وَحضَرَ كثيرًا مِنْ مجالِسِ العِلم ، وصَاحبَ كثيرًا مِنَ الإخوةِ والدُّعَاة ؛ ولكِنْ أوقاتُ فُتُورٍ عجيبة تَطُولُ وتَقْصُر . . ومَعَاصٍ باقتِرَافِ كبائر . . أو اغتِرَافِ لَمَم . . تَقِلُّ وتكثُر . . يجدُ عَجبًا . .

يَجِدُ نفسَهُ أَحْيَانًا في قِمَّةِ الالتزام والخشوع والإخبات ، والخشية ورِقَّةِ القلب ، وإسْبَالِ الدَّمْعَة . . وأحيانًا أُخَرَ يَجِدُ نفسَهُ فَجأةً مُتلَهِّفًا علىٰ المعاصي ، هَائِمًا علىٰ وجهِهِ في الغَفْلَة ، تَسْتَصْعِبُ عليهِ الطَّاعات ، مَعَ قسوةِ القلبِ وتَحَجُّرِ العَيْن . .

ثُمَّ إنَّ مَا يُزْعِجُهُ ويُؤَرِّقُه : أنَّهُ يُحِبُّ الدِّينَ ويُرِيدُ الخير ؛ ولكنَّ النفسَ الأَمَّارَةَ تُنَازِعُهُ دوْمًا ، وهُوَ يَخْشَىٰ هذا الهُبوطَ المُفَاجِئ . . أَنْ تَزْهَقَ رُوحُهُ علىٰ غَيرِ شيء . . يَجْلِسُ فَتَرَاتٍ سَاهِمًا يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ وهُوَ يقول : «مالي . . وبعدين . . وآخرتها . . يا رب يا رب» . .

وهُنَا تَنبَّهَ صاحِبُنا إلىٰ أَنَّهُ اكْتَسَىٰ ثَوْبًا جَمِيلًا طَاهرًا نَاصِعًا جَمَّلَ بِهِ ظَاهِرَهُ ؛ ولكِنَّ الوَحْلَ الذِي شَرِبَهُ في جاهليَّتِهِ ما زَالَ يُسَوِّدُ باطِنَه ، واجْتِرَارُ هذا الوَحْلِ يَحْصُلُ بينَ الحِينِ والحِين ، ووُجُودُهُ بداخِلهِ يُثْقِّلُ كَاهِلَه . .

إِنَّهَا رَوَاسِبُ السِّنين . . ومَآسِي الذِّكْرَيَات . . تُثِيرُهَا كَلِمَةٌ عَابِرَة سَمِعَها فِي طريق ، أو لَمْحَةٌ رَآهَا في مَكَان . .

فَعَرَفَ صَاحِبُنَا أَنَّه لابُدَّ لَهُ مِنَ التَّخَلُّصِ فَوْرًا مِنْ هذهِ الرَّوَاسِبِ السَّيِّئَة . . رَوَاسِبِ الجَاهِلِيَّة .

❊ ❊ ❊

المقدمة

بَعْضُ الكُتُبِ تُذَاقُ فَقَط

وبَعْضُها تُبْتَلَعُ بِسُرْعَة

وقَلِيلٌ مِنْهَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ المَضْغِ والهَضْم

أَحْسَبُ أَنَّ هَذَا الكِتَابَ يَحْتَاج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ، ونعوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أنفسِنا، ومِنْ سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلِلْ فلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَه إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١]

أمّا بَعْدُ:

فإنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كِتابُ اللَّه، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مَحدَثاتُها، وكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدْعَة، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَة، وكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّار.

ثُمَّ أمَّا بَعْدُ :

فَإِخوَتِي فِي اللَّه . .

والَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسْمَةَ ؛ إني أُحِبُّكُم في اللَّه ، وأسألُ اللَّهَ جَلَّ جلالُه أن يجمعَنا بهذا الحُبِّ في ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه ، اللَّهُمَّ اجعلْ عملَنا كُلَّهُ صَالِحًا ، واجعلْهُ لوجهِكَ خَالِصًا ، ولا تجعلْ لأحَدٍ غَيْرِكَ فيهِ شيئًا .

أحبتي في اللَّه . . «إنِّي أُحِبُّكُم في اللَّه» . .

هذهِ الكلمةُ ليستْ مِنْ سَجْعِ الدُّعاةِ ، ولا «لَازِمَة» من لوازمِ المُتكلمين ؛ وإنَّمَا أُشهدُ اللَّهَ أنَّني كُلَّمَا قُلْتُها ؛ أَجْتَهِدُ في تَحْرِيرِ الإخلاصِ فيها ، وعَاهَدْتُ نَفْسِي أنَّهَا إنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ قلبي فَلَنْ أقولَها . .

فالحقَّ أقول : إنني فِعْلًا أُحِبُّكُم في اللَّه - أَيُّها الإخوةُ المُلْتَزِمُون - حُبًّا جَمًّا ، وأنتم هَمِّي وشُغْلِي الشَّاغِلِ ؛ بل عَمَلِي ووظيفتي في هذه الدنيا ، اللَّهُ شهيدٌ بيني وبينكم ، يَشْهَدُ - وهُوَ عليمٌ بالسَّرَائِرِ والضَّمَائِرِ - أنَّنِي أُحِبُّكُم فِي اللَّهِ حُبًّا جَمًّا صَادِقًا خَالِصًا .

ومَا أَسْهَلَ الحُبَّ إذا كَانَ كَلامًا ؛ أمَّا أنْ يكونَ الحُبُّ التزامًا بالعمل علىٰ نَفْعِ المحبوب ، وإفادَتِهِ ، ونُصْحِه ، والصبرِ لَهُ وعليه ومَعَه ؛ فَإنَّ الحُبَّ يكونُ مُكَلِّفًا .

واعلموا - إِخْوَتَاه - أنِّي لَكُم وَالِد ، وأنتم مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الوَلَد ، والوَالِدُ يُحِبُّ أَنْ يكونَ وَلَدُهُ خَيْرًا مِنْه ، وخُصُوصًا إذا سَبَرَ الوالد كُنْهَ الحياة ، وعَرَفَ وعَالَجَ أَخْبَارَها ، وخَبَرَ وعَرَكَ أَحْوَالَها .

فَمَنْ يَغْتَرُّ بِالدُّنيا فإنِّي لَبِسْتُ بِهَا فَأَبْلَيْتُ الثِّيَابا
جَنَيْتُ بِرَوْضِها وَرْدًا وشَوْكًا وذُقْتُ بِكَأْسِهَا شُهْدًا وصَابا
فَلَمْ أَرَ غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمًا ولَمْ أرَ دُونَ بَابِ اللَّهِ بابا[1]

واعلموا أيضًا أنَّ الرَّائِدَ لا يَكْذِبُ أَهْلَه ، وليسَ مَنْ سَمِعَ كَمَنْ رَأَىٰ ، قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : «لَيْسَ الخَبَرُ كالمُعَايَنَة»[2] .

هذهِ الأُسُسُ الثلاثة ننطلِقُ بها في كتابِنا هذا ؛ فلا تَنْسَها أبدًا ؛ كي تُحسِنَ بِيَ الظَّنَّ ، وتقبلَ مِني القول :

أوَّلًا : أنِّي أُحِبُّكَ في اللَّه .

ثانيًا : أنِّي والِدُك ، ذو خِبْرَةٍ في الحياة والدَّعْوَة ، أُصَفِّي لكَ صَفْوَة هَذِهِ الخِبْرَة فَخُذْهَا هَنِيئًا مَرِيئًا .

ثالثًا : أنيّ أَشْعُرُ أنَّكَ تُبادِلُني حُبًّا بِحُبّ ، وتَتْبَعُنِي ؛ فَلَنْ أَكْذِبَك ، ولَنْ أتجمَّلَ لَك ؛ فالرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَه .

فلْيَكُنْ دافِعُنا هُنا : المُصَارَحَة ، والكَشْفُ عنِ العيوبِ والأخطاءِ بِوُضُوحٍ لِعِلاجِها .

وأنا أَعْلَمُ أني بذلكَ أَخُوضُ مِضْمَارًا صَعْبًا ، وأَدْخُلُ عُشَّ الزَّنَابِير . .

---

(١) الأبيات لأحمد شوقي .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٧١) ، وصححه الألباني (٥٣٧٤) في «صحيح الجامع» .

قد يُواجِهُني كَلام : لماذا نَنْشُر غَسيلنا الـ . . . ؟! . . أو قائِل : لماذا نُشْمِت بنا ؟! . . أو قائِل : ليس هذا هُوَ الأعَمُّ الأغْلَب . . أو قائِل : وأينَ حُسْنُ الظَنِّ والسَّتْرِ علىٰ المُسْلِمين ؟! . .

وكُلُّ هذا جميل ، وسيكونُ لَهُ مَأْخَذٌ قَوِيٌّ عِنْدَ بعضِ الناس ؛ لِأَنّنا نعيشُ في زمانِ النِّفاق الاجتماعي ، والرِّضا بالمُجامَلات الكاذِبة .

ولكني أقول : إنَّ هذهِ المُعالَجَة - التي سَتَراها في هذا الكتاب - هِيَ سُنَّةُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في تربيةِ الصَحابة - رِضْوانُ اللَّهِ عليهِم - علىٰ يَدِ المُرَبِّي الأَعْظَمِ مُحَمَّدٍ رسُولِ اللَّه ﷺ . . والأمثِلةُ علىٰ ذلك كثيرة .

انْظُرْ مَثَلًا إلىٰ قولِ اللَّهِ تعالىٰ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] . . مُعالَجة صريحة وقاطِعة . . بتوجيهٍ لجميعِ المؤمنين ؛ رَغْمَ أَنَّ الذينَ سألوا - كما قال المفسرون - هُمْ ثلاثَةُ نَفَر .

رَغْمَ ذلكَ أُنزِلَتْ سورةٌ مِنَ القرآن ، وهِيَ السورةُ التي تتحدثُ عَنْ الانتصارِ في غزوةِ بدر ، تكونُ هذه افتتاحِيَّتُها : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ . . وتُعَمِّمُ القضيةُ لِعِلاجِها بِحَسْم : ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ١-٢] . . خِطَابٌ شديد ، وتهديدٌ ووَعِيد ؛ لتربيةِ الجماعةِ المُسْلِمَةِ دونَ مُوارَبَة .

وفي مُعالَجة قضية يَوْمَ أُحُدٍ يقول اللَّهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]. . وأَيْضًا يقول اللَّهُ تعالىٰ في نفس الغَزْوَة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. . هذهِ طريقةٌ ربَّانيَّة في التربية. . لا تغْطِيَةَ علىٰ الأخطاء، ولا تَبرِيرَ لِلأخطاء؛ ولَكِنْ العِلاجُ الحَاسِمُ السَّرِيع.

وأيضًا في نَمُوذَج أَوْضَح:

ففي قِصَّةِ بني أُبَيْرِق وسَرِقَةِ الطَّعَامِ والدِرْع مِنْ بيتِ رِفَاعَةَ بْنِ النُّعْمَان. . وألْقَوْا بالتُّهْمَةِ علىٰ رَجُلٍ مِنَ اليهود يُقَال لَهُ: زَيْدُ بْنُ السَّمِين، فجاءَ اليهودُ إلىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَهْتِفُون، وجاءَ المسلمون مِنَ الأنصارِ يُدَافِعُونَ عَنْ بَنِيْ أُبَيْرِق، وقدَّمُوا أَسِيْرَ بْنَ عُرْوَةَ فخاطبوا رسولَ اللَّهِ ﷺ، وعَذَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المُسْلِمَ لِمَا يَرَىٰ مِنْ ظَاهِرِ الأَمْر، وأُلْقِيَتْ التُّهْمَةُ علىٰ اليهوديّ وهو بَرِيء؛ فَقَدْ وُجِدَ السِّلاحُ في بيتِهِ بعدَ أن ذاعَ الأمرُ وانتشر. . ألقاهُ بَشِيرُ بْنُ أُبَيْرِق في بيتِ اليهوديّ؛ فأنزلَ اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ عَشْرَ آياتٍ فِي القرآنِ تُتْلَىٰ ويُتعَبَّدُ بِها إلىٰ يومِ القيامة؛ لِيُبَرِّئَ اليهوديَّ مِنَ التُّهْمَة، ويُثْبِتَهَا علىٰ ذاكَ السَّارِقِ مِنَ المُسْلِمِين.

اقْرَأْ معي قولَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ في مُعَالَجَةِ هذهِ القضية. . وتأَمَّلْ معي الوُضُوحَ الكامِلَ والحَزْمَ الشَّدِيد في هذه المُعَالَجَة:

يقولُ الحقُّ جلَّ وعلَا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١٠٥-١١٥].

أَوَّلُهَا: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.. وفِيها: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.. وآخِرُها: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

وكانَ لقائلٍ أَنْ يقول: أَيُفْضَحُ المُسْلِمُ فَيَشْمَتَ المنافقون، وَيُبرَّأُ اليهوديُّ فَيَقْوَىٰ أهلُ الكِتاب؟!.. ولكِنَّ الإسلامَ تربيةٌ وتقويمٌ، وصَرَاحَةٌ دُونَ مُوَارَبَة؛ قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لنُوحٍ وحَكَىٰ قِصَّتَهُ للعَالَمين: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].. فلا مُجَامَلَةَ فِي الحَقّ، ولا تغطيةَ علىٰ الأخطاء.

يَقُولُ بَعضُ المُعَاصِرينَ في التَّعْلِيقِ عَلىٰ هذهِ الحَادِثَة:

«إنَّ المَسْأَلَةَ لَمْ تكنْ مُجَرَّدَ تَبرِئَةِ بريءٍ، تَآمَرَتْ عليهِ عُصْبَةٌ لتوقِعَهُ فِي الاتهام؛ إنما كانتْ أكبرَ مِنْ ذلك.. كانتْ المَسْأَلَةُ: تطهيرَ هذا المجتمعِ الجديد، وعلاجَ عناصرِ الضَّعْفِ البشريِّ فيه، معَ عِلاجِ رواسبِ الجاهليةِ فِي كُلِّ صُوَرِهَا.

ولقدْ كَانَ هناكَ أكثرُ مِنْ سببٍ للإِغْضَاءِ عَنِ الحادِث.. كانَ هناكَ سببٌ واضحٌ عَرِيض: أَنَّ هذا المُتَّهَمَ «يهودي».. «مِنْ يَهُوْد».. يَهُوْدُ التي لا تَدَعُ سَهْمًا مَسْمُومًا تَمْلِكُهُ إِلَّا أطلقتْهُ في حَرْبِ الإسلامِ وأهلِه.. يهودُ التي يَذوقُ منها المسلمون الأَمَرَّين.. يهودُ التي لا تَعْرِفُ حَقًّا ولا عَدْلًا ولا نَصَفَة، ولا تُقِيمُ اعتبارًا لِقِيمةٍ واحدةٍ مِنْ قِيَمِ الأخلاقِ في التعاملِ معَ المسلمينَ علىٰ الإطلاق.. فَلْنَتَغَاضَ عَنْ تَبْرِئَتِهِ لِكَوْنِهِ عَدُوًّا يَهُوْدِيًّا.

وكَانَ هناكَ سببٌ آخَر: وهُوَ أَنَّ الأمرَ فِي الأنصار.. الأنصارِ الذينَ آوَوْا ونَصَرُوا؛ فالبراءة أَلْيَقُ بِهِم.. وكانَ هنالِكَ سببٌ ثالث: هُوَ عَدَمُ إعطاءِ اليهودِ سَهْمًا جديدًا يوجِّهونَهُ إلىٰ الأنصار؛ وهُوَ أَنَّ بعضَهم يَسْرِقُ بَعْضًا، ثُمَّ يَتَّهِمُونَ اليهود! وهُمْ لا يَدَعُوْنَ هذهِ الفُرْصَةَ تَفْلِتُ لِلتَّشْهِيرِ بها.

ولكِنَّ الأمرَ كانَ أكبرَ مِنْ هذا كُلِّه . . كَان أمرَ تربيةٍ لإِقامةِ منهجٍ حقيقيٍّ فِي تربيةِ أفرادِ المسلمين . . وحتى يَثْبُتَ هذا المنهجُ في حياتِها الواقعيةِ واقعيًّا . . حتىٰ يُمَحِّصَ كِيانُها تَمْحِيصًا شديدًا ، وتَنْفُضَ عنهُ كُلَّ خبيئةٍ مِنْ ضَعْفِ البشر ، ومِنْ رواسبِ الجاهلية .

واختارَ اللَّهُ سبحانه هذا الحادثَ بذاتِه ، فِي ميقاتِه . . معَ يهوديّ . . مِنْ يهودَ التي يذوقُ مِنْها المسلمونَ الأمَرَّينِ إذْ ذاكَ في المدينة ، والتي تُؤَلِّبُ عليهمُ المشركين ، وتُؤَيِّدُ بينَهُمُ المنافقين ، وتَرْصُدُ كُلَّ ما في جُعْبَتِها مِنْ مَكْرٍ وتَجْرِبَةٍ وعِلْمٍ لحرب هذا الدِّين .

وفي فترةٍ حَرِجَةٍ مِنْ حياةِ المسلمينَ في المدينة ، والعداواتُ تُحِيطُ بِهم مِنْ كُلِّ جانب . . ووراءَ كُلِّ هذه العداواتِ يَهُود . . اخْتارَ اللَّهُ هذا الحادثَ في هذا الظَّرْفِ لتربيةِ المسلمين ، وتَثْبِيتِ منهجِ مُعَالَجَةِ الأخطاء دُوْنَ تأخِير .

ومِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ هناكَ مَجالٌ لِلَّبَاقَةِ ، ولا لِلْكِيَاسَة ، ولا لِلسِّيَاسَةِ ، ولا لِلْمَهَارةِ فِي إِخْفَاءِ ما يُحْرِج ، وتَغْطيةِ ما يَسُوء . . ولَمْ يَكُنْ هناكَ مَجَالٌ لِلْمَصْلَحَةِ الظاهريَّة لِلْجَمَاعَةِ المسلمة ، ومُرَاعَاةِ الظُروفِ الوقتيةِ المُحِيطةِ بها !

هناكَ كانَ الأمرُ جِدًّا خَالِصًا ، لا يحتملُ الدِّهَانَ ولا التَمْوِيه ! . . وكانَ هذا الجِدُّ هُوَ أَمْرُ هذا المنهجِ الرَّبَانيِّ وأُصُولِه » اهـ .

وهذه طريقةٌ نبويَّةٌ أيضًا .. فانظر إلىٰ رسول اللَّه ﷺ حين كان يَبْلغه أَمْرٌ مِنَ الأمورِ عَنْ شخصٍ ما .. يَصْعَدُ المنبرَ ويُصَرِّحُ في الناس : «**مَا بَالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا وكذا ، أو يقولونَ كذا وكذا**»(١) ..

ولمَّا أخطأ أبو ذرٍّ رضي الله عنه في حَقِّ بلالٍ رضي الله عنه حِينَ عَيَّرهُ بأُمِّه ؛ قالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**إنَّكَ امرُؤٌ فِيكَ جاهِلِيَّة**» ؛ ثم عَمَّمَ ﷺ القولَ في نُصْحِ المسلمين بقولِه : «**إِخوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحتَ أَيْدِيكُمْ ؛ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحتَ يَدَهِ فَلْيُطعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»(٢).

إذًا لا يَنبغي أنْ يَنْبَرِيَ لنا أحدُهم فيقول : ولِمَ كُلُّ هذا ؟! .. فنقول - بعدَ أنْ بَانَ لنا أَنَّ هذهِ هِيَ الطريقةُ الأولىٰ التي رَبَّىٰ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عليها الجماعةَ المسلمة في بدايةِ أمْرِ الدَّعْوَةِ : كَانَ لابُدَّ لنا مِنْ هذا .. فَضْحِ الأَخْطَاءِ ، وتبيينِ المثالِب ، وزَجْرِ المُتَهاوِن .

إنَّنا في زمنٍ زادتْ فيهِ الفتن ، والأمْرُ الأخطرُ والأمَرّ تهاونُ المسلمين وضَعْفُهُم ، والأدْهَىٰ مِنَ الأمَرِّ أَنْ تَجِدَ هذا التهاوُنَ يَتفرَّغُ لَهُ أشخاصٌ مِنَ الدُّعاةِ علىٰ أبوابِ جَهَنَّمَ يُؤَصِّلِونَ لَهُ ويُرَوِّجُون ..

فُتِحَتْ لهم مَجالاتُ الإعلام مسموعةً ، ومقروءةً ، ومَرْئيَّة ؛ ليصنعوا للمسلمينَ إسلامًا «مودرن» يُوافِقُ هَوَاهُم ، والْتِزَامًا «خَمس نجوم» يُرضي

---

(١) انظر علىٰ سبيل المثال : البخاري (٤٥٦) ، (٧٥٠) ، (٦١٠١) .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) .

شهواتِهم، وتَدَيَّنَا «لازج» و«فِري» و«رِيلاكس»؛ لكي يُحبُّوا الدِّين
ويلتزموا بهِ؛ ولكِنْ أَيُّ دِينٍ هذا؟!، وأيُّ التزامٍ هذا؟!، باطل يؤدِّي إلىٰ
باطل، وحَسْبُنَا اللّٰهُ ونِعْمَ الوكيل.

ومعَ كثرةِ هذا التمييع ضَاعَ المُسْلِمُونَ بينَ الشُّبهاتِ والشَّهَوات؛ فما
مِنْ مَسألةٍ في الدِّين ابْتِدَاءًا مِنَ التَّوحيد، ووُصُولًا إلىٰ اللحية والإسبال
والحجاب؛ إلَّا عليها شُبُهات ومَعَارِك، مُرُورًا بتحكيمِ الشريعة وغيرِها
مِنَ الأُصولِ والثوابتِ التي هِيَ الإسلامُ حَقُّ الإسلام.

وضاعَ الحقُّ بينَ شبهاتِ المتكلمينَ الذينَ يَعْرِضُونَ الباطلَ «ممكيجًا»
علىٰ أطباقٍ مِنْ فِضَّةٍ وذهب، وبينَ حَقٍّ بَاهِتٍ أَضَاعَهُ أَهْلَهُ وأساءوا
عَرْضَهُ، وليسَ لهم مِنَ الإمكاناتِ والمواهبِ ما يَمنحُهُم حَقَّ عَرْضِ الحَقِّ
كما يَنبغي..

وفَوْقَ كُلِّ هذا: الضغوطُ الداخليَّة والخارجية؛ مِنَ الكَبْتِ والقَهْرِ
والظُّلْمِ والأَذَىٰ.. فنشأتْ في دُنيا الالتزام أنواعٌ مِنَ الالتزام، وظهرتْ
الأمراضُ المعدِيَةُ والخبيثة.. أمراضٌ كثيرةٌ ومتعَدِّدة، خفيفةٌ وخطيرة؛
منها كَوَجَعِ الضِّرْس، ومنها كَسَرَطَان القلب عِياذًا بِاللّٰهِ تعالىٰ -، وأنا
أُرْجِعُ كُلَّ هذا إلىٰ أَصْلِ الالتزام ومَصْدَرِهِ من رواسبِ الجاهلية القديمةِ
التي عَاشَهَا هؤلاءِ المُلْتَزِمُون.

إنَّني كثيرًا مَا أقولُ في خُطَبٍ ومحاضراتٍ يَحْضُرُها أَمَامِي - في
مِصْرِنا العزيزة وغيرِها من بلاد العالم - الآلافُ.. أقولُ: مِنْ أينَ جِئْتُمْ

يا شباب؟!!. ، لا الإِعلامُ يُرَبِّيكُم ، ولا البُيوتُ تَصْنَعُكم ، ولا المناهجُ الدراسيَّةُ تُخْرِجُكُم . . مِنْ أينَ جِئتم يا شباب؟!. .

أَقُولُها مُسْتَغْرِبًا . . وأنا مُتَأكِّدٌ أنَّ تِلْكُمُ الخَمْسَ : الإِعلامُ والبيئةُ والمجتمعُ والبُيوتُ ومناهِجُ الدِّراسة ؛ صَنَعَتْ هؤلاءِ الشَّبابِ صُنْعًا آخَرَ علىٰ الباطل ؛ ولَكِنْ أَبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِه ، ويُبْطِلَ البَاطِلَ ولو كَرِهَ الكافرون .

فَأَتَىٰ هؤلاءِ إلىٰ حظيرةِ الالتزامِ رَاضِيْنَ مُخْتَارِينَ راغبين ؛ ولكنهم أَتَوا بِكُلِّ رواسبِ الجاهلية التي عاشوها . . أفكار هِيَ أقربُ إلىٰ الأوهام ، وتصوراتِ هِيَ أقربُ إلىٰ الخيال ، وَمُعْتَقَدَاتِ عجيبة وغريبة عن حِسِّ الإِسلام . .

ومعَ حَجْبِ الدُّعَاةِ ، وصُعُوبَةِ أو استحالةِ وجُودِ البيئة التربوية التي يتربَّىٰ فيها هؤلاء ، ونُدْرَةِ أو انعدامِ وجُودِ المربِّينَ المُخْلِصينَ الصَّادقين أصحابِ الخِبْرَةِ والبصيرة . . في كُلِّ هذِهِ الظروف ؛ ظَلَّتْ تِلكَ الرَّواسِبُ الجاهليَّةُ تَفْشُو وَتَنْتَشِرِ . . حتىٰ طَغَتْ علىٰ الالتزام الحقيقي ؛ فكانَ هذا المَسْخُ المُشَوَّه .

ووَاللَّهِ . . وبِاللَّهِ . . وتَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ نتخلَّص مِنْ تِلْكُمُ الرَّواسب ، وَيَتِمُّ تطهيرُ القلبِ منها جملةً واحدة ؛ لَيَكُونَنَّ الخطرُ الأكبرُ مِنْ داخلِ فِئاتِ الملتزمين أنفسِهِم أعظمَ بكثيرِ مِنَ الخطرِ الخارجيّ . . والواقع يَشْهَد . .

ففِي هذِهِ السَّنَواتِ القليلةِ الماضية ؛ رأينا وعِشْنا تجارِبَ مَرِيرة في الواقع المشهود . . ابتداءًا مِنَ الجماعات المختلفة فِي مِصرِ ، مُرُورًا

بتجربةِ الانتخاباتِ في الجَزَائِر ، وُصُولًا إلىٰ سُقُوطِ كَابُل وبغداد . . فكانَ لابُدَّ مِنْ مُصَارَحَةٍ واضحةٍ تامَّة ، ومُعَالَجةٍ جِذْرِيَّة ، قَبْلَ أَنْ تَغْرِقَ السَّفِينةُ بِنا جميعًا .

إنَّنِي - واللّهِ . . ورَبِّ الكَعْبَةِ . . أخشىٰ أَنْ أَمُوتَ ويموتَ الآخَرُون مِنْ جيلٍ عَرَفَ حقيقةَ الالتزام ؛ فَيَنْشَأَ ناشِئُ الفِتيانِ مِنا علىٰ مَا كانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ ، . . علىٰ ما رَآهُ من الالتزام الأَعْرَج . . والتَّدَيُّنَ الأَهْوَج . . وطريقَ العِلم المُهَوَّش . . فَيَنْسَىٰ الأصل ؛ ولِذَلكَ كانَ هذا الكِتاب . .

هُوَ نقطةُ بِداية ، أو مساهمةٌ مُتواضِعةٌ فِي علاجِ هذا المرضِ ، وإصلاحِ هذا الوَضْعِ الخطير . .

فرجاءً - أيُّها الأَحِبَّة - لا تَغْضَبُوا مِنْ خُشُونَةِ كلامي ، ولا تَمْتَعِضُوا مِنْ عَرْضِ الأمراضِ بهذِه الطريقة ؛ فإنَّني واللّهِ - واللّهُ شهيدٌ بَيْنِي وبينَكُم ما أُرِيدُ إلا الإصلاح ما اسْتَطَعْت ، وما توفيقي إلا باللّهِ ، عليهِ توكلتُ ، وإليهِ أُنِيبُ . ثُمَّ إنَّ أَمْرَ التخلُّصِ مِنْ رواسبِ الجاهليةِ ؛ كانَ مَبْدَءًا اندثر ، وكانَ أَصْلًا ولكن غابَ عَنْ حياتِنا اليوم . . ومَهْمَا غابَ فسيَظَلُّ مِنْ أُصُولِ هذا الدِّين . . نَعَمْ : هُوَ أَصْلٌ أَصِيلٌ رَبَّىٰ عليه النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صلىٰ اللّه عليه وسلم أصحابَه - رضي اللّه عنهم .

وانْظُرْ مَعِي إلىٰ هذِه النَّمَاذِج لهم - رُضْوَانَ اللّهِ عليهم أجمعين - ؛ لِيَسْتَقِرَّ الأَمْرُ يقينًا عِنْدَك ، ويَسْهُلَ عليكَ عندما تراهُ في واقعِ الآخَرين . .

لَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ منهم إذا دَخَلَ في الإسلام ؛ خَلَعَ علىٰ عَتَبَةِ الإسلامِ كُلَّ ماضِيهِ في الجَاهِلِيَّة ؛ فكَانَ يَشْعُرُ في اللَّحْظَةِ التي يَجِيءُ فِيها إلىٰ

الإسلام أَنَّهُ بَدَأَ عَهْدًا جديدًا مُنفَصِلًا كُلَّ الانفصالِ عن حياتِهِ التي عاشَها في الجَاهِلِيَّة .

بَلِ الأعجبُ مِنْ ذَلك أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ مِنْ كُلِّ ما عَهِدَهُ في الجاهليةِ مَوْقِفَ المُسْتَرِيبِ الشَّاكِّ الحَذِرِ المُتَخَوِّف ، الذي يُحِسُّ أَنَّ كُلَّ هذا رِجْسٌ لا يَصْلُحُ للإسلام . . بهذا الإِحساسِ يَتَشَرَّبُ تَعاليمَ الإسلام ، ويكونُ إنسانًا جديدًا . . مَوْلُودٌ جديد . . تارِيخُ ميلادِهِ هُوَ تارِيخُ دُخُولِهِ هذا الدِّين . .

النَّمَاذِج :

١- عَنْ عَوْفِ بنِ مالكِ الأشجعِيّ قال : «كنا نَرْقِي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسولَ اللّه ، كيفَ تَرَىٰ في ذلك؟ ، فقال : **«اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُم ، لا بأسَ بالرُّقَىٰ ما لَمْ يَكُنْ فيه شِرْك»**[1] . . انظر إلىٰ الحذر! . . يسأل عن الرُّقَىٰ . . وهكذا عن كل شيء : يا رسولَ اللّه ، كيفَ تَرَىٰ ذلك ؟

٢- وهذا أبو الهَيْثَم بنِ التَّيِّهان رضي الله عنه في بيعةِ العقبة ، وقفَ فقال : يا رسولَ اللّه ، إنَّ بيننا وبينَ الرِّجالِ حِبالًا وإنا قاطِعُوها[2] . . هذا فَهْمٌ منهُ أَنَّهُ إذا أرادَ الدُّخولَ في الإسلام ؛ قَطَعَ علىٰ بابِهِ كُلَّ حِبالِ الجاهلية .

٣- وهذا عبدُ اللّهِ بنِ أُبَيّ سَلُول يَبلغُهُ أَنَّ رسُولَ اللّهِ ﷺ يَمُرُّ بأبيهِ وهُوَ في ظِلِّ أُطُمٍ (مكان مرتفع) فيقول : غَبَّرَ علينا ابنُ أبي كَبْشَة . فيأتي النبيَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٦٠) .

ﷺ فيقول : يا رسول اللّه ، والذي أكرمكَ ، لَئِنْ شِئْتَ لأتيتُكَ برأسِه ، فيردُ عليه النبيُ ﷺ قائِلًا : «لا ، ولكِنْ بِرَّ أباكَ وأَحْسِنْ صُحْبَتَه»[1] .

٤- وحَنْظَلَةُ بنُ أبي عامِر يستأذنُ رسولَ اللّهِ ﷺ في قتلِ أبيهِ ؛ لمَّا آذىٰ الرسُولَ ﷺ والمسلمين ، فيَنْهَاهُ النبيُّ ﷺ عَنْ ذلِك[2] .

قضيةٌ مُسَلَّمَةٌ عِنْدَ الصَحَابِي . . أَنْ يجتهدَ كُلَّ الاجتهادِ في قَطْعِ حِبَالِ الجاهلية ، وخلع الماضي تمامًا بِكُلِّ ما فيه مِنْ سَوْءاتٍ وظُلُمات ، بمجردِ دخولِهِ في الإسلام ؛ انطلاقًا مِنْ قول اللّهِ تعالىٰ : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢]

فإذا ضَعُفَ مَرّة، أو وقع في الإثمِ مَرّة ، أو اجْتَذَبَتْهُ نفسُهُ مَرّة ؛ شَعَرَ - في الحَال - بالإثمِ والخطيئة، وأَحَسَّ في قَرَارَةِ نفسِهِ أنّه يَحتاجُ إلىٰ التطهير ، فيعودَ لِيحاولَ مِنْ جديدٍ أَنْ يكونَ وِفْقَ الهَدْي ؛ حتىٰ يَخْلُصَ تَمامًا لِرَبِّه . . وهكذا ينبغي - أَيُها الإِخْوَةُ - أَنْ نَفْهَمَ القضيةَ كما فَهِمَهَا الصَّحابة - رُضْوَانُ اللّهِ عليهم .

---

(١) ذكره الهيثمي (٩/ ٣٠٨) في «المجمع»، وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .

(٢) ذكره الحافظ (١/ ٣٦٠) في «الإصابة»، وقال : رواه ابن شاهين بإسناد حسن .

مِنْ مُنْطَلَقِ كُلِّ ما سبق كَانَ منهجَنا في هذا الكتاب . . أَنْ نَقْتَلِعَ جُذورَ ويُذُورَ الجَاهِلِيَّةِ مِنْ عُرُوقِ قلوبِنا تمامًا . . لِنعيشَ حقيقةَ الإيمان . . وحقيقةَ الالتزام .

قالَ ابنُ القَيِّم : «ولا يَذُوقُ العَبْدُ حَلاوةَ الإِيمَان ، وطَعْمَ الصِّدْقِ واليَقِين ؛ حَتىٰ تَخْرُجَ الجَاهِلِيَّةُ كُلُّها مِنْ قَلْبِه»[1] .

أَحِبَّتِي في اللَّه . .

إِنَّنا مُطَالَبُونَ دَوْمًا بِمُرَاجَعَةِ أخطائِنا ، ومُحَاسَبَةِ أنفسِنا . . مُطَالَبُونَ دَوْمًا بِضبطِ مواقِفِنا ، وتطهيرِ أنفسِنا ، وإصلاحِ قلوبِنا وذواتِنا .

لا تَخْجَلْ وتَرْفُضَ الإصلاحَ لِقِدَمِ عَهْدِكَ بالالتزام ؛ بلِ اصْدُقْ واعْتَرِفْ ، ولا تَسْتَحِ مِنَ العِلاجِ وإنْ طَالَ عُمُرُكَ وَبَعُدَ عَهْدُكَ .

يقول ابن القيِّم – عليهِ رحمةُ اللَّه – : «سَمِعْتُ شيخَ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ في آخِرِ حياتِهِ المباركةِ يقول : «أنا مُنذُ أربعينَ سَنَةٍ أُصَحِّحُ إِسلامي كُلَّ يوم ، وما أَظُنُّ أَنَّني أَسْلَمْتُ إِسْلامًا جَيِّدًا إِلَى الآن» اهـ .

فهيَّا بِنا نُصَحِّحْ إسلامَنا ، ونُطهِّرْ قلوبَنا ، ونضبطْ نوايانا . . لا تتكَبَّرْ – أَخِي – علىٰ الحَقّ ، ولا تَأْبَ التغيير . . اكتشِفْ عيوبَكَ وتعالَ لنتعاونَ علىٰ صلاحِ الأَحْوَال ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْفَعَ الغُمَّةَ عَنْ جميع الأُمَّة .

وأنا لا أَزْعُمُ ولا أَدَّعِي لنفسي العِصْمَةَ والصَّوَابَ في كُلِّ ما أقولُ وأَكْتُب ؛ ولكِنِّي أجتهدُ ولا آلُو في نُصْحِ إِخْوَتِي وأَحِبَّتِي . . فما كَانَ مِنَ

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ٢٨١) .

صَوَابٍ فهُوَ مِنْ توفيقِ اللَّهِ ومَدَدِه.. وهُوَ المُسْتَعَانُ وعليهِ التُّكْلَان..
وما كَانَ مِنْ خَطَإٍ فمِنْ نفسِي الأمَّارَةِ ومِنَ الشيطان.. وأنا بَصِيرٌ بِظُلْمِ
نفسي، شَهِيدٌ بِجِنَايَتِها.

ورَحِمَ اللَّهُ امْرَءًا أعانَ علىٰ الصَّوَاب، أو دَلَّ عَليه، أو دعا لي بِظَهْرِ
الغَيْبِ بخَيْر؛ فَأَمْرُ التَّرْبِيَةِ مَحَلُّ اجتهادٍ، وعِلاجُ عَوَارِ عَصْرِنا صَعْبُ
المِرَاس.. فكُنْ مَعِي - أُخِيّ - ولا تَكُنْ عَلَيّ؛ لعلَّ اللَّهَ ينفعَ بنا أُمَّةً
مَكْلُومَةً مَنْكُوبَةً تَحتاجُ لِكُلِّ مَنْ يَمُدُّ يَدَ العَوْن.

إِلْمَاحَةٌ

اعْتِقَادُنَا: إنَّ اللُّغَةَ العربيَّةَ دِين، تَحَدُّثًا وكِتَابَةً وفَهْمًا؛ قال تعالىٰ:
﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة:

«اعْلَمْ أَنَّ اعتيادَ اللُّغةِ يُؤَثِّرُ في العقلِ، والخُلُق، والدِّين، تأثيرًا قويًّا
بيِّنًا، ويُؤَثِّرُ أيضًا في مُشَابَهَةِ صَدْرِ هذه الأُمَّةِ مِنَ الصحابةِ والتابعين،
ومُشَابَهَتُهم تَزِيدُ العقلَ والدِّينَ والخُلُق.

وأيضًا - فَإِنَّ نَفْسَ اللُّغَةِ العربيَّةِ مِنَ الدِّين، ومَعْرِفَتُها فَرْضٌ واجب؛
فإنَّ فَهْمَ الكِتابِ والسُّنَّةِ فَرْضٌ، ولا يُفْهَمُ إلَّا بِفَهْمِ اللُّغةِ العربيَّة،
ومَا لَا يَتِمُّ الواجبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ واجب»[1].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، بتحقيق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد.
السعودية، ط٣، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م، (٤٦٩/٢).

ولمَّا كانَ قَوْمُنا مع عَرَبِيَّتِهِم بُعَدَاءَ عَنْهَا وهِيَ عَنْهُم بَعيدة، غُرَبَاءَ عَنْهَا وهِيَ عَنْهُم غَرِيبَة؛ حَرِصْنَا عَلَىٰ ضَبْطِ مُعْظَمِ كَلِمَاتِ الكِتَاب؛ لتقويمِ اللِّسَان؛ «فإنَّ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ شِعَارُ الإِسْلَامِ وأَهْلِه، واللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الأُمَمِ التي بِهَا يَتَمَيَّزُون»[1]. كما حَرِصْنَا في كَثِيرٍ مِنَ المَوَاضِعِ عَلَىٰ الألفاظِ العَرَبِيَّةِ الجَزِلَة، والأَسَالِيبِ اللُّغَوِيَّةِ الرَّفِيعَة.

ولَكِنْ أيضًا في بعضِ المَوَاضَع اضْطُرِرْنَا لاستعمالِ بعضِ الألفاظِ الدَّارِجَة غَيْرِ الفصيحة، أو الغربيَّةِ الأعجميَّةِ المُنتشرة، وذلكَ مِنْ بَاب: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].. فَتَنَزَّلْنَا أَحْيَانًا لِنَأْخُذَ بِيَدِ الطَّرِيح؛ لِنَرْفَعَهُ إِلَىٰ عَلْيَاءِ المَقَامَة.

قال شيخُ الإسلام - عليهِ رحمةُ اللَّه -:

«فالكَلِمَةُ بَعْدَ الكلمةِ مِنَ العَجَمِيَّة، أَمْرُهَا قريب، وأَكْثَرُ مَا يَفْعَلُون (أي السَّلَف) ذلك؛ إمَّا لِكَوْنِ المُخَاطَبِ أعجميًا، أو قد اعتادَ العَجَمِيَّة، يُريدون تقريبَ الأفهامِ عليه. كما قال النبيُّ ﷺ لأُمِّ خالد بنتِ خالد بن سعيد بن العاص - وكانت صغيرةً قد وُلِدَتْ بأرضِ الحبشة لمَّا هاجرَ أبوها -، فَكَسَاهَا النبيُّ ﷺ خَمِيصَةً وقال: «يا أُمَّ خالد، هذا سَنَا - والسَّنَا بِلُغَةِ الحبشة الحَسَن»[2][3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيميّة، (٢/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٤٥).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، (٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨).

وقَدِ اصْطَلَحَ أهلُ اللُّغةِ[1] علىٰ أَنَّ الكاتِبَ إذَا أَرَادَ أَنْ يُثْبِتَ كَلِمَةً أَعجميَّةً أو عَامِّيَّةً ؛ فَلْيَضَعْهَا بينَ تنصيصٍ هكذا : « » ، أو بينَ قَوْسَيْنِ هكذا : ( ) . وقد اتَّبَعْنَا - بفضلِ اللَّه - هذا المَلْحَظ ولم نَحِدْ عنه . . ونرجو أَنْ نُعْذَرَ في ذلك لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَ بالكِتَابِ الجميع .

أَسألُ اللَّهَ الهدايةَ والتَّوفيق ، والسَّدَادَ والرَّشَاد . . اللهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا أعمالَنَا ، وثَقِّلْ بها مَوَازِينَ حَسَنَاتِنا ، وأَعِنَّا عَلَىٰ أنفسِنا . . وارزُقْنَا الإخلاصَ في القولِ والعمل ، والسِّرِّ والجَهْر . . آمين . . آمين . .

وصَلَّىٰ اللَّهُ وسَلَّمَ وباركَ علىٰ سيِّدِنا مُحمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُم بِإِحسانٍ إِلىٰ يومِ الدِّين . وآخِرُ دَعْوَانا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين .

وكتب

أبو العلاء

محمد بن حسين آل يعقوب

عَفَا اللَّهُ عنه وغَفَرَ له ولِوَالِدَيْه وزوجاتِه وأولادِهِ والمُسْلِمِينَ والمُسْلِمَات

القاهرة : ليلة الاثنين ، الخامِسَ عَشَر مِنْ جُمَادىٰ الآخِر ١٤٢٥هـ

٢/٨/٢٠٠٤م

* * *

(١) راجع في ذلك كُتُبَ الإملاء والتَّرْقِيم ، وأبحاث مَجْمَع اللُّغة العربية بالقاهرة .

تمهيد

أَحِبَّتِي في اللَّه . .

هذا الكتابُ لَهُ قِصَّة . . كَمَا أَنَّ كُلَّ شيءٍ في الحياةِ لَهُ قِصَّة . . قِصَّتُهُ هِيَ قِصَّة كُلِّ واحدٍ مِنَّا . . ويَكْفِي لاستِرْجَاعها كاملةً أَنْ تَستعيدَ شريطَ حياتِكَ الآن . . إِنَّها قِصَّةُ الالتزام . . الْتِزَامِكَ أَنْت . . أَنْتَ أَخِي في اللَّه .

قِصَّةُ القَبْضِ علىٰ الجَمْر . . والاختراقِ بِه . . قِصَّةُ الغُرْبَةِ والوَحْشَة . . والوَحْدَةِ والانفِرَاد . . إِنَّهَا قِصَّتُنا مع الشُّبُهَات والشَّهَوَات . . والصبرِ والابتلاءات . . إِنَّها قِصَّةُ تَوْبَتِي ورُجُوعِي إلىٰ اللَّه . .

نَعَمْ : إِنَّها تاريخي يَوْمَ وُلِدْتُ مِنْ جَدِيد . .

ولِلتاريخِ فلسفة . . كما يقولون . . تُسمىٰ «فلسفةُ التاريخ» ، يَستخرِجُ بها المُؤَرِّخونَ القواعدَ والأُصُولَ مِنْ خِلالِ السُّنَنِ الثابتةِ المُتَكَرِّرَة ؛ فيُذْكِرُونَ أسبابَ الضَعْفِ ، وعَوامِلَ النهوضِ والقُوَّة .

لِذلكَ نحنُ نَحتاجُ إلىٰ وقفهٍ جَادَّة ؛ لِنَسْتَقْرِئَ أسبابَ السُّقُوطِ والضَعْفِ في التزامِ هذهِ الأيام ، وعواملَ النهوضِ والقُوَّةِ ؛ لنستطيعَ استخراجَ الفوائدِ والعِبَرِ والعِظات ، التي تُعِينُ علىٰ إخراجِ جِيلِ التَّمْكِين ، وإعْدَادِ جِيلِ النَّصر .

فخُذْ بِيَدَي أُخَيَّ وآخُذُ بيدِك . . تَعَالَ ساعِدْنِي وأُساعِدْك . . اجلسْ معي نتدارسْ أخطاءنا مُنْذُ التزمنا . . تعال . . ها هِيَ يَدِي أَمُدُّها إليك . .

أنا أَخُوكَ فلا تَبْتَئِسْ . . لا تَبْتَئِسْ إِنْ ظَهَرَ عَوارُنا . . فأنا لكَ سِتْر . . وأَنْتَ عَلَيَّ حَفِيظ .

إخوتاه . .

قامتْ الصَّحْوَة . . وظَهَرَ الشَّبابُ المُتَسَنِّن . . وبعدَ مُرورِ أعوامٍ وسنينٍ علىٰ عُمْرِ هذهِ الدَّعْوَة . . تَحَتَّمَ علينا أَنْ نَقف . . لننظرَ ماذا خَلَّفْنَا وراءنا . . هل حقائقَ أم رُسُومًا؟! . . ماءً أم سَرَابًا بِقِيْعَة؟! . . لابُدَّ أَنْ نلتفتَ لِنرىٰ : هل سَنَحْصُدُ ما خضَّرْناه أم أنَّ الزَّرْعَ هَشِيمٌ تَذْرُوهُ الرِّياح؟!

ومِنْ قَلْبِ الوَاقعِ الآن . . وبِكُلِّ يقظةٍ وثَبات . . نستطيعُ وبوضُوح . . أَنْ نُشَخِّصَ أمراضَ هذِه الصحوةِ المُزْمِنَة . . لِنقِفَ معَ كُلِّ مَرَضٍ وَقْفَةً جَادَّةً مُتَأَنِّيَة . . وكَفَانَا مَا ضَاعَ مِنَّا .

إخوتاه . .

آهٍ علىٰ زمانٍ تَعِبْنَاه . . آهِ علىٰ ليالٍ سَهِرْناها . . آهٍ . . آه . . أَيْنَ أَكْبَادِي؟! . . أَيْنَ أَوْلادِي؟! . . أَيْنَ إِخْوَتِي؟! . . أَيْنَ صَحْوَتِي؟! . . أَيْنَ أنا؟! . . أنا المُلْتَزِم؟! . . أَيْن؟! . . أَيْنَ أنا مِنْكُم وأَيْنَ أَنْتُم مِنِّي؟!!

إخوتاه . .

تعالَوْا يُلَمْلِمْ بعضُنا علىٰ بعض . . تعالَوْا إلىٰ الْتِزَامِنا وصَفَائِنا . . تعالَوْا إلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بينَنَا . . تعالَوْا . .

تعالَوْا نَشْكُرْ نِعمةَ الالتزام!! . . نَعَم – واللّهِ – : الالْتِزَام نِعمة . . لابُدَّ مِنْ شُكْرِها ؛ كي نزدادَ الْتزامًا علىٰ التزام . . قال رَبِّي – وأَحَقُّ القولِ قولُ رَبِّي – : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

تعالَوْا نَشكُرُها بالتَّطْهيرِ والتَّغْيير . . بالتَّخْلِيَةِ والتصْفِيَة . . بالتنقِيَةِ والتَّحْلِيَة . . تعالَوْا . . تعالَوْا إنْ أَرَدْتُمْ فِعْلًا أَنْ تكونوا رِجَالًا .

إخوتاه . .

إنَّ لِكثيرٍ مِنَ المُلْتَزِمينَ قِصَصًا مَأسَاوِيَّة . . وحِكَايَاتٍ مُحْزِنَة . . ومَوَاقِفَ مُؤْسِفَة . . لذلكَ دَعُوني الآنَ أُصارِحُكُم . . وإنْ ضَغَطْتُ على مَوْضِعِ الألمِ ؛ فاصبروا . . اصبروا ولا تَهْرَبوا . . فَإنَّ المُخْلِصَ شُجَاعٌ يَقْبَلُ النَّقْدَ . . وقَدْ قالوا : مَنْ لا يُخْطِئ لا يَتَقَدَّم . . والذَّكِيُّ العَاقِل هُوَ الذِي يَتَعَلَّمُ مِنَ أخطائِه .

إخوتاه . .

أَجِيبُونِي بِكُلِّ صِدْقٍ وأَمَانَة : هلْ نحنُ أُمَّةٌ تُنْصَر ؟ . . هل يَحِقُّ لِهذا الجِيل - بِكُلِّ ما يَعْرِفُهُ كُلُّ واحدٍ مِنَّا مِنْ عَوَارِ نفسِهِ - أَنْ يَأْمَلَ في التَّمْكِينِ لَهُ في الأرض ؟!

أخي الحبيب . . سُؤَالِي لكَ بِمُنْتَهَىٰ الصَّرَاحةِ والصِّدْقِ والوُضُوح : هل أنتَ مُلتَزِمٌ حقًّا ؟ . . وماذا يَعْنِي الالْتزامُ عِندَكَ ؟ . . فَلَعَمْرُ اللهِ ، كَمْ مِنْ مُسُوخٍ بَالِيَةٍ في الواقع تَهْتِفُ باسمِ الالْتزام وهُوَ مِنْها بَرَاء !! . . وكَأَنَّ الالْتزام صَارَ مَفْهُومُهُ التَّقَيُّدَ بِصورةٍ مُعَيَّنَةٍ في المَظْهَر ، ولا أَثَرَ لِهذا الالْتزامِ في الجَوْهرِ والمَخْبَر ؟! . . ما حقيقةُ الْتِزَامِك ؟!

إنَّني أَتَسَاءَل : عَلَامَ الْتَزَمَ مَنْ ادَّعَىٰ أَنَّهُ مُلْتَزِم ؟! . . عَلامَ عَاهَدَ اللهَ ؟ وبَايَعَ رَسُولَه ﷺ ؟! . . ماذا تَرَكَ مِنَ الجَاهِلِيَّات ؟! ، وبماذا استبدَلَها مِنَ أُمُورِ الإسلام ؟!

أَخِي . . هل تعتقدُ أنَّ الالْتزامَ يَعْني أَنْ تَخْلَعَ ثِيابَ المتُشبهينَ بالكفارِ وتَرْتَدِي ثِيابًا تتناسبُ مَعَ شَرْعِ اللَّهِ تعالىٰ فقط؟!

هل تعتقدُ أنَّ الالْتزامَ هُوَ المحافظةُ علىٰ بعضِ شرائعِ الإسلامِ دُونَ بعض؟!؛ فتصليَ أو تصومَ أو تَحُجَّ أو تقرأَ القرآنَ؛ لكِنْ لا تطلبُ العلم، ولا تَبْذُلُ جَهْدًا في الدَّعْوة، فَضْلًا عَنْ أَنْ تقومَ الليلَ وتصومَ النَّوافِلِ؟!

قَدْ لا تَصِلُ الرَّحِمَ مَثَلًا، ولا تُغِيثُ مَلْهوفًا، ولا تُطْعِمْ مِسْكِينًا، ولا تُعِين ذا الحَاجَة، ولا تُهَذِّبُ أخلاقَكَ السَّابقة، فَتَظَلَّ كما كُنْتَ كَسُولًا، أو فَظًّا، أو غَضُوبًا لِنفسِكَ، أو أَنَانِيًا تُؤْثِرُ نَفْسِك، أو حَرِيصًا علىٰ الدنيا تَعْبُدُها، والشهواتِ تَتَفَنَّنُ فيها وتُتَابِعُها . . تَفْعَلُ كُلَّ هذا وتَظُنُّ أَنَّكَ مُلْتَزِم؟! . . سُبْحَانَ اللَّهِ العظيم!! كَيْف؟!

عِبادَ اللَّه . .

إِنَّني أَظُنُّ - واللَّهِ - أنه لَنْ يَرَىٰ المسلمونَ عِزًّا طالمَا هذهِ الشَّوائِبُ تَنْخُرُ فيهم، لَنْ ينالُوا نَصْرًا وهذهِ الرَّواسِبُ تَكْمُنُ في قلوبِهم؛ لِأَنَّ شَأْنَ الإِسلامِ أَنْ يُغَيِّرَ مِنَ طبائِعِهم، ومِنْ سُلُوكِيَّاتِهم؛ حتىٰ يكونوا علىٰ قَلْبِ رَجُلٍ واحد، قَلْبِ صَافٍ مِنْ غَوائِلِ الجَاهلية، قَلْبٍ سَالمٍ مِنْ الآفاتِ الدُّنيوية والشهواتِ الحيوانية . . فاللَّهُمَّ أَصْلِحْ فَسَادَ قُلُوبِنا.

نعم - إخوتاه -: ثَمَّةَ آفاتٌ خفيةٌ وظاهِرةٌ وراءَ هذا الحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ الطريق . . إنَّ مِنْ وراءِ ذلكَ - بِدايةً -: فَهْمًا سَقِيمًا لطبيعةِ الالْتزام، ودُنُوَّ هِمَّةٍ عَجيبًا ومُرِيبًا وغَرِيبًا، وإِشْكَالًا في اعتيادِ الحياةِ في ظلِّ الإسلامِ، ووَهْمًا بإمكانيةِ الجَمْعِ بينَ إرادةِ الدنيا وإرادةِ الآخِرةِ في سياقٍ واحد،

وعَدَمَ استعدادٍ للتضحيةِ بأيِّ شيء.. هذهِ هِيَ بَعْضُ الأسباب وهناك غيرُها كثيرٌ.

إنَّ البعضَ يُريدُ دِينًا مُفصَّلًا على وَفْقِ هواهُ ورَغَبَاتِه، يُريدُ دِينًا لا يُغَيِّرُ مِنْ نَمَط حياتِهِ التي اعتادَها، يُريدُ دِينًا ودُنْيا، يُريدُ أنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ وأنْ يَعيشَ في الدُّنيا أيضًا ولابد عَيْشَ المُتْرَفِين.

هَكَذا صَارَ الدِّينُ في مَخْيلَته مجموعةً مِنَ الطُّقُوسِ والشَّعَائِرِ إذا أدَّاهَا فهُوَ مَنْ هُوَ؛ أمَّا أنْ يكونَ للدِّينِ تَدَخُّلٌ في إدارَةِ حياتِه، وضَبْطِ أهدافِهِ، والتَّحكُم في آمالِه؛ فَلَا!!

ولَعَلَّ هذهِ الأفكارَ اسْتَشْرَتْ في عصرِنا الحاليّ بسببِ هذهِ الفلسفةِ العَلْمَانيةِ الدَّاعِيةِ لِفَصْلِ الدِّينِ عَنِ الحياة، وتَصَوُّرِ أنَّ الحريةَ الشخصيةَ هِيَ فِعْلُ الإنسان ما يُريدُ وما يُحِبّ، بشرطِ ألا يتدخلَ في الحريةِ الشخصيةِ المَكْفُولَةِ للآخَرِين، وهكذا زَعَمُوا، بل واقتنعوا أنَّهُ إذا اجتمعتْ إرَادةُ الناسِ على شيء - ولو كانَ مُخَالفًا لتعاليمِ الدِّين - فالعِبْرَةُ بإرَادةِ الناسِ لا الدِّين.

وبالطبعِ بسببِ قنواتِ الاتِّصالِ المُنتشرة، ووسائلِ الإعلامِ المُختلفَة؛ صَارَ التَّحَكُّمُ في أهواءِ الناسِ سَهْلًا ومضمونًا، وليسَ لأهلِ الأهواءِ مِنْ مَرَدَةِ شياطين الإنس والجن إلَّا أنْ يُمَارِسُوا ضُغُوطًا إعلاميَّةً بسيطةً لِتحويلِ قِبْلَةِ الناسِ عمَّا تعلَّمُوه مِنْ أمورِ الدِّين التي لا تُوَافِقُ هَوَىٰ أسْيَادِهِم؛ فيبدأ الناسُ في التطبعِ علىٰ هذِه الرَّذائِلِ، ثُمَّ يَتَلَقَّوْنَها بِالْقَبُول.

يقولُ رَبِّي - وأَحَقُّ القَوْلِ قَوْلُ رَبِّي جَلَّ جَلالُه -: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن

يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧-٢٨] .

ولِلأَسَفِ الشَّدِيد !! . . وَجَدُوا مَنْ يُسَانِدُهُم باسم الإِسلام، ويَسْتَخْرِجُ لَهُمُ الأَدِلَّةَ والقِصَصَ المُؤَيِّدَةَ لافتراءاتِهم، وصَدَقَ فِيهِم قَوْلُ الحبيبِ المُصْطَفىٰ ﷺ : «**دُعَاةٌ علىٰ أبوابِ جَهَنَّم، مَنْ أَجَابَهُم إليها قَذَفُوهُ فِيها**»، وذَكَرَ وَصْفَهُم فقال : «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنا، ويَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، لَهُمْ قُلُوبُ شياطين في جُثْمَانِ إنسان**»(١) . . ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨-١٩].

أَشْهَد : صدقَ اللَّهُ ورسولُه : هم من جِلْدَتِنا ويتكلَّمونَ بِأَلْسِنَتِنا : يبغونها عِوَجًا - سامحهم اللَّه .

وإِنْ أردتَ أمثلةً فَحَدِّثْ ولا حَرَج . . بِدايةً مِنْ خَلْعِ المرأةِ المُسلمةِ لِحجابِها، ومُرُورًا بالاختلاطِ الفاحِش الذي تَفَشَّىٰ في المجتمعاتِ الإِسلاميةِ بين الرجال والنساء؛ فزادتْ الفواحشُ والمُنْكَرات، وصَارَ وجُودِ العارياتِ في شوارعِ المسلمينَ أَمْرًا مَفْرُوغًا مِنْه، والمُنْكِرُ لذلكَ شاذٌّ ومُنْحَرِف، ومُتَخَلِّفٌ عن أفكارِ «التَّقَدُّمِيِّين !!»، وصاحبُ فِكْرٍ أُصُولِيٍّ رَجْعِيّ !!، لا إلهَ إِلَّا اللَّهُ يا قَوْم : ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

وهكذا صَارَتْ عاداتُ الناسِ تُخَالِفُ شَرْعَ اللَّهِ تعالىٰ، مَعَ أَنَّ الأَصْلَ أَنَّ هذهِ المجتمعاتِ الإِسلاميةِ قَدْ تَرَبَّتْ في كَنَفِ الإِسلام، وتطبعتْ بِتعاليمِ هذا الدِّين . . فمِنْ هاهنا أتاها ما تَرَوْنَ مِنْ لُوثَاتِ الجاهلية

---

(١) جزء من حديث متفق عليه، البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

بالتدريج .. فكيف خَرَجَتْ المجتمعاتُ مِنْ عَبَاءَةِ التَّدَيُّن الجميل؟، نعم : كيف؟؛ لَعَمْرُ اللَّهِ! إِنَّهُ لَسُؤَالٌ يَسْتَحِثُّ عَلَىٰ إجابة .. **والجَوَاب :**

أَوَّلًا : بِإِلْفِ الخَطَإِ؛ وكثرةُ المَسَاس تُفْقِدُ الإِحْسَاس، ثُمَّ مُشَاهَدَةِ التمثيلياتِ والأفلامِ العربيةِ والغربية، وعُرُوض الأزياء العالميةِ والمَحَلِّيَّة، ودُخولِ «الدِّش» والقنواتِ الفَضَائيةِ المُرِيبَة، ومواقعِ «الانترنت» المَاجِنَة، وأَوْكَارِ الشياطينِ المُفْسِدَة، وكَمَا قالَ اللَّهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١] .. فَخُطْوَةٌ خُطْوَة خَلْفَ الشيطان؛ تَعَرَّىٰ النَّاسُ مِنَ لِبَاسِ التَّقْوَىٰ الذي هُوَ خَيْر.

ولِهذا صَارَ المُلْتَزِمون حَقًّا يَعيشونَ غُرْبَةً شديدة، فَهُمْ يُواجهونَ تَيَّارًا مُضَادًّا عَاتِيًا، وقَلَّ مَنْ يتحملُ لَفْحَ الجَمْرةِ القَابِضِ عليها .. فتخلَّفَ الكثيرون، ولَمْ يَثْبُتْ إِلَّا مَنْ صَدَقَ اللَّهَ ورسولَه، قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

ولذلِكَ كُلِّه؛ وَجَبَ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليومِ الآخِرِ؛ أَنْ يَهُبَّ لِنَجْدَةِ إخوانِه، والحفاظِ عليهِم مِنْ هذا التَّلَوُّثِ الشَّهَوَانِيِّ والفِكْرِيِّ الذي سَادَ المجتمع .. بِصَبْرٍ وحِكْمَة .. قالَ اللَّهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧].

نِدَاء . . إلىٰ الدُّعَاةِ والمُرَبِّين :

أُحِبُّ أَنْ أَلْفِتُ نظرَ السَّادةِ المَشَايخ والدُّعَاةِ والعلماءِ مِنْ أهل عصرنا ، وكُلّ صاحبِ دعوة ، وكُلّ مُرِيدٍ لخيرِ هذهِ الأُمَّةِ وَرِفْعَتِها . . إلىٰ ضرورةِ الإسراعِ في معالجةِ أمراضِ الشَّبَابِ المُلْتَزِمِين . . فإنَّ **«التَّخَلُّصَ مِنْ رَوَاسِبِ الجَاهِلِيَّة»** أحدُ أخطرِ المسائلِ التي ينبغي أَنْ يُوْلِيَها الدُّعاةُ إلىٰ اللَّهِ تعالىٰ جُلَّ اهتمامِهِم ؛ فَيَعْمَدُونَ إلىٰ الكشفِ عَنْ مظاهرِها وأسبابِها ، وكيفيةِ علاجِ هذهِ الآفاتِ المُسْتَتِرَةِ بتيقُّظٍ وحِكْمَة .

وقَدْ أَعَانَني اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بفضلِهِ وتوفيقِهِ علىٰ تَشْخِيصِهَا في هذا الكِتاب . . فَلْيَقِفِ الدُّعَاةُ عِنْدَها طويلًا لِيقتلِعُوها بِحكمةٍ ورحمة . . وجِدِّيَّة . . وإخلاصٍ للَّهِ تعالىٰ .

«لقد كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يُواجهُ المشركينَ بِالدعوةِ إلىٰ اللَّهِ وَحْدَه . وهُوَ لَمْ يَكُنْ يُواجهُ في نفوسِهِم مُجَرَّدَ عقيدة . ولو كَانَ الأمرُ كذلكَ لَكَانَ أيسرَ كثيرًا . فإنَّ عقيدةَ الشِّرْكِ المُهَلْهَلَةِ التي كانوا عليها لَمْ تَكُنْ مِنَ القُوَّةِ والثَّبَاتِ بحيثُ يَصْمُدُونَ بها هكذا لِعقيدةِ الإسلامِ القوِيَّةِ الواضحةِ البسيطة . إنَّمَا كانتْ المُلابَسَاتُ التي تُحِيطُ بالعقيدةِ وبالموقفِ هِيَ التي تقودُ إلىٰ تِلكَ المُعَارَضَة العنيدَة . التي شَهِدَتْ بها الرِّواياتُ التَّاريخية ، وحَكَاها القرآنُ في مواضعَ مِنهُ شَتَّىٰ . . كانتْ المكانةُ الاجتماعية ، والاعتزازُ بالقِيَمِ السَّائدةِ في البيئة ، وما يَتَلَبَّسُ بِها كذلكَ مِنْ مَصَالِحَ ماديَّة . . هِيَ العنصرُ الأوَّلُ الذي يقودُ إلىٰ التَّشَبُّثِ بالعقيدةِ الواهيةِ الظاهرةِ البُطْلَان ، في وَجْهِ العقيدةِ القَوِيَّةِ الظاهرةِ الاستقامة . .

ثُمَّ كانتْ صُوَرُ الحياةِ الجاهليةِ ومَتَاعُها ولَذَائِذُها وشَهَوَاتُها إلىٰ جانبِ ذلكَ تَزِيدُ المُقَاوَمَةَ والعِنَادَ والتَّأَبِّيَ علىٰ العقيدةِ الجَديدة، وما فيها مِنْ اتجاهاتٍ أخلاقية وقِيَم رفيعة، لا تَسْمَحُ بانطلاقِ الغَرَائِزِ والشَّهَوَات؛ ولا بالحياةِ العابثةِ المَاجِنَةِ المُطْلَقَةِ مِنْ كَوَابِحِ الأخلاق.

وهذهِ الأسبابُ - سَوَاءٌ ما يتعلَّقُ منها بالمكانةِ والقِيَم الاجتماعية والسُّلْطانِ والمالِ والمَصَالحِ، وما يتعلَّقُ منها بالإِلْفِ والعَادةِ وَصُوَرِ الحياةِ التقليدية، وما يتعلَّقُ منها بالانطلاقِ مِنَ القِيَمِ والقيودِ الأخلاقية -؛ كانتْ قَائِمةً في وجهِ الدَّعْوَةِ الأُولَىٰ، وهِيَ هِيَ قائمةٌ في وَجْهِ الدَّعْوَةِ في كُلِّ أرضٍ وفي كُلِّ جِيل. وهِيَ تُمَثِّلُ العناصرَ الثَّابِتَةَ في مَعْرَكَةِ العقيدة، التي تَجْعَلُهَا مَعْرَكَةً عنيدةً لا تَنتهي مِنْ قَرِيب، وتجعلُ مَشَاقَّهَا وتَكَالِيفَها والثَّبَاتَ عليها مِنَ أَعْسَرِ التَّكَالِيف.

ومِنْ ثَمَّ ينبغي للدُّعاةِ إلىٰ دِينِ اللَّهِ في أيِّ أرضٍ وفي أيِّ زمانٍ أَنْ يَعيشوا طويلًا في الحقيقةِ الكبيرةِ الكامنةِ في تِلكَ الآيات(١)، ومُلَابَسَاتِ نُزُولِها علىٰ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَهِيَ مُلَابَسَاتُ معركةٍ واحدةٍ يَخُوضُها كُلُّ صَاحِبِ دَعْوَةٍ إلىٰ اللَّه، في أيِّ أرضٍ وفي أيِّ زمان!» اهـ.

حَضَرَاتُ السَّادَةُ المَشَايِخ.. أَوَدُّ أَنْ أُنبهَكُمْ أَيضًا إلىٰ أَمْرٍ مُهِمٍّ جِدًّا وخَطِير.. قالَهُ صَاحِبُ كِتاب «٣٠ طريقة لِخدمةِ الدِّين»:

---

(١) الآيات هِيَ قولُ اللَّهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٦].

يقول ـ أصلحه الله :

«إنَّ بَعضَ الدُّعَاةِ - لِلأسفِ الشديد!! - يَتعاملُ معَ الشَّبَابِ بِسَذَاجَةٍ شديدة، ويَظُنُّ أَنَّهُ بِنصيحةٍ عَابِرَةٍ يُمْكِنُه أَنْ يُنْجِبَ لنا صلاحَ الدِّينِ الأيوبي، والواقعُ الأليمُ يَشْهَدُ بِأَنَّ مُشْكِلاتِ الشَّبَابِ صَارَتْ مِنَ التَّعْقِيدِ بِمَكَان؛ بِحيثُ لا تَحْتَمِلُ الدَّوْرَ الدَّعَوِيَّ الهَزِيلَ الذي كُنَّا نقومُ بِهِ أيامَ كَانتْ الفِتَنُ تَمْشِي الْهُوَيْنَىٰ؛ بل يَحتاجُ الأمرُ إلىٰ مُعَاجَلَةٍ خَاطِفَة، ومُعَالَجَةٍ راقيةٍ مُتَأَنِّيَةٍ تَتَنَاسَبُ طَرْدًا معَ حَجْمِ الفِتَنِ التي يَتعرَّضُ لَهَا الشَّبَاب.

وقَدْ أَسَرَّ إليَّ الكثيرُ مِنَ الشَّبَابِ بِأَنَّهُم كانوا على شَفِيرِ جُرُفٍ هَارٍ، وكانوا يحتاجونَ إلىٰ يَدٍ قَوِيَّةٍ وعَزْمٍ أكيدٍ يَجْتَثُّ لَوْثَةَ الفُجُورِ مِنْ قُلُوبِهم؛ ولكِنَّهُم وجدوا بُرُودَةً مِنْ بعضَ الدُّعَاةِ في فَهْمِ حَجْمِ مُشْكِلاتِهم؛ بل بُرُودَةً في عِلاجِها، إلىٰ القَدْرِ الذي حَمَلَهُم علىٰ تَفْضِيلِ المُضِيِّ في الفُجُورِ عَنْ أَنْ يَخُوضَ تَجْرِبَةَ نُسُكٍ غيرِ واضحةِ المَعَالم.

نَعَمْ.. إنَّهُ واقعٌ أليمٌ يجبُ أن نعترِفَ بِهِ قبلَ أَنْ نبدأَ العلاج، وإلَّا فَلَا علاج، إننا علىٰ وشك الدخول في قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، إنْ لَمْ نَكُنْ دَخَلْنَا بالفِعْل.

ودَعْوَةُ الشَّبَابِ لابُدَّ لَهَا مِنَ التَّصَوُّرِ الواضِح؛ فيجبُ أَنْ يحدِّدَ المُرَبِّي المَرَاحِلَ التربويةِ التي سيقومُ بها معَ الشَّاب، ويحدِّدَ لِكُلِّ مرحلةٍ مُتَطَلَّبَاتُها ويتوقَّعَ مشكلاتِها، ولا يَظَلَّ أَسِيرَ رُدُودِ الأفعالِ والظُّروف، ثُمَّ إنَّ ذلكَ

المُرَبِّي يُطَوِّرُ نفسَه ويبحثُ كُلَّ يومٍ عَنْ أفضلِ السُّبُلِ لِلرُّقِيِّ بمستوىٰ مَنْ يُرَبِّيهِ ويُعنَىٰ بِشأنِه .

ومِنْ صفاتِ المُرَبِّي الصَّادِقِ أَنْ يَعتقدَ أُبُوَّتَهُ لِكُلِّ مَنْ يُرَبِّيه ، فَيُسْبِغَ عليهم مِنَ الشَّفَقَةِ والحِرْصِ مِثْلَ ما يُسْبِغُ علىٰ نَسْلِهِ بل أكثر ، وليسَ بمُرَبٍّ مَنْ يَرَىٰ أبناءَهُ صَرْعَىٰ الفِتَنِ والشهواتِ وهُوَ عَنْ ذلِكَ عَمٍ وغَافِل .

إنَّ المُرَبِّيَ الصَّادِقَ مَنْ يَأْرَقُ في الليلِ مِنْ حَالِ مَنْ أَسَرَتْهُ فِتنةٌ ، ويُضْنِيهِ رَهَقٌ إيمانيٌّ أَلَمَّ بِبعضِ مَنْ يُرَبِّيه ، وتَهْمِي عَبرَاتُهُ إذا رَأَىٰ شَبِيبَةَ الإسلامِ يَتخنَّثُون ، وعَنْ نَهجِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَتَنَكَّبُون .

إنَّ الدَّوْرَ التَّرْبَوِيَّ إذا لَمْ تُصَاحِبْهُ حُرْقَةٌ علىٰ حَالِ الشَّبَاب ، وهَمٌّ علىٰ مشكلاتِهِم ، وقَلَقٌ علىٰ أحوالِهِم ؛ فَسَيَظَلُّ دَوْرًا رتِيبًا بَارِدًا ، عَدِيمَ النَّفْع ، مَبْتُورَ الأَثَر .

وقَدْ بدأَ دُعَاتُنا بِحَمْدِ اللَّهِ يُدْرِكُونَ أهميةَ وجودِ الطَّرْحِ الإسلاميِّ السَّلَفِيِّ في عِلاجِ مشكلاتِ الشَّبَاب ؛ فَصِرْنَا نَرَىٰ المُؤَلَّفَاتِ التي تُعْنَىٰ بِعلاجِ الواقعِ الشَّبَابِيّ .

ولا شَكَّ أَنَّ هناكَ كثيرًا مِنَ الكُتُبِ التي عُنِيَتْ بالجانبِ التَّرْبَوِيِّ للشَّبَاب ؛ ولكِنَّها تَفْتَقِدُ لِسِمَاتٍ ضرورية حتىٰ تُؤْتِيَ أُكُلَها ويبدو صَلاحُها ، أهمها : الاختصارُ وعَدَمُ التَّطْوِيل ، والتَّرْكِيز والوُضُوح في طَرْحِ المشكلات ، والصَّرَاحَةُ وعَدَمُ المُوَارَبَةِ في عِلاجِها ، والشَّبَابُ لا يُعْجِبُهُم اللَّفُّ والدَّوَرَان - كما يُقال - ؛ فَحَرِيٌّ أَنْ نُخَاطِبَهم بِمَا يَعْرِفونَ ويعقلونَ ويُفَكِّرُون .

وبإزاءِ أهميةِ وُجودِ الطَّرْحِ الإسلاميِّ المُوثَّقِ ؛ يَبْرُزُ دَوْرُ الدَّاعِيةِ المُبَاشِرِ في التَّرْبِيَة ، وحِرْفَتُهُ في التَّعَرُّفِ علىٰ مشكلات الشَّبَابِ وعِلاجِها ، وإِثْمَارِ الطَّاقَاتِ الهَائِلَةِ لَدَيْهِم بِما يَعُودُ بِالنَّفعِ علىٰ الإسلامِ والمُسْلِمِين .

ومِنَ المُهِمِّ جِدًّا أَنْ يكونَ الدَّاعِيَةُ علىٰ بَصِيرَةٍ بواقعِ الشَّباب ، وبِحقيقةِ مُشْكِلاتِهِم، وأسبابِها، والعِلاجَاتِ المُقْتَرَحَةِ؛ حتىٰ لا يَتعرَّضَ لِمُحَاوَلاتٍ فاشِلَة أثناءَ دَوْرِهِ الدَّعوِيِّ معَ الشَّبَاب .

ومِنْ مُقْتَضَيَاتِ هذهِ البَصِيرَةِ أَنْ يكونَ الدَّاعِيَةُ المُتَصَدِّرُ لِدَعْوَةِ الشَّبَابِ لَيِّنَ المَعْشَر ، وَاسِعَ الصَّدْر ، ذا شَفَقَةٍ بالغةٍ وتَحْنَانٍ مُؤْثِر ، عَليمًا بِمُشْكِلاتِ فترةِ المُرَاهَقَةِ إجْمَالًا ، خَبِيرًا بما يدورُ في كَوَالِيسِ الشَّبَابِ تفصيلًا ، دقيقَ المُلاحَظَةِ لما يَسمَعُهُ ويَرَاه ، مَاهِرًا بأساليبِ الاستنباطِ والتَّحْلِيلِ لِمَا لَدَيْهِ مِنْ معلومات ، لَدَيْهِ حَظٌّ وافِرٌ مِنْ فِرَاسَةِ المُؤمِنِ وإحساسِهِ الصَّادِقِ المُرْهَفِ الذي نَادِرًا ما يُخْطِئُ لَهُ تَوَسُّمٌ .

وقَدْ تُدَاعِبُ وتَقول : إِنَّها صِفَاتُ سَاحِرٍ ولَيستْ صِفَاتُ مُرَبٍّ ؛ فَأَقُول : أَجَلْ ، إِنَّ المُرَبِّيَ أَشْبَهُ ما يكونُ بِسَاحِرٍ ؛ ولكِنَّهُ السِّحْرُ الحَلال الذي أَوْدَعَهُ اللَّهُ في قُدُرَاتِ مَنْ امتلأَ قلبُهُ شَفَقَةً علىٰ حالِ المسلمين .

وجُلُّ الصِّفَاتِ المُؤَثِّرَةِ التي في المُرَبِّي تَحْصُلُ بالاكتسابِ والدُّرْبَة ، والخِبْرَة ، والتَّجْرِبَةِ المُتكَرِّرَة ، والقليلُ هُوَ الذي يَحْصُلُ بالقواعِدِ والعُلُوم - نَظَرِيِّها وعَمَلِيِّها - ؛ لِأَنَّ المُرَبِّي ليسَ كالطَّبيبِ الذي يتعاملُ مع أدواءٍ وأَدْوِيَةٍ معروفة ، وجَسَدٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكْتَشِفَ ما فيهِ عَبْرَ الأَشِعَّاتِ

والتَّحَالِيل ؛ بل إِنَّهُ يَتعاملُ مَعَ نَفْسٍ ورُوح لا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَزْعُمَ الإِحَاطَةَ بِمَا فِيها .

لِذلكَ فَإِنَّ المُرَبِّي يَحْتَمِي بِأَوَامِرِ الشَّرْعِ التي هِيَ زَكَاةٌ للنفوسِ ولا رَيْب ، ويتسلَّحُ بالوَحْيِ المُطَهِّرِ دَوَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ رُوحِيّ ، وحَلًّا لِكُلِّ مُشْكِلٍ اجتماعيٍّ نَفْسِيّ ، ولَعَلَّ هذهِ الصِّفَةَ هِيَ التي تُكْسِبُ المُرَبِّيَ مِصْدَاقِيَّةً لَدَىٰ الخَلْقِ أكثرَ مِنَ مَصْدَاقِيَّةِ الطَّبِيب ؛ لِدَرَجَةِ أَنَّ المُرَبِّيَ قَدْ يَكتسِبُ الأُبُوَّةَ الرُّوحِيَّةَ بِمَمَارَسَةِ ذلكَ الدَّوْرَ الإِصْلَاحِيّ ، وإِنَّها لا شَكَّ مَنْزِلَةٌ هُوَ حَرِيٌّ بِها .

فالمُرَبِّي هُوَ الذي يَقُودُ الإنسانَ إلىٰ اللَّه ، ويُعَرِّفُهُ به ، ويُعَالِجُ لَهُ وَسَاوِسَ الصَّدْر ، ويَجْمَعُ عليهِ شَتَاتَ الأَمْر ؛ ولِذلِكَ اعْتَرَفَ السَّلَفُ بِفَضْلِ المُرَبِّي ودَوْرِهِ في تَبْيِينِ الدَّرْبِ والطَّرِيقِ إلىٰ اللَّه ؛ فَقَالَ أَحَدُهُم : لَوْلَا المُرَبِّي مَا عَرَفْتُ رَبِّي»[1] .

ولِهَذَا السَّبَبِ بِعَيْنِه كَانَتْ أَغْلَبُ كُتُبِي تُعَالِجُ مُشْكِلاتِ شَبَاب ، والمُلْتَزِمِينَ مِنْهُم خَاصَّة ؛ لِأَنَّهُم عَمُودُ هذهِ الأُمَّةِ وخِيرَتُها . . وكَانَ هذا الكِتَابُ «قِصَّةُ الالْتِزَام والتَّخَلُّصِ مِنْ رَوَاسِبِ الجَاهِلِيَّة» - أَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ فِيمَا قَصَدْتُ مِنْهُ - ؛ لِيَخْطُوَ خُطْوَةً في هذا الاتجاهِ ضِمْنَ مُجموعةٍ مِنَ الرَّسَائِلِ التَّرْبَوِيَّة .

---

(١) ٣٠ طريقة لخدمة الدين ، لرضا صمدي ، ص (٢٦٠- ٢٦٤) بترتيب وتهذيب .

وقَدْ أَخَذْتُ علىٰ عَاتِقِي حَمْلَ هذهِ المُهِمَّةِ الدَّعَوِيَّةِ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولىٰ ؛ فكانتِ البدايةُ بكتاب «كيف أتوب؟» ؛ ليكون بدايةَ الطريق إلىٰ اللّه ، ثم كَانَ مِنْهَا طَرْحٌ لِقضايا المُلْتَزِمين :

كَظَاهِرةِ الانتكاسِ والفُتُور مِنْ خِلالِ كِتاب «إلىٰ الهُدَىٰ ائتِنا» ، وظاهرةِ التَّوَانِي في خِدْمَةِ الدِّين مِنْ خِلالِ رِسالةِ «الجِدِّيَّةُ في الالْتِزَام» ، وظاهرةِ الفُرْقَةِ والشَّتَاتِ مِنْ خِلال كِتاب «الأُخُوَّةُ أَيُّهَا الإِخْوَة» ، وقضيةِ طَلَبِ العِلْمِ ومُعَوِّقَاته في «المُنْطَلَقَات» ، وقضيةِ السَّيْرِ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ في «أُصُولُ الوُصُول» ، ويأتي كِتابُنَا هذا علىٰ نَفْسِ الوَتِيرَة ، ويَتْبَعُهُ بِإِذْنِ اللّهِ تعالىٰ كِتابُ «صِنَاعَةُ الرِّجَال» ، وكِتاب «صِفَاتُ الأُخْتِ المُلْتَزِمَة» بِمُعَالَجَةٍ جَدِيدَة .

أَسْأَلُ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَنَا وإِيَّاكُم الإِخْلَاصَ فِي القَوْلِ والعَمَل ، والسِّرِّ والعَلَن .

وصَلَّىٰ اللّهُ وسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَىٰ آلِه وصَحْبِهِ

والحَمْدُ لِلّهِ أَوَّلًا وآخِرًا وظاهِرًا وبَاطِنًا

ماذا نعني

بـ «رواسب الجاهلية»؟

مِنَ النَّاسِ مَنْ لا يُرْتَجَى نَفْعُهُ ... إِلَّا إِذَا مُسَّ بِإِضْرَارِ
كَالعُودِ لَا يُطْمَعَ فِي طِيبِهِ ... إِلَّا إِذَا أُحْرِقَ بِالنَّارِ



الجاهلية

إخوتاه . .

«الجاهلية» مصطلح إسلامي جاء به الكتابُ والسُّنَّة ، وأُريدَ به معنىً مُعيَّن ينبغي علينا أن نفقهه ؛ ذلكَ لأنَّ الحُكْمَ على الشيء فَرْعٌ عن تصورِه ، وإذا فسد التصور فسد الحُكْم ، ومِنَ البَلية غِيابُ المفاهيم الإسلامية عن أذهان المسلمين ؛ ولذلك سريعًا ما تهوِي بهم الريح في مكانٍ سَحيق ، كلما احتكوا بالشبهات التي ينفثها أعداءُ هذا الدِّين .

و**«الجاهلية»** : تَرِدُ في نصوص الشرع بمعنى الجهلِ بالله تعالىٰ ، والجهلِ بحقيقة الألوهية ، والجهلِ بما يجبُ لله تعالىٰ من إخلاص العبادة ، وتَرِد أيضًا بمعنى السلوكيات المخالفة لما شرع الله تعالىٰ .

فالجاهلية : هي مجموعة من الاعتقادات والتصورات والسلوكيات المنحرفة عن الشريعة .

قال اللهُ جَلَّ في عُلاه : ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] . .

فَهؤلَاءِ تَصوَّرُوا أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَن يُشَارِكُ اللَّهَ تَعَالىٰ في رُبُوبِيَّتِهِ وَتَدْبيرِهِ لِأَمْرِ الكَوْن ؛ فَهُم إن شَارَكُوا بالْمَشُورَةِ والرَّأي أَوْ لَم

يُشارِكُوا . . أُخِذَ بِرأيِهِم أَو لَمْ يُؤْخَذْ بِه . . فَسَوَاء . . فَلَيْسَ لِذَلِكَ تَأْثِيرٌ فِي قَدَرِ اللَّه تَعَالىٰ وَإِرَادَتِهِ الكَوْنِيةِ النَّافِذَة . . وَلَكنَّهُم اعْتَقَدُوا غَيْرَ ذَلِك : أَنَّهم إذا أُطِيعُوا بِعَدَمِ الخُرُوجِ لَنَجَوْا . . فسمّىٰ اللَّهُ هذا التَّصُوُّرَ والاعْتِقَادَ الفَاسِدَ بـ «ظَنِّ الجاهِلِيَّة» .

وقال سبحانه : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وهُوَ نَمَطٌ مِنَ الانْحِرَافَات السُّلُوكِيَّةِ الحَائِدَةِ عَنْ جَادَّةِ شَرِيعةِ اللَّه ، ومُخالَفَةٌ لِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ وُجوبِ تَحَجُّبِ النِّسَاء ، وعَدَم إِبْدَاءِ زِينَتِهِنَّ إلَّا لِمَحَارِمِهِنَّ . . فَوَصَفَ اللَّهُ تعالىٰ هَذِهِ السُّلُوكِيَاتِ الْمُنْحَرِفَة بِوَصْفِ «الجَاهِلِيَّة» .

إذًا فالمعاصي من أمور الجاهلية ؛ أما ترىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ عاتَبَ أبا ذر رضي الله عنه لما سبَّ غلامه فعيَّرهُ بأمه ؛ فقال له : «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ ؛ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[1] .

وقد بَوَّبَ البخاريُّ – رحمه اللَّهُ تعالىٰ – فقال : باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يُكفَّر صاحبُها بارتكابها إلا بالشرك ؛ لقول النبيِّ ﷺ : «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» ، وقول اللَّه تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قال الحافظ ابن حجر : «إنَّ كُلَّ معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل مُحرَّم ؛ فهي من أخلاق الجاهلية ، والشركُ أكبرُ المعاصي ولهذا

(١) متفق عليه ، البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) .

استثناه . . . واستَدلَّ (أي البخاري) أيضًا بقوله ﷺ لأبي ذر «فِيكَ جَاهِلِيَّة» أي خَصْلةٌ جاهلية ، مع أنَّ منزلة أبي ذر من الإيمان في الذِّروة العالية ؛ وإنما وبَّخَهُ بذلك- علىٰ عظيمِ منزلتِهِ عنده- تحذيرًا له عن معاودة مثل ذلك ؛ لأنه وإن كان معذورًا بوجهٍ من وجوه العذر ؛ لكنَّ وقوعَ ذلك من مثله يُستعظَم أكثر ممن هو دونَه»[1].

فعلينا أنْ نَعِيَ جيدًا أنَّ «الجاهلية» لا تَعني في لسان الشرع ما قد تَعنيه من مدلولات لُغوية ؛ فالعلم الحقيقي : هو العلمُ باللَّه تعالىٰ وبأسمائه وصفاته ، و فَهم سننه التي يَحكم بها هذا الكون[2]، وفهم طبيعة قضائه وقدره ، وخلاف ذلك هو الجهلُ بعَينِهِ .

قال تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦-٧].

* * *

---

(١) فتح الباري (١/١٠٦ - ١٠٧) بتصرف .

(٢) وإنما تُسخَّر العلوم المادية من أجل تحقيق هذا الهدف ، فليست العِبرة بالتقدم العلمي في المجال المادي كما قد يعتقد الناس بسبب الثورة العلمية الطاغية في العالم ؛ وإنما العبرة في مدىٰ تسخير هذه القُوىٰ في خدمة الأهدافِ التي من أجلها خَلق اللَّه الإنسانَ ، فمقياسُ الحضارات ليس بالرقي المادي فقط ؛ وإلا فاللَّه خلقَ الإنسان من رُوح وجسد ، فمن لبَّىٰ رغباته الحسِّية دون الروحية فقد أَوْدَىٰ بنفسه إلىٰ الهَلَكة ، وليس أَدَلُّ علىٰ ذلك من تفشِّي الأمراض النفسية المستعصية في شتىٰ أنحاء العالم ؛ فتأمل !!

تنبيهٌ مُهِم

إخوتاه . .

هنا أمرٌ ينبغي التنبيه عليه حتىٰ لا تَختلط الأوراق ، فلْيُعْلَم ابتداءً أنَّني : إذا ذكرتُ في كتابي هذا أو في المحاضرات أو الخطب جملة «رواسب الجاهلية» ؛ فأنا لا أقصد الكفر ولا الشرك ؛ وإنما أخاطب بذلك المسلمين الذين خاضوا زمنًا في المعاصي والذنوب ، ثمَّ تابوا ، فسابق عهدهم بمخالفة الإسلام وشرعه ومنهجه : «جاهلية» ، تتبقىٰ منها آثار تَنْخُرُ فيهم أُسَمِّيها «رواسب» ، وأنا أهتمُّ بمعالجة هذه الرواسب في هذا الكتاب .

فبمنتهىٰ التحديدِ والوضوح : أنا لا أقصد بالجاهلية الكفار ولا الأفعال الكفرية ، وإنْ كانت لا تخرج عنها ، فلا مُشاحة في الاصطلاح .

الجاهلية التي أَعنيها : الأفعال والأقوال والتصورات والمفاهيم والاعتقادات والتصرفات التي تخالف الكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمة ، وهي بقايا زمن المعاصي قبل التوبة ، أو من تأثيرات البيئة والواقع .

أُكرِّر : لا أقصد مطلقًا أنَّ من به جاهلية «كافر» أو «مشرك» ، لا ؛ بل قد يكون مسلمًا حَسَنَ الإسلام ، وبه رواسب جاهلية ، والدليل حديث أبي ذر : «**إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّة**»[1] . . فليكن ذلك واضحًا ومعلومًا من البداية .

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) .

إخوتاه . .

وَفْقَ هذا المفهوم ؛ فإننا - بلا ريب - نعيشُ وسَط اعتقادات جاهلية كثيرة ، وتصورات جاهلية كثيرة ، وسلوكيات جاهلية أكثر ، لا يمكن لمُنصِف أنْ يقول غير ذلك ، وليس الخَبَرُ كالمُعَايَنَة ، وكل الناس بصير بذلك ، والله سبحانه تعالىٰ يقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥] .

ولذلك دعُونا نَعرض تصوراتِنا للحياة . . آمالَنا . . طُمُوحاتِنا . . أهدافَنا . . وطريقَتَنا التي نَنْشُدُها لتحقيق هذه الأهداف . . دعونا نَزِنْ سلوكياتِنا وَفْقَ معايير ديننا القويم . . فماذا عسىٰ أنْ تكون النتيجة ؟! . . إليكم واقعَنا . . واقعَ الملتزمين . . فتأملوه جيدًا لِيَسْهُلَ الوَزْن . . واللَّهُ المُستعان .

❊ ❊ ❊

واقع الملتزمين

وَمِنَ المَآسِي والمَآسِي جَمَّةٌ

قُرْبُ الدَّوَاءِ ومَا إِلَيْهِ وُصُولُ

كَالْعِيسِ فِي البَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا

والمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ



واقع الملتزمين

إخوتي في الله . .

اشهدوا معي وبصراحة :

أليس الواقع يشهد أنَّ بعض الأخوات الملتزمات دُعِيَتْ إلىٰ النِّقاب، فلبست النقاب - نحن نُحْسِنُ الظن بها أنها لبست النقاب للَّه - ؛ لكنها كما سترت وجهها وجسمها، سترت أيضًا عيوبَ عقلِها ونفسِها وقلبِها، وبقيتْ علىٰ هذا؟!! . . فقط سترت جسدها، كأنَّها غطَّت عيوبها وتركتها تَرْتَع تحت مُسمًّىٰ «ملتزمة».

وأنت كذلك ارتديت القميص الأبيض علىٰ قلب أسود سوَّدَتْهُ الخطايا القديمة، وارتديت العِمامة البيضاء علىٰ عقل أسود، ما زالت به التصوّرات والآمال القديمة ؛ فصارت صورتك صورة إنسان ملتزم ظاهريًا، وفي الداخل ما زال الدُّودُ يَنخُر، والذُّبَابُ يَطِنُّ في أُذنِ عقلك بالتصوّرات والآمال والأخلاق، بالأعمال والأفعال، بالهموم!! . . واقع . . وأنا - واللّهِ - آسَف وأحزن وأنا أعرض هذه الصورة ؛ ولكنَّها الحقيقة . . والمُصارحةُ مُرَّة . . فسامحوني .

أخي في الله . .

لا تَنفِرْ منّي، ولا تغضب من خشونةِ كلامي ؛ فأنا - واللّه الذي خلق

الخَلق ويعلمُ السرَّ وأخفىٰ - أحبك في اللَّه ، عليك حريص ، ولك ناصح أمين .

وينبغي أن يُعلَم أنني أعتقد أنَّ الإخوة الملتزمين والأخوات المنتقبات هم خيرُ خلقِ اللَّهِ علىٰ الإطلاق في هذا الزمان ، وإنْ كان فيهم ما فيهم ، وعلىٰ ما فيهم ؛ فإظهارهم شعائر الإسلام وثباتهم علىٰ ذلك ، وصبرهم عليه ، واحتمالهم الأذىٰ في سبيله ؛ له وزنه عند اللَّه .

وللإنصافِ نقول : إنَّ هذا الكلام لا يشمل كل الملتزمين ؛ وإنَّما نحن نتحدث عن جانب مريض ، قليلًا كان أو كثيرًا في دنيا الملتزمين ؛ لٰكنه موجود .

وبصراحة أكثر : في كلٍّ منَّا آفة أو أكثر من تلك الآفات ، فمُستَقِلٌّ ومُستكثر ؛ ولذلك إنْ لم يكن بك شيء مما سأذكر فلا تغضب ، ولا تتعجل ، واحمد اللَّه علىٰ العافية ، واستكمل الكتاب فلعل فيه شيئًا ينفعك . . اصبر معي واللَّه المستعان . . ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

لذلك دعُونا نعود إلىٰ الطَّرْحِ نفسه مرَّة أخرىٰ ، وليقف كلٌّ منَّا مع نفسه وَقفةً صادقةً حاسمة .

أيها الإخوة . .

إنَّ الالتزامَ المُهَوَّشَ ، والفكرَ المُهَمَّشَ ، والتَّدَيُّنَ الأعرجَ ؛ صار سِمَةً ، بعد «توقيفِ» الدُّعَاةِ ، وموتِ العلماءِ ، وخرابِ كثيرٍ من المساجدِ من الدعوةِ إلىٰ اللَّه ، مع نُدْرَةِ المُرَبِّين ، وهَمِّ الدنيا الطاغي في ظل صعوبة

الحصول علىٰ لقمة العَيْشِ من حلال ، مع انتشار الجهل وشدة الفتن وتيسير المعاصي .

تلكَ أعذارُك ذكرتُها لكَ ابتداءً . . ولكن تعال لأسألك : أيها الحبيب المحب ، ماذا يريد كلٌّ واحد منّا بالتزامه وسلوكِ طريق الدين ؟ . . ما هي أهدافك في هذا الطريق ؟ . . ما طموحاتك ؟ . . ما هي أمانيك الآن ؟ . . هل تغيَّرَتْ ؟ . . أليست كلها ما زالت آمالًا دنيويةً بحتة ؟ !

أليس هدفك - أيها الطالب - النجاحَ في دراستك ؟ ، فإنْ تُسأل : لماذا ؟ ؛ تقول : حتىٰ أتبوأ عملًا مرموقًا في المجتمع يُدِرُّ عليَّ ما يكفي من المال ، فأستطيعَ أنْ أتزوج وأُرزق بالأطفال ، وأعيشَ في سَعة ؛ حتىٰ لا تُكدِّرُني متاعبُ الحياة التي يشتكي منها كل أحد . . كلام مكرَّر قديم مَمْجُوج ، كما هو كلام كل الطلبة . . فما الفرق بين الملتزم وغيره ؟ !

أليس الأمر كذلك ؟ ، أم ماذا عساك أن تُضيف ؟ . . قد تقول : لا أنا غيرهم ، أنا أفعل ذلك حتىٰ أتفرَّغَ لديني وأسعىٰ للفوز بالجنة يوم تقوم الأشهاد ، وهذا وإنْ كنتُ أرىٰ أنه نوع من الخداع تخادع به نفسك فهو أيضًا لعدم فقهِ الهدف ؛ وإلا فتنَزُّلًا مَعَكَ أقول : وهل أرشدنا اللَّه تعالىٰ إلىٰ أنَّ مُرِيدَ الجنة لابد أنْ يَكِدَّ في الدنيا ليعيش في سعة فيَخْلُصَ حينئذٍ للعمل للآخرة ؟ ! ! . . إنَّ هذا - لَعَمْرُ اللَّه - ليناقض تمامًا ما أمرنا اللَّه تعالىٰ به .

اللَّه تعالىٰ يقول : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا

سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩] . . فهل الكَدُّ في الدنيا هو سعيُ الآخرة؟!، هل العيش في تَرَفٍ ورَغَدٍ في الحياة هو الذي يَكْفُلُ لك التشمير للجنة؟، أم زادُ الرَّاكِبِ وحَدُّ الكَفَاف؟!

قال ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، ورُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتاه»[1].

إنَّ اللَّه تعالىٰ لم يُرَتِّبْ طِيبَ الحياةِ إلا علىٰ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] . .

فأنت تسعىٰ لطلب الرِّزق برفق: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] . . ورزقك مقدَّر لا يَزيد بمضاعفةِ ساعاتِ العمل، ولا يقل بسبب تَوَخِّيك طاعةَ ربك سبحانه، لكن مَن ذا يفهم هذا الأمرَ اليومَ؟!، من ذا يعتقدُ أنَّ الطاعةَ مِفتاحُ الرِّزقِ؟!

تأمَّلْ معي بداية هذا الحديث: قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رَوْعِي أنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حتىٰ تَسْتَكْمِلَ أَجَلَها، وتَسْتَوْعِبَ رِزْقَها، فاتقوا اللَّه، وأَجْمِلُوا في الطَّلَب، ولا يَحمِلَنَّ أَحَدَكُم اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمعصيةِ اللَّه؛ فإنَّ اللَّهِ تعالىٰ لا يُنَالُ ما عِنْدَهُ إلا بِطَاعَتِه»[2].

واعلم يقينًا أنَّ زيادة الرزق لا تأتي إلا بشكر النعم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني (٢٠٨٥) في «صحيح الجامع».

رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فالشكرُ أساسُ المَزيد، وشرطُ الشكرِ تصريفُ هذه النعمِ فيما أمرَ اللَّهُ، أمّا أنْ تعصيَ اللَّه بما تفضَّلَ عليك من نعمِه؛ فهذا هو الكُفرَانُ بعينِه.. وهكذا فَتِّشْ عن مِثل هذه التصورات والعقائد الفاسدة؛ فهي جاهلياتٌ تُفسد عليك أمرَ دينك والتزامك.

إخوتاه..

بعضُنا التزمَ ولكنه ما زال ذا أملٍ طويل؛ إنه يَحْلُم بأن يكون عنده مليون جنيه، أملُه أن يرتدي الملابس الفلانية، وأن يركب السيارة الفلانية، وأن يعيش في المنطقة الفلانية.. إنها تصورات موجودة في قلوبنا جميعًا لا يَختص بها فردٌ.

وتجده يَخبِطُ خَبْطَ عَشْوَاء، ويظن أنَّ الجَمْعَ بين إرادة الدنيا والآخرة ممكن وليس بمتعذر، ولطالما نصحَتْهُ التجارب، وأَبَتْ إلا أنْ تُرِيَهُ فسادَ ظنه، وهو لا يتخيل سوء اعتقاده، فتراه بعد قليل وقد فَتَر، وصار من خِلّان الدنيا.

كنتُ أجلس مع أحد الشباب فسألته: ما هو أمَلُك؟.. أَهُوَ أن يكون لك «فيلًا» وسيّارة؟ قال: لا.. لا.. أنا أريد أن أكون مستورًا.. أريد شقّة وزوجة.

قلت له: أيكفيك أربعة ملايين أم خمسة ملايين؟

قال: لا.. لا.. شقة وزوجة فقط.. أمورٌ عاديّة جدًا.

قلت له: وأين أملك في أن تكون قائد المسلمين الذي يُحرِّر القدس؟!؛ فدُهِشَ من السؤال!..

قلت: أين أملك في أن تكون في أعلىٰ عِلِّيين مع سيدِ المرسلين محمد ﷺ؟!.. أين أملُكَ في أنْ تكون من العلماء الرَّبَّانيين؟.. أين أملك في أنْ تكون من العُبَّاد المخبتين؟.. أين أملك في أنْ تكون من الدعاة الصادقين والهُدَاة المصلحين المُرشِدين؟!!

هذا ما أقصده من فساد التصوّرات التي يجب تغييرها.. إننا دخلنا الالتزام بتصوراتنا الجاهلية كما هيَ.. آمالنا هِيَ هِيَ.. ما زِلْنا نريدُ الزوجةَ الجميلة، والسيارةَ الفَارِهَة، والوظيفة المحترمة، والشقة الواسعة، والمال الوافِر، والأولاد الذين يَلْفِتُونَ أنظارَ الناس ويُثيرونَ ألبابَ البشر!!.. ما زلنا نحب أنْ نكون مشهورين محبوبين مرموقين، يَحتفِي بنا النَّاس، ويُثْنُونَ علينا.. أما تزال تلك آمالنا؟!!.. إذًا فلابد أن نتغيَّر، إنْ أردنا أنْ يُغيِّرَ اللَّهُ ما بنا.

أنا لا أقول: إنَّ هذه الآمال حرام ولا تجوز، أو أن الوصول إليها ينافي الالتزام.. كلا.. افهمني أخي الحبيب..

إنَّ ما أُريدُ أن تفهمَه: أَنَّ الإنسان في بداية طريق الالتزام بالدين ينبغي أنْ تتغير همومُه وآمالُه؛ لأنهُ وعند تزاحم هذه الهموم لا شك أن الشهوات تغلب؛ فهي الأحب إلىٰ النفس الأمارة بالسوء.

إنَّ ما أريد أن أقوله تحديدًا: لا مانع من حب ذلك وَتَمَنِّيه؛ ولكن بشرطين:

أوَّلُهما : أن يسبقه هَمُّ الدِّين ، والرَّغبةُ في الآخرة ، والإصرارُ على ذلك وتقديمُه .

والثاني : ألا تنشغلَ بذلك فتضيِّع دينَك .

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مَبْلَغَ عِلمنا ، ولا تجعل مُصيبتنا في ديننا .

إخوتاه . .

إنَّنا ما زِلنا لا نتصور الحياة بدون أشياء معينة مرسومة في أذهانِنا ؛ فكثيرٌ من الناس يقول : إننا لا نتصوَّر أن نعيش بدون أن ننام عشر ساعات يوميًا !! لا يتصور أن يَمضي عليه أسبوع دون أن يأكل لَحْمًا ! ، لا يتصور أن يركب المواصلات العامَّة ، لا يتصوَّر أن يَلْبَس قميصًا دون أن يُكْوَىٰ ، لا يتصور أن يَمْكُثَ يومين دون أن يرىٰ الناس فيضحك ويتكلم . . كما هو شأن الناس قبل الالتزام . .

فمن الناس من لا يتصوَّر أن يعيش بدون «تلفاز» ، بدون أن يشاهد يوميًا «المسلسلات» أو «الأفلام» أو «مباريات الكرة» ، ومنهم من لا يتخيَّل الحياة بدون «السجائر» و«المخدرات» و«النساء»!! . . هذه تصوراتٌ للحياة في أذهانهم ، لا تتمُّ الحياة إلا بها .

وحقيقةُ هذا محْضُ خَيَالات . . فكما يقول أحد الناس : إنّه حينما دخل السِّجن تغيَّرت كُلُّ تصوّراته ، تَلاشَتْ كلُّ الضروريات التي كان يظنها ضرورية ، وأمست حياته مختلفةً تمامًا ؛ فكل الضروريات التي كان

يعيشُ بها حُرِمَ منها، ومع ذلك استمرت حياته!، ولعله عاش حياته أفضل مما كانت من قبل..

فلابد أن تُغيِّر تلك التصوّرات والمفاهيم، وهذه الآمال والرَّغبَات.. لابد من تغيُّرٍ تام.. أم أنَّهُ لابدَّ أن تُصَابَ بابتلاءٍ شديدٍ حتىٰ تتغيَّر؟!! - نسأل اللَّه العافية.

إخوتاه..

لا شكَّ أنَّ تلك التصورات والاعتقادات الجاهلية يترتب عليها من الأخلاقيات والسلوكيات المرفوضة ما يَنْدَىٰ له الجَبين..

ألا تجد من تَرَبَّتْ علىٰ التَّبَرُّج والموضة؛ فلمّا التزمت رأيت العَجَبَ العُجَاب، مَنْ ترتدي الملابس ذات الألوان الزاهية، ومن تتفنن في شكل الخمار أو النقاب؛ ألا ترىٰ هذا الذي يسمونه «النقاب السعودي» الذي يحدِّد رَسْمَ العينين، فضلًا عن أنّه قصير، وقد يحدد ما ينبغي ستره.. أما سَمِعَتْ هذهِ قولَ النَّبي ﷺ: **«ولْيَخرُجْنَ وهُنَّ تَفِلَات»**[(١)]، وقولَه ﷺ: **«البَذَاذَةُ مِنَ الإِيمان»**[(٢)]؟!!

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٦٥)، وصححه الألباني (٥٢٩) في «صحيح أبي داود».

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وصححه الألباني (٢٨٧٩) في «صحيح الجامع».

قال ابن الأثير في النهاية (١/ ١١٠): **البذاذة**: رَثَاثة الْهيئة، قال: بَذُّ الهيئة وباذُّ الهيئة أي رَثُّ اللِّبسة، أراد التواضع في اللباس وترك التَّبجُّح به.

وفي «صحيح أبي داود» للألباني رحمه الله: **البذاذة**: التجوز في الثياب ونحوها، من الخشونة، وترك الزينة، والبعد عن التنعم الزائد.

نَاهِيكَ عمن تَكْحِلُ عينيها، وربما لا تغطي من وجهها إلا طَرْفَ الأنف والفم، ومن ترتدي العباءات المُطَرَّزة ولا ترتدي فوقها ما يُخفي تلك الزينة.. يا إماء الله، ما هذا؟!!.. هل هذا حجاب؟!، هل هذا هو الامتثال لأمر الله؟!، هل هذا هو الالتزام بشروط الحجاب الشرعي الذي أمر الله به وفصّلهُ العلماء؟!

للأسف!!.. إنما هِيَ هِيَ.. نفس الفتاة قبل الالتزام.. نفس الشخصية: تحب أن تكون جميلة، وأن تكون متميزة، وتحب أنْ يُثْنَىٰ علىٰ جمالها، وعلىٰ رشَاقتها، وعلىٰ ملابسها، وعلىٰ ذوقها الرفيع، وأناقتها المبهرة، وعلىٰ.. وعلىٰ.. الخ.

لم تَمُتْ فيها تلكَ الفتاة القديمة، لِيُولَدَ داخلَها قلبُ الأختِ الملتزمةِ التي تحبُّ فقط أنْ يُثْنِيَ عليها ربُّها، وأنْ يحبَّها ربها، وأن يذكرها في الملأ الأعلىٰ، ثمّ لِيَقُلِ النّاسُ عندئذٍ ما يقولون؛ فقد تعلّق قلبها بربها وحده، ثمّ الأناقة والجمال في منزلها، ولزوجها وحده الذي تُطيعُ اللَّهُ في حسنِ التَّبَعُّلِ والتزينِ له، وهي تنتظر في الآخرة ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

والغريب: أنّك إذا ذَكَرْتَ ذلك؛ طَلَعَ عليك مَن يقول: يا شيخ مَهْلًا... الحمد لله أنها تحجبت بأي شكل وبأي صورة، أليس هذا أفضل من التعري والتبرج السَّافِر؟!

يَا لَلَّه!!.. ما هذه الهزيمة النفسية التي تَخرج من أفواهِ المسلمين كُلَّ حِين؟!.. يا قَوْم، إِنَّهُ لا يَصِحُّ إلا الحَقّ، وكفانا تَرْقِيعًا.

وفي الإخوة الملتزمين مِثْلُ ما ذكرنا، وربَّما أكثر؛ فقد نَبتتْ نابتةُ سوء - والعياذ باللّه - من تطويل الشباب لشعورهم، ولُبْسِ القَلَنْسُوَة (الطَّاقِيَة) السوداء، مع الاحتفاظ بالبنطال (الكاوبوي) والقميص القصير (التي شِيرت).. ما هذه التقليعة الغربية؟!.. عجيبٌ واللّهِ!!.. ثمّ إذا كلَّمْتَهُ يقول: إطالةُ الشَّعْرِ سُنَّة!!..

وأستحلِفُهُ عن صريح نيته فلم يحلف، يا بُنيّ، تَرَكَ رسولُ اللّه ﷺ شعرَه شُغْلًا عنه، وأنتَ تُطيلُ شَعْرَكَ شُغْلًا به.

يا بُنيَّ.. دع عنك خداع الجاهلين، وكن واضحًا، ولا تمكر بدينك، إنَّك تريد - حتىٰ بعد أنْ التزمت - أنْ تظل جميلًا في عيون الفتيات، وأنْ يُثْنَىٰ علىٰ شكلك وجمالك، وأنْ تكون أيضًا وجيهًا ابن ناس و.. و.. وما خفيَ كان أعظم، اللهم استرنا بالعافية.. آمين.

ومن السلوكيات الجاهلية كذلك: أنه قد يكون تصور أحدهم - قبل الالتزام -: أن العمل في التجارة يعني: إن لم تأكل الناس أكلوك، وأنت تعيش في مجتمع لا يعرف إلا الخداع والغش، فمن لا تسرقه سيسرقُك..

إذا لَمْ تَكُنْ عَقْرَبًا يُتَّقَىٰ لَعِبَتْ في ثِيَابِكَ العَقَارِبُ

كان يعيش بهذا المَنْطِق.. أن يكون عَقْرَبًا حتىٰ لا يُلْدَغ.. ثم إنهُ حين التزم بَقيَتْ من هذه الجاهليات رواسب؛ فتراه يتخذ الحِيَل.. واليوم حَدِّثْ ولا حَرَج عن أنواعٍ من البيوع المحرمة التي يقع فيها الإخوة -

وللأسفِ الشديد! - مثل: البيعِ على بيعِ أخيه[١]، وبيعِ النَّجْش[٢]، وبيعِ الغَرَر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

خُلَاصَةُ القَوْل:

إخوتاه..

بعدَ استعراضِ هذا الواقعِ المُرِّ الأليم؛ بَانَ لنا أَنَّ في حياةِ الكثير من الملتزمينِ الكثيرَ مِنَ الاعتقاداتِ والتصوراتِ والمفاهيمِ الفاسدة.. والكثيرَ والكثيرَ من السُّلوكياتِ والأخلاقياتِ المفروضة.. وهِيَ تركيبة معقَّدةٌ حقًّا.. مَنْشَؤُها هذه الرّواسبِ الجاهليةِ السوداء التي تجمَّعَتْ وتَرَاكَمَتْ في قلبِ صاحِبِنا.

---

(١) المراد به عند الفقهاء: أن يتراضىٰ المتبايعان علىٰ ثمن سلعة، فيجيء آخر فيقول: أنا أبيعك مثل هذه السلعة بأنقصَ من هذا الثمن، أو يقول: أبيعك خيرًا منها بثمنها أو بأقلّ منه، أو يعرض علىٰ المشتري سلعة رغب فيها المشتري من عند غيره، ففسخ البيع واشترىٰ هذه، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن ذلك؛ وذلك سدًّا لذريعة الخصومة والمنازعة والمشاحنة والبغضاء بين المسلمين. انظر: معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، د. نزيه حماد، ط. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص (٨٥ - ٨٦).

(٢) وهو: أن يحضر الرجل السوق، فيرىٰ السلعة تُباع بثمن، فيزيد في ثمنها، وهو لا يرغب في ابتياعها (شرائها)، ليقتدي به الراغب، فيَزيد لزيادته، ظنًّا منه بأنَّ تلك الزيادة لرخص السلعة، اغترارًا به، وهذه خديعة محرمة.. ولا فرق بين أنْ يكون الناجش مالكًا للسلعة أو لا، بل قال بعضهم: إنَّ المالك للسلعة الذي يزيد في ثمنها للتغرير هو شرٌّ من الذي لا يملك السلعة ويزيد في ثمنها دون أن يقصد شراءها. المرجع السابق، ص (٢٧٤).

المظاهر العامة

لرواسب الجاهلية في حياة الملتزمين

ومِنَ البَلَاءِ ولِلْبَلَاءِ عَلَامَةٌ أَنْ لَا يَرَىٰ لَكَ عَنْ هَوَاكَ نُزُوعُ

الْعَبْدُ عَبْدُ النَّفْسِ فِي شَهَوَاتِهِ والحُرُّ يَشْبَعُ تَارَةً ويَجُوعُ



المظاهر العامة لرواسب الجاهلية

إخوتي في الله..

بدأ الشيخ التفتيش عن الصور العامة للرواسب الجاهلية في حياة صاحبنا بعد الالتزام.. فتعالوا- وبكل تجرد وموضوعية- ننقد أنفسنا؛ لنتعاون علىٰ تغيير هذه الأمور، وننتهي عنها، ونتناصح في الله.. وليجعلْ كُلٌّ منا نفسَهُ مكانَ «صاحبنا».

من أخطر هذه المظاهر وأوضحها:

(١) التهاون والاستسهال

لَمَّا رَقَدَ صاحِبُنا بين يَدَيْ الشيخ استعدادًا لتلقِّي العلاج؛ اعتدل فجأة مَرَّةً أخرىٰ جالسًا، ورفع صوته متسائلًا:

أيها الشيخ، كيف وصلتُ إلىٰ ما أنا فيه!! أين ذهب حماسي الأول؟.. كيف ضاعت قُوَّةُ التزامي؟!.. أين ذهب تَحَرُّقِي شوقًا للقيام بأفضلِ الأعمال؟! كيف انحدرَ هذا المنحنىٰ بسرعة؟!..

فرَبَتَ الشيخ علىٰ كتفيه، ورَمَقَهُ بنظرةٍ حادَّة، وقالَ بمنتهىٰ الجِدّ:

إسهالُ الاستسهال.. إنه مرضٌ خطير.. والداءُ العُضَال: التهاون في أشياءَ صغيرةٍ تَكْبر، واستسهالُ الأمور اليسيرةِ وتَعْظُم.. يا بُنَيّ، إنَّ

معظمَ النار من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَر. **أَذْكرُ – واللَّهِ يا بُنَيّ – حديثينِ نفيسَيْنِ نَعرفُ منهما السبب:**

أمّا الحديثُ الأول: فحديثُ حذيفةَ بنِ اليَمَان رضي الله عنه، قال: حدَّثَنَا رسول اللَّه ﷺ بحديثين رأيتُ أحدَهما وأنا أنتظرُ الآخر، حَدَّثَنَا **«أنَّ الأمانة نَزَلَتْ في جَذْرِ قلوبِ الرِّجال؛ ثم عَلِمُوا مِنَ القرآنِ ثم عَلِمُوا مِنَ السُّنَّة»**، وحدَّثَنَا عن رَفْعِهَا فقال: **«يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قلبِه، فيَظَلُّ أثرُها مِثْلَ أَثَرِ الوَكْت، ثُمَّ يَنَامُ النَّومَةَ فتُقْبَضُ فَيَبْقَىٰ أثرُها مِثْلَ المَجْل كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ علىٰ رِجْلِكَ فَنَفِطَ؛ فتراه مُنْتَبِرًا وليسَ فيه شيء، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُون، فلا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَة، فيُقَال: إنَّ في بَنِي فُلان رَجُلًا أَمِينًا، ويُقَالُ للرَّجُل: ما أعقلَه، وما أَظْرَفَه، وما أجْلَدَه، وما في قلبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إيمان»**[1].

تأمَّلْ معي هذا الحديث العظيمَ القَدْر الذي يستحق أن تُكتب فيه كُتُب.. لكنها إلْمَاحَةٌ فقط.. تأمل قوله ﷺ: **«ينام الرجل النومة»** أي يغفل فتُنْزَعُ الأمانة من قلبه، **«ثم ينام النومة»**.. هذه قضية الاستسهال؛ أنه نام في الأول فنُزعتْ الأمانة ولم يُفِقْ المسكين، لم يتألَّم، لم يتوجَّع، لم يَصْرُخ، لم يُفِقْ، لم يَنْتَبِه.. ومَرَّتْ الأمور عاديَّة؛ فاستسهلَ القضيَّة..

فما الذي كان؟ نُزعت الأمانة من قلبه تمامًا في المرَّة الثانية.. فلم يَبْقَ منها إلا فُقَاعَاتٌ هوائية.. مناظر فقط.. هذه نتيجة الاستسهال..

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧).

والأمانة هنا بمعنىٰ الإيمان ؛ فتأمل نتيجة الاستسهال مَرَّةً بَعْدَ مرَّة ، حتىٰ لا يبقىٰ في القلبِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إيمان .

أمَّا الحديث الثاني : فهو قول رسُولِ اللَّهِ ﷺ : «إياكم ومُحَقَّراتِ الذنوب ؛ فإنهنَّ يجتمعنَ علىٰ المرءِ حتَى يُهْلِكْنَهُ»[1] .. إنهُ مرض الاستسهال .. أيضًا ذنبٌ صغير ، ومعصيةٌ بسيطة ، ومخالفةٌ هيِّنة ، و«إحنا أحسن من غيرنا» .. «يا سيدي كنا فين وبقينا فين» .. و«ربك غفور رحيم» . يجتمعن علىٰ المرء حتىٰ يهلكنه .. ظهر لك السِّرُّ - يا حبيبي - :

١- الغفلة والتهاون بها .

٢- المعاصي الصغيرة واستسهالها .

إذا اجتمع هذان الأمران ؛ كان البَوَارُ وخَرَابُ الدِّيار .

ولا شَكَّ أنَّ هذا المرَض الخطير «التهاون والاستسهال» من رواسب الجاهلية .. رواسب التربية القديمة ، والمعيشة في كنفِ الضَّيَاع وعدمِ مراعاةِ الأصول .

ولهذا التهاون مظاهرُ كثيرة ، أخطرُها : التهاون في أصول الدِّين كالتوحيد ، والصلاة والزكاة وأمثالهما ، وخذ علىٰ ذلك مثالًا - فقط مجرد مثال أو مثالين - : التهاون في الصلاة ، والتهاون في القيام والصيام .. وقد اخترنا الصلاة أولًا لأن التهاونَ فيها - مع شديد الأسف !! - مِمَّا عَمَّتْ بِهِ البَلْوَىٰ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٠٣)، وحسنه الألباني (٢٦٨٧) في «صحيح الجامع» .

أوَّلًا : التهاون والاستسهال في أداء الصلاة :

كان صاحِبُنا قبل الالتزام لا يصلي ؛ لذلك فمواعيد النوم غير محدَّدة ؛ إنه ينام وقتما يشاء ، ويستيقظ كما يحب ، ويعيش كما يحلو له ، فلم يكن يؤثِّر فيه الأذان ولا النداء . . فلما التزم وفي فورة حماس البداية كان يسرع إلىٰ المسجد عند سماع الأذان بشوقٍ ولهفة ؛ ولكن مع الوقت تفشت رواسب الجاهلية لتطغي علىٰ الواقع ويحصل الفتور عن صلاة الجماعة .

افتتح الشيخُ قلبَ صاحبِنا بعمود الدِّين «الصلاة» ، وبدأ العلاج مع الكلام علىٰ جُرْح الصلاة النافذ ؛ فقال الشيخ :

قال النبيُّ ﷺ : «**أَحَبُّ الأعمالِ إلىٰ اللَّهِ الصَّلاةُ علىٰ وَقْتِها**»[1] .

وقال ﷺ : «**إنَّ أوَّلَ ما يُحَاسَبُ بِهِ العبدُ يومَ القيامةِ مِنْ عملِهِ الصَّلاة ، فإنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أفْلَحَ وأنْجَحَ ، وإنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وخَسِر**»[2] .

وللأسف ! . . صار بعضنا يتهاون في أداء عباداته بالصورة المثلىٰ ؛ فصار يترخَّص مثل الناس - اليوم - يُصَلُّون صلاةً روتينية ، وصار أكثرهم يعيش حياة «كمبيوترية» ، مُبرمَجين علىٰ عبادات تحوّلت إلىٰ عادات ، يُؤَدُّونها بصورة نمطية ، ويَخرجون منها بلا فائدةٍ ولا أثر .

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٥٠٤) ، ومسلم (٨٥) .

(٢) أخرجه الترمذي (٤١٣) ، وصححه الألباني (٣٣٧) في «صحيح الترمذي» .

وقد أهمل البعض صلاة الجماعة في المسجد، وأصبح لا يبالي بالجماعة الأولىٰ.. وشَكَتْ المساجدُ إلىٰ اللَّه قِلَّةَ المُصَلِّين في صلاة الصبح، وقلّ الحرص علىٰ الصف الأول!!، والنبيُّ ﷺ يقول: «لا يَزَالُ قومٌ يتأخرونَ عن الصفِّ الأولِ حتىٰ يُؤَخِرَهُمُ اللَّهُ في النَّار»(١).

وقال ﷺ: «لو يَعْلَمُ الناسُ ما في النداءِ والصَفُّ الأول، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلا أن يَسْتَهِمُوا عليه لاسْتَهَمُوا، و لو يعلمونَ ما في التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إليه، ولو يعلمونَ ما في العَتَمَةِ والصُبْحِ لأَتَوهُمَا ولَوْ حَبْوًا»(٢).

أمَّا الجمعة فقد هجر النَّاس آدابها(٣)، فلا تعظيم لقدرها، ولا تبكير، ولا تحري لساعة الإجابة.. وكان الظَنُّ أَنْ يكون يوم الجمعة هو يوم التفرغ لعبادة اللَّه تعالىٰ، أما سمعنا قولَ رسولِ اللَّهِ ﷺ: «يَحْضُرُ الجُمُعَةَ ثلاثةُ نَفَر: رَجُلٌ حَضَرَها يَلْغُو، وهُوَ حَظُّهُ مِنها، ورَجُلٌ حَضَرَها يَدْعُو، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّه عَزَّ وجَلّ، إِنْ شَاءَ أَعطاه، وإِنْ شَاءَ مَنَعَه، ورَجُلٌ حَضَرَها بِإِنْصَاتٍ وسُكُون، ولم يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِم، و لَمْ يُؤْذِ أَحَدًا، فهُوَ كَفَارَةٌ إلىٰ الجُمُعَةِ التي تَلِيهَا، وزِيَادَةُ ثلاثةِ أيَام، وَذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] »(٤).. فأيُّ الرِّجالِ أنت؟!!

---

(١) أخرجه أبو داود (٦٧٩)، وصححه الألباني (٦٣٠) في «صحيح أبي داود».

(٢) متفق عليه، البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

(٣) كتب ابن القيِّم رحمه الله فصلًا ماتعًا في كتابه الرائع «زاد المعاد» عن آداب الجمعة؛ فراجعه (١/ ٣٧٢-٤٢٤)؛ فإنَّه نفيس لا ينبغي أن تغفلَ عن قراءته.

(٤) أخرجه أبو داود (١١١٣)، وحسنه الألباني (٩٨٤) في «صحيح أبي داود».

أليست هذه وصية النبي ﷺ إليكم- معاشر المسلمين- «**الصلاة الصلاة**»[١].. أما تعلمون أنَّ آخِرَ ما يتبقىٰ من الدين: «**الصلاة**».

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أوَّلُ ما يُرْفَعُ مِنَ الناسِ الأمانة، و آخِرُ ما يَبْقىٰ مِنْ دينِهِمُ الصَّلاة، ورُبَّ مُصَلٍّ لا خَلَاقَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تعالىٰ**»[٢].

قال المُنَاوِيُّ في «فَيْضِ القَدِير»: «(وآخر ما يبقىٰ من دينهم الصلاة) كلما ضعف الإيمان بسبب حب الدنيا، ونقص نوره بالمعاصي والشهوات، وذهبت هيبة سلطانه من القلوب؛ اضمحلت الأمانة، وإذا ضعفت الأمانة (أي الإيمان)، وخانت الرعية فيها فأخَّرَتِ الصلاة عن أوقاتها، وقصَّرت في إكمالها؛ أدىٰ ذلك إلىٰ ارتفاع أصلها، (ورُبَّ مُصَلٍّ) آت بصورة الصلاة (لا خلاق له عند الله) أي لا نصيب له عنده من قبولها، والإثابة عليها - وفي رواية: (ورُبَّ مُصَلٍّ لا خَيْرَ فيه) - أي لكونه غافلًا لاهِيَ القلب، وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل» اهـ.

فكيف باللَّه صِرنا إلىٰ هذا الحال المَشِين؟!!

ما هذا الالتزام أيها الإخوة؟!!.. أيُّ معنًىٰ فهمته عن الالتزام يوم أعفيتَ لِحْيَتَك، وعرفت طريق المسجد ودروس العلم؟!.. وأي التزام هذا الذي عرفتيه - أيتها الأخت المسلمة - يوم ارتديت النِّقَاب، وآثرتِ رضا ربك؟!.. أيُّ التزام هذا إنْ ضيَّعتمُ الصلاة عمود الإسلام؟!!

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٥٦)، وصححه الألباني (٤٢٩٥) في «صحيح أبي داود».

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي عن زيد بن ثابت، وحسنه الألباني (٢٥٧٥) في «صحيح الجامع».

في البداية كان الحماس، وحضور القلب، والحرص على الجماعة، والبحث عن الخشوع، ثمّ حصل الفتور، وزاد النوم؛ فضاع أصل الأعمال: «الصلاة»؛ فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

هيا - أخي الكريم - **ابدإِ العلاجَ**: فاترك عادتك القديمة، التهاون في الصلاة.. تخلَّصْ من رواسب الجاهلية، **وعَظِّمْ قَدْرَ الصلاة**، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].. ابدأ حياتك الإيمانية من جديد، على أصلِ طهارةِ القلبِ مِنْ هذا التهاون.

ثانيًا: ومن التهاون والاستسهال: ندرة القُوَّام الصُوَّام:

لقد صرنا في عصر باتَ الليلُ يشكو من قِلَّةِ قائميه.. قَلَّ البكاء، ونَدُرَ الاستغفار بالأسحار، وغاب التضرع والدعاء، وليتَ شِعْرِي هل نَسِيَ هؤلاء قولَ رسولِ اللّهِ ﷺ: **«عليكم بقيام الليل؛ فإنه دَأْبُ الصَّالحين قبلَكُم، و قُرْبَةٌ إلى اللّهِ تعالى، و مَنْهَاةٌ عن الإِثْم، وتكفيرٌ للسيئات»**[1].

أَنَسِينا أول دروس الالتزام؛ حين كان الواحد منّا يتعلم شدة الحرص على هدي النبي ﷺ في كل أحواله... لقد كان ﷺ لا يدع قيام الليل، وكان إذا مرِض أو كسل صلّى قاعدًا[2]، وكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه[3].. فمنْ باللّه عليكم رأيتموه في زماننا على هذا الوصف، اللّهم إلا بقايا من الصالحين يقيم اللّه بهم الحُجَّة على الجميع.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، وصححه الألباني (٢٨١٤) في «صحيح الترمذي».
(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٧)، وصححه الألباني (١١٥٩) في «صحيح أبي داود».
(٣) متفق عليه، البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

أمّا الصُّوام فقليلٌ ما هُم ، فنادرًا ما ترىٰ من يحافظ علىٰ صيام الاثنين والخميس ، وثلاثة أيام من كل شهر ، وغيرها من الأيام التي أُثِرَ فيها الصيام . . ألم يقل النبيُّ ﷺ : «**مَنْ صَامَ يَوْمًا في سبيلِ اللّه جَعَلَ اللّهُ بينهُ وبينَ النَّارِ خَنْدَقًا كما بينَ السَّماءِ والأرض**»؟! [1] .

وشأنُ الصيام أن يُدَاوِيَ كثيرًا من الآفات التي ابتُلينا بها في هذا الزمان ؛ كاستفحال خطر «الشهوة» ، والابتلاء بالوساوس ، والأمراض النفسية .

قال الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ : «**صَوْمُ شَهر الصَّبْرِ ، وثلاثةِ أيامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يُذْهِبْنَ وَحَرَ الصَّدْر**» [2] ، وقال ﷺ : «**خِصَاءُ أُمَّتي الصِّيَامُ**» [3] .

والعلاج : أن تعرف أنَّ السببَ في ندرة العباد في هذه الأيام هو تِلكمُ الرواسب التي نتحدثُ عنها ؛ فقد كان الأخ في جاهليته كثيرَ النوم ، كثيرَ الأكل ، مُسارعًا في الشهوات ، مُؤْثِرًا للدَّعَةِ والبطالة ، فلما التزم ولم يَطْهُرْ قلبه تمامًا من هذه الآفات ؛ ظل حريصًا علىٰ النوم ، كسولًا ، شَرِهًا في الطعام والشراب ، أو حتىٰ وإنْ كان لا يكثر النوم والأكل ؛ فإنه مسارع في إرضاء شهواته ورغبات نفسه ؛ فلم يَعُدْ له حظٌّ من صلاةٍ أو صيام .

أخي في اللّه . .

طهِّرْ قلبك ، وأَرْضِ ربك ، وليتكامل التزامُك ، وخُذْ بحظك من الصلاة والقيام والصيام ، واللّه المُسْتَعَان .

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢٤) ، وصححه الألباني (١٣٢٥) في «صحيح الترمذي» .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٣) ، وصححه الألباني (٣٨٠٤) في «صحيح الجامع» .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٣) ، وصححه الألباني (١٨٣٠) في «الصحيحة» .

(٢) عدم التحلي بآداب الخلاف[1]

وكان صاحبنا معروفًا قبل التزامه بأنه «عنيد» ؛ فإن هواية مخالفة الآخرين والإصرار علىٰ ذلك كانت من أخلاقه المعروفة ، وكم اشتكىٰ الجيران صغيرهم وكبيرهم من صُراخِهِ الدائم علىٰ كُلِّ صغيرةٍ وكبيرة ؛ فصار معروفًا عنه أنه لا يَرجعُ عن قولٍ ولا يَصبرُ عن شيء .

ومع الالتزام وكثرة قول : حلال وحرام ، ورؤية الباطل من عين الغرور ؛ تَزيَّدَ في الحِدَّة ، وتزيَّدَ من الشِّقاق ، وما أن فتح عينيه علىٰ خلافات الإخوة والكلام في الفقه ؛ إلا وجد مَرْتَعًا خِصبًا لهواية العناد ، والخلاف ، وتَصَلُّبِ الآراء ، والانتصارِ للهوىٰ ، والجدالِ العقيمِ الممقوت .

وفتح الشيخ هذا الجُرْحَ العجيب وفوجئ برائحته الكريهة ؛ فبدأ تطهير الجرح فقال :

قال تعالىٰ : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وللأسف !! . . فإنَّ كثيرًا من الإخوة لم يفهم قضية الخلاف ؛ فتجده

---

(١) لمزيد بيان راجع : كتابنا «الأُخُوّة أيُّها الإِخوة» ، فصل «إعدام الاختلاف» ، ص (١٠١ - ١٢٤) .

يُشَنِّع علىٰ كل من لا يوافقه في أقواله وآرائه الفقهية[(١)] ؛ وعاد الولاء لمن تابعه ، والبراء ممن خالفه . . والإنصاف عزيز ، والتعصب مذموم ، ولم يَعُدْ أحدٌ يعتقد هذه العبارة الطيبة : قولي صواب يحتملُ الخطأ ، وقولُ مخالفي خطأ يحتملُ الصواب .

ولهؤلاء نُهدي رسالة شيخ الإسلام الماتعة «رفع المَلام عن الأئمة الأعلام» ، ونُذَكِّرهم بقول الله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] . . فالاختلافُ قائم .

ومن رحمة الله أنْ يُوحِّدَ كلمة أهل الإسلام علىٰ كلمة التوحيد . . لكن من لا يَرحم لا يُرحم . . ضاعت الرحمة بيننا ؛ ولذلك نُزعت هذه المشاعرُ النبيلة من الصدور وَسْطَ هذا الزَّخَمِ الممقوت من الآراء المتباينة ، وصار النَّاس إلىٰ جاهليةِ الفُرْقَةِ والشَّتَات ، والتعصب للأشخاص ، والتشفي للنفس .

هذه الرواسب لابد من إزالتها . . بِتِرْيَاقِ الكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمة . . هذا هو السبيل . . وما وَسِعَ سلفَنا الخلافُ فيه يَسَعُنا كذلك ؛ فلا مشاحنة ، ولا خصومة ، ولا نزاع ؛ بل هي مسائل اجتهادية تُركت لأهل الاختصاص من المجتهدين في كل زمان ، والمخطئ له أجر ، والمصيب له أجران ، فلماذا هذا العَنَت ؟!!

---

(١) لا أقول : خلافات في أصول الاعتقاد ؛ فثمة فرق جوهري ؛ وإنَّما يَسَعُنا ما وَسِعَ السلفَ في هذا الجانب ، وخلاف ذلك بدع منكرة لا نقصد أهلها في هذا الصدد ؛ ولكنَّ حديثنا داخلُ دائرةِ أهل السنة والجماعة .

ولا ريب أنَّ السبب فيما نحن فيه من محن من جَرَّاء هذه الخلافات التي لا يضبطها الأفراد بضوابطها الشرعية - الجاهليةُ العمياءُ في النفوس

فقد التزم أخونا ولكن ما زالت نفسيته كما هِيَ ، علىٰ قديمِها تعود ؛ فهو لا يُطيق أنْ يُخالفه أحد . . وما زال مرضُ العناد الذي يلازمه منذ الطفولة كما هو ؛ فرجوعه إلىٰ الحق صعب ، إنْ لم يَكن مُستحيلًا . . وسَعَةُ صدره لقَبول المخالف ، والرضا بالتعامل معه بعد النصح - مرفوض ؛ فالخلاف معناه العداء .

قال بعض السلف : ما رأيتَ أعقلَ منَ الشافعي ؛ اختلفنا أنا وهو في مسألة ، فلقيني بعد مدة ، فأخذ بيدي ، فقال لي : إذا كنَّا قد اختلفنا في مسألة ؛ ألا يَسَعُنَا أنْ نبقىٰ أخوين متحابَّيْنِ ؟!

فبتطهير القلب من رواسب الجاهلية : الكبر والعجب والغرور والعناد وتصلب الرأي ؛ يتم حَلُّ كثيرٍ من المشاكل ، ويكونُ التحابب . . وإنْ اختلفنا في مسائل ؛ فالضابط : أنَّ ما وَسِعَ السلفَ الخلافُ فيه فإنَّه يسعنا .

العِلاج :

بدأ الشيخُ بالمِشْرَط والمِقَص ، يقتلع أمراضًا خبيثة ، ويزرع مكانها الأخلاق الطاهرة والإيمانيات العالية . . فبدأ يَنْزَع :

حُبَّ الظُّهور . . . . ويَزْرَع مكانه التواضع .

وينزع الكبر . . . . ويزرع مكانه الخضوع للحق .

وينزع الغرور . . . . ويزرع مكانه الأدب .

وينزع رؤية النفس . . . . ويزرع مكانه احترام الآخرين .

وينزع العناد . . . . ويزرع مكانه قبول الرأي الآخر وسعة الصدر .

وينزع التعصب والجدل . . . . ويزرع مكانه الاستسلام للصواب والاعتراف بالحق .

وينزَع العنف وتصلب الرأي . . . . ويزرع مكانه لِين الجانب وخفض الجناح .

واستغرقت هذه العملية أسابيعَ وشهورًا ؛ ولكن مع صبر الشيخ واستسلام صاحبنا ؛ بدأ العلاجُ يُؤتي ثمرتَه بالتدريج ؛ فإنه بعد الزرع لابد من علاج القلب لقبول الأخلاق الجديدة وعدم طردها .

وهكذا طهَّرَ الشيخُ قلبَ صاحبنا من رواسب الجاهلية ، ولم يترك مكانها فارغًا ؛ بل زرع أخلاقيات وإيمانيات ؛ إذا رعاها صاحِبُنا وتعهَّدها بِالسَّقْي ؛ آتت أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها .

وهكذا - أخي - فافعل . . انزع وازرع . . واللَّهُ في عونِكَ إن صدقت ، قال الصَّادِقُ المَصْدُوقُ رسولُ اللَّه ﷺ لِمَنْ تَمَنَّى الشهادة : **«اصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ»**[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه النسائي (١٩٥٣) ، وصححه الألباني (١٤١٥) في «صحيح الجامع» .

(٣) العبثية والفوضوية

في عصرنا المريض.. في هذه الأيام.. صار القبح هو الأصل، والتلذذ بالفوضىٰ هو الأساس.. وهذا العقم نتيجة دخول المسلمين جُحْرَ الضبّ خلف أعدائهم من أهل الغرب.. فتجدهم في باطلهم ومعاصيهم أخطر آفاتهم الفوضى.. من عهد «الخنافس» و«الهيبز» إلىٰ عصر «الروك آند رول».

وما جاء بعدها من الباطل يعتمد ترفهم وسعادتهم علىٰ الفوضىٰ والعبث.. في ملابسهم، وفي مساكنهم، وفي لهوهم.. ونشأ صاحبنا في هذا الجو وشرب منه، وصارتِ الفَوْضَىٰ سِمَةً في حياته ظاهرة.. وبدأ الشيخ يَنْخُرُ في هذا الجُرح الخطير، ويحاول تنظيفه من قلب صاحبنا

فقال:

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والحياةُ - أيُّها الإخوة - في ظِلِّ الجاهليةِ كثيرًا ما توصف بالعبثية والفوضوية؛ لغياب الأهداف الحقيقية.. فقد يقف الإنسان عند هدف دنيوي معين، ويركِّز عليه، حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا، فيظل حائرًا، لماذا جئت إلىٰ الدنيا؟، ماذا أريد؟، كل متاع الدنيا مَشُوبٌ بالتنغيص.. هذه الشُّبَه قد تقوده إلىٰ العبث واللَّهو والفوضىٰ.

ولذلك ينشأ الكثير من الناس لا يعرفون النظام، فلا يحترمون الأوقات، ولا يُرَتِّبون حياتهم في ظل المسئوليات والواجبات المُلْقَاة علىٰ عاتِقهم، وربَّما لا يتحرك بعضنا إلا بسياط وضغوط لكي يقوم بدوره في المجتمع، فهو لا يعرف إلا «نفسه» و«مزاجه الشخصي» و«هواه» و«راحته النفسية هو فقط» وإن أتعب من حوله!!

وإذا نصحته قال لك: «مالكَ بي.. أنا حُرّ»، ولم يَعِ المسكين أنَّ الحرية لا تعني الأنانية والفوضىٰ.. الحرية الحقيقية تعني التحرك داخل دائرة محددة (دائرة الشرع)، لا التحرك في الفضاء المُطْلَق.

هذا الأسلوب يترسب عند المرء؛ لأنه يُربىٰ عليه منذ صغره، ويعيش عليه حياته السنين الطويلة، فإذا ما جاء إلىٰ الالتزام، ولم تتضح الصورة في عينه، فلم يفهم الإسلام فَهمًا صحيحًا؛ تجد من هذه الفوضىٰ في تصرفاته الشيء الكثير:

فهو يتأخر عن أداء الصلاة، ويغيب عن العمل، ويتخلف عن حضور درس العلم...

وترىٰ طالبَ العلم يسير بلا منهجية.. وكم من الإخوة من شُغلوا بدراسة بعض المسائل وتركوا العلم الواجب في حقهم.. وكم من الإخوة مَنْ راح يدرس في علوم الثمرات وترك علوم الوسائل التي يَرْسُخ بها علمه وَفْقَ أصولٍ صحيحة..

كم من الإخوة من تراه مشغولا ببعض مسائل الخلاف الشهيرة في هذا العصر، ثمّ هو لا يعرف أبجديات فقهية لا يُعذر بجهلها.

كم من الإخوة من يظل يدور وينحرف يَمْنَةً ويَسْرَة.. كلَّما لاح في الأفُق أيُّ شيخ يُدرِّس في أيِّ علم راح إليه، وقد تكون هذه ليست مرحلته، وقد يكون الرجل مقدوحًا في علمه أو عقيدته.. وإنْ حاولت ضبطه تفلَّت منك!.. فوضىٰ وغَبَش.. وعدمُ تنظيم.

في فترة من الفترات كنتَ لا تجد أخًا من طلاب العلم الشرعي إلا ويُدندن بمسائل «علم المصطلح»، وهو علم مهم - لا شك -؛ ولكن متىٰ يُطلب؟، وفي أي مرحلة؟، ولماذا؟.. وكنت تجدَ أجوبة يندىٰ لها الجبين.. تسأله: ماذا تفعل؟، يقول: أتعقب الحافظ في كذا.. أرد علىٰ الشيخ الألباني في تصحيحه أو تضعيفه لكذا!!

وإذا سألته: و هل فرغت من حفظ القرآن؟؛ أجاب بملء الفم: حفظ القرآن ليس شرطًا، فلان وفلان من الصحابة والتابعين لم يكن حافظًا للقرآن.. سبحان الملك!!، حفظ القرآن ليس شرطًا، والمصطلح هو الشرط!!

إياك أن تظن - أخي - أنَّ هذه الردود وهذه الأفعال جاءت نتيجةً للالتزام بعد الالتزام.. إن لها مقدمات وخلفيات من رواسب الجاهلية.. إن تصرفاتِهِ في الالتزام ترتكز علىٰ أسس عميقة من جاهليته الطويلة، وإنْ تشكَّلتِ الكلماتُ بِدِين، والأعذارُ بأدلة.

فهذا لايدري بأنَّ أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين انتهتْ كَلِمَتُهُم إلىٰ لزومِ حفظِ طالبِ العلمِ للقرآنِ في مستهلِّ دراسته؛ لأمور كثيرة لَزِمَتْ؛ كتحصينه من الفتن المتكاثرة، وتعويد لسانه علىٰ اللغة السليمة

في ظل انتشار اللَّحْن والعامية التي تُبعده عن لغة القرآن والسُّنة ، والتي هي مَحِلُّ بحثه ونظره ، وكذلك القيام بالفرض الكفائي من حفظ القرآن في الصدور بجانب حفظه بين الدفاتر والسطور . . وإذا لم يكن الإخوة الملتزمون هم حَفَظَةِ القرآن فمنْ ذا يقوم بهذا الدور إذًا ؟ ! !

أعلم أنَّ هذه الظاهرة لها أسبابُها ، ولكني أُدِيرُ عَدَسَةَ المِجهر هاهنا نحو الأسباب الداخلية التي يعلمها كل واحد من نفسه ، إنها وقفة لنقد الذات ، للتمحيص قبل الاستبدال .

ومن تلك العبثية والفوضوية أتت الرياح بما لا تشتهي السفن ؛ فخرج النبت ذابلًا هشًا ، وكانت النتائج مؤسفة من جرَّاءِ عدمِ المنهجية ، وعدم الإلمام بفقه الأولويات ، وعدم التدرج والسير إلىٰ اللَّه تعالىٰ وَفْقَ خُطُوَات صحيحة . . وبكثرة التجارب الفاشلة فسدت منَّا القلوب ، وأُصيب الكثيرُ بالإحباط والهزيمة النفسية . . ورأينا المتساقطين منا علىٰ الطريق . . والمنتكسين . . والذين أصابهم الفتور فرجعوا القَهْقَرَىٰ .

أخي الملتزم . .

من المفترض أنْ تكون أنتَ خيرَ خلقِ اللَّه تعالىٰ . . فأنتَ القدوة . . وأنت الصورة الحقيقية لهذا الدين . . ألم يقل اللَّه تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة : ٧] .

فكيف لا نرىٰ الإخوة همُ القادة والسادةُ في المجتمع ؟ ! . . كيف لا نراهم أوائلَ دُفعاتهم في الجامعات ؟ ! . . وكيف لا يُشار إليهم بالبَنَان في كل تخصصٍ يطرقونه ؟ ! . . فيتركونَ بين النَّاس انطباعًا جيدًا عن الحياةِ

في ظلِّ الإسلام الصحيح ، ويُدرِكُ الجميع أثرَ الالتزام بالدين في تغيير سلوكياتِ المرءِ ونجاحِه .

أمَّا أنْ يكون الحالُ هكذا كما نرىٰ ؛ فيا مَوْتُ زُرْ . . ويا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ . . ويا سَماءُ أَقْلِعِي .

نظِّم تفكيرك أيها الملتزم ، واضبط حياتك ، وكفاك لهوًا وعبثًا ولعبًا .

هَلَّا تَرَفَّعُ عَنْ لَهْوٍ وعَنْ لَعِبٍ إِنَّ الصَّغَائِرَ تُغْرِي النَّفْسَ بِالصِّغَرِ

وإرادةٌ صُلْبة ، فأنتَ لها ؛ فكُنْ ذا مِرَّة[1] .

وهنا أجرىٰ الشيخ عملية جريئة سريعة ؛ لإنقاذ صاحبنا من هذا الداء الخطير «العبثية والفوضوية» . **فبدأ الشيخ العلاج :**

فنزع : أنا حُرّ وكَبِرْت وأعرف مصلحتي . . **وزرع مكانه :** أنا عبد ضعيف مستسلم للشرع .

ونزع : بمزاجي «وعلىٰ كيفي» «وبراحتي» . . **وزرع مكانه :** أنا مُكَلَّف مَأمور مُطيع .

وهنا ظهرت علاماتُ الجِدِّيَّة علىٰ وجه صاحبنا للأخذ فِعْلًا بعزائم الأمور وهو يسمع قولَ ربِّه : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢]

❀ ❀ ❀

(١) الهاء للحرب، أي أنت الذي خُلِقتَ لها فكن ذا قُوّة .

(٤) الترخُّص الجافي والغلو

قصة الالتزام قصة عجيبة . . كان صاحبنا في أقصىٰ نقطة ضلال في ظلام . . ثم أكرمه الله بطريق نور ؛ ولكن المشكلة الكبرىٰ أن السَّبيل عليها سُبُل ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] . . والفضول البشري لا يَدَعُ الإنسانَ يسلك طريقًا سويًا ؛ بل يدفع للتعرف علىٰ ما حوله ، والقلوبُ ضعيفةٌ والفتنةُ خطَّافةٌ .

فلا يرضىٰ حديثُ الالتزام بِقَدَرِهِ في سلوكِ طريقِه ؛ بل يتسمع ويتلفت وتتخطفه الفتن ؛ ما بين شبهات تحوم حول ديانته تُضِلُّه الطريقَ وتَحمِلُه علىٰ التفريطِ والإضاعةِ ، وما بين فتن شديدةٍ تحمِلُهُ علىٰ تَنَطُّع وتشدد وجَفَاءٍ ، وما بين بِدَعٍ وأوهام يحمِلُهُ حَزْبُهَا - فيما زَعَمَ - ومعالجتُها إلىٰ غُلُوٍّ وابتداع من جانب آخر .

قالَ رسولُ اللَّهِ - صلىٰ اللَّه عليه وسلم - : «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مستقيمًا وعلىٰ جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فيهما أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وعلىٰ الأبوابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وعلىٰ بَابِ الصِّراطِ دَاعٍ يدعو يقول : يأيُّها الناسُ ادخُلُوا الصِّراطَ جميعًا ولا تَعْوَجُّوا ، وداعٍ يدعُو مِنْ جَوْفِ الصِّراطِ ، فإذا أرادَ أن يَفْتَحَ شيئًا مِنْ تِلكَ الأبوابِ قال : وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ ؛ فإنَّكَ إنْ تفتحْهُ تَلِجْهُ .

فالصِّرَاطُ الإسلام، والسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تعالىٰ، والأبوابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تعالىٰ، وذلكَ الدَّاعِي علىٰ رَأْسِ الصِّراطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، والدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِم»(١).

تأمَّلْ - أخي الحبيب - هذا الحديث، وانظر إلىٰ هذا التشبيه البليغ؛ أنَّ علىٰ الصراط سوران، وفي السورين أبواب، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة.. هذا رَسْمُ طريقك علىٰ الصراط المستقيم.. أبوابٌ مُفَتَّحة ولكن عليها سُتُورٌ فقط..

وبالفُضُولِ البشري يحاولُ الإنسان أن يكتشف ما وراء السُّتور، ويناديه كتابُ اللَّه ويناديه الواعظ من قلبه: لا تفتحه؛ إنك إن تفتحه تلجه.. ويُصِرُّ المسكين علىٰ فتحه ويَلِجُهُ ويضيع.. وهيهاتَ هيهاتَ أن يعود! بل في أوديةِ الفتن هَلَك.

وقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«تَرَكْتُكُم عَلَىٰ المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِك»**(٢)، فالزائغ هالِك، والهالِك زائِغ، وهذا مَحَلُّ خطرٍ يَحتاجُ إلىٰ فقهٍ طويل.

قال عبد اللَّه بن مسعود: أنتم في زمانٍ مَنْ عَلِمَ الخير من الشر نجا، وسيأتي علىٰ الناس زمانٌ لا ينجو إلا مَنْ عَرَفَ خَيْرَ الخَيْرَيْنِ وشَرَّ الشَّرَّيْن.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٢٤)، وصححه الألباني (٢٨٥٩) في «صحيح الترمذي».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧١٨)، وحسنه الألباني (٩) في «صحيح الجامع».

ولذا فتح الشيخ هذا الجرح الغائر وبدأ يطهره فقال :

إخوتاه . .

كثيرٌ من الملتزمين - اليوم - تركوا الأخذ بعزائم الأمور ، وأخذوا بالكثير من الرُّخص ؛ بل وبما فيه شبهة أيضًا ، حتىٰ لتسمع عن أمور لا يمكن تصورها عن ملتزم أو ملتزمة .

وفريق آخر آثر الغلو واشتدَّ في كثير من المسائل ؛ ممَّا أدىٰ إلىٰ ظهور تيارات منحرفة ، وليست «فتنة التكفير» عنَّا ببعيد ، وتحريم الحلال كتحليل الحرام ، عدوان علىٰ الله ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] .

اعتقاد خلاف ما قد يفهمه كثير من النّاس . . بأنّه كلما اشتد وضيّق كان أقرب للدين . . بل عليكم - أيها الإخوة - هَدْيًا قاصدًا فالتزموه ، ولا تحيدوا عنه ، ذلك أدنىٰ للبر والتقوىٰ .

وسبب كل هذا في الطائفتين هو رواسب الجاهلية التي نشأ عليها وترعرع فيها ، فلو أنّه زكّىٰ نفسه وتغير كليًا حين التزم ؛ لصَلُح حاله وكان من المقسطين ، ولرزقه الله بصيرة في الدين يرىٰ بها الحق من الباطل .

إخوتاه . .

الحق أبلج ؛ ولكنه دائمًا بين طرفي نقيض ؛ بين إفراط وتفريط . . وقد ينشأ المرء نازعًا إلىٰ أحد هذين المسلكين ؛ فتجده متشددًا في تعاملاته ،

أو متجوزًا متهاونًا ، وهي نزعات نفسية لها ارتباط بالبيئة التي ينشأ فيها الفرد ، والأسلوب الذي تربىٰ به ، وصفاته الشخصية التي جُبل عليها .

فمن هنا تجد الذي تربَّىٰ في أوساط المترفين عادةً ما ينزع إلىٰ الترخص ، فيفرِّط في كثير من الأوامر ، والعكس صحيح .

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مكايد الشيطان :

«ومن كيده العجيب أنه يُشَامُّ النفسَ حتىٰ يعلمَ أيَّ القوتين تغلُب عليها ، قوة الإقدام والشجاعة أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة ؛ فإن رأىٰ الغالب علىٰ النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه ، وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به ، وثقَّله عليه ، فهوّن عليه تركه حتىٰ يتركه جملة ، أو يقصر فيه ، ويتهاون به ، وإنْ رأىٰ الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهِمَّة ، أخذ يقلِّل عنده المأمور به ، ويوهمه أنَّه لا يكفيه ، وأنه يحتاج معه إلىٰ مبالغة وزيادة فيقصِّر بالأول ، ويتجاوز الثاني ، كما قال بعض السلف : ما أمر اللَّه تعالىٰ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلىٰ تفريط وتقصير ، وإما إلىٰ مجاوزة وغلو ، ولا يبالي بأيِّهما ظفر .

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين : وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي ، والقليل منهم جدًّا الثابت علىٰ الصراط الذي كان عليه رسولُ اللَّه ﷺ وأصحابُه»[١] .

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/١١٥ - ١١٦)، ط دار المعرفة . بيروت ، بتحقيق : محمد حامد الفقي .

فإذا دخل الإنسان إلىٰ الالتزام، وفيه نزعة إلىٰ أحد هذين الأمرين في أصل شخصيته وطبيعة تربيته وسابق حياته؛ بدتْ الانحرافات عن الجادة في تصرفاته؛ ولذلك عُنِيَ الشرعُ بتهذيب النفوس من هذه الرواسب الجاهلية؛ فَأمَرَ بامتثال أَمْرِ اللَّهِ تعالىٰ، والسمعِ والطاعةِ في المَنْشَطِ والمَكْرَه، شقَّ عليك أو خفَّ، عَسُر عليك أو يَسُر، وهذا من جميل فِعْلِ الشريعة.

فالإتيان بالرخص في مَحلِّها والعزائم[1] في مقامها - من مشاهد العبودية، فقد يكون هوىٰ المرء في الترخص حيث هو مأمور بالعزائم، أو يأخذ نفسه بالعزيمة والأحبُّ إلىٰ اللَّه الرخصة.

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ اللَّه تَعَالىٰ يُحِبُّ أن تُؤْتَىٰ رُخَصُه، كما يُحِبُّ أن تُؤْتَىٰ عَزَائِمُهُ**»، وفي رواية «**كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَىٰ مَعْصِيَتُهُ**»[2].

وتأمل معي - أيها الحبيب - كيف أنَّ اللَّه يحب أنْ تؤتىٰ عزائمه أيضًا؛ فإنَّ أكثر الناس لا يرىٰ إلا شطر الحديث «**يحب أنْ تؤتىٰ رخصه**» فلا يأتي إلا بالرخص؛ فأين العزائم يا أصحاب العزائم؟!

ولذلك ذكر أهل العلم أنَّ من علامات تعظيم اللَّه تعالىٰ أن تُعظَّم أمرَهُ ونهيه، ولا يتحقق للعبد ذلك حتىٰ لا يُعارَضَا بترخص جافٍ أو تشددٍ غالٍ.

---

(١) العزيمة - في الأصل - : عقد القلب علىٰ الشيء، ثم اسْتُعْمِلَ لِكُلِّ أمرٍ مَحْتُوم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/١٠٨)، وصححه الألباني (١٨٨٥) في «صحيح الجامع».

وفي «المدارج» أيضًا يؤكد ابن القيِّم علىٰ خطورة سلوك هذين الطريقين فيقول :

أحدهما : الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال . والثاني : الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي . فالأول : تفريط ، والثاني : إفراط .

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان ، إما إلىٰ تفريط وإضاعة ، وإما إلىٰ إفراط وغلو ، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه ، كالوادي بين جبلين ، والهدىٰ بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له ، فالغالي فيه مضيِّع له ؛ هذا بتقصيره عن الحد ، وهذا بتجاوزه الحد، وقد نهىٰ الله عن الغلو بقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧] .

والغلو نوعان :

نوع يُخرجه عن كونه مطيعًا ؛ كمن زاد في الصلاةِ ركعة ، أو صام الدهر مع أيام النهي ، أو رمىٰ الجمرات بالصخرات الكبار التي يُرْمىٰ بها في المنجنيق ، أو سعىٰ بين الصفا والمروة عشرًا أو نحو ذلك عمدًا .

وغلو يُخافُ منه الانقطاع والاستحسار ؛ كقيام الليل كله ، وسرد الصيام الدهر أجمع بدون فطر أيام النهي ، والجَوْرِ علىٰ النفوس في العبادات والأوراد . . قال فيه النبي ﷺ : «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدوا ، وقَارِبوا ، ويَسِّرُوا ، واسْتَعِينوا بالغَدْوَةِ ،

والرَّوْحَةِ، وشَيءٍ من الدُّلْجَةِ»[١].. يعني استعينوا علىٰ طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة، فإن المسافر يستعين علىٰ قطع مسافة السفر بالسيرِ فيها.

وقال ﷺ: **«لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»**[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«هَلَكَ المُتَنَطِّعُون قالها ثلاثًا»**[٣]، وهم المتعمِّقون المُغَالُون المتشدِّدون، المجاوزون الحدودَ في أقوالهم وأفعالهم.

وفي صحيح البخاري عنه: **«عليكم من الأعمال ما تُطِيقُون؛ فواللَّهِ لا يَمَلُّ اللَّهُ حتىٰ تَمَلُّوا»**[٤].

وعنه أنه ﷺ قال: **«إنَّ هذا الدِّينَ مَتِينٌ؛ فأَوْغِلُوا فيه برفق»**[٥] اهـ[٦].

وقد كَثُرَ الكلامُ دَوْمًا في حَقِّ المُلْتَزِمين عن الغلو والإفراط والتنطع والتشدد وما إلىٰ ذلك، وتُرِكَ الكَلامُ تمامًا عن التفريطِ والإِضَاعةِ والاستسهال والاستهانة.. ونحن لا ننكر أنَّ بين الملتزمين وغالب

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٠٨٢)، ومسلم (١٣٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢٣).

(٤) متفق عليه، البخاري (١٠٨٣)، ومسلم (١٣٠٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/١٩٩)، وحسنه الألباني(٢٢٤٦) في «صحيح الجامع».

(٦) مدارج السالكين (٢/٤٩٦-٤٩٧) بتصرف يسير.

المبتدئين عادةً شيئًا مِنَ التَّنَطُّع والغُلُوّ ؛ ولكن نَبَتَتْ وزادت ؛ بل رَبَتْ وكَثُرَتْ في هذه الأيام دَعَوَاتٌ أصلُها التفريطُ وتسهيلُ الأمور ، واعتمادُ التَّرَخُّصُ الجَافِي في التَّدَيُّن .

فَحَصَلَ في التزامِ بعضِ الناس «إسهال الاستسهال» ؛ فكل شيء سهل ، والأمر هيِّن ، والدِّين يُسر . . وضاع الدِّين أو تَقَسَّم وتَمزَّق ؛ فصِرْتَ ترىٰ لِحْيَة علىٰ غيرِ دين ، ودِينًا بغير لِحْيَة ، وعباداتٍ بغير حجاب ، وحجابًا ولا عبادة ، وحدِّث عن مسألة الحجاب وأنواعه بلا حرج .

دِينُ اللَّهِ واحد - أيُّها الإخوة - ، وخيرُ الدِّينِ عند اللَّه الحنيفيةُ السَّمْحَة . . فلا إفراط ولا تفريط ، . . ولا غُلُوّ ولا جفاء ولا مجافاة .

إنَّ اتِّباعَ الهَوَىٰ في اختيار الأحكام ، والترجيح بين الأقوال بالهَوَىٰ - ضَيَاعٌ للدِّين ، ودينُ مُحَمَّدٍ ﷺ مَحَجَّةٌ بيضاء ، نورٌ علىٰ نور ، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء .

وكُلُّ قَوْلٍ عليهِ دَلِيلٌ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ بِفَهم سَلَفِ الأُمَّة هو الحَقُّ الذي لا مَحِيدَ عنه.

هذهِ خلاصةُ العلاجِ . . فتَطَهَّرْ مِنْ غَلْوَائِك ، وأَقْبِلْ علىٰ الحَقِّ - بلا هَوَىٰ - ناصِعًا .

❋ ❋ ❋

(٥) الجرأة علىٰ الفتوىٰ

لَمَّا التزمَ صاحِبُنا وكان قبلها مشهورًا معروفًا في منطقته؛ صار أكثر شهرة!.. نعم: صار الناس يتحدثون عن التغير المفاجئ الذي حَدَثَ في حياته.. وتفرقَ الناسُ فيه صِنفان: صنف سعيد مشجع، وآخر مستهزئ متربص يقول: إنه لن يصلح، إنما هي نزوة من نزواته وسيعود.

فلما طال أمره وطالت لحيته، وصار لقبُهُ في وَسَطِه «شيخ»، وصار الناس يتحدثون: الشيخ فلان قال، والشيخ فلان فعل، ودخل وخرج وسط اللّحَىٰ - وثق فيه أهله وصاروا يسألونه، وهو من خلال سماعه واجتهاده يجيب الناس: حلال، حرام، يجوز، لا يجوز، حتىٰ صار مرجعًا يأتونه، وهو يستحي أن يقول: لا أعلم، كيف وهو الشيخ!

وشهرته في المنطقة صارت أعظم وأعظم؛ فصار يجيب بلا هَوَادَة، مع أنه أحيانًا يُحِسُّ بالخطر وهو يفتي عن غير علم ولا هدًى؛ ولكن شعر أنَّ هذا مرضٌ خَطيرٌ في قلبه؛ حين أحس بالغيرة إذا سئل غيره في حضوره، أو ناقشه أحد أو اعترض عليه أو خطَّاه.

فتح الشيخ هذا المرض وأقبل علىٰ علاجه فقال:

من رواسب الجاهلية: قِلَّةُ الورع، والجرأة علىٰ الوقوع في المشتبهات، والنبي ﷺ يقول: «وخَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَع»(١).

قال أهل العلم: الوَرِع دائِمُ المراقبة للحق، مستديمُ الحذَر أن يَمْزِج باطلًا بحق، فهو كالطير الحذِر. ودوامُ المراقبة و الحَذَر يُعْقِبُ النجاة والظفر.

قال بعض السلف: لَتَرْكُ دَانَقٍ (هو سدس الدينار والدرهم) مما يكره الله أحبُّ إليّ من خَمسمئة حَجَّة.

وللأسف!!.. قلّ هذا الخُلُق الكريم عند الملتزمين، وأصبح التجرؤ في الإخوة ظاهرة، والتسرع في الفتوىٰ سِمَةً غالبة.

إنَّ من خصائص أهل السُّنَّةِ والجماعة: عدمُ الجُرْأَةِ علىٰ الفتوىٰ؛ بل والخوف من الفتوىٰ؛ لعلمهم بِعِظَمِ ما يترتب عليها إن كانت خطأً؛ لذلك كان من كلماتهم المشهورة: كثرةُ الفتوىٰ من قِلَّةِ التقوىٰ.

فأين أنتم من صحابة رسول الله ﷺ.. كان الواحد منهم لا يجيب عن المسألة حتىٰ يسأل صاحبه، وكان الخلفاء الراشدون يجمعون علماء الصحابة وفضلاءهم إذا عُرِضَتْ لهم مُشْكِلاتُ المسائل، وكان بعضهم يتوقف عن الفتوىٰ فلا يجيب ويحيل إلىٰ غيره، أو يقول: لا أدري.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٧٠) ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الألباني (٤٢١٤) في «صحيح الجامع».

قال ابن أبي ليلىٰ : أدركت مِئةً وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول اللّه ﷺ يُسأل أحدُهُم عن المسألة ، فيردُّها هذا إلىٰ هذا ، حتىٰ ترجع إلىٰ الأول ، وما منهم من أحد يحدِّث بحديث ، أو يُسْأَلُ عن شيءٍ إلا وَدَّ أنَّ أَخَاه كَفَاه .

وقال عَطَاءُ بن السَّائب : أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليُسأل عن شيء ؛ فيتكلم وإنَّه ليَرْعَد .

وقال عتبةُ بنُ مسلم : صَحِبْتُ ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا ، فكان كثيرًا ما يُسأل ، فيقول : لا أدري !

نعم : - إخوتاه . . كانوا لا يتجرؤون علىٰ الفتوىٰ . .

كان عمر رضي الله عنه يقول : أجرؤكم علىٰ الفتوىٰ أجرؤكم علىٰ النَّار .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : واللّه إنَّ الذي يُفتي النَّاس في كل ما يستفتونه لمجنون .

وكان سعيد بن المسيب - وهو من كبار التابعين - لا يكاد يفتي ولا يقول شيئًا ؛ إلا قال : اللَّهم سَلِّمْنِي وسَلِّمْ مِنِّي .

وكان القاسم بن محمد - أحد الفقهاء السبعة - يقول : واللّهِ لأَنْ يُقطعَ لساني أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتكلمَ بما لا عِلْمَ لي به .

وحُفِظَ عن أبي حنيفة - مع براعته في الجواب وقدرته الفائقة علىٰ الاستنباط - مسائل معروفة قال فيها : لا أدري .

وكان يقول : لولا الخوف من اللّه أنْ يضيع العلم ما أفتيت أحدًا ، يكونُ له المَهْنَأ ، وعليَّ الوِزْر .

وقال: مَنْ تكلَّمَ في شيءٍ من العلم وتقلَّده، وهو يظن أنَّ اللَّه لا يسأله عنه: كيف أفتيت في دين اللَّه؟؛ فقد سَهُلَتْ عليه نفسُهُ ودينُه.

إخوتاه..

كان الإمام مالك يقول: من سُئِلَ عن مسألة، فينبغي قبل أنْ يُجيب فيها أنْ يَعْرِضَ نفسه على الجنَّةِ والنَّار، وكيف يكون خَلَاصُهُ في الآخرة، ثمَّ يُجيبُ فيها.

وسُئِلَ مرَّةً عن مسألة فقال: ما أُحسِنُ فيها جوابًا، سلوا أهل العلم!!

وقال أبو داود: ما أُحْصِي ما سمعتُ أحمد، سئل عن كثير مما فيه الاختلاف من العلم؛ فيقول: لا أدري.

جَهِلْتَ فعادَيْتَ العلومَ وأهلَهَا كذاكَ يُعادِي العلمَ مَنْ هُوَ جاهِلُه
ومَنْ كانَ يَهْوَىٰ أَنْ يُرَىٰ مُتَصَدِّرًا ويَكْرَهُ «لا أدري» أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه

لذلك كان نَكِيْرُ السَّلفِ شديدًا علىٰ من اقتحم حِمَىٰ الفتوىٰ ولم يتأهل لها.. وكانوا يَعُدُّون ذلك ثُلْمَةً في الإسلام، ومنكرًا عظيمًا يجب أنْ يُمنَعَ منه.

فقد كان شيخ الإسلام ابن تيميَّة شديدَ الإنكارِ علىٰ هؤلاء، ولمَّا قال له بعضُهم يومًا: أجُعِلْتَ مُحْتَسِبًا علىٰ الفتوىٰ؟!؛ قال له: يكون علىٰ الخبازين والطبَّاخين مُحْتَسِبٌ، ولا يكونُ علىٰ الفتوىٰ مُحْتَسِب؟![1].

---

(١) مُحْتَسِب: موظف يتقاضىٰ أجرًا من قِبل الدولة، يدورُ علىٰ الناسِ يراقبُ تصرفاتِهم. وكانت الحِسْبَة نظامًا يُقصدُ به الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

وكان أبو حنيفة يرىٰ وجوبَ الحَجْرِ علىٰ المفتي الجاهل والمتلاعب بأحكام الشرع .

ورأىٰ رجلٌ ربيعةَ بن أبي عبد الرحمن (شيخ الإمام مالك) يبكي فقال : ما يبكيك ؟! ، فقال : اسْتُفْتِيَ من لا عِلْمَ له ، وظهرَ في الإسلام أمرٌ عظيم !!

ثم قال : ولَبَعْضُ مَنْ يُفتِي هاهنا أَحَقُّ بالسِّجْنِ مِنَ السُّرّاق .

أيها الإخوة . .

كيف باللّٰه عليكم لو رأىٰ ربيعةُ زماننا هذا؟! من إقدام كل من لا علم له علىٰ الفُتيا ، وتوثبه عليها ، ومد باع التكلف إليها ، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها ، مع قلة الخبرة ، وعدم اضطلاعه بعلوم الكتاب والسنة وآثار السلف ، وعدم أخذه عن أهل العلم المعتبرين ، فلا تلقَّىٰ علىٰ من يوثق فيه ، ولا زكَّاه مَنْ يُعْتَبَرُ قولُه عند أهل العلم .

وإنَّما غالبًا تربىٰ علىٰ بعض المسائل الخلافية يُدندنُ حولها ، وعلىٰ قراءات سريعة في الكتب ، دون إلمام بمفاتيحها ومداخلها ، وهذا كثيرًا ما ابتُلينا به ، ولا سيما في قراءات الإخوة لفتاوىٰ «شيخ الإسلام ابن تيميَّة» ، أو في نظرهم في كتب الأصول والفقه الموسوعية ، أو في وَلَعِهِم بحفظ الفتاوىٰ واقتناء كتب س ، ج .

إخوتاه . .

الجرأة علىٰ الفتوىٰ من رواسب الطريقة التي نتعلم بها في المدارس

والجامعات ، الطريقة التي تعتمد علىٰ «الغش» و«الخداع» و«الاحتيال» ، ودراسة المذكرات والمختصرات ، وكيفية التعامل مع أسئلة الامتحانات بأسلوب «الفهلوة» - كما نسميه - ؛ فكل شيء لابد أنْ تجيب عنه .. من رواسب جاهليته يستمد «بفهلوته» إجابة عن كل ما يُسأل عنه .

إنَّ القاعدة عندهم : إياك أن تقول : لا أدري ؛ فإن «لا أدري» تعني أنّك ساذج مسكين جاهل ، والوقوف عند ما تعرف وعدم الغش يعني أنّك قد ترسب في الامتحانات ، وهذه فضيحة .. والفضيحة عندنا أشد من الخطيئة ، وشماتة الناس أشد من غضب الرب ، فاللّٰه غفور رحيم ، أمّا الناس فلا ترحم ولا تغفر .. تصورات جاهلية ، واعتقادات فاسدة ، يبقىٰ منها رواسب تبدو آثارها الفينةَ بعد الفينة ، يجب التخلصُ منها فورًا ؛ وإلا فالهلاكَ الهلاك .

أيها الإخوة ..

مَنْ ذا بيننا انتهىٰ من دراسة الفقه دراسة صحيحة ؛ فابتدأ بحفظ المُتُون ، وانتقل إلىٰ شروحها المرحلية .. من ذا ابتدأ بـ «عمدة الأحكام» .. ثمّ «المقنع» .. ثمّ «الكافي» .. قبل أن يقرأ في «المغني» .

ثم مِنْ أين نَستقي العلم؟ ، ومن أين تنقل الفتوىٰ؟ .. هل تدري أنّه لا يصحُّ قياسٌ علىٰ فتوىٰ؟ ، هل تدري الفرق بين الحكم الشرعي والفتوىٰ؟ ، هل تعرف شروط المفتي؟ ، هل .. وهل ..؟!

إنّني - واللّٰه - أعرف وأقدِّر حجمُ المعاناة التي نلاقيها من قلة العلماء والمُربِّين المُوَجِّهين ؛ فالضغوط من كل جانب ، ورغبة الكثيرين في دعوة

النَّاس لدينهم متزايدة ؛ لكن الغايات عندنا لا تبرر الوسيلة ، قل : لا أدري ، والزم بيتك ولو أنْ تعضَّ علىٰ جذع شجرة ، خيرٌ لك من تَسَنُّمِ هذا المُرْتَقَىٰ الصعب دون تأهُّل .

ثمَّ إنْ كنت صادقًا فأين همتك في طلب العلم؟ ، وأين نشاطك في التلقي؟ ، وأين قراءتُك الكثيرة؟ ، وأين ورعك وتقواك؟ ، أين خوفك من تَبِعَاتِ تلكَ الفتاوىٰ يومَ القيامة؟! . . فإياكَ إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها دليلٌ وإمام .

فالعِلاجُ من هذا الرَّاسب إذًا :

أن تتخلص من رواسبك الجاهلية في هذه المسألة : باسْتِشْعارِ التواضعِ ، وحُبُّ الخمولِ ؛ يعني عدمَ الظهورِ والتعالي علىٰ الناس .

تتخلص من رواسبك الجاهلية حين تعتقد أَنَّ قولك : لا أدري ؛ لا يُشِينُك ؛ فهو علم ؛ علِّمتَ أنك لا تعلم ، ونَشْرُكَ هذا الأدب بين الناس .

تتخلص من رواسبك الجاهلية : حين تجتهد في أن تتعلم بحق لا أن تحصل علىٰ كل شيء بالفذلكة و« الفهلوة» و« الأونطة» .

تَخَلَّصْ من رواسب الجاهلية : حُبِّ النفس ، والأنانية ، وعبادة الذات ؛ حينها تسكت وتقول : لا أعلم . . لا أدري . . أسألوا العلماء ؛ فلستُ منهم . . سوف أسأل وأُخبرُك . . سأبحثُ المسألة .

حين تُخلِص تَتَخَلَّص وتَسْلَم . . نسأل اللّٰهَ العافيةَ والسلامة .

❁ ❁ ❁

(٦) الانغماس في الدنيا

لم يلتزم صاحِبُنا ويدخلْ طريقَ الدِّين؛ إلا بعدَ أنْ ذاقَ مِنَ الدنيا مآسِيَها؛ فما مِنْ معصيةٍ إلَّا وهُوَ علىٰ عِلْمٍ بها؛ إن لم يكن قد ذاقها وارتكبَ منها.

أمَّا عنِ الطعام والشراب، والملابس، وأماكن اللهو؛ فحَدِّثْ وتَبَحْبَحْ ما شِئْت.. والمالُ وجمعُهُ مِن حلالٍ وحرام، وتضييعُه في لهوٍ ودنيا؛ فأيضًا مآسٍ تُخْجِل، وتَقْشَعِرُّ لها الأبدان.

التزم صاحِبُنا والحمدُ للّه. ودخلَ طريقَ الدِّين، وسلكَ سبيلَ الملتزمين، وعاش حياتهم؛ ولكنه يَجِدُ نفسَه ما زالَ عالِقًا بها حُبُّ الدنيا.. فسيارةٌ جديدة ما زالتْ تأخذُ بلُبِّه،تَلْحَظُها في تتبُّع أخبارِ السَّيارات، وأسعارِ العَقَّارات، وأحدثِ الألْبُومَات.. هُوَ وإنْ كانَ يُظهر أنه لا يُعِيرُ ذلكَ اهتمامًا؛ إلا أنهُ يَجِدُ في قلبِهِ مَيْلًا حقيقيًا يُعاني منه ويَكْتُمُه بِشِدَّة، ويتمنىٰ لو بَلَغَهُ.

إنهُ يستشعرُ في داخلهِ حياءً مِنَ اللّه؛ إنهُ يريد هذه الدنيا وما فيها مِنْ تَرَفٍ وزِينة، ويريدُ أن يَظَلَّ محتفِظًا بإيمانِهِ والتزامِه، ويشعرُ أنَّ هذا إشكالٌ لابدَّ لهُ مِنْ حَلّ، إنَّه يعيشُ في صِراع داخِليّ: هل يُضَحِّي بالتزامِهِ مِنْ أجلِ الدنيا أم يُضحي بالدنيا من أجلِ التزامِه؟؟؛ يتنازَعُهُ الطَّرَفَانِ وهُوَ

حائِر . . وفتحَ الشيخُ هذا الجُرْحَ وخَرَجَتْ منهُ رائِحةُ الدنيا الكريهة . .

فبدأ الشيخ العلاج فقال :

من رواسب الجاهلية : التَّكَالُبُ علىٰ الدنيا ، وشدةُ الحرصِ عليها ، وهذه لا تحتاجُ لسردٍ واقعيٍّ لمظاهرها ؛ فهل يخفىٰ علىٰ أحد شأنها؟! ، وهل دَبَّ الوَهَنُ إلا من حبِّ الدنيا . . وما تكالبَ أعداءُ الإسلام علينا إلا لمَّا شُغِلَ الناسُ بدنياهم عن دينِهم ، وفُتنوا بالدنيا فلم يَعملوا للآخرة ، وصارت كُلُّ آمالِهم وأحلامِهم وتصوراتِهم من نسيج الدنيا ، وكأنَّها دارُ الخلود ، وكأنهم لم يُخلقوا إلا لجمع حُطامِها الفاني .

ودخلَ الإِخوةُ الملتزمون بَحْرَ الدنيا الهائج . . فمنهم من غَرِقَ فمات . . نعم : ماتَ قلبُه فلم يَعُدْ إلىٰ الالتزام . . ومنهم مَنْ خرجَ وعاد ؛ ولكنه حتىٰ الآن يبحث عن قلبِهِ فلا يجدُه . . ومنهم مَنْ هو ما زال في البحر إلىٰ الآن تتلاعبُ به أمواجُ الفتن ؛ فتارةً علىٰ الشَّطِّ وتارةً في عُمْقِ البحر . . ولا ندري كيفَ تكونُ نهايتُه . .

لكنْ نهايةُ مَنْ آثرَ الدنيا علىٰ الآخرةِ معلومة . . كُلُّكم يعرفها : سوء الخاتمة - والعياذ بالله .

إخوتاه . .

إنَّ الله تعالىٰ قال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

فالدنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرّ . . إنَّ اللَّهَ تعالىٰ لَمْ يَرَ فيها ثوابًا لأوليائِه، ولَا عِقابًا لأعدائِه، وإنَّ أهل الدنيا كَرَكْبٍ بينما هم حُلُولٌ إذ صَاحَ بهم صائِحُهم فارتَحلُوا .

إخوتاه . .

الدنيا فتنة ؛ ولذلك كانت مَصَارِعُ العبيدِ منها ، فهي حَسَنَةُ المَنظر ، مُزيَّنةٌ في العيون ، آخِذَةٌ بمجامِعِ القلوب ؛ لكنها تبدو لك بوجهٍ غيرِ الذي تَوَلَّىٰ عنكَ به ، فإنها جِيفة قَذِرة في مَرْأىٰ البصائر ، وحُلْوةٌ خَضِرَة في مَرْأىٰ الأبصار .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**احذروا الدنيا ؛ فإنَّها خَضِرةٌ حُلْوَة**»(١) .

فهي وإن كانت بيتًا واسعًا ، وأثاثًا فاخِرًا ، وسيَّارةً آخر طِرَاز ، وزوجةً جميلة ، وثوبًا أنيقًا ، ومأكلًا شهيًا ، ومركزًا اجتماعيًا مرموقًا ، وهي . . وهي . . إلا أنَّ اللَّه يقول عنها وعن كل هذا الذي يلهث الناس خلفه : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

ويقول سبحانه جَلَّ جَلالُه : ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقالَ جَلَّ في عُلاه : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد»، وصححه الألباني (١٩٢) في «صحيح الجامع».

وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥].

هِيَ عند خالقها لا تَعدِلُ جَنَاحَ بعوضة . . ولحقارتها هذه قد يَمْنَعُ اللَّهُ عبدَهُ منها مخافةَ أنْ تُهلكَه ؛ ولذلك يقول ﷺ : «**إذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ**»(١) . يا سقيم ، اللَّهُ يحميك منها بصرفها عنك ؛ فلا تُتبِعْهَا قلبَك ولا تنشغل بها ؛ تَبْرَأْ من مرضك .

وقد حذَّرنا النَّبِيُّ ﷺ من مَغَبَّةِ التنافس عليها ؛ فتكونَ سببَ الهلاك ؛ قال ﷺ : «**واللَّهِ ما الفقرَ أخشىٰ عليكم ؛ ولكنْ أخشىٰ عليكم أن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا ، كما بُسِطَتْ علىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم ؛ فَتَنَافَسُوها كما تَنَافَسُوها ، فَتُهلِكَكُم كما أَهْلَكَتْهُم** »(٢) .

واعلموا – أيها الإخوة – أنَّ أكثرَ الناسِ حِرْصًا عليها هُمْ أبعد الناسِ عن اللَّه تعالىٰ ، الهالكونَ يومَ القيامة ؛ قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**اقتربت السَّاعة ، و لا يزدادُ الناسُ علىٰ الدنيا إلا حِرْصًا ؛ ولا يزدادون مِنَ اللَّهِ إلا بُعْدًا**»(٣) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٦) ، وصححه الألباني (١٦٥٩) في «صحيح الترمذي» .

(٢) جزء من حديث متفق عليه ، البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٢٩٦١) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٤) ، وحسنه الألباني (١١٤٦) في «صحيح الجامع» .

وقال ﷺ : «**فإنَّ أكثرَ النَّاسِ شِبعًا في الدنيا أكثرُهم جوعًا في الآخِرة**»[١] .

بينما الزاهدُ فيها حبيبٌ إلىٰ الرحمن ؛ قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**ازهَدْ في الدنيا يُحِبُّكَ اللَّه . .**»[٢] .

ومِمَّا قَدْ يَعْجَبُ لهُ البعض : أنَّ النبيَّ دعا لأهل الإيمان بقلَّةِ الدنيا ، ودعا علىٰ أهلِ الكُفْرَان بأنْ تَكْثُرَ لهم فينغمسوا فيها ، وأنتَ ترىٰ النَّاسَ يعيشونَ العَكْسَ بالعكس ؛ إنهمُ اليومَ يقيسونَ حُبَّ اللَّهِ للعبدِ بما لهُ مِنَ الدنيا !! . . سبحان اللَّه ! . . يَا لَلْجَهْلِ !! . .

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] .

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**اللَّهُمَّ مَنْ آمنَ بِكَ ، وشَهِدَ أني رَسُولُكَ ؛ فحبِّبْ إليهِ لِقاءَك ، وسَهِّلْ عليهِ قَضَاءَك ، وأَقلِلْ لهُ من الدنيا ، ومَنْ لَمْ يؤمنْ بِكَ ، ويَشْهَدْ أني رسولُكَ ؛ فلا تُحَبِّبْ إليه لِقاءَك ، ولا تُسَهِّلْ عليهِ قَضَاءَك ، وكَثِّرْ لهُ مِنَ الدنيا**»[٣] ؛ فهل يا تُرَىٰ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ لكَ أمْ دَعَا عليك ؟!! . . سَلْ نفسَك ماذا تحب ؟ . . وماذا تريد ؟ . . وأيهما ترجو ؟

إننا - مع شديدِ الأسف !! - لا نَعِي ذلك ، ولا نفهم هذا عن ربٌ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٤٦) ، وحسنه الألباني (١١٧٩) في «صحيح الجامع» .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) ، وصححه الألباني (٣٣١٠) في «صحيح ابن ماجه» .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/٣١٣) ، وصححه الألباني (١٣١١) في «صحيح الجامع» .

العالمين .. نَدَّعِي أننا نرجو اللَّهَ والدارَ الآخرة، وأننا أُمَّةٌ مجاهدة؛ والواقع يُكَذِّبُ ذلكَ كُلَّه؛ فحُبُّ الدنيا مُسْتَحْكِمٌ علىٰ القلوب، فقد صارت معاييرُنا وتصوراتُنا دُنْيَوِيَّة بَحْتَة؛ بل صارت خُطَط الدولِ والأممِ مِن نفسِ المنظور؛ فالغرض: الرِّفاهية.. والتَّرَف.. والرَّخاء.. وكثرةُ المَال..

ثُمَّ إنهُ لا أحدَ يتحدثُ عنِ الآخرة، إلَّا النُّدْرة؛ فكُلُّ الحِمىٰ تُنتهَكُ في سبيلِ الظَّفَرِ بالدنيا، وهذه كُلُّها جاهليات لابدَّ من تغييرها، فليس الأمر كما يعتقدون؛ فإنَّ ما عند اللَّه لا يُنَالُ إلا بطاعتِه.

قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**»[(١)]

قالَ المُنَاوِيُّ في «فيض القدير»: «والاستدراجُ: الأخذُ بالتدريج لا مُبَاغَتَةً. والمراد هنا: تقريبُ اللَّهِ العبدَ إلىٰ العقوبةِ شيئًا فشيئًا، واستدراجُهُ تعالىٰ للعبدِ أنهُ كُلَّما جدَّدَ ذنبًا جدَّدَ لهُ نعمة، وأنساهُ الاستغفار؛ فيزدادُ أَشَرًا وبَطَرًا، فَيَنْدَرِجَ في المعاصي بسببِ تواتُرِ النِّعَمِ عليه، ظانًّا أن تواتُرَها تقريبٌ مِنَ اللَّه؛ وإنما هو خُذْلَانٌ وتبعيد» اهـ.

فلا تَغْتَرَّ بصفاءِ الأوقات؛ فإن تحتها غوامِضُ الآفات، وكم مِن

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٤٥)، وصححه الألباني (٤١٣) في «الصحيحة».

مُسْتَدْرَجٍ بالإحسان ! ، وكم من مفتون بحُسْنِ القولِ فيه ! ، وكم من مغرورٍ بالسَّتْرِ عليه ! . . فاللَّهُمَّ اجعلنا هداةً مُهتدين ؛ لا ضالِّين ولا مُضِلِّين ، ونعوذُ بِكَ رَبَّنا أنْ نكونَ بِكَ مغرورين .

أخي الحبيب . . إذا أردتَ التخلُّصَ مِن رواسب الجاهلية وحُبِّ الدنيا الذي في قلبك ؛ فلا تحزنْ إذا فاتك من الدنيا شيء ؛ فإنَّك لم تُخْلَقْ لها ، وإنَّما قلبُ المؤمن متعلِّقٌ بالمعالي ، وانظر إلىٰ النبي ﷺ وهو يُرشدكَ للسَّبيل الأَقْوَم ؛ قال ﷺ: «**أَرْبَعٌ إذا كُنَّ فيكَ فلا عليكَ ما فاتكَ مِنَ الدنيا : صِدْقُ الحديث ، وحِفْظُ الأمانة ، وحُسْنُ الخُلُق ، وعِفَّةُ مَطْعَم**»(1) .

فلِمِثْلِ هذا فاعْمَلْ ؛ أنْ تكونَ صادقًا أمينًا ، خَلُوقًا عفيفًا ، ولا يَغُرَّنَّكَ ما جمعَ الجامعون ؛ فاللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعالىٰ يقول : ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة: ٢-٩].

هَوِّنْ عَلَيْكَ ولَا تُولَعْ بِإشْفَاقِ ... فإنَّمَا مَالُنَا لِلْوَارِثِ البَاقِي

إخوتاه . .

إنَّ الدنيا دارُ مَمَرٍّ ، والآخِرَةُ دارُ مَقَرٍّ ؛ فخذوا مِنْ مَمَرِّكُم لِمَقَرِّكُم ، ولا تَهْتِكوا أستارَكم عِنْدَ مَنْ لا تَخْفىٰ عليهِ أسرارُكم ، واخْرُجُوا مِنَ الدنيا إلىٰ ربِّكم قبلَ أنْ يُخْرِجَ منها أبدانَكم ؛ ففيها جِئْتُم ، ولِغيرِها خُلِقْتُم .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٧) ، وصححه الألباني (٨٧٣) في «صحيح الجامع» .

غَمِّضْ عنِ الدنيا عينَك ، ووَلِّ عنها قلبَك ، وإيَّاكَ أنْ تهلكَكَ كما أهلكَتْ مَنْ كَانَ قبلَك ؛ فقد رأيتَ مَصَارِعَها ، وعَايَنْتَ سُوءَ آثارِها علىٰ أهْلِها ، وكيفَ عَرِيَ مَنْ كَسَتْ ، وجَاعَ مَنْ أَطْعَمَتْ ، وماتَ مَنْ أحْيَتْ .

أخي . . بعدَ التزامِكَ ، وبعدَ طلبِ العلم ، وسَمَاعِ المواعظ ، ومعرفةِ خطرِ فتنةِ الدنيا ، وأهوالِ القبر والدارِ الآخرة ، ومعرفةِ قيمةِ الجنّةِ والنظرِ إلىٰ وجهِ اللّهِ الكريم بعدَ كُلِّ هذا نراكَ حريصًا علىٰ الدنيا ، مهمومًا لعدم الحصولِ علىٰ مُتعِها . . فهل ستظلُّ علىٰ هذهِ الحَال . . هل سيظلُّ قلبُكَ مُتَعَلِّقًا بالدنيا مشغولًا بزينتها طَوالَ عُمُرِك ؟! . . هداكَ مولاك وطهَّرَ قلبَك .

أيُّها الحبيب . .

إنَّ مِنْ عِلَلِ التوبة : التفاتَ القلبِ إلىٰ الذنبِ الفَيْنَةَ بعدَ الفَيْنَة ، وتَذَكُّرَ حلاوةِ مُوَاقَعَتِه ؛ فربما تَنَفَّسَ ، وربما هَاجَ هائِجُه ؛ فاحفظْ قلبَكَ لا يَلْتَفِت ، والنَّدم يَجْعَلُ الحَلاَوَةَ مُرَّة .

قد ذُقْتَ مِنَ الدنيا مَرَارًا مِرَارًا . . فلا تلتفت . . فإنَّ الآخِرَة أمامَك ، والدنيا وراءَك ، وَطَلَبُ ما وَرَائِكَ هزيمة .

العِلاج :

إذا أردتَ التَّخَلُّصَ مِنَ رواسبِ جاهليتك في حُبِّ الدنيا ؛ فلْيَتَعَلَّقْ قلبُكَ بالآخِرة ، وانْسَ أمْرَ الدنيا وما فيها ؛ يَكْفِكَ المَلِكُ آخِرَتَكَ ودُنْيَاك .

❋ ❋ ❋

(٧) الأُخُوَّة الزائفة [١]

كانَ صاحِبُنا قبلَ الالتزام له «شِلَّة» ، والشِلَّة تعبيرٌ دارِجٌ معروف في الصُحْبةِ الخاصَّة الذين لا يفترقون عندَ معصية ، ويتَوَاصَوْنَ بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسُول .

وكانَ الإخلاصُ للشُلَّةِ يَفُوقُ الحَدّ ؛ ولكنها علىٰ منافع ومصالح ؛ فمَنْ يَخُونُنِي أخونُه ، ومَنْ ينساني أنساه ، ومَنْ يتعالىٰ عليّ أتعالىٰ علىٰ أهلِهِ وأهلِ أهلِه . . صُحْبَةٌ نعم ؛ ولكنها معرفةُ سُوء تتعامل بدنيا ؛ فهيَ عداواتٌ قلبية ، وإن كان الظاهر محبَّة واهتمام .

فلمَّا التزمَ صاحِبُنا وفَقَدَ هؤلاءِ الناسِ تمامًا ؛ كانَ حريصًا كعادتِهِ أنْ يكونَ حولَهُ صُحْبة ، وكانتْ هذهِ المَرَّة صُحبةً صالحةً في الظاهر يَلْتقُون في الصلاةِ ويتصافحون ، ويَلتقُون في البيوتِ أحيانًا في وَلائِم ومناسبات واتصالات ، وما إلىٰ ذلك .

ولكنْ في داخلِهِ ما زالَ يُحِسُّ بالبُعْدِ بينَ القلوب ، وما زالَ في النفسِ شيءٌ غيرَ الحُبّ في اللّه ، وإن كان يقول ذلك بلسانه ، وما زالتْ أمراضٌ طارِئة تُطُوفُ بالنفسِ مِمَّنْ حولَهُ مِنَ الإِخْوَة الذين يَزْعُمُ حُبَّهم في اللّه -

---

(١) لعلّ كتاب «الأُخوّة» يفي بالغرض فيما أريد ؛ ولكن أردتُ هنا فقط لَفْتَ النظر إلىٰ المظهرِ الجاهلي ، وربطِهِ بجاهلياتِ الماضي ؛ لنعرِفَ من أين نُؤْتَىٰ ، واللّه المستعان علىٰ العلاج .

من حَسَدٍ، وحِقْدٍ، وتنافُس.. فشكا هذه الأمراضَ للشيخ؛ فبدأ الشيخ العِلاج وقال:

صُورةُ العَلاقاتِ الإنسانيةِ في الجاهليةِ تَدورُ حولَ «المَنْفعةِ والمَصْلحة»، والمصالحُ والمنافعُ هناكَ دُنيوية فقط، وهذا أمر بَيّنٌ في واقعِنا المعاصِر؛ فالنَّاسُ تتقرَّبُ من ذِي الجاهِ والمَنْصِبِ والمالِ والنُّفُوذ، وقد يكون فاسِقًا مَهْمُوزًا في دينِه، فلا يَضِيقُون ذَرْعًا بذلك؛ بينما يتعاملونَ بأسلوبٍ مختلفٍ تمامًا إذا افتقدوا في المرءِ منافِعَهم؛ حتىٰ وإنْ كانَ تَقِيًا وَرِعًا دَيِّنًا.

فلو تقدَّمَ رجلٌ ذو دِينٍ وآخَرُ ذو مالٍ ومَنْصِبٍ لخِطبةِ امرأة؛ فبأيِّهم يَطِيرونَ فَرَحًا، أليسَ بالثاني؛ حيث الشَّقَّةُ الواسِعة، والفِراشُ الوَثِير، والسَّيَّارةُ و.. و... إنهم يَرَوْنَ مَنفعةَ ابنتِهم حيثُ الدنيا؛ أمَّا الدين فهانَ علىٰ النَّاس.

وبهذهِ التصوراتِ الجاهليةِ الموروثةِ يَدْخُلُ أحدُهم الالتزام، فيَسْمَع عن أوثقِ عُرَىٰ الإيمان، وأنَّها: الحُبُّ في الله، والبُغْضُ في الله، ويعرِفُ فَضْلَ المُتَحابِّينَ في الله، ومكانَتَهم عندَ اللَّهِ تعالىٰ، فيلتَمِسُ ذلك، ثمَّ لا تَلْبَثُ تلكَ الرواسبُ أنْ تطفو، فتراهُ يلتمسُ من الإخوةِ مَنْ ينفعُهُ في دنياه.. والدنيا إذا دَخَلَتْ علىٰ الدِّينِ أفسدْته.. وقد رأينا وجرَّبنا.

ومِنَ المَظَاهِرِ الغريبة: أنْ تجدَ بعضَ الإخوة أَعِزَّةً علىٰ بعضِهِم البعض، أَذِلَّةً علىٰ الكافرين أو الفاسقين!!.. وقدْ قلتُ يومًا: ليت أخانا

فلانًا يعامِلُني كما يُعَامِلُ العَوَام الذين يَسُبُّونَ الدِّين في الشارع عِنْدَه ؛ فإنهُ إذا رآهم يقولُ لأحدهم : أهلًا يا فلان ، كيفَ أنتَ يا حبيبي ؟ ، وإذا قلتَ لهُ : ما هذا ؟ ! ؛ قال : هذا لتأليفِ القلوب . . ولماذا لا تؤلِّف قلبي أنا الآخر ؟ ! !

نعم . . تَجِدُهُ عزيزًا على إخوانه ، ذليلًا على الفاجرين والفاسقين . . مع إخوانِهِ لا يَقْبَلُ عُذْرًا ، ولا يَتحمَّلُ إساءة ، ولا يَغْفِرُ خطيئة . . حريصًا على ردِّ الإساءةِ بالإساءة ، والله تعالى يقول : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

إخوتاه . .

كثيرٌ مَنْ يَدَّعي أنهُ يُحِبُّ إخوانَهُ في الله ، وعندما نأتي إلى التطبيقِ العملي لهذا الحُبِّ نرى التَّبَايُنَ الكبير بينَ الادِّعَاء والفِعْل !

أخي في الله . . حبيبي في الله . .

أينَ الابتسامةُ والبَشَاشَةُ على وَجْهِكَ لأخيك ؟ ! . . أينَ المُواسَاةُ بالمَال ؟ ! ، أين المُوَاسَاةُ في الشِدَّة ؟ ! . . أين سَعْيُكَ لِمُسَاعَدَ إخوانِكَ وحَلِّ مشاكِلِهم والتخفيفِ عنهم ؟ ! ! . . أين حِرْصُكَ على أخيك ؟ ! . . أين إسْعَادُكَ له وإدْخالُكَ السُرورَ عليه ؟ !

أحدُ إخوانِكُم يقول : إنَّ سعادتي - واللهِ - أَنْ أرَى الإِخْوَة حَوْلِي سُعَدَاء . . اللَّهُمَّ أَسْعِدْ قلبَهُ بالإِيمان ، وجميعَ المسلمين والمسلمات .

قالَ أحدُ السَّلَف لأخٍ له في الله : أَنْتَ بُسْتَانُ هذه الدُّنيا ، فقال له أخوه : وأَنْتَ النَهْرُ الذي يَشْرَبُ منه ذلك البُسْتَان .

انظُرْ إلىٰ مَدَىٰ الحُبِّ والأَدَبِ والأخلاق، والأُخُوَّةِ ورِقَّةِ المَشَاعِرِ والأَحَاسِيس.. اللهمَّ اجعلْنا مِنَ المُتَحَابِّينَ فيكَ يا رب.

فأين هذه المعاني السامية؟!:

«اجلسْ بنا نُؤْمِنْ ساعة».. كَلِمَةٌ ضاعتْ!!

«إنَّ قلبي قسا فتعالَ لِتُلَيِّنَهُ لي».. عبارةٌ نُسِيتْ!!

«كيفَ حالُ قلبِكَ معَ اللهِ؟!».. لمْ نَعُدْ نَسْمَعُهَا!!

ولكن كما قيل: «افْتَضِحُوا فاصْطَلَحُوا»!!

إننا جميعًا نعرِفُ قساوةَ القلوبِ التي كنتم تشتكونَ منها.. وهذه الشَّكْوَىٰ علامةُ صِحَّة؛ لإحساسِكُم بالألم.. أما الآن؛ فلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يسألُ عنها؛ فاسودَّتْ القلوب، وخَشُنَتْ التعاملات، وبقيتْ صُحْبَةٌ كصُحْبةِ الجاهلية؛ فلا أُخُوَّةٌ في اللهِ، ولا حُبٌّ في اللهِ.

وعادَ الأَخُ الملتزمُ في عِلَاقته مع إخوانِهِ في اللهِ - بعدَ أنْ ظهرتْ رواسبُ الجاهلية - مرَّةً أخرىٰ هُوَ هُوَ كما كانَ فِي صُحبتِهِ معَ أصدقاءِ السُّوءِ قبلَ الالتزام.. عِلاقة فاتِرة، ومَصلحة دُنيوية ظاهرة.. فلا تعاونَ علىٰ بِرٍّ ولا تقوى.. فبرَدَتْ حرارةُ الأُخُوَّة وأصبحنا نعيشُ أُخُوةً زائفةً مُصْطَنَعَة.

إذا أردنا العلاج فلابدَّ من تصفيةِ الأُخُوَّةِ في اللهِ والحب في اللهِ من عَلائِقِ الدنيا.. قال يحيىٰ بن معاذ: الحُبُّ في اللهِ لا يَزيدُ بالبِرِّ، ولا يَنْقُصُ بِالجَفَاء.

والعلاجُ . . بتحديدٍ ودِقَّة في النِقاطِ التالية :

① **الإِخلاصُ للَّه** . . قال رسولُ اللَّهِ ﷺ في حديثِ السَّبْعَة : «**رَجُلانِ تَحابَّا في اللَّه ؛ اجْتَمَعَا عَلَيهِ وافْتَرَقَا عَلَيه**»[1] .

إنَّ الحُبَّ في اللَّه لا يَحْتاجُ لأسبابٍ دُنيويَّة أبدًا يَنالُ بها الأَخُ إعجابَك ؛ إنما هُوَ حُبٌّ تَبتغي به رِضَا اللَّهِ والجَنَّة .

② **تَخلَّصْ مِنْ أَهْوَائِكَ الجاهليَّة** . . وارْغَبْ إلىٰ اللَّه بقلبِكَ أن يَرزقكَ حُبَّهُ ، وحُبَّ مَنْ أحبَّهُ ، وحُبَّ كُلّ حُبٍّ يُقَرِّبُكَ إليه ؛ تكنْ بِذلكَ مِنَ الفائِزين .

③ **الإخلاصُ في الأُخُوَّة** . . عِلاجُ شكواكَ مِنْ عدمِ وجودِ أخٍ مُخْلِصٍ أمين : أن تكونَ أنتَ مُخْلِصًا أمينًا لإخوانك - والجزاءُ مِنْ جِنْسِ العمل - ؛ فيرزقَك اللَّهُ هذا المُخْلِصَ الأمينَ الذي تتمنَّاه .

④ **الوَلاءُ والبَرَاء** . . حَقِّقْ - أيُّها الأخُ الكريم - عقيدةَ الوَلاء والبَرَاء ؛ فهي أَوْثَقُ عُرَىٰ الإيمان .

⑤ **القلبُ الوَسِيع** . . إذا اتَّسَعَ قلبُكَ علىٰ الحقيقة ؛ أَحببتَ الشَّخْصَ في اللَّه ، وأبغضتَ ما فيهِ من المعاصي والمُخَالفات ؛ فلن يَفْقِدَ مُسْلِمٌ واحدٌ علىٰ ظَهْرِ الأرضِ حُبَّكَ الحقيقيَّ له في اللَّه .

❊ ❊ ❊

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٨) ترويج الإشاعات وعدم التَّثَبُّت

باتَ صاحِبُنا عِدَّةَ ليالٍ في المسجد مُعْتَكِفًا ، بِناءً علىٰ نصيحةِ الطبيبِ المُعالِج الشيخِ الجَرّاح ، وذلك بعد علاجِ الجُرُوحِ السَّبْعَةِ السّابقة ؛ فبات وقد أَثْخَنَتْهُ الجِراح ، يشكو إلىٰ اللّهِ تعالىٰ الألم ، ويسألُهُ الصَّبْرَ والشِّفاء .

وعندما بدأت جِراحُ صاحِبِنا السابقة تَنْدَمِل ؛ أتىٰ الشيخُ في هذا اليوم يريدُ أن يَفتحَ جُرْحًا جديدًا . . وجلس صاحِبُنا بين يديه ، وبعدَ تَمْهِيدَةٍ طويلة ؛ شكا صاحبنا للشيخ الشائعات التي انتشرت في أوساطِ الإِخوةِ بخصوصِه ؛ فمِنْ قائِلٍ : مريض ، إلىٰ قائِلٍ : نَكَصَ وارْتَدَّ وتركَ الالتزام ؛ حتىٰ قالَ بعضُ الناس : إنه مات .

فتبسَّمَ الشيخُ ونظرَ إليهِ بِمَرَارَة ، وذكَّرَهُ ببعضِ مواقفِهِ مِنْ رواسبِ الجاهلية فقال :

مِنَ الجاهلياتِ التي دعا الإسلامُ إلىٰ نَبْذِها : عدمُ التثبتِ والتبيُّنِ في تَلَقِّي وروايةِ الأخبار ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات : ٦] .

ولذا كانتْ أُمَّةُ الإسلامِ هيَ الأمةُ الوحيدةُ التي حَفِظَتْ آثارَ نَبِيِّها بالأسانيدِ المُتصلة ، الأُمَّةُ التي تفرَّدتْ بعلمِ الجَرْحِ والتَّعْدِيل ، وبعلمِ المُصْطَلَح ؛ الدقيقِ في كيفيةِ التلقي وعمَّن تتلقىٰ ، وطُرقِ التَّحمُّلِ والأَدَاء .

لكن اليوم فارقَ المسلمون هَدْيَ سلفِهم ، وكان المفترض أنْ يكون الملتزمون أكثرَ الناس تَحَرِّيًا وتَثَبُّتًا في تلقِّي الأخبار، وفي نقلها ؛ لكنَّ العجيب أنَّ الشائعات تنتشر بين الملتزمين بشكل يشبه أو يفوق ما يَحْدُث عند الناس . . وكم من فتنٍ وبَلِيَّات تسببَ فيها أشخاصٌ معدودون علىٰ الملتزمين ، وكم من معاركَ أُثيرت بين الدعاةِ بسبب نَقَلَةِ السُّوء ، وكأنَّ هؤلاءِ لا يعرفونَ شيئًا عن خطورةِ إفسادِ ذَاتِ البَيْن ! !

إنَّه تربَّىٰ وَسَطَ مجتمعاتٍ لا تعرِفُ هذا الخُلُقَ العِلْمِيَّ ، فسريعًا ما يتناقل النَّاس الشائعات ، ويأخذون الأخبار عن أيِّ أحد . . مجتمعات أفسدتها وسائلُ الإعلامِ الحديثة ، من صُحُفٍ وتلفازٍ وقنواتٍ فضائية ، فالنَّاسُ تصدِّق ما يُنشر أو تَبُثُّهُ هذه الوسائلُ الإعلامية ، حتىٰ ولو كان صاحبُ الخَبَرِ كافرًا أو فاسقًا .

وتجِدُ هذا الناقل قد وَضَع من الحواشي والحكايات والزيادات من بنات أفكاره أضعافَ أضعافَ ما سَمِع ؛ لتكوين «الحَبْكَةِ الصَّحَفِيَّة» ، وعاش الناس علىٰ هذا الخداع . . إنهم يُدمنون قراءة أخبار الحوادث وبريد الجمعة وما يشبههما ؛ لقراءةِ قصصٍ هم يعلمون أن معظمها «فَبْرَكَة» وتأليف ؛ ولكن تعوَّدَ الناسُ علىٰ ذلك ، ويتِمُّ تناقلها علىٰ سبيل التَّسَالي ، ثُمَّ يُرَوِّجُ لها وتُصدِّق ، ويُتَعَامَلُ معها كأنَّها حقائق .

قال اللَّهُ سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ . . .﴾ الآية [النساء: ٨٣] . . فالقضيةُ إذًا أَنْ ليس كُلُّ ما يُسمع يُقال ، وليسَ كُلُّ ما يُقال يُقالُ في جميعِ الأحوال ؛ بل لِكُلِّ مقام مَقَال . . وهناك

مِمَّا تسمعُه ما لا تفهمُه، أو ما لا تَقْدُرُهُ قَدْرَه؛ فارْجِع بالكلامِ على شيخِكَ ليضبطَ لَكَ الأَمْر.

وإياكَ والنَّمِيمَة، وهي نقلُ الكلامِ على جِهةِ الإفساد؛ فإن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّة نَمَّام**»، وفي رواية «**قَتَّات**»(١).

فنقلُ أيِّ كلام أو أخبار أو حتىٰ نِكَات وطرائف من نتيجتها الإفساد بين الناس؛ يَحْرِمُكَ من الجنَّةِ التي التزمَت مِن أجلِها، وتسعىٰ للحصول عليها، وتَسألُ اللَّه إياها؛ فتخسَرَها بأعمالِك.. أخي: أَمْسِكْ عليكَ لِسَانَك.

أيها الإخوة..

هذا أمرٌ ينبغي أنْ يراجعَهُ كُلٌّ مِنَّا مع نفسه، فممَّن نتلقىٰ الأخبار؟، وكيف نستوثق من صِحَّة الخَبَر؟، ومتىٰ يجوزُ الأخذُ عن المخالفِ في المِلَّةِ أو المُبتدع؟

إنَّ تطبيقَ قواعدِ «الجَرْحِ والتَّعْدِيل» من شأنِها أنْ تَضْبِطَ هذهِ الأمور؛ لكنْ بعيدًا عن سوء استخدام مَنْ يستمسك بهذه القواعد لِلْقَدْحِ في العلماء والدُّعاةِ والإِخوة.

فاتقوا اللَّهَ - أيها الملتزمون - وقَدِّرُوا خُطُورةَ الكَلِمَة.. فكلمةٌ لا تُعطون لها بالًا؛ قد تَتَسَبَّب في إيقادِ فِتَنٍ نحنُ في عافيةٍ منها.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**إن الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تعالىٰ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ ؛ فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلىٰ يَوْمِ القِيَامَة ، وإِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تعالىٰ مَا يَظُنُّ أَنْ تبلُغَ مَا بَلَغَتْ ؛ فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلىٰ يَوْمِ القِيَامَة**»[١] .

وقال ﷺ : «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِه**»[٢] . . فَلْيَسْلَمِ المسلمونَ مِنْ لسانكِ ، عساكَ أَنْ تَسْلَمَ مِنْ أَلسنتِهم ، وهل يَكُبُّ النَّاسَ علىٰ وجوهِهم في النار إلا حَصَائِدُ أَلسنتِهم؟!

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ القَوْل**»[٣] .

<u>ومَعْنَىٰ الحديث</u> : «أي شِدَّةُ هَلَكَة لِمَنْ لا يَعِي أوامرَ الشارع ولم يتأدب بآدابه ، والأقماع جمع قِمْع : وهو الإناء الذي يُجعل في رأس الظرف ليُملأ بالمَائع . شَبَّهَ استماعَ الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يَعْملون به - بالأقماع التي لا تَعِي شيئًا مما يُفْرَغ فيها ، فكأنه يَمُرُّ عليها مُجْتَازًا كما يَمُرُّ الشرابُ في القِمْع كذلك» .

وقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**كَفَىٰ بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»[٤] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٩) وصححه الألباني (١٦١٩) في «صحيح الجامع» .
(٢) متفق عليه ، البخاري (١٠) ، ومسلم (٤١) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٦٥) ، وصححه الألباني (٨٩٧) في «صحيح الجامع» .
(٤) أخرجه مسلم (٥) .

إخوتاه . .

إنَّ رواسبَ الجاهليةِ حِينَ تسيطرُ علىٰ الأخِ الملتزم ؛ تصيرُ أخلاقُهُ القديمةُ هِيَ الحاكِمَة ؛ فإنَّه لا يُمْكِنُ أنْ يَسْكُت ؛ بل هُوَ مُتَفَلِّتُ اللِّسان ، لا يَرْقُبُ في مؤمنٍ إلًّا ولا ذِمَّة . . يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاء في أخبارٍ تُتَنَاقَل ، ورواياتٍ تَنْتَشِر ، وشائعاتٍ تَتَفَشَّىٰ . . يُؤْذِي بها ، وتتخرَّبُ بها بُيُوت ، وتَفْسَدُ بها عَلاقات . . وما ذاكَ إلَّا لِأنَّ لسانَ الأخِ جاهليٌّ غيرُ مُلْتَزِم .

فتُبْ - أخي الحبيب - ، وأمْسِكْ عليكَ لِسانَك ، ولْيَسَعْكَ بيتُك ، وابْكِ علىٰ خطيئَتِك ، تِلْكَ سبيلُ النجاة ، وَصَفَها لك حبيبُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ .

يا أيُّها المُلْتَزِم . .

اتقِ اللَّه وتَثَبَّتْ في تَلَقِّي الكلام ونقله . . ولا تَزِدْ . . وإلَّا فَحَاصِرِ الكلام بالصَّمْتِ التَّام ، قال الحبيبُ النَّبِيُّ ﷺ : **«ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ»**[(١)] .

والعلاج :

١ **للكلامِ أُصُول** : تعلَّمْ أحكامَ التَّلَقِّي في عِلْمِ مُصْطَلحِ الحديث .
٢ **الأَدَب** : الدُّرَّةُ المَفْقُودَةُ .
٣ **حِفْظُ الأَمَانَةِ** : بحفظ السِّر .
٤ **انْشَغِلْ بنفسِك** : «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيه» .

❋ ❋ ❋

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

(٩) عدم النصيحة وعدم قبولها

كانَ صاحِبُنا قبلَ الالتزام يعيشُ علىٰ مَبْدَإٍ مع أصحابِهِ، وفي بيتِهِ معَ أهلِه، ومعَ جيرانهِ وأهلِ مَنطقتِه: طالما لَمْ أتعرَّضْ لَكَ فلا تتعرَّضْ لي، دَعْنِي أفعلْ ما أَشَاء طالمَا تركتُكَ تفعلُ ما تُريد.. وإذا ما خاطبهُ أحدٌ يومًا بنصيحةٍ أو برأيٍ؛ فالرَّدُّ غالبًا إشَاحَةُ الوجهِ، وتَلْوِيحٌ باليدينِ، وصُرَاخٌ مرتفع «دَعُوني وشأنِي؛ أنا أعرِفُ مَصْلَحَتِي، لَمْ أَعُدْ طِفْلًا أنا كَبِرْتُ وأَفْهَم».

وعاشَ صاحِبُنا حياتَهُ «بالطُّولِ والعَرْض»، لا يُنْصِتُ لأحدٍ، ولا يَقْبَلُ مِن أحدٍ كبيرًا كان أو صغيرًا، وفي نفس الوقت لا يتعرَّضُ لأحدٍ أبدًا؛ دائمًا كانَ شعارُه «وأنا مالي خَلِّيني في حالي».

ودخلَ صاحِبُنا طريقَ الالتزام، وفُوجِئ من أولِ يوم بالنصائح تَنْهَالُ عليه من هنا وهناك، وكانَ غالبًا ما يُحَمْلِقُ بعينهِ ويَفْغَرُ فاهُ، أو يبتسمُ ابتسامةً بَلْهَاء مِنْ تَجَرُّؤِ هؤلاءِ عليه، فَيَمُطُّ شفتيهِ مُمْتَعِضًا وينصرِف.. مازالت نفسُ النفسيةِ «أنا لستُ صغيرًا.. مالهم ومالي».

ثُمَّ تحوَّلَ صاحِبُنا بعدَ ذلكَ إلىٰ مرحلةٍ جديدةٍ بعدَ شيءٍ مِنَ الجُرْأَةِ والجَدَلِ الدائم، والرَّدُّ علىٰ كلِّ من يَنصح؛ بأن يَعيبَ عليه شيئًا هُوَ يراهُ فيه.

وكانتْ فُرصةً أنَّهُ تحتَ مَشَارِطِ الشيخِ ومِقَصَّاتِه ، وفي يدِ الشيخِ البَلْطَة يَبْتِرُ بها عِنْدَ اللّزُوم . . فشكا لهُ هذا المرضَ الجاهليَّ طالبًا الإنقاذَ في بذلِ النصيحةِ وقَبولِ النصيحة ، فقال الشيخ :

تَجْرِيدُ النصيحة : أَدَبٌ غائِبٌ بينَ المُلْتَزِمين ؛ فنادِرًا ما تَجِدُ مَنْ يَنْصَح ، وإذا نصحَ فنادِرًا ما تَجِدُ مَنْ يَقْبَلُ بتواضعٍ وسَعَةِ صَدْر . . ثم نادِرًا ما تَجِدُ ناصِحًا للّه . . بل دائمًا هَوَىٰ النفس ، أو دوافعُ أخرىٰ مثل : حُبُّ انتقاصِ الآخَرِين والتقليلِ من شأنِهِم ، أو الحِقْدُ والحَسَد ، أو التَّرَفُّعُ والغُلُوّ . . قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ : **«الدِّينُ النصيحة ، قلنا : لمن ؟ ، قال : لِلّهِ ولِكتابهِ ولِرسولهِ ولِأئمةِ المسلمينَ وعَامَّتِهِم»**[1] .

وكانَ ﷺ يأْخُذُ البَيْعَةَ علىٰ الصلاةِ ، والزكاةِ ، والنصيحةِ للمسلمين ؛ فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ قَالَ : بَايَعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ عَلَىٰ إقامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ[2] .

لذلكَ لمَّا خطبَ جريرُ بنُ عبدِ اللّهِ النّاسَ يومَ ماتَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ ؛ كانَ مِمَّا قال : أما بعدُ ؛ فإني أتيتُ النبيَّ ﷺ قلتُ : أبايِعُكَ علىٰ الإسلام ، فشَرَطَ عليَّ : والنُّصحِ لكُلِّ مُسلم ؛ فبايعته علىٰ هذا ، وربِّ هذا المسجد ؛ إني لناصِحٌ لكم ، ثم استغفر ونَزَل .

وجَعَلَ ﷺ من حقوقِ المسلمِ علىٰ أخيه : أنْ ينصحَ لهُ إذا اسْتَنْصَحَه ؛

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٥٧) ، ومسلم (٥٨) .

فقالَ ﷺ: «حقُّ المسلمِ علىٰ المسلمِ سِتٌّ، قيل: ما هُنَّ يا رسولَ اللَّه؟؛ قال: «إذا لَقِيتَهُ فسلِّمْ عليه، وإذا دعاكَ فأجِبْه، وإذا اسْتَنْصَحَكَ فانْصَحْ لَه، وإذا عَطَسَ فحَمِدَ اللَّهَ فشَمِّتْه، وإذا مَرِضَ فعُدْه، وإذا ماتَ فاتَّبِعْه»[1]

فهيَ حقوقٌ وواجباتٌ تغافلنا عنها وَسَطَ زِحَامِ الأهواء.

قالَ الإمامُ النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قوله ﷺ: «وإذا اسْتَنْصَحَك» فمعناه: طلبَ منكَ النصيحة؛ فعليكَ أن تنصحهُ ولا تُدَاهِنَهُ ولا تَغُشَّهُ ولا تُمْسِكَ عن بيانِ النصيحة، واللَّه أعلم» اهـ.

وقدْ كانَ سلفُنَا يعظِّمون قَدْرَ النصيحة، ويَتَواصَوْنَ بها.

قال الفضيل بن عياض: ما أدرك عندنا مَنْ أدرك بكثرة الصلاة والصيام؛ وإنما أدرك بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للَّه.

إخوتاه..

تركُ «التَّناصُحِ في اللَّه» من رواسب الجاهلية؛ فالمسلم - والملتزم خصوصًا يسأل أخاه دائمًا أن ينصحَه، ويُشيرَ عليه في أمرِ دينِه؛ ولكن - للأسف! - صار الكُلُّ يُدَنْدِنُ بشعاراتِ الجاهلية من نَحْو: «أنا حر»، «ما لكَ بي؟»، «اجْعَلْها لنفسِك!».. وعلىٰ الوجه الآخَر: (وأنا مالي؟) (دَعِ المُلكَ للمالِك) (دعْنَا في حالنا) (أتريدُ أن تُعَدِّل نظامَ الكون؟!).

ومِنَ المُلاحَظِ بينَ الإِخوة: أنَّهم صاروا لا يتناصحون، وإذا تناصحوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢).

فعلىٰ وِجْهَةٍ مُخَالِفَةٍ لِهَدْي سلفِنا الصَّالح ؛ فالبعضُ ينصحُ أخاهُ أمامَ الناسِ بأسلوبٍ لاذِعٍ .. فلمَّا لم تَصْفُ القلوب ؛ نُزِعَتْ المحبةُ مِنَ الصدور .

وتَحْتَ أَلْوِيَةِ التحزبِ صاروا يتبادلون التُّهَم ، ويُسيئون الظنَّ ببعضِهِمُ البعض ؛ فلم يَعُد أحدٌ يَقبلُ النصيحة ، وإن قَبِلها فعلىٰ مَضَضٍ ، وكما قيل: أتعرِفُ مَنْ يَنْصَح ؟ ؛ قال: أَتَجِدُ مَنْ يَقْبَل ؟!

والبعضُ الآخَر يتركُ نُصْحَ أخيهِ بِدَعْوَىٰ الحَيَاء، وبدعوىٰ عدمِ الإيذاء، وعدمِ الإحراج، وبدعوىٰ عدمِ إيغارِ الصدور .. وبدعوىٰ .. وبدعوىٰ .. وليس هذا بخُلُق أهلِ الدِّين ، ولا علىٰ هذا حَفِظُوا بَيْعَةَ رسُولِ اللّهِ فيهم .. فاللَّهَ اللَّهَ في دِينِكُم - أيها المُلْتَزِمُون .

العِلاج :

١. الشَّجَاعَةُ الأَدَبِيَّة .. فلا تَسْتَحِ مِنْ الحَقّ ؛ فالسَّاكِتُ عَنِ الحَقِّ شيطانٌ أَخْرَس .
٢. أَدَبُ النُّصْح .. أَنْ يَكونُ سِرًّا وبلا شَمَاتَة ؛ بل بِإِخلاصٍ وصِدْقٍ ؛ يَنْفَعُ اللَّهُ بك .
٣. تَعَلَّمْ قَبُولَ النُّصح .. بَصْدرٍ وَاسِع ، وتَفَهُّمٍ لِقَصْدِ النَّاصِح ، وحُسْنِ ظَنّ .

إخوتاه ..

تَنَاصَحُوا تُؤْجَرُوا .. تناصحوا وأعيدوا هذا الأدبَ السُّنِّيَّ إلىٰ حَظِيرَةِ الصَّحْوَة .. تناصحوا وتخلَّصُوا من رواسبِ الجاهلية التي تأصَّلَتْ : أَلَّا تَنْصَح ، ولا تُحِبَّ أنْ تُنْصَح .

❁ ❁ ❁

(١٠) نَقْضُ العَهْد وخُلْفُ الوَعْد

«أنا حُرّ» «علىٰ كيفي» «علىٰ مزاجي» . . كلمات علىٰ لسان كثير من الشباب ، وهو يعتقد أن التزامه بوعدٍ قطعه علىٰ نفسه ، أو واجب تحتم عليه ؛ نوع من القيود التي ينبغي أن ينفك عنها أو يتهرب منها .

كذا نشأ صاحبنا معروفًا عنه أنه لا يفي بوعدٍ ولا يَصْدُقُ في موعد ، وإذا عُوتب أو هُوجم لم تكن له إجابة إلا : أنا حر أفعل ما أشاء .

والتزم صاحبنا وعرف أن الالتزام قيدٌ كبير . . عرف معنىٰ كلمة «مُكَلَّف» في الشرع ؛ وأنَّ الأوامر الشرعية تكاليف ، وأن الالتزام انضباط ؛ ولكنَّ رواسب الجاهلية الخطيرة في قلبه ما زالت تتفشىٰ وتنتشر ، تغلُب عليه وهو يجاهدها . . فشكا للشيخ صعوبة الالتزام بوعوده ومواعيده . . غاية في المشقة والتعب أن يفي بوعدٍ أو عهد . . ويجد نفسه دومًا تميل للتفلت والتملُّص ، فماذا يفعل وكيف يلتزم بكلمة «ملتزم»؟

وبدأ الشيخ علاج هذا المرض فقال :

قال اللّه تعالىٰ - في وصف أهل الإيمان الأبرار - : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «إنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإيمان»[١]، وحُسْنُ العهد يَعني: الوفاء ورعاية الحُرْمَة. وكان ﷺ يقول: «إني لا أَخِيسُ بالعهد..»[٢]، أي لا أنقُضُهَ ولا أُفسِدُه.

ومن علامات الاستفهام الكبيرة في حياة بعض الملتزمين أنّه لا يكاد يفي بعهدٍ أبدًا، ولا يَصْدُقُ في ميعادٍ مطلقًا!!، مع أننا جميعًا نعرف أنَّ عدم الوفاء بالوعد من خصال المنافقين، وأنَّ مَنْ وعدَ أخاه وأخلفه بلا عذرٍ؛ فهو آثم.

ألَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[٣]؟!!

ألَمْ يَقُلْ ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَه، و لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَه»[٤]؟!!

إخوتاه..

تدرونَ لِمَ تسلط أعداءُ الإسلام علينا في هذا الزمان؟!.. تدرونَ لماذا سقطت فلسطين والعراق وأفغانستان، ومن قبلُ الأندلس وغيرها من أراضي الإسلام المسلوبة؟!.. تدرونَ لماذا؟!

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢)، وحسنه الألباني (٢٠٥٦) في «صحيح الجامع».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥٨)، وصححه الألباني (٢٥١٠) في «صحيح الجامع».

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٣٥)، وصححه الألباني (٧١٧٩) في «صحيح الجامع».

إنَّ أحد أهم الأسباب الخطيرة لذلك أنَّ المسلمين فقدوا أخلاقَهم التي ربَّاهم عليها النَّبِيُّ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فصار منهم الخائن، والغشاش، والأناني، والظالم، والكذاب، والمنافق، و . . .، فلمَّا نقضوا عهدهم مع ربهم، ولم يُوَفُّوا حقَّ اللَّه عليهم؛ سلَّطَ اللَّه عليهم عدوَّهم فأخذهم بالصَّغار والمَهانة فاستعبدهم، وما ربُّك بظلام للعبيد، قال رسولُ اللَّه ﷺ:

«مَا نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ؛ إِلَّا سُلِّطَ عليهم عَدُوُّهُم»(١).

والغريب العجيب: ألَّا تجد صدًى واقعيًا لدعوة المخلصين من أهل العلم، بضرورة أنْ يتكاتفَ الجميع لنُغيِّر ما حلَّ بأنفسنا من جاهليات عمياء، أفقدتنا هُويتنا، وأبعدتنا عن ديننا وأخلاقنا.. فإلىٰ متىٰ يا أهل الحق تَسكتون؟!!.. اللَّهم إليك المشتكىٰ.

إخوتاه.. لقد التزمتم علىٰ عهودٍ ووُعُودٍ أوَّلًا مع اللَّه تعالىٰ، فهلَّا حافظتم علىٰ عهدكم معه؟!.. هلَّا وفَّيتم بأماناتكم؟!.. قال تعالىٰ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

يشكو الأخ قسوة قلبه.. عرفنا داءك: «نقض العهد»؛ فاعرف دواءك: «أَوْفِ بِعَهْدِكَ».. والآيةُ أمامَك.

وإنَّما كان نقض العهد من العبد لجاهليةٍ في قلبه، لم يتخلص منها، فهو ما زال ذلك الفتىٰ المعجب بنفسه؛ فله حقٌّ علىٰ كل أحد ألا يَبخَسَهُ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥)، وحسنه الألباني (٣٢٤٠) في «صحيح

حقَّه، وليس لأحدٍ عليه حق، يطالب بحقوقه ولا يفي بواجباته!؛ فهو حر يفعل ما يشاء، وإذا ذُكِّر بعهوده ووعوده فأُصْبُعُهُ جنبَ عينه، ويده في وسطه يقول: «كما أريد.. بمزاجي!».

لا يا أخي الحبيب.. لا يا أيها الملتزم.. لا يا سُنِّي.. بالأصول كما قال رسول الله ﷺ: **«المسلمونَ عِنْدَ شُرُوطِهم»**[1].. فأوف بعهدك، وانسَ جاهليتك، وأصلح معاملتك - أصلح اللّه حالنا وحالك.

فإذا أردتَ علاج هذا المرض: فاعرف أَوَّلًا: أن الوفاء بالعهد من الإيمان، وأن خُلْفَ العهد والوعد بغير عذر معصية يُعاقِب عليها الرَّبُّ سبحانه وتعالىٰ.

ثانيًا: أنه كما أن لك حقوقًا فعليك واجبات، وأنك لست أفضل من أحد، ولا فوق مرتبة البشر؛ بل اعلم - كما قال أبو إسماعيل الهروي في منازل السائرين -: «قَلْبُ الفُتُوَّةِ وإنسانُ عينِها ألا تَرَىٰ لك حَقًّا، ولا تَشْهَدَ لكَ فَضْلًا».. هذه هِيَ الفتوة، والرجولة، والشهامة، والصدق الحقيقي.

ثالثًا: يجب أن تتطهر من عبادة الهوىٰ؛ فليس كُلُّ شيءٍ بهواك وعلىٰ مرادك؛ بل أنت عبد مكلف مأمور تنفذ أوامر الرَّب؛ فلا تعبد نفسك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الترمذي (١٣٥٢)، وصححه الألباني (٦٧١٥) في «صحيح الجامع».

(١١) المبالغة والتهويل

اعتدل صاحبنا في جِلسته، وأقبل علىٰ الشيخ بوجهه وقد قطع شَوْطًا طويلًا في العلاج، وبذل مجهودًا مضنيًا، وصبر صبرًا طويلًا، فقال للشيخ متسائلًا: ما رأيك؟

فقال الشيخ: خيرًا يا بُنَيّ؟

قال: هل صِرْتُ الآن طاهرًا كالصحابة؟

فاندهش الشيخ من السؤال وقال: يا بنيَّ هذه آفة جديدة ظهرت، أو هما آفتان، أو قل: ثلاثة.. نبدأ بالأخف وهي المبالغة والتهويل في الإطراء والثناء.

فابتسم صاحبنا وتذكر هذا الجرح.. وفتح الشيخ الجُرح وبدأ يستخرج في الجفنة ألفاظ المبالغات:

كان صاحبنا قبل التزامه لا يتعامل إلا بألفاظ: سعادة الباشا، وفلان بك، وكان فلان: أستاذًا ورئيس قسم في التهريج، وفلان: دكتوراه ودراسات عليا في النُّكت، وفلان: الأول علىٰ مستوىٰ العالم في النسيان، وفلان فذلوكة الفذاليك... إلخ.

ودخل الالتزام وكان لسانه لا يزال يزل بالبك والباشا ثم تعود اصطلاحات الإخوة؛ ولكن مع شيءٍ من المبالغة أيضًا؛ ففلان شيخ

الشيوخ وأستاذ الأساتذة، وفلان فلتة من فلتات الزمن وعجيبة من عجائب الدهر.. وهكذا..

ومع التَّمرسِ ومرورِ السِّنين: فلان ابنُ تيميَّة عصرِه وفارس أحلام دهره.. وفلان لم تَرَ عينٌ مثله ولم يَرَ مثلَ نفسه.. وزادت الأُطروحات وكثرت المبالغات، وزادت الأوهام.. وصاحبنا ينتظر أن يقال له مثل ذلك؛ بل ويستحث من أمامه ويستدفعه أن يبالغ في الثناء عليه.

واكتشف صاحِبُنا أنَّ هذا مرضٌ خطير، وداءٌ عُضَال يحتاج إلى اجتثاث؛ وهنا اضطُرَّ الشيخ إلىٰ استعمال البلطة لاستئصال أصل الداء في مبالغة الأوصاف؛ ليعود إلىٰ طبيعة الإنصاف، ثم قال الشيخ:

تِلْكُمْ آفةٌ آفتنا، ومصيبةٌ أصابتنا.. شاعت وانتشرت في أوساط الملتزمين.. من مظاهرها: الإفراط في المدح والثناء، والغلو في الأوصاف لكل من هبَّ ودبَّ؛ فهذا: فضيلة الشيخ فلان، وذاك: سماحة الشيخ فلان، وحضرة الأخ فلان..

وكثيرًا ما تسمع: هذا الأخ فقيه!!.. وهذا بحرٌ علَّامة!!.. وذاك حَبْرٌ كبير.. منذُ زمنٍ وذاك يُرَىٰ العلمُ بين عينيه!!.. وهذا حفِظَ الكتب الستة!!، وهذا انتهىٰ من قراءة موسوعات الفقه الضخمة!!.. وغالبًا ما يكون ذلك كُلُّهُ غير صحيح.

إننا - وللأسف!! - أُمَّةٌ افتقدت الأعمال الكبيرة التي تفتخر بها؛ فاخترعت الألفاظ الكبيرة تتلهَّىٰ بها.. نعم: ربَّما افتقد الإخوة القدوات فراحوا يتلمسونها ولو بالأماني، ولو بالدَّعوَىٰ؛ لكن هذا لا ينتج إلا

فسادًا. وقد رأينا مِنْ أصناف المغرورين الذين خدعهم هذا الكلام فصدَّقوه، وعاشوا الوهم الكبير - وَهْمَ الالتزام ووَهْمَ المَشْيَخَة -، بعدما امتلأت آذانهم من الألفاظ الكبيرة.

فصار يتعامل من منطق ما يَسمع، وإن كان هو في قَرَارَةِ نفسه يعلم أنه ليس له في كل هذه الأوصاف أيُّ نصيب.

فلنقتصرْ علىٰ العبارات البعيدة عن التكلف والمبالغة؛ حفاظًا علىٰ قلوب إخواننا، ورعايةً لحال الصحوة درءًا للمفاسد.. تقول: أخي فلان، أو نحوها من العبارات التي لا تحمل في طَيَّاتها إفراطًا في الثناء.. ولا نَعْمَدُ إلىٰ الإخبار دون أنْ نستوثق؛ حفاظًا علىٰ القلوب؛ فإنها ضعيفة، والفتن خطَّافة.

قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالتَّمَادحَ؛ فَإِنَّهُ الذَّبحُ»**[1].

وعَنْ أَبِي مَعْمَرٍ قَالَ: قَامَ رَجُلٌ فَأَثْنَىٰ عَلَىٰ أَمِيرٍ مِنْ الأُمَرَاءِ، فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ التُّرَابَ، وَقَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْثُوَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ[2].

وعن أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: أَثْنَىٰ رَجُلٌ عَلَىٰ رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **«وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»** مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: **«مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ،**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٤٣)، وصححه الألباني (٣٠١٧) في «صحيح ابن ماجه».

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٧١٤)، ومسلم (٣٠٠٢).

وَلَا أُزَكِّي عَلَىٰ اللهِ أَحَدًا ، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ»[1] .

فتأمل قولَ رسول اللَّه - هو المُرَبِّي ، بأبي هو وأمي ، لم أر أحسنَ منهُ معلمًا - . . إنهُ يعالج غرور السامع بقوله : «أحسبه» ؛ لكيلا يُعجب ، فالظنُّ بالقائل قِصَرُ النظر ؛ فإنه إنما يرىٰ الظاهر ، واللَّه عليمٌ بالسرائرِ والضمائر . . وتأمل أيضًا - حبيبي في اللَّه - قوله ﷺ : **«إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذلك منه»** ؛ فلابد من العلم .

وآفة الآفات في هذه الأيام : شائعات تنطلق . . وكلمات تتناقل . . دون أدنىٰ علم . . ولا أقل خبرة .

لما سأل عمرُ عن رجلٍ يُريد مَن يُزَكّيه ؛ قال رجل : أنا أعرفه ، فقال له عمر : هل صحِبتَهُ في السفر فعرفتَ مُدْخَلَهُ ومُخْرَجَه ، وسَبَرْتَ غَوْرَ سِتْرِه؟ ، قال : لا ، قال : هل عاملته بالدينار والدرهم ؛ فعلمتَ أمانته وصدقه وحفظه؟ ، قال : لا ، قال : إذًا لعلَّكَ رأيته في المسجد يقومُ ويقعد؟ ، قال : نعم ؛ قال : اذهب فإنك لا تعرِفُه .

إنَّ رسول اللَّه ﷺ أمرك ألا تتحدث إلا بعلم . . وها هو عمر رضي الله عنه قد فَصَّلَ لك كيف تَعلم ؛ فلا تتكلم ، ودعك ممن يقولون : قالوا ، وسمعنا ، وبَلَغَنا . .

وانظر إلىٰ هذا أيضًا : لمَّا جاء وفد بني عامر لرسول اللَّه ﷺ ، فأراد أحدهم أن يُثنِيَ علىٰ رسولِ اللَّه ﷺ فقال : أَنْتَ سَيِّدُنَا ، فَقَالَ ﷺ :

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) .

«السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، فقال: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ ﷺ: **«قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»**[1]؛ فنهاهم عن المبالغة.

قال العلماء: قوله ﷺ: **«ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشيطان»** يَعْنِي: «أي لا يتخذنكم جَرِيًا أي كثير الجري في طريقه ومتابعة خطواته، وقيل هو من الجراءة بالهمزة أي لا يجعلنكم ذوي شجاعة وجرأة علىٰ التكلم بما لا يجوز» اهـ.

وقال ابنُ الأثير: «أي لا يغلبنكم فيتخذكم جريًا أي رسولًا ووكيلًا، وذلك أنهم كانوا مدحوه فكره لهم المبالغة في المدح فنهاهم عنه. والمعنىٰ تكلموا بما يحضركم من القول، ولا تتكلفوه كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون علىٰ لسانه» اهـ.

وقال السِّنْدِيُّ: «أي لا يستعملنكم الشيطان فيما يريد من التعظيم للمخلوق بمقدار لا يجوز» اهـ.

إخوتاه..

لقد كان الصديق أبو بكر رضي الله عنه إذا مُدِحَ قال: «اللَّهم أنتَ أعلمُ بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللَّهم اجعلني خيرًا مما يَحْسَبُون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون».. فالزمها عسىٰ اللَّهُ أنْ يداويَ بها قلبك من فرط الثناء.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الألباني (٤٠٢١) في «صحيح أبي داود».

وإنَّما كان فرط الثناء والمدح نتيجة رواسب الجاهلية ؛ لأننا تَعَوَّدْنا ذلك في مجتمعاتنا ؛ أنَّنا إذا أحببنا شخصًا رفعناه فوق منزلته ، واخترعنا له ألفاظًا وألقابًا ، بل وصفاتٍ ومناقبَ ، بل وأعمالًا ومشاريعَ ونَسَبًا ونِسْبَة ، علىٰ طريقة «علي بك مَظْهَر» ، وصار الجميع في مجتمعاتنا يتبنىٰ هذه الشخصية الخيالية . . وإذا غضبنا علىٰ إنسان خسفنا به وبأعماله وبمحاسنه الأرض .

فأين الإنصاف يا أهل الالتزام؟ . . أين أنتم من قول اللّٰه تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] .

كن من المنصفين ، ولو علىٰ نفسك وأعدائك . . إنْ فعلتَ فقد تخلصتَ من خصلة سيئة ، وشيئًا فشيئًا ستتخلص من هذه الآفات وتنعم بلذة الإيمان وحلاوته .

وإذا أردنا العلاج الحقيقي لهذه وكثيرٍ من أمثالها ؛ فلنرجع إلىٰ السبب الحقيقي : اللسان الذي يَكُبُّ الناسَ علىٰ مناخرهم في جهنم . . فإذا أردت العلاج الحقيقي ففي أمرين لا ثالث لهما :

(١) الإمساك عن فضول الكلام

(٢) الإمساك عن فضول مخالطة الأنام

اعلم إذًا أَنَّ القضيةَ إذا كانتْ تنتهي في كلمتين ؛ فالثالثةُ فُضُول . . وهذه الفُضُول مَشْغَلَةٌ للعقل ، فَضْلًا عَمَّا يَحُفُّ بها مِنَ المُحَرَّمَات ؛ فيكونُ فُضُولُ الكلامِ قَاتِلًا للإِيمان .

ومِنْ علاماتِ الإفلاس الاستِئْنَاسُ بالناس . . وإذا رأيتَ نَفْسَكَ تَأْنَسُ بالخَلْقِ وتَسْتَوْحِشُ مِنَ الوَحْدَة ؛ فاعْلَمْ أَنَّكَ لا تَصْلُحُ لَهُ سبحانه وتعالىٰ .

فاقْطَعْ مُخَالَطَتَكَ بالبشر . . حَجِّمْهَا . . قَيِّدْهَا . . إِلَّا في حُدُودِ المَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ الظَّاهِرَة . . وإِلَّا فإِنَّ أنفاسَ بني آدمَ دُخَانُ القُلُوب . . ولا يَزالُ القَلْبُ يَمْتَصُّ أَدْرَانَ أنفاسِهم حَتَّىٰ يُقْضَىٰ عَلَيْه .

نعم : الخُلْطَةُ والكلام سُمَّانِ قاتلانِ من سُمُومِ القلب . . **فانجُ بنفسك بتَخجِيمِ عَلاقاتِك ، وتَلْجِيم لسانِك** . . واللَّهُ المستعان .

❋ ❋ ❋

(١٢) تضييع الوقت

لمَّا كان صاحبنا قد نشأ في بيئةٍ عادية ؛ فبالطبع في بيوتنا العادية أن الوقت هَدَر ، فالجلوس أمام التلفاز بالساعات الطويلة ، أمرٌ عادي في البيوت العادية . .

خذ مثلًا : ساعتان لمباراة كرة قدم ، وساعة للمسلسل ، قبلها وبعدها ساعة من الإعلانات ، ثم الفيلم ثلاث ساعات ، والمسرحية أكثر وأكثر ، وبرنامج السهرة لمدة ساعتين لا يقل عن ذلك . .

هذه اثنا عشرة ساعة بالتمام والكمال ضاعت في معاصٍ لا هدر ، فما بالك بساعات الهدر ! ! . .

كان صاحبنا يجلس ساهمًا شاردًا (سرحان) بالساعات . . أما عن الوقوف علىٰ النواصي والجلوس علىٰ المقاهي ، واللف والدوران بالسيارات في الشوارع لا بحثًا عن شيء ؛ فحَدِّث كما شئت . . وبمنتهىٰ البساطة تسمع كلمة «بِنْضَيَّع وقت» . .

نشأ صاحبنا وعاش حياته بهذه الطريقة . . أوقاته كلها ضائعة . . إن لم تكن في المعاصي فبلا فائدة ، وأيضًا الساعات الطويلة في التسكع للتفرج علىٰ «فاترينات» المحلات ، وساعات أخرىٰ في مكالمات التليفونات . .

التزم صاحبنا . . وبداخله كل هذه الآفات . . ما زال صاحبنا لا يعرف

للوقت قيمة . . والمشكلة ليست في تضييع وقته هو وحده ؛ إنما الإشكال الأكبر أنه يضيع وقت الآخرين معه ، والأخطر : أن يكون وقت الشيخ .

صارت الساعات تضيع أيضًا في الوقوف أمام المسجد بعد كل صلاة ، في كلام عادي وغير عادي . . وساعات طِوال تضيع في البحث عن تليفونات المشايخ ومحاولة الاتصال بهم لا لشيء ، فقط لأَطمئن وأُسَلِّم ، ولِيَخْرُجَ ليقول : كلمتُ الشيخ فلانًا .

والمهارة في تضييع الأوقات أن يبتكر كيف يقتل الوقت في مناقشةٍ عقيمة ، أو تحسس أخبار بلا قيمة ، أو في الآفة المستديمة : الغفلة المستحكمة القديمة . . أن يظل أوقاتًا طويلة يفكر في لا شيء ، أو في أحلام اليقظة ، والأماني التي تَستحيل واقعًا لا خيالًا .

ولمّا وصل الشيخ إلىٰ هذا المرض ، وحاول أن يفتح الجرح ؛ استعصىٰ عليه من مبدأ الأمر بالمبررات . . فاضْطُرَ الشيخ مرة أخرىٰ لاستعمال البَلْطَة في استئصال هذا المرض الخبيث ثم قال :

ظاهرة أيضًا من رواسب الجاهلية : «الفراغ» و«تضييع الوقت» بغير فائدة . . هذا هو حال الملتزم اليوم ، رغم أنَّ أول ما دفعه للالتزام بالدِّين حرصُهُ علىٰ عُمُرِه ، وخوفُهُ من فجأة الموت .

لكن ترىٰ أكثَرنا لا يعبأ بوقته ؛ فهو يضيِّعه يَمْنَةً ويَسْرَة ؛ فلا يعمل علىٰ أن يزداد كلَّ يوم معرفةً وقراءةً وعلمًا . . وقد قالوا : مَنْ كان يومُهُ كأمسِهِ فهو مَغْبُون ، ومَنْ كان يومُهُ أَسوأَ مِن أمسِهِ فخاسرٌ مغبون ، ومن كان يومُهُ أفضلَ مِن أمسِهِ فذاكَ المرحوم .

والأسوأ من ذلك : أنْ تراه لا يكتفي بإضاعة وقته ، بل يضيِّع وقتَ إخوانه أيضًا ، ويزداد الأمر سوءًا عندما يضيِّع وقت الدعاة والعلماء ، مع علمه بأنَّ العمر هو رأسُ مالِ السَّاعي إلىٰ اللَّه تعالىٰ .

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[1] ؛ فضرب النبي ﷺ للمكلف مثلًا بالتاجر الذي له رأس مال ، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال ، والصحة والوقت هما رأس ماله .

«فالزمن نعمةٌ جُلَّىٰ ومنحةٌ كبرىٰ ، لا يَدريها ويستفيدُ منها كُلَّ الفائدة إلا المُوَفَّقون الأفذاذ ، كما أشار إلىٰ ذلك لفظُ الحديث الشريف ؛ فقال : «**مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناس**» ؛ فأفاد أن المستفيدين من ذلك قِلَّة ، وأنَّ الكثيرَ مُفَرِّطٌ مغبون»[2] .

قالَ ابنُ القيِّم : «إذا أراد اللَّه بالعبد خيرًا أعانه بالوقت ، وجعل وقته مساعدًا له ، وإذا أراد به شرًّا جعل وقته عليه ، وناكدَه وقتَه ؛ فكلما أراد التأهُّب للمسير لم يساعِد الوقتُ ، والأول : كلما همَّت نفسه بالقعود أقامه الوقتُ وساعَدَه»[3] .

وقال في «منزلة الغَيْرَة» ، وأنَّ منها الغَيرة علىٰ الوقت :

«الغيرة علىٰ وقتٍ فات ؛ فإنَّ الوقت وَحِيُّ التَّقضِّي - أي سريع

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢) .

(٢) قيمة الزمن عند العلماء ، لعبد الفتاح أبي غُدَّة ، ط . دار السلام . القاهرة ، ص (٢٣) .

(٣) مدارج السالكين (٣/١٢٩ - ١٣٠) .

الانقضاء - أبيُّ الجانب ، بطيء الرجوع ، والوقت عند العابد : هو وقت العبادة والأوراد ، والإقبال على الله ، والجَمْعِيَّةِ عليه ، والعكوفِ عليه بالقلب كلِّه ، فالوقت أعزُّ شيء على العابد ، يَغار عليه أنْ ينقضي بدون فائدة ، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه الْبَتَّة ؛ لأنَّ الوقت الثاني قدْ استحق واجبه الخاص ، فإذا فاته وقت فلا سبيل إلى تداركه»[1] .

وكان السلف يغارون أشدَّ الغيرة على ذَهاب الأوقات سُدًى دون أن تقرِّبَهم إلى الله تعالى .

فابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما ندمت على شيءٍ ندمي على يومٍ غربت شمسه ، نَقَصَ فيه أجلي ، ولم يزدد فيه عملي .

وجاء «سَرِيُّ السَّقَطِيُّ» إلى رجلٍ من المتعبدين فرأى عنده جماعةً ؛ فقال : صِرتَ مَناخَ البطَّالين ! ، ثم مضى ولم يجلس .

فمتى لَانَ المَزورُ طَمِعَ فيه الزَّائِرُ ؛ فأطالَ الجلوس ؛ فلم يَسْلَمْ مِنَ الأذى .

وقال الحسن : يا ابنَ آدم إنَّما أنت أيام ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضُك . لقد أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدَّ منكم حرصًا على دراهِمِكُم ودنانِيرِكُم .

وجاء رجل إلى عامر بن عبد قيس - وهو من التابعين الزهاد - فقال له : كلِّمني : فقال عامر : أَمْسِكِ الشمس .

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٩) بتصرف .

إي واللهِ . . إذا ذُكِرَ السلف افتُضِحْنَا . . انظر لأحوالنا . . فإنَّ أخانا الكريم كان قبل الالتزام لا يجد شيئًا يصنعه ، فيضيِّع وقته بين الشارع والنواصي ، والتلفاز والسينما ، والنوادي والمقاهي ، وبعد أنْ التزم لم يتفطن إلىٰ المسئوليات التي علىٰ عاتقه ، أو حاول الهروب منها سَعْيًا للرَّاحةِ المزعومة ، والدَّعَةِ الموهومة ؛ فظَلَّ هائمًا يتفنن في تضييعِ الأوقات .

أيها الحبيب . .

عليك واجبات لا تتنصل منها ، هذا دورك وهذه وظيفتك التي خلقك اللَّه من أجلها ، فلا تركن إلىٰ الكسل والبطالة ، ودع عنك هذا . . لا تكن سلبيًا منهزمًا ؛ بل ابدأ من الآن في جَدْوَلَةِ الواجبات علىٰ الأوقات .

لابد من حفظ القرآن ، أو أجزاءٍ منه ، ولابد من طلب العلم الشرعي ؛ فتتعلم الفقه والعقيدة والحديث والسيرة واللغة والتفسير . . . ولابد أنْ يكون لك وِرْدٌ من الليل ، وأنْ تبذل جَهْدَك في الدعوة إلىٰ اللَّه تعالىٰ ، ولا سيما بين أهلك وجيرانك وأصدقائك .

فمن أين تجد بعد ذلك كله الوقت حتىٰ تضيعه ، لا شك أنَّ هؤلاء الذين يضيعون الأوقات جاهلون بما هو واجب عليهم ، لا يعرفون مسئولياتهم الجديدة بعد الالتزام ، فمن فراغهم طَغَتْ رواسبُ الجاهلية مَرَّةً أخرىٰ ؛ فتفننوا في إضاعة الوقت .

أيها الحبيب . .

اعْرِفْ فَضْلَ اللَّهِ عليكَ بالالتزام . . ولا تَكْتَفِ بالمَظهر ؛ وإنَّما حاول

أنْ تمتلئ إيمانًا بكثرةِ العملِ الصالح ؛ وحينها لن تجدَ وقتًا أبدًا يذهبُ سُدًىٰ .

وصَدَقَ جمالُ الدِّين القاسمي حين مرَّ علىٰ المَقْهَىٰ فقال : «ليتَ هؤلاءِ يبيعوني أوقاتَهم ؛ فإنِّي لا أَجِدُ وقتًا للنوم ولا للطعام» .

فلو عرفتَ مسئولياتِك الجِسَام لضَاقَ وقتُك ، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣] . . فاحرص ولا تتفلت . . واغتنم كُلَّ لحظة . . فإنها أغلىٰ ما تملِك .

فوضعَ الشيخُ بذلكَ نِقاطًا مُحَدَّدةً للعِلاج:

١- تحديدُ هدفٍ واضحٍ للحياة . . يَلْمَعُ دائمًا أمام العين . . في الدنيا : تَطَلُّبُ العلم والاجتهاد في العبادة . . وللآخرة : الوصول إلىٰ الفردوس الأعلىٰ ، في صُحبة النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رَفيقًا .

٢- منهجٌ واضحٌ للحياة . . وبرنامج عملي لليوم . . وساعات محددة للعمل والأكل والنوم والمذاكرة والعبادة .

٣- أوراد مُلْزِمَة . . مع شيخٍ مُتَابع وإخوة يتنافسون . .

هذه النقاطُ بعدَ القناعةِ التَّامَّة بِأَنَّ هذا الدِّين جِدٌّ ، ولا وقتَ للهوِ ولا للهَزَل . . فهيا أيها الملتزم أتاكَ العلاج فتَدَاوَ .

❋ ❋ ❋

(١٣) عدم الانضباط في المعاملات

كان صاحبنا قبل أن ينضم إلىٰ حظيرة الالتزام عقدته عقدةُ الفلوس . . فإنه نشأ في أسرةٍ متواضعةٍ ، وبالطبع في مثل هذه الظروف ، ولكثرة الأولاد ، وقلةِ المواردِ ؛ كان الأب يبدو حريصًا ، وهو معذورٌ مسكين لا يدري ماذا يفعل . .

وصاحبنا يرىٰ أمامه ما لا صبر له عنه ، فبدأت الأمورُ : بأن يقترض ولا يَرُدّ . . قَلَمًا . . أو كَرَّاسًا . . و«سندوتش» . . أو قروشًا قليلة ، ثم تطور الأمر ببساطةٍ إلىٰ أن يَمُدَّ يده ويأخذ . . في البداية بتهريج ومزاح . . ثم بتعمد . . وآفة السرقةِ آفةٌ معروفة عند كثيرٍ من الأطفال ، ويتغاضىٰ عنها كثيرٌ مِنَ الآباء والأمهات عمدًا وتجاهلًا ، أو جهلًا وخطأ ، أو لعدم تقديرٍ لخطورتها .

وكَبِرَ صاحبُنا وظلت فيه هذه العادةُ ببساطةٍ ، كُلَّمَا احتاج إلىٰ شيء أو أُعجب بشيء اقتنصه بطريقةٍ أو بأخرىٰ ، والعجيبُ أنه لم يكن يرىٰ في ذلك عارًا ولا عيبًا ؛ بل حقه . . وخصوصًا في النَّهَمِ المادي الذي لا ينقطع . .

والتزم صاحبُنا . . وهو ينوي ابتداءًا أن يدفع هذه الآفةَ ؛ فجعلَها من أولِ الأمورِ التي اعتقدَ أنه يجب أن يتوبَ منها . . وفعلًا . . تاب . . ولكن . . بعد فترةٍ ؛ بدأت المعاملاتُ الماديةُ مع الإخوةِ ، ببساطةِ مَنْ يعطيه مالًا يشتري له كتابًا ، وينسىٰ ويتناسىٰ . . حتىٰ نُسِيَ الأمر . . ويستحي صاحبُنا

من اللَّه ويعتذر ؛ ولكن ضيق ذات اليد لا يشجعه علىٰ رد المظالم مع علمه بشرطيتها في صحة التوبة ؛ فيعتبر أنه لم يَتُبْ وتتكرر المأساة .

ورقد صاحبنا بين يدي الشيخ وعيناه تَذْرِفَان دموعًا ساخنةً يطلبُ علاجًا ودواءً لحبِّ المالِ ، ودواءً لأكل أموال الناس بالباطل ، هذا هو التوصيفُ الدقيقُ لمرضه .

فتهيَّأ الشيخ ووجد أنَّ هذا الجُرح أَعَرْضُ الجروح وأطولُها فقال :

لا شك أنَّ أعظمَ الفتنِ التي تموجُ في هذا العصر فتنةُ المال . . إنَّه عصرُ «الماديات» بكل ما تَعنيه هذه العبارةُ من جفافٍ في العلاقاتِ الإنسانية ، وخللٍ في الجانب الروحي ، ونَهَم وشغفٍ بجمع المال بكل الصور ، ودون ضابطٍ ، وبكل حيلةٍ صحَّت شَرْعًا وعُرْفًا أو لا .

فالذكيُّ عند الناس اليوم هو المُحْتَال . . والذي يتلاعب علىٰ النَّاس فيكسب منهم ؛ هو العبقريُّ ابنُ عصرِهِ وأوانِه . . وصارت معاييرُ النَّاسِ تنطلقُ مِن : «الذي معه قرش يساوي قرشًا» ، وكل أحلامهم وأفكارهم صارت في كيفية تحصيل أكبر قدر من المال .

نعم : إنَّ حبَّ المال غريزةٌ بشرية ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] أي المال ، وقال تعالىٰ : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] .

لكن تنامىٰ خطرُ المالِ في عصرنا ؛ لأنَّه لم يعد هناك من يسأل عن الحلال أو الحرام ، وصار هناك من يأتيك بفتاوىٰ لعلماء السوء فيحلُّ ما حرَّم اللَّه . . فحتىٰ الدين تلاعبوا به لخدمة أغراضهم المادية ! !

لذلك حذَّرنا رسول الله ﷺ من هذه الفتنة العظيمة ، وأرشد أنَّ فتنة أمة الإسلام في المال ؛ فقال ﷺ : «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ**»(١) .

وبيَّنَ لنا الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أنَّه ستظلُّ أحلامُ النَّاسِ مرتبطةً بالاستكثار من المال إلا من رحم ربك . . فلا يظننَّ أحدٌ أنَّه عندما يكبر ويجمع من المال الشيء الكثير سيغنيه ذلك ، فيتفرَّغ لخدمةِ الدِّين . . كلا . . هذه أوهامٌ وحِيَلٌ شيطانيةٌ يبيِّنها لك رسولُ الله ﷺ بقوله : «**قَلْبُ الشَّيخِ شَابٌّ عَلَىٰ حُبِّ اثْنَتَيْنِ طُولِ الْحَيَاةِ وَكَثْرَةِ الْمَالِ**»(٢) . وقال رسولُ الله ﷺ : «**لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ ؛ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ**»(٣) .

إخوتاه . .

في وَسَطِ هذه الانحرافاتِ المتزايدةِ ؛ يصعُبُ علىٰ كثيرٍ من النَّاس تصوّرُ الحياةِ في ظل الإسلام . . فمن ذا لا يُرابِي اليوم؟! . . من ذا لا يغش ولا يحتال ليروِّجَ سلعته؟! . . من ذا لا يستخدم الرَّشَاوَىٰ والأبواب الخَلْفِيَّة ليحصل علىٰ الصَّفَقَات التِّجارية الضخمة؟! . . من ذا لا يداهن أصحاب النفوذ ويرتكب كل المحظورات الشرعية لينال منهم بُغيته؟! . . أليس هذا واقع النَّاس اليوم؟!

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦) ، وصححه الألباني في (٢١٤٨) «صحيح الجامع» .
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٨) ، وصححه الألباني (٤٤٠٨) في «صحيح الجامع» .
(٣) متفق عليه ، البخاري (٦٤٣٩) ، ومسلم (١٠٤٨) .

لذلك حينما يدخل المسلم في الالتزام يقع في «حَيْصَ بَيْص» . . ماذا عسايَ أن أفعل وكل النَّاس مِنَ حولي منحرفون؟!! . . لو صنعت مثلهم خسرت ديني ، ولو قاومت لن أجدَ من يتعامل معي ؛ فيخرج - عادة - من هذه الحيرة بتأويلات فاسدة تُحلِّل له ما عَلِمَ حرمته . . ويبدأ في ترديد عبارات فقهية لا يعرف معناها نحو : «الضرورات تبيح المحظورات»، أو يأتي بالفتاوىٰ الشرعية الشاذة ليسوِّغ لنفسه الحرام .

ويا لَلْعَارِ أن تجدَ البعض حسن السَّمْت والصورة، فإذا تعامل بالدينار والدرهم صار إنسانًا آخر، وتغيرت مكنوناته، وظهر حرصه علىٰ الدنيا وعلىٰ منفعة نفسه ، دون نظرة إلىٰ الضوابط الشرعية لهذه التعاملات . . فعند التعامل بالمادة يقول: أنا لا أعرف لي فيها قريبًا . . عبارة أخذها من الأفلام والمسلسلات بطبيعة الحال . . فأين الدين؟!، وأين التقوىٰ؟!، وأين الورع؟!. . لا مكانَ له هنا!!

هذا - لَعَمْرُ اللَّه - من أخطر ما يَفتِكُ بدينِ المرء .

ولم يُؤْتَ هؤلاء إلا من ضعف اليقين ، ومن خلطة المفسدين الضالِّين . . ولو أنَّه علم أنَّ اللَّه رازقه لا محالة ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، وأنَّ اللَّه لن يضيِّعه سُدَىٰ ، وأنَّه ما ترك أحدٌ شيئًا للَّه إلا عوَّضه اللَّهُ خيرًا منه ، وأنَّه لا يُنال ما عند اللَّه إلا بطاعته . . لو عَلِمَ ذلك حقًّا وابتعدَ عن الاختلاطِ بخِلَّانِ الدُّنيا ، واتخذَ رُفَقَاء من أهلِ الإيمانِ يبذلون له النُّصحَ ، ويثبِّتونه علىٰ الحق ؛ لَتَغيَّرتْ مُعاملاتُه . .

ولو كان له شيخٌ يراجعه ويستشيره في أموره، ويتابِعُه الشيخُ ويتعهَّدُه بالوعظِ والنصحِ؛ لكان الأمرُ خلافَ ما يعتقد.

ولكن مَنْ ذا يضحي بشيء من الدنيا لآخرته اليوم؟!.. من ذا يصبرُ علىٰ شيء يسيرٍ من ضيقِ العيش ليحفظَ دينَه؟!!

تَرَىٰ مَنْ يقول: لا يمكن أنْ أعيش في أقل من مستواي الاجتماعي.. صعبٌ عليَّ جدًا.. وانعدم الرضا.. فما أَحْلَمَ اللَّه!!.. الكل أصبح لا يرضىٰ عن ربِّه، آتاه مالًا ويريد أكثر، يطمع دائمًا في المزيد، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ﴾ [المدثر: ١١-١٦].

وإذا منع اللَّه عنه لمصلحةٍ يعلمها سبحانه؛ تَسخَّط، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].. ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].. نُكْرَانٌ وسُوءُ أدب.

إخوتاه..

حَقُّ المال أنْ يُطلبَ من حِلٍّ، ويُبذل فيما يُرضي اللَّه تعالىٰ، وألا يكون قلبُكَ مُتعلقًا به، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«إذا جاءَك مِن هذا المَالِ شَيءٌ وأنتَ غيرُ مُشرِفٍ ولا سَائِلٍ؛ فخُذْهُ، وما لا؛ فلا تُتبِعْهُ نفسَك»**[1].

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥).

حَقُّهُ: أنْ تُخرج منه الزكاة، وتَبذل منه لِذوي القربات، واليتامىٰ والمساكين والسّائلين.. أنْ تُعين به مُحتاجًا، وتُغيث به مُلْهُوفًا.. تُجاهد به في سبيل اللّٰه.. فإنَّ اللّٰه لم يَنزلِ المال إلا ليكون عونًا علىٰ عبادته؛ ففي الحديث القدسي: إنَّ اللّٰه تعالىٰ جلّ جلالُه قال: «**إنَّا أنزلنا المالَ لإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاة..**»[1].

إخوتاه..

إنَّ الاستكثارَ من المالِ دونَ ضابطٍ شرعيّ؛ نذيرُ شُؤم علىٰ صاحبه، قَالَ رسولُ اللّٰهِ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ؛ أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ**»[2].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَىٰ مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كان كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[3].

جاء رجلٌ من السلف يزكّي رجلًا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: هل تعرفه؟، قال: نعم، فقال: هل سافرت معه فسَبَرْتَهُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢١٨)، وصححه الألباني (١٧٨١) في «صحيح الجامع».

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٥٩).

(٣) متفق عليه، البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢).

وخَبَرْتَه؟، قال: لا، قال: هل عاملته بالدينارِ والدرهم؟، قال: لا
قال: إذًا لم تَعْرِفْه!![1].

فاتقوا اللَّه - إخوتاه - في تعاملاتِكم الماديةِ معَ الناس، ومع بعضِكم البعض؛ فإنَّ اللَّه يراكم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

تخلَّصوا من حُبِّ المالِ والشُّحِّ والحرصِ؛ فإنه من رواسبِ الجاهلية ويفسد دينَك ولابد؛ قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما ذِئْبَانِ جائِعَانِ أُرْسِلا في غَنَمٍ بِأَفْسَدِ لَهَا مِنْ حِرْصِ الرَّجُلِ علىٰ المَالِ والشَّرَفِ لِدِينه**»[2]؛ فحِرْصُك علىٰ المال يُفْسِدُ دِينَك.

والعلاج:

(١) تَعَلُّقُ القلبِ بالآخرةِ وما فيها.

(٢) اليقينُ في أنَّ الرِّزقَ مقسوم.

(٣) أَنَّ السَّعادَة ليست في المال؛ بل المال هَمٌّ: من أين اكتسبه؟، وفِيْمَ أنفقه؟

(٤) أَنَّ أخطَر الأمورِ يومَ القيامة، مظالمُ العِباد؛ فإياك أن تَرِدَ القيامةَ مُفْلِسًا.

❋ ❋ ❋

---

(١) بمعناه من: سيرة عمر بن الخطاب، لابن الجوزي، ط. دار التقوىٰ. القاهرة، ص (١٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وصححه الألباني (١٩٣٥) في «صحيح الترمذي».

(١٤) إفشاء الأسرار

كان صاحِبُنا (راديو) .. نعم: راديو لا يسكت كَسِمَةِ أهلِ عصرِه؛ فإن أكثرَ ما يبدو في عصرِنا أنه عصرُ الكلامِ .. كلام كلام كلام .. ليل نهار .. لا سكوتَ أبدًا ..

وآفات اللسان لا تُعَدُّ ولا تحصىٰ .. وفي مجالس الكلام: كذبٌ، ونفاقٌ، وغِيبةٌ، ونميمةٌ، وفُحْشٌ من القول، واستهزاءٌ بالآخرين، وسخريةٌ من الناس، ومحاكاةٌ للازدراء .. حدِّث ولا حرج في مجالس الأُنس و«الفرفشة».

وكانوا يَطلقون علىٰ صاحبنا في هذه المجالس «رويتر»؛ لتحريه نقل الأخبار والتنقيب عنها؛ فكل الأخبار عنده: فلان وفلانة .. ولا يسكت؛ بل كان «أنقلَ قومِهِ لِحَدِيث» ..

وكان إذا لم يجد أخبارًا؛ فلابد أن يفتريَ ويكذبَ ويخترعَ ويُؤَلِّف، وهو إن نقل فلابد أن يضع الحواشي والبُهَارات لسَبْكِ القِصَّة والحِكاية.

والتزم صاحبنا؛ ولكن هذه الهواية لا تفارقه - وخصوصًا - لكثرة تنقلاته ومعارفه، فيُسْأَل ويَحكي .. وبدأت الجاهلية تظهر في زيادات علىٰ الحكايات، ثم يَحْكُمُ المجلسَ بإفشاء الأسرار، وإظهارِ ما لا ينبغي.

واشتهرت عنه القصة أنه لا يُؤتمن علىٰ سِر، واكتشف الشيخُ في

مجالسه مع صاحبنا هذه الآفة الخطيرة والمرض العضال؛ فبدأ علاج صاحبنا قائلًا:

لقد خرج منَّا من يَجهرون بإفشاء الأسرار، ورأيتَ من يتسبب في إيقاع الأذىٰ بأخيه المسلم، وربَّما أتلف عليه أمر دينه ودنياه، ناهيك عن المصيبة العظمىٰ في تناقل الأحاديث من مجالس الدعاة والعلماء، وإيغار صدور بعضهم البعض، باسم الدِّين.

وللأسف!!.. يفعل هذا مَنْ يظنُّ أنَّه بذلك يَحمي بَيْضَةَ الإسلام، والمسكين يُريقها.. هذا مظهرٌ من مظاهر الجاهلية بقيت آثارُه.. فلابد من علاجه.

كان صاحبنا في جاهليته قبل الالتزام لا يقيم لأمر اللسان وزنًا، فهو يتكلم بما شاء، وقتما شاء، أينما شاء، بلا حسيبٍ ولا رقيبٍ علىٰ هواه، تراه يردد: «من لا يعجبه قولي فليضرب برأسه عُرْضَ الحائط»، ثُمَّ لا قيمة لأسرار، ولماذا الأسرار؟، «الذي يخاف لا يتكلم».

تعوَّدَ إفشاء السر، وخصوصًا إذا كان إفشاء الأسرار سيعود عليه بالنفع المادي أو المعنوي.. وعاش صاحبنا علىٰ هذا عُمُرَهُ، ليس للسانه ضابطٌ ولا رابط.

ثُمَّ.. ثُمَّ أَيْشٍ؟.. ثمَّ التزم.. نعم: واللَّه التزم.. أعفىٰ لِحْيته، ودخل المسجد، واستمع لدروس العلم، وترك «زِعيط» و«مِعيط» و«نَطَّاط الحِيط».. وأصبح أصدقاؤه الشيخَ فلانًا، والأخ فلانًا،

والداعية الفلاني ، والإمام العِلاني . . وطال بصاحبنا زمنُ الالتزام أو قَصُر ؛ ولكنَّ لسانه لم يَقْصُر ؛ فهو لم يَكُفَّ عن الهَرَج والمَرَج ، وأحيانًا البَذاءةِ وكثرةِ الكلام .

والقومُ أحيانًا يضحكون ، وأحيانًا يُوجِمُون ؛ ولكن لم يقم أحدٌ بدوره في ردع وقطع لسان صاحبنا . .

نعم : سمع عن فضيلة الصَّمْت ، وذمُّ كثرة الكلام ، والتخويف من الغِيبة والنميمة ؛ ولكنه سمع ولم يلتزم ؛ لأنَّ ثقافة الجاهلية غالبة ، والتزكيةَ للقلب غيرُ كاملة ، والمنهجيةَ في التربية تركيبةٌ صعبةٌ ومفقودة .

أيها الحبيب . .

ظالما التزمتَ ورضيتَ باللَّه ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا ، وقائدًا ومُرَبِّيًا ومُعَلِّمًا ؛ فلابد من منهجية في التربية والتزكية ، لِيَطْهُرَ قلبك ، ويستقيمَ لسانك .

إنَّنا مهما دعونا إلىٰ ضبط اللسان فلا سبيل إلىٰ ذلك إلا بالتزكية ؛ فإنَّ رواسب الجاهلية تطفو ، والطبع يغلب التطبع . . ولكن حتىٰ تتم عملية التزكية - التي تستغرق العمر كُلَّه - ؛ فلابد من المجاهدة لهذه الرواسب . . كَتْمُها وكَبْتُها وضَغْطُها لكيلا تظهر ، حتىٰ تَزْكُوَ النفسُ وتَطْهُر .

أمَّا أمر الأسرار - أيًا كانت - فأمرها عظيم ، وإفشاؤها فساد أيِّ فساد . . فكم حطَّمت عَلاقات . . وكم هدَّمت أُسَرًا . . وشتَّتَت فِكَرًا ، وأوغرت صدورًا . . ولا حَلَّ إلا أن نتربَّىٰ ونتأدَّب .

إخوتاه . .

تعالَوْا معي الآن لنتربَّىٰ علىٰ هذه النصوص والمواقف :

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**»[1]، أمانة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ثقيلة ناءت بحملها الجبال . . ثمَّ انتبه إلىٰ معنىٰ «**إذا حدَّث الرَّجُل**» : كُلُّ رَجُل . . «**الحديثَ**» : أَيّما حديث . . «**فهو أمانة**» . . فما بالك إذا كانت هذه الأمانة بتضييعها تَضيعُ دَعْوَة ، وتَذهبُ رِجال ، وتُخَرَّبُ بيوت ، ويقعُ العداءُ بين أناسٍ هُمْ لَبِنَاتٌ مُتَراصَّة في صَفِّ الأُمَّة ! !

نعم : اليومَ ضاعتِ الأمانة ! !

إخوتاه . .

لقد كان كتمُ السِّرِّ ، وحفظ اللسان ، وطول الصمت معروفًا بين صحابة رسول اللَّه ﷺ ؛ لذلك كانوا رجالًا حقًّا ؛ فإنَّ إفشاء الأسرار وكثرة الكلام من صفات لئيمات النساء ، أمَّا نبلاء الرجال فمن شأنهم الكتمان والحفظ لما يُسْتَوْدَعُونَه .

قال أهل العلم : إنَّ الصمتَ سلامةٌ وهو الأصل ، والسُّكوتُ في وقتهِ صِفَةُ الرِّجال ، كما أَنَّ النطقَ في موضعهِ أشرفُ الخِصَال .

إنْ نَطَقَ نَاطِقٌ مِنْ فِضَّةٍ   فَالصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ يَاقُوتُ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٩)، وصححه الألباني (١٥٩٧) في «صحيح الترمذي» .

إنَّ القليلَ مِنَ الكلامِ بِأَهْلِهِ حَسَنٌ وإنَّ كَثِيرَهُ مَمْقُوتُ
مَا زَلَّ ذو صَمْتٍ ومَا مِنْ مُكْثِرٍ إلَّا يَزِلُّ ومَا يُعَابُ صَمُوتُ

انظر لمَّا عَرَضَ عمرُ رضي الله عنه ابنتَهُ حفصة على أبي بكر رضي الله عنه ؛ فلم يَجِبْهُ بشيء ، قال له أبو بكر رضي الله عنه بعد أن دخل بها رسولُ اللَّه ﷺ : لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ ، قال : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا ؛ فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا[1] . . فيالكَ مِنْ أمينٍ سيدي أبي بكر - رضي اللَّه عنك ؛ إني أحبُّكَ في اللَّه .

أمَّا عن النساء : فانظر للسيدة فاطمة رضي الله عنها بنتِ النبيِّ ﷺ لمَّا حضرت رسولَ اللَّه ﷺ الوفاةُ ؛ تقولُ عائِشَةُ رضي الله عنها : أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَقُلْتُ لَهَا : لِمَ تَبْكِينَ ؟ ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ ، فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ ؛ فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[2] .

وحتَّىٰ الأطفال : انظر إلىٰ هذا الغلام أنس رضي الله عنه يقول : أتىٰ رسولُ اللَّه ﷺ ، وأنا ألعبُ مع الغِلمان ، فسلَّمَ علينا ، فبعثني إلىٰ حاجة ، فأبطأتُ علىٰ أمي ، فلما جئتُ قالت : ما حَبَسَك ؟ ، قلت : بعثني رسولُ اللَّه ﷺ في

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٥) .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٣٦٢٤) ، ومسلم (٢٤٥٠) .

حاجةٍ، قالت: ما حاجتُه؟، قلت: إنَّها سِرٌّ. قالت: لا تُخْبِرَنَّ بِسِرِّ رسولِ اللَّه ﷺ أحدًا. قال أنس: واللَّهِ لو حدَّثْتُ به أحدًا لحدثتُكَ بهِ يا ثابت[1].. يعني ثابتَ بنَ أَسْلَم البُنَانِيّ راوي الحديث عن أنس.

فانظر إلىٰ هذا الأدب الرفيع.. الغلام يَكْتُمُ سِرَّ رسولِ اللَّه ﷺ، والمرأة لا تُلِحُّ في معرفةِ الأمر - كشأن نساء اليوم -، بل تُعَلِّمُهُ كتمانَ السِّر، وعدمَ الاسْتِشْرَاف، ويظلُّ يَكْتُمُهُ، حتىٰ بعد موت رسول اللَّه ﷺ ثمانين سنة، فلم يُحدِّثْ به صاحبَهُ ثابتًا البُنَانِيّ.

ولعل السر ما كان لِيَضُرَّ رسولَ اللَّه ﷺ التحديثُ به؛ ولكن كَرَمُ الخُلُقِ والأدبُ الذي تربىٰ عليه أنس مِنْ أُمِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.. فقد كانت الأسرةُ يومَها محترمة، تُرَبِّي أولادها علىٰ الكِتمان فلا تُجَرِّؤُهم علىٰ البحثِ عنِ الأسرار وإذاعتِها.

أمَّا الأُمُّ في عصرنا - حتىٰ الملتزمة - فتعود لتسأل ابنها عمَّا رأىٰ عند الجيران، وعمَّا سمع من أبيه في غَيبتها، وعمَّا تقول حَمَاتها عنها، وشقيقاتُ زوجِها ماذا يفعلن هنالك.. و.. و.. تربية سيئة أنتجت هذا الجيل المعطوب.

نعم: لقد كان من تأديب سلفنا لأولادهم: أنْ يعلموهم كتم الأسرار، وعدمَ نشرها.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٢٨٩) مختصرًا، ومسلم (٢٤٨٢).

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٨٥): قال بعض العلماء: كأنَّ هذا السِّرّ يختص بنساء النبي ﷺ؛ وإلا فلو كان من العِلم ما وَسِعَ أنسًا كتمانُه.

قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لابنه عبد اللَّه: يا بُني إني أرىٰ أمير المؤمنين يُدْنِيك - يعني عمر رضي الله عنه -، فاحفظ عني ثلاثًا: لا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًا، ولا تَغْتَابَنَّ عندهُ أحدًا، ولا يطَّلِعَنَّ منك علىٰ كَذِبَة.

قالوا: وأصبرُ الناسِ مَنْ لا يُفشي سِرَّهُ إلىٰ صديقه، مَخَافَةَ التَّقَلُّبِ يومًا ما.

وقال بعض الحكماء: القلوبُ أوعيةُ الأسرار، والشِّفَاهُ أقفالها، والألْسُنُ مفاتيحها، فليحفظ كُلٌّ منكم مفاتيحَ سِرِّه.

وقال أكثمُ بْنُ صَيْفَىٰ: إنَّ سِرَّكَ مِنْ دَمِك؛ فانظرْ أينَ تُرِيقُه.

وعن أنس قال: لَقِيَ رسولُ اللَّه ﷺ أبا ذَرٍّ فقال: **«ألَا أَدُلُّكَ علىٰ خَصْلَتَيْنِ هُمَا خَفِيفتان علىٰ الظَّهر، وأَثْقَلُ في المِيزان مِن غَيرِهما؟»**؛ قال: بلىٰ؛ قال ﷺ: **«عليكَ بِحُسْنِ الخُلُق، وطُولِ الصَّمت؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيدِه، ما تَجَمَّلَ الخَلَائِقُ بِمِثْلِهِما»**[(١)].

فهاتان جماع الخِصَال الحميدة، ومِنْ ثَمَّ كانتا مِنْ أخلاقِ الأنبياء وشِعَارِ الأصفياء.

أفلا يَلْزَمُكَ بعد هذا - حبيبي في اللَّه - أنْ تُمسِكَ عليكَ لسانَك، وتَعْلَمَ أنَّه **«مَنْ صَمَتَ نَجا»**[(٢)] كما قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٦/٥٣)، وحسنه الألباني (٤٠٤٨) في «صحيح الجامع».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، وصححه الألباني (٢٠٣١) في «صحيح الترمذي».

وإنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ «كانَ طويلَ الصَّمْتِ قليلَ الضَّحِك»[١]، وهُوَ الذي قال: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ»[٢].

وهَوَ ﷺ الذي قال: «وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّهِ تعالىٰ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبلُغَ مَا بَلَغَتْ؛ فَيَكْتُبُ اللّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخطَهُ إلىٰ يَوْمِ القِيَامَة»[٣].. فاتق اللّه في لِسَانِكَ - يا أخي.

اجتمع قُسُّ بنُ ساعِدة وأكثمُ بنُ صَيْفَيٰ، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟، فقال: هِيَ أكثرُ من أنْ تُحصىٰ، والذي أحصيتُه ثمانيةَ آلاف عيب، ووجدتُ خَصلةً إن استعملتها سترتَ العيوبَ كلَّها، قال: ما هِيَ؟؛ قال: حفظ اللسان.

قال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه: ما مِن شيءٍ أَحَقُّ بالسِّجْنِ مِن اللِّسان.

وقال الفُضَيْل بنُ عِياض: مَنْ عَدَّ كلامَه مِن عملِه؛ قلَّ كلامُهُ فيما لا يَعنيه.

وقال الإِمامُ الشافعيُّ رحمه الله لصاحبه الرَّبيع: يا ربيعُ، لا تتكلم فيما لا يَعنيك؛ فإنك إذا تكلَّمتَ بالكلمة ملكَتْكَ ولم تَمْلِكْها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٦/٥)، وحسنه الألباني (٤٨٢٢) في «صحيح الجامع».

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٩)، وصححه الألباني (١٦١٩) في «صحيح الجامع».

وقال بعضهم : مَثَلُ اللِّسَانِ مَثَلُ السَّبُعِ ؛ إِنْ لَمْ تُوثِقْهُ عَدَا عليك.

احفظْ لِسانَكَ أيها الإِنسانُ ... لا يَلْدَغَنَّكَ إنهُ ثُعْبَانُ

كَمْ في المَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ ... قَدْ كَانَ هَابَ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

إخوتاه . .

يا أَيُّها الملتزمون . . أسرارُكم أمانةٌ ، وإفشاؤها خيانةٌ . . فالصمتَ الصمت . . والأدبَ الأدب . . والرَّحمةَ الرَّحمة . . فما ضاعتْ أخلاقُ المسلمين إلا من جرَّاءِ اللسان . . لِأننا رُبِّينا في الأصل علىٰ وجهٍ خاطئٍ ؛ فاعتدنا أمورًا جاهليةً لا تَمتُّ إلىٰ الإسلام بِصِلَة .

لذلك لمَّا رأينا هذه المكارمَ في ديننا ؛ استوحشناها وصَعُبَتْ علينا . . ولا حَلّ لنا إلا بتصفية بواطِنِنا وظواهِرِنا من رواسب الجاهلية .

والعلاج من هذا الرَّاسِب :

أولًا : ألا تكونَ فُضُولِيًا تبحثُ عن الأخبارِ وتَتَتَبَّعُهَا ؛ قال رسول اللّه ﷺ: «من حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيه»[(١)].

ثانيًا : هَذِّبْ نفسَكَ أَلَّا تفرحَ بَضَحِكِ الناسِ وثنائِهم عليك وهم يستخفُّونك . . فاحْتَرِمْ نفسَك .

ثالثًا : إغلاقُ هذا البابِ مِنَ الأصل . . قال اللّه تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وصححه الألباني (١٨٨٦) في «صحيح الترمذي».

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] .

فالظنُّ يَجرُّ إلىٰ التجسس ، والتجسس يدعو إلىٰ الغِيبة وغير ذلك . .

فإغلاقُ الباب : بِحُسْنِ الظن بالمسلمين . . والسكوتِ الدائم . . وتركِ مجالسِ اللَّغْوِ والرَّفَث . . ويتوبُ اللَّهُ علىٰ مَنْ تاب . . فأَقْبِلْ علىٰ اللَّهِ بالتوبةِ ؛ يُقْبِلْ عليكَ بالرَّحمة .

❊ ❊ ❊

(١٥) الفُضول وتَتَبُّع عثراتِ الناس وعيوبَهم

النفسُ البشرية فُضوليةٌ بطبعها ؛ فتجدُ الإنسانَ دومًا شغوفًا بمعرفةِ ما خفيَ عنه ، وخصوصًا إذا حصلت إثارةٌ تدعو إلىٰ المعرفةِ ، ودومًا تجدُ في النَّاس شغفًا بتتبُّعِ أحوالِ وأخبارِ المشاهير .

ولمَّا التزم صاحِبُنا صارَ المشاهيرُ عنده الذين يبتغي تتبُّعَ أخبارِهم هم العلماءُ والدعاةُ والإخوةُ المعروفين ؛ ولكن في النفسِ داءٌ دفينٌ ، أنه لا يحبُّ أنْ يكون أحدٌ أفضلَ منه . . ففتح الشيخُ هذا الجرحَ ثم بدأ علاجَه فقال :

إنَّ داءَ الفضولِ إذا استمكنَ من النفس ؛ فإنَّه يستحثُّها دومًا علىٰ معرفةِ النقائصِ والعيوبِ . . والبشرُ بَشَرٌ مهما كان قدرُهم ؛ فكلُّ إنسانٍ له عيوبٌ وذنوبٌ ، ولا يخلو من نقصٍ . . فتجدُ مريضَ القلب صاحبَ النفسِ الخبيثة يفرح بالوقوع علىٰ هذه النقائص تَشَفِّيًا لنفسه ، وإرضاءً لها ، وإسقاطًا لمكانةِ من هم أعلىٰ منه وأفضل . . وكل ذلك من رواسب جاهليته ، ونفسيته الحَمْقَىٰ القديمة .

إنَّ لبعضنا نفوسًا ذُبابية . . لا تقعُ إلا علىٰ القَذَر . . وجدنا من لا يجد لذَّتهُ إلا في تتبع عثراتِ إخوانهِ وزلَّاتِهم . . والوقوعِ علىٰ آفاتهم ونقائِصهم . . ثم نَشْرِ ذلك بمنتهىٰ البساطة ! !

إخوتاه . .

اغفروا الزَّلَّات . . وأَقِيلُوا العَثَرَات . . واستروا العَوْرَات . . وتعالَوْ لتنظروا معي ماذا أنتم مأمورون به بعد التزامِكم لتلتزموه . .

قال النبي ﷺ : «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ ، لا تَغْتَابُوا المسلمين ، ولا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِم ؛ فإنهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أخيهِ المسلم تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَه ، ومَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ ولَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِه»[1] . . وفي هذا يُبَيِّنُ الحبيبُ المصطفىٰ رسولُ اللَّه ﷺ العِلَّةَ والسبب : آمَنَ اللسان ، ولم يؤمنْ القلب .

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ أيضًا : «إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أن تُفْسِدَهُمْ»[2] . . إنّه فساد وإفساد . . ضلال وإضلال . . زيغ وهوىٰ . . أنْ تَتَبَّعَ عَوْرَاتِ النَّاس .

ودعك من وساوس الشياطين . . وتلبيس إبليس . . وتَسْوِيلِ النفس . . فَتَتَوَهَّمَ أَنَّكَ تُرِيدُ الخيرَ ، وتريدُ الإصلاحَ ، وتريد . . وتريد . . دعك من الكذبِ ، وتعالَ إلىٰ الحقائق لنرىٰ : هل أنت أخٌ مُحِبٌّ للمسلمين تؤدِّي حقوقهم عليك ، وواجباتِكَ نَحْوَهم؟

قال أهلُ العلم : «مِمَّا للمسلم علىٰ المسلم : أن يسترَ عورَتَه ، ويغفرَ زلَّته ، ويرحمَ عَبْرَتَه ، ويُقِيلَ عَثْرَتَه ، ويَقْبَلَ مَعْذِرَتَه ، ويَرُدَّ غيبته ، ويُدِيمَ

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٠) ، وصححه الألباني (٤٠٨٣) في «صحيح أبي داود» .
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨) ، وصححه الألباني (٤٠٨٨) في «صحيح أبي داود» .

نصيحتَه، ويَحفظَ خُلَّتَه، ويرعىٰ ذِمَّتَه، ويُجيبَ دَعْوَتَه، ويقبلَ هديتَه، ويكافئ صِلتَه، ويشكر نعمتَه، ويُحسن نصرتَه، ويقضي حاجتَه، ويشفعَ مسألتَه، ويُشَمِّتَ عَطستَه، ويَرُدَّ ضالَّتَه، ويُواليَهُ ولا يُعَادِيَه، وينصرَه علىٰ ظالمِه، ويَكُفَّهُ عن ظلم غيرِه، ولا يُسْلِمَه، ولا يَخْذُلَه، ويُحِبَّ له ما يُحِبُّ لنفسِه» اهـ.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شرط الصُحْبَة: إِقَالَةُ العَثْرةِ، ومَسامحةُ العِشْرةِ، والمُوَاساةُ في العُسْرَة.

ثمَّ أَلَا يَشْحَذُ عزيمةَ هِمَّتك في سَترِ النَّاس، وغَضّ الطَّرْفِ عن عيوبهم ومثالبهم: الوَعْدُ الحَقُّ من رسولِ اللَّه ﷺ؟. ألا يَكُفَّكَ عن نَشْرِ الفضائح هذا الوعيدُ الشَّدِيد؟:

قال النَّبيُّ ﷺ: **«مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أخيهِ المسلم؛ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ القِيامة، ومَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أخيهِ المسلم؛ كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حتىٰ يَفْضَحَهُ بِهَا في بَيْتِه»**[1].. قيل: هِيَ الصَّفْحُ عن عَثَرَاتَ الإِخوانِ، وسَتْرِ عيوبِهم.

ألم يَقُلْ ﷺ: **«وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»**[2]، فأَعِنْ أخاك ولا تُعِنِ الشيطانَ عليه.. أعِنْهُ بسَتْرِ سيِّئَاتِهِ وحِفْظِ عيوبِه.

قال الحِجَّاوِيُّ: ويَجِبُ الكَفُّ عَنْ مساوِئِ الناسِ وعيوبِهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٦)، وصححه الألباني (٢٠٦٣) في «صحيح ابن ماجه».
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

قَالَ رَبِّي - وأَحَقُّ القَوْلِ قَوْلُ رَبِّي - : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ .

[الحجرات: ١٢]

قال المَهْدَويُّ : لا ينبغي لأحدٍ أن يتجسسَ على أحدٍ من المسلمين ؛ فإن اطَّلعَ منه على رِيبةٍ وَجَبَ أن يسترها ، ويَعِظَهُ مع ذلك ويخوِّفَهُ باللَّه .

قال الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الكَيِّسُ العاقلُ : هو الفَطِنُ المُتَغَافِل .

فمن صِفاتِ الأخ الملتزم : الغفلةُ عَنِ الزَّلَّة ، والتَّغَابِي عنِ العَثْرَة . .

قال أبو تمَّام :

لَيسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ ... لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِي

وقال بعضُهم :

وإنِّي لأَعفُو عَنْ ذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ ... وفِي دُونِها قَطْعُ الحَبِيبِ المُوَاصِلِ

وأُعرِضُ عَنْ ذِي اللُّبِّ حَتَّىٰ كَأَنَّنِي ... جَهِلْتُ الَّذِي يَأْتِي ولَسْتُ بِجَاهِلِ

وأَنْشَدَ الإمامُ ابنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

ومَنْ لَمْ يَغُضَّ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ يَمُتْ وهُوَ عَاتِبُ

ومَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْهَا ولا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ

إخوتاه . .

لا أنسىٰ هذا الأخ الذي أخذَ ينالُ من أحدِ الدُّعَاةِ مَرَّة . . قلت له : إنْ كان ما تقولُ حَقًّا فاسْتُرْه - سترَكَ اللَّه - ؛ فأبىٰ وقال : لأفضحنَّه علىٰ رؤوس الأشهاد . . فلم يَلْبَثْ إلا وقد زُجَّ به في محنةٍ شديدة . . أسأل اللَّه العافية لنا وله ولجميع المسلمين .

إخوتاه . .

إنَّ السببَ الأكبرَ لهذا المرض الخبيث «تَتَبُّعُ العُيُوبِ والعَثَرَات» هو : انشغالُكَ بالنَّاسِ عَنْ نفسِك .

قال بعض السلف : «ما تفرَّغ أحدٌ لعَيْبِ النَّاس ؛ إلَّا من غفلة غَفَلَها عن نفسه» . . فليفتش كُلُّ واحدٍ منكم عن عيبِ نفسِه .

إنَّ القلبَ - أيها الإخوة - إذا تراكمت عليه أقذارُ الذنوب ، وأَدْنَاسُ الشهوات ، عَمِيَ واسْوَدّ ، وانتكس ، وانطفأ نورُه ؛ فلا يستطيع العبد أن يُبْصِرَ عيوبَ نفسِه ؛ فيتطلعَ بعينه إلىٰ عيوب غيره ، فيعيشَ مُنشغلًا بالناسِ عن نفسِه ؛ فَيَضِلَّ ويَهْلَك .

إذًا فليس شيءٌ أولىٰ بالمُدَّعين للإرادة من أن يتوسلوا إلىٰ اللَّه عَزَّوَجَلَّ بطلبهم منه صلاحَ قلوبهم لإخوانهم ، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ؛ لِيَسْلَمُوا بذلكَ مِن شرور أنفسهم ، وغَلَبَةِ أهوائِهم .

قال الشيخ : فالعلاجُ إذًا يتركَّزُ في :

① إيمان القلب الحقيقي . . لا دَعْوَىٰ اللسان ؛ فإن الإيمان وازعٌ حقيقيٌّ لمُرَاقبةِ المَوْلىٰ عزَّ وجَلَّ .

② تزكية النفس . . فبطهارتها تَتَعَالىٰ علىٰ السَّفَاسِف ، كما قال العلماء : «تأمُّلُ العَيْبِ مَعِيبٌ» .

③ الإغضاءُ وعدمُ الاستقصاء.. فإنَّ خُلُقَ التَّغافل من أهمِّ عواملِ صَيانةِ المرءِ لأصحابِه وعدمِ التفريط فِيهم.

④ اليقين بأنَّ الجَزاءَ من جِنْسِ العمل.. فمَنْ سَتَرَ سُتِرَ، ومَنْ مِنَّا لا يَحتاج إلىٰ سِتْرِ اللَّه.

فاللهم أصلح فسادَ قلوبنا.. وبَصِّرْنا اللهمَّ بعيوبنا.. وسلِّمْنا اللهمَّ من شرورِ أنفسِنا.. واغفرْ لنا كلَّ ما بَدَرَ مِنَّا لإخواننا.. فإنَّا من ذلك تائبون.. وإليكَ راجعون.. فاعفُ عَنَّا واسترنا.. يا أرحمَ الرَّاحمين.

❊❊❊

(١٦) الكبر والعجب والغرور ورؤية النفس

كان صاحبنا قبل التزامه مُعجَبًا بنفسه جدًا، ولا يكاد يعجبُهُ أحد؛ فهو يرىٰ نفسه الأجمل، و«الأشْيَك»، والأرَقّ، والأظرف، والأقوىٰ.. وكان يَزيد من غروره ثناءُ الجُهَّالِ عليه، وشغفهم به؛ فكان يعتقد في نفسه أنه فَلْتَة من فَلَتَاتِ الزمان.. وكان تكَبُّرهُ علىٰ أقرانه ومن حوله يفوقُ الحَدَّ، وهو يعتقد أن هذا هو اللازم؛ فمن حَقِّهِ أن يتكبَّر لأنه الأفضل.

وأرادَ اللَّهُ بفضله ومَنِّهِ وكرمه أن يلتزِمَ صاحبنا، وبعد أن هداه اللَّه لطريق الالتزام؛ حاول أن يتواضع، وكان يجاهد في هذا الأمر طويلًا، خصوصًا في التعامل مع الإخوة الفقراء.

وكم كان يعاني ويتألم من أن يعامله البعض معاملةً عاديَّة دون تعظيم وتوقير.. ورواسب الجاهلية تغلي في داخله، فتطفحُ أحيانًا حين يقول فجأة: «أنت لا تعرف من أنا.. أنا.. أنا..»، ويسكت..

وكثيرًا ما كان يُدَنْدِن: «لو كنت في جاهليتي..»، ويكتم ويبتلع بقيةَ «السيناريو» علىٰ مَضَض.

شكا صاحبنا للشيخ معاناتِه، وإباءَ نفسِهِ أن تنكسرَ وتَذِلَّ لإخوانه، وبقايا عُجْبٍ تتزايد بِدِينٍ يومًا بعد يوم.

وبدأ الشيخ يَنْبِشُ بالمِشْرَط؛ ليستخرج جذورَ الداء، ويقتلعَ أصلَ المرض فقال:

ترىٰ بعض الناس لا يرىٰ في الدنيا إلا نفسه، وأنه الصَّالحُ لكل المهام، العارف بكل الأمور.. تراه- دائمًا- يتحدث عن نفسه، وعن إنجازاته؛ وإذا سأله أحدٌ عن أيِّ أمرٍ من الأمور الدُنيوية أو الأُخروية، أجاب؛ فعنده إجابةٌ عن كُلِّ شيء!!..

مُعْتَدٌّ برأيه، ويرىٰ أنه لا صوابَ غيرُه، ورأيه صوابٌ لا يحتمل الخطأ، فإذا وقع في الخطإ تراه يَسُوق المبررات والأعذارَ الواهيةَ للهروب.. وكلُّ الناسِ غيرَه مُقصِّرون نُوَّم!!، وإذا أراد الحديث عنهم يقول لك: هؤلاء العَوَام.. سبحان الملك!: إذاً أنتَ مَنْ تكون؟!، الخَوَاص؟!!.. اللَّهم إليك المشتكىٰ..

إنَّ الواقعَ يَئِنُّ من تَفشِّي الجهل، والأخذِ عن الأصاغر. وقديمًا قالتها العَرَب: إنَّ البُغَاثَ بِأَرضِكُمْ يَسْتَنْسِرُ[1].

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، ومعنىٰ ﴿تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: أي تميله وتعرض به عن الناس تكبرًا عليهم، و﴿مَرَحًا﴾: أي تَبَخْتُرًا.

---

(١) هذا مَثَلٌ سائر، والبغاث: ضربٌ من الطير ضعيف، واستنسر: أُعجب بنفسه فصار يتصرف كأنه نِسر، مع أنه أصلًا من ضِعاف الطير. وهو مَثَلٌ يُضرَبُ للضعيف يُمَثِّلُ القُوَّة، وللذَّليلِ يُمَثِّلُ العِز.

ثم ألا يخاف هذا من أنْ يكون في قلبه مثقالُ ذَرَّة من كِبر فيُحْرم من الجنة، قال النَّبيُّ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قيل: «إنَّ الرجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً»؟، قال: «إنَّ اللَّهَ جميلٌ، يُحِبُّ الجَمَال، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاس»[1].

قال النَّوويُّ رحمه الله: «بَطَرُ الحَقّ» دَفْعُهُ وإنكاره تَرفُّعًا وتَجبُّرًا، «وغَمْطُ الناس» احتقارُهم.

وقال النَّبيُّ ﷺ أيضًا: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ: الْكِبْرِ، وَالْغُلُولِ، وَالدَّيْنِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[2]. والغُلول: «هو الخيانةُ في المَغْنَم، والسَّرِقةُ من الغَنيمة، وكُلُّ مَنْ خَانَ في شيءٍ خُفْيَةً فَقَدْ غَلَّ»[3].

وعَدَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ من مُهلِكَاتِ العبدِ ثلاثًا: «شُحٌّ مُطَاع، وهَوًى مُتَّبع، وإعجابُ المرءِ بنفسِه»[4].

قال القُرطُبيُّ رحمه الله: وهو ملاحظتُهُ لها بعَينِ الكمال والاستحسان، مع نسيان مِنَّةَ اللَّه، فإن وقع على الغير واحتقره فهو الكبر.

وقال الغزَّاليُّ رحمه الله: أُحذِّرُكَ ثلاثًا من خبائث القلب هي الغالبةُ على مُتفقِّهَةِ العصر، وهي مهلكاتٌ وأُمَّهاتٌ لجُملةٍ من الخبائث سواها:

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٥٧٢)، وصححه الألباني (١٢٧٨) في «صحيح الترمذي».

(٣) لسان العرب (١١/ ٥٠٠)، ط. صادر. بيروت.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني (٣٠٤٥) في «صحيح الجامع».

الحسد ، والرياء ، والعجب ؛ فاجتهد في تطهير قلبك منها ، فإن عجزت عنه فأنت عن غيرِهِ أعجز ، ولا تظنّ أنه يَسْلَمُ لك نِيَّةٌ صالحةٌ في تَعَلُّمِ العلم وفي قلبك شيءٌ من الحسد والرِّياء والعجب» اهـ .

إخوتاه . .

الكِبر والإعجاب يَسْلِبَانِ الفضائل ، ويُكْسِبَانِ الرَّذَائِل ، وآفتُهما أنهما إذا استوليا عليك لم تُصْغِ لنصح ؛ فتأخذك العِزَّةُ بالإثم ، ولا تنفع فيك موعظة ، ولا تتقبل تأديب . . فالمتكبر يُجِلُّ نفسه عن رُتْبَةِ المتعلمين ، والمُعجَب يستكثرُ فَضْلَه عن استزادةِ المتأدبين .

والكبر يُكسب المَقْت ، ويُلهي عن التآلف ، ويُوغِرُ صدورَ الإخوان ، وحسبك بذلك سُوءًا عن استقصاء ذمّه .

حُكِيَ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله أنه نظر إلىٰ المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرَة ، وعليه حُلَّة يسحبها ، ويمشي الخيلاء فقال : يا أبا عبد الله ، ما هذه المِشية التي يبغضها الله ورسوله؟، فقال المهلب: أما تعرفني؟ !!، فقال : بلىٰ أعرفك ، أَوَّلُكَ نُطفةٌ مَذِرَة ، وآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَة ، وحَشْوُكَ فيما بين ذلك بَوْلٌ وعَذَرَة .

قال الأحنف بن قيس رحمه الله : عَجِبْتُ لِمَنْ جرىٰ في مَجْرَىٰ البَوْلِ مرتين كيف يتكبر !!!

وقال ابنُ المُعتَز : لمَّا عرفَ أهلُ النقص حالَهم عند ذوي الكَمَال ؛ استعانوا بالكِبرِ لِيُعَظِّمَ صغيرًا ، ويرفعَ- حقيرًا ، وليس بفاعل .

وأمّا الإعجاب فيخْفِي المَحَاسن ، ويُظهرُ المَسَاوئ ، ويُكْسِبُ المَذَامَّ ، وَيصُدُّ عنِ الفضائل .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الإعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب .

وقال بعضهم : النعمةُ التي لا يُحسَدُ صاحِبُها عليها التواضعُ ، والبلاءُ الذي لا يُرحَم صاحبه منه العُجْب .

وليس إلىٰ ما يكسبه الكِبْرُ من المَقْتِ حدٌّ ، ولا إلىٰ ما ينتهي إليه العُجْبُ من الجَهْل غايةٌ ، حتىٰ إنه لَيُطْفِئ من المحاسِنِ ما انتشر ، ويَسْلُبُ مِن الفضائل ما اشتهر ، وناهيك بسيئةٍ تُحْبِطُ كل حسنة ، وبمذمّةٍ تَهْدِم كل فَضِيلة ، مع ما يثيرُهُ من حَنَقٍ ويُكسبه من حِقْد .

إخوتاه . .

هذه الأخلاقُ والسلوكياتُ الجاهليةِ لها جُذُورها ، وتتنامىٰ لأَسبابٍ أهمّها : عُلوّ اليد ، ونُفوذِ الأمر ، وقِلّةِ مخالطةِ الأكْفاء ، وكثرةِ مديح المتقربين ، وإطراءِ المُتَمَلِّقِين الذين جَعلوا النفاق عَادَةً ومَكْسِبًا ، والتَّمَلُّقَ خديعةً ومَلْعَبًا .

فلابد لأمثال هؤلاء أنْ يَأْخُذَ علىٰ أيديهم الإخوةُ الكِبار ، ويشتدون عليهم ، ويُظهرونَ لهم نقائصهم ؛ فما أتانا من بلاء إلا لَمّا اسْتَشْرَتْ هذه السمومُ القاتلةُ بالقلوب .

أمّا سلفنا فنَسِيجٌ آخر . . كانوا يخافون أنْ تتسلل إلىٰ قلوبهم تلك

الآفات . . حُكِيَ أنَّ قومًا مَشَوْا خلف عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فقال : أَبعِدُوا عني خَفْقَ نِعَالِكم ؛ فإنها مَفْسَدَةٌ لقلوبِ الرِّجال .

ومَشَوْا خَلْفَ ابنِ مسعود ؛ فقال : ارجعوا ؛ فإنها ذِلَّةٌ للتَّابع . وفِتْنَةٌ للمتبوع .

وهذا هو هدي النبيِّ ﷺ . . الذي علَّمنا التواضع . . يراه الرجل فيهابُه وتَرْعَدَ فَرَائِصُه ؛ فيقول له : «**هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ؛ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كانت تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»[1] .

ومثل ذلك ما رُوِيَ عن عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه نادىٰ : الصلاةُ جامعةٌ ، فلما اجتمع الناسُ صَعِدَ المنبرَ ، فحَمِد اللَّه وأثنىٰ عليه ، وصلَّىٰ علىٰ نبيه ﷺ ، ثم قال : أيها الناسُ ، لقد رأيتُني أرعىٰ علىٰ خَالاتٍ لي من بني مخزومٍ ، فيَقْبَضُ لي القَبْضَةُ من التَّمرِ والزَّبيب ، فأظلُّ اليوم وأيَّ يوم .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : واللَّه يا أمير المؤمنين ما زِدتَ علىٰ أن قَصَّرْتَ بنفسك .

فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ويحكَ يا ابن عوف ، إني خلوتُ فحدَّثتني نفسي ، فقالت : أنتَ أميرُ المؤمنين فمن ذا أفضلُ منكَ ؛ فأردتُ أن أعرِّفَها نفسَها .

إخوتاه . .

مَنْ قَطَعَ أسبابَ الكبرِ ، وحَسَمَ مَوَادَّ العجب ؛ اعتاض بالكِبْرِ تواضعًا

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) ، وصححه الألباني (٢٦٧٧) في «صحيح ابن ماجه» .

وبالعجب تودُّدًا ، وذلك من أَوْكَد أسبابِ الكرامة ، وأقوىٰ مَوَادُ النعم ، وأبلغِ شافعٍ إلىٰ القلوب يَعْطِفُها إلىٰ المحبة ويُثْنِيها عن البُغض .

إخوتاه . .

علاج الكبر : أن تتواضع . . فتقبلَ الحقَّ مِن أيِّ أحدٍ مهما كان . . وألا تحتقرَ الناسَ وتتعالىٰ عليهم . . تُعاملُ الفقيرَ وتَحْتَفِي به بنفس تعاملك واحتفائِكَ بالغنيّ . . ومن عرفَ نفسَه حقَّ المعرفة ؛ علم أنه أذلُّ من كُلِّ ذليل[١] .

أما العُجْبُ فعلاجه : أن تَعْلَمَ «أَنَّ اللَّهَ سبحانه هو المُنعم عليك . بإيجادك وإيجاد أعمالك ، فلا معنىٰ لعُجْبِ عاملٍ بعمله ، ولا عالمٍ بعلمه ، ولا جميلٍ بجماله ، ولا غنيٍّ بماله ؛ إذ كُلُّ ذلك من فضل اللَّه ، وإنما الآدميُّ مَحَلٌّ لفيض نعم اللَّه عليه ، وكونُهُ جعله اللَّه سبحانه مَحِلًا له نعمةٌ أخرىٰ .

فإن قلتَ : إنَّ العملَ حَصَلَ بقدرتك ، ولا يُتصوَّرُ العملُ إلا بوجودِك ووجودِ عملك وإرادتك وقدرتك ؛ فمن أين قُدْرَتُك ؟! ، وكل ذلك من اللَّه تعالىٰ لا منك . . فإن كان العملُ بالقُدرة فالقدرة مِفتاحه ، وهذا المِفتاح بيد اللَّه تعالىٰ ، وما لم تُعْطَ المفتاح لا يمكنك العمل ، كما لو قعدت عند خِزانة مغلقة لم تقدر علىٰ ما فيها إلا أن تعطىٰ مفتاحَها .

---

(١) لابد لك من قراءة فصل «ذم الكبر والعجب» ، وكيفية علاجهما ، من كتاب «مختصر منهاج القاصدين» ، لابن قدامة المقدسي ، وقد اختصرنا الكلام هنا ؛ لأن الهدف : رَصْدُ الظاهرة وبيانُ جوانبِها .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال «لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجَنَّة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟. قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنيَ اللهُ برحمةٍ منهُ وفَضل»[١] اهـ[٢].

وأما الغُرُور: فالملتزمون فيه أقسامٌ ودرجات.. فمنهم المُغْتَرُّ بعلمه، ومنهم المغترُّ بتعبده وعمله، ومنهم المغترُّ بماله، ومنهم المغترُّ بحَسَبِهِ ونَسَبه، ومنهم من غَرَّتْهُ الدنيا بأسرها.

جاء في «مختصر منهاج القاصدين»:

«ومن الناس من غَرَّتْهُ الدنيا؛ فقال: النَّقْدُ خيرٌ من النَّسِيئَة، والدنيا نقد، والآخرةُ نسيئة، وهذا مَحَلُّ التلبيس؛ فإن النقد لا يكون خيرًا من النسيئة، إلا إذا كان مِثلَ النسيئة، ومعلومٌ أنَّ عُمْرَ الإنسان بالإضافة إلىٰ مدة الآخرة ليس بجزء من ألف جزء إلىٰ أن ينقطع النَّفَس؛ وإنما أراد مَنْ قال: النَّقْدُ خيرٌ مِنَ النَّسِيئَة، إذا كانت النسيئة مثلَ النقد، وهذا غرورٌ مِنَ الكُفَّار.

فأما مُلابِسُو المعاصي مع سلامةِ عقائدهم؛ فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور؛ لأنهم آثروا الدنيا علىٰ الآخرة، إلا أنَّ أمرهم أسهلُ من أمر الكفار، من جهةِ أَنَّ أصلَ الإيمان يمنعهم مِن عقابِ الأبد.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦).
(٢) مختصر منهاج القاصدين، بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، ط. دار التراث بالقاهرة، ص (٢٣٤ - ٢٣٥) بتصرف يسير.

ومن العصاة من يغتر؛ فيقول: إن اللّه كريم، وإنما نتَّكِلُ علىٰ عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: من رَجَا شيئًا طَلَبَه، ومن خافَ شيئًا هَرَبَ منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور.

وليُعلم أنَّ اللّه تعالىٰ مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضىٰ بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضرُّه كفرهم، وقد سلَّط الأمراض والمحن علىٰ خلقٍ من عباده في الدنيا، وهو سبحانه قادرٌ علىٰ إزالتها، ثم خوَّفنا من عقابه، فكيف لا نخاف؟!

فالخوف والرجاء سائقان يَبعثان علىٰ العمل، وما لا يبعث علىٰ العمل فهو غرور.. ويوضِّح هذا أنَّ رجاء أكثرَ الخلقِ يَحمِلُهم علىٰ البطالة، وإيثارِ المعاصي.

والعَجَبَ أنَّ القَرْنَ الأوَّلَ عملوا وخافوا، ثُمَّ أهلُ هذا الزمان أَمِنُوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عَرِفوا من كرم اللّه تعالىٰ ما لم يَعْرِفِ الأنبياءُ والصالحون!!

ولو كان الأمر يدرك بالمُنَىٰ؛ فلِمَ تَعِبَ أولئك وكَثُرَ بُكاؤهم؟! وهل ذُمَّ أهلُ الكتاب بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]؛ إلا لِمثلِ هذا الحال؟!

وأما مَنِ اغترَّ بصلاح آبائه؛ فهلَّا يذكر قصةَ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنه، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه، ومُحمَّدٍ ﷺ مع أُمِّه.

ويَقْرُبُ من هذا الغرور، غرورُ أقوام لهم طاعات ومعاصٍ؛ إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم تَرْجُح، فترىٰ الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغَصْبِ أضعافَ ذلك، ولعلَّ الذي تصدق به من المغصوب، ويتَّكِلُ علىٰ تلك الصدقة، وما هو إلا كمن وضع درهمًا في كِفَّة وألفًا في أخرىٰ، ثم رجا أن يرجحَ الدِّرْهَمُ بألف!!

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه؛ وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه علىٰ سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذي يستغفر اللَّه ويسبِّحُهُ مِئةَ مرَّة في اليوم ثم يَظَلُّ طولَ نهاره يغتابُ المسلمين، ويتكلم بما لا يرضىٰ؛ فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبةِ الغِيبة والكلامِ المنهيِّ عنه»[١].

«ويُستعان علىٰ التخلص من الغرور بثلاثةِ أشياء:

العقل: وهو النورُ الأصلي الذي يُدرِكُ به الإنسانُ حقائقَ الأشياء.

والمعرفة: التي يعرفُ بها الإنسانُ نفسَه وربَّه ودنياهُ وآخِرَتَه.

ويستعين علىٰ معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في الكتاب والسُّنَّة من التهديد والوعيد وكثرة «ذكر الموت»، فإذا حصلت هذه المعارف؛ ثار من القلب بمعرفة اللَّه تعالىٰ حُبُّ اللَّه، وبمعرفة الآخرة شدةُ الرَّغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدةُ الرغبةِ عنها؛ فيصيرَ أهمَّ أمورِهِ إليه ما يُوصِّلُهُ

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص (٢٩٢ - ٢٩٣).

إلىٰ اللَّه تعالىٰ، وينفعُهُ في الآخِرة، وإذا غلبت هذه الإرادة علىٰ قلبٍ؛ صَحَّتْ نِيَّتُهُ في الأمور كلِّها، واندفعَ عنه كُلُّ غرور.

فإذا غلبَ حُبُّ اللَّه تعالىٰ علىٰ قلبه لمعرفته به وبنفسه، احتاج إلىٰ الأمر الثالث وهو العلم، ونَعني به العلمَ بكيفيةِ سلوك الطريق إلىٰ اللَّه تعالىٰ وآفاتها، والعلمَ بما يقرِّبه ويهديه؛ فيسلك سبيلَ طلبِ العلم من أهله، ويُقَدِّم أوَّلًا العِلْمَ بِاللَّهِ وأسمائِهِ وصفاتِه.

وإذا فعل جميع ذلك؛ ينبغي أن يكون خائفًا أن يخدعه الشيطان، ويدعوه إلىٰ الرِّياسة، ويُخاف عليه أيضًا مِنَ الأمنِ مِن مكرِ اللَّه تعالىٰ.

ولذلك قيل: والمُخْلِصُونَ علىٰ خَطَرٍ عظيم.

قال الإمام أحمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت: فُتَّنِي - فقال: لا بعدُ.

فلا ينبغي أن يفارقَ الخوفُ قلوبَ الأولياءِ أبدًا.

نسأل اللَّه تعالىٰ السلامةَ من الغرور، وحسنَ الخاتمة، إنه قريبٌ مجيب»[1].

وأمّا رؤيةُ النَّفسِ فعلاجُه:

أَنْ تعرفَ قدْرَك، وتقِفَ عندَ حَدِّك.. وتَعْلَمَ أَنَّ ما أنتَ فيهِ من خيرٍ ونعمةٍ وطاعة؛ هُو مَحْضُ فَضْلِ اللَّهِ عليك، ولو وكَلَكَ إلىٰ نفسِك طَرْفَةَ

(١) المرجع السابق، ص (٢٠٥ - ٢٠٦) بتصرف.

عَيْن؛ لَغَرِقْتَ في الشهوات؛ بل والكبائر؛ بل والكفر.. فاحْذَرِ اللَّه واعْرِفْ نفسَك.

قال ابنُ القيم - عليه رحمةُ اللَّه -:

«لن ينتفعَ العبدُ بنعمةِ اللَّهِ من العلمِ والإيمانِ؛ إلَّا إذا عَرَفَ نفسَه؛ فوقَفَ بها عند قَدْرِها، ولم يتَعَدَّ طَوْرَه؛ فلم يَقُلْ: هذا لي؛ وإنما عَلِمَ أنه من اللَّه وباللَّه وللَّه، فاللَّهُ هُوَ المَانُّ به ابتداءً وإدامةً؛ فليس فيهِ ولا مِنهِ ولا لهُ ولا بهِ خيرٌ البَتَّة؛ إلا أن يَخْلُقَ اللَّهُ فيهِ ذَلِك»[1].

إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: **«لَنْ يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُهُ الجَنَّة»**، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللَّه؟، قال: **«ولا أنا، إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ»**[2].

كان يستطيع أن يقولَ لهم: أنا حبيبُ اللَّه.. أنا خليلُ اللَّه.. أنا نَبِيٌّ معصوم.. فَلِي شأن ولكم شأن.. ولكِنَّهُ ﷺ لم يَرَ نفسَه؛ بل قال ﷺ: **«حتَّىٰ أنا»**.

بمنتهىٰ البساطة قال: حتىٰ أنا لن أدخل الجنة بعملي.. وهذا منه تعليمٌ وتأديبٌ وتهذيبٌ للمسلمين.. ألَّا يرىٰ الإنسانُ نفسَه، ولا يغترَّ بحالِه، ولا يفتخرَ بوضعِه.. فكُلُّ هذا زائِلٌ لن ينفعَه.

---

(١) الفوائد، ص (١٨٦).

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦).

وفي مَوْقِفٍ آخَرَ لمَّا قال لعائشةَ : «أَوجَاءَكِ شيطانُك؟» ، قالت : أَوَمَعِي شيطان ، قال : «وَكُلَّ بكُلِّ ابنِ آدمَ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ» ، قالت : حتَّىٰ أنت؟ ، قال : «حَتَّىٰ أنا ؛ ولَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»[1] .

باللَّهِ عليك ، لو أنَّ زوجةَ أحدِنا جَرَىٰ بينها وبين زوجها هذا الخطاب . . قلتَ لها . . أَوَجَاءكِ شيطان؟ ، قالت : أَوَجَاءَكَ شيطان؟ . . أَلَسْتَ ساعَتَها تغضبُ لنفسِك . . أمَّا رسولُ اللَّه - فِداهُ أبي وأمي ونفسي ، لم أَرَ أحسنَ منه مُرَبِّيًا ومؤدِّبًا ومُعَلِّمًا - أيضًا بمنتهىٰ البساطة والهدوء قال : «حَتَّىٰ أنا» .

ولو شاءَ لقال . . . وقال . . . وقال . . . . من حَقِّهِ أن يقول ؛ ولكِنَّهُ لمَّا لم يَرَ نفسَه ؛ كانت إجابته تعليمًا لكُلِّ مسلمٍ مُتَجَرِّد مُتَّبِع .

فإيَّاكَ - أخي الحبيب - أن ترىٰ لك نفسًا ، أو أن تَشْهَدَ لك فَضْلًا ، أو أن تَفْرِضَ لك حَقًّا . . من أنتَ؟ وما أنت؟ . . عَبْدٌ ضعيفٌ مِسْكين ، تُقْلِقُهُ بَقَّة ، وتُنْتِنُهُ عَرْقَة ، وتَقْتُلُهُ شَرْقَة .

وكما قال بعضُهم لمَّا رأىٰ المُهَلَّبَ بن أبي صُفْرَة يختال . . فقال له : ما هذه المِشْيَة التي يُبْغِضُها اللَّه ورسولُه ، قال المُهلَّب : ألا تدري مَنْ أنا؟ ، قال : قال : بلىٰ أدري : أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَة ، وآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَة ، وأنتَ فيما بينهما تحمِلُ البَوْلَ والعَذِرة!!

فكيف ترىٰ نفسك - أيُّها المذنبُ المُقَصِّرُ الخاطئ . . وأنتَ إذا قِسْنَاكَ ببعضِ أحوالِ مَنْ رضي اللَّه عليهم ؛ بَانَ نَقْصُكَ وعَجْزُك .

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) .

إذا رأيتَ نفسَك ؛ فاسْتَخْرِجْ سيرةَ أحدِ الصحابة أو التابعين ، أو حتىٰ العلماء والصالحين . . أينَ أنتَ مِنهُم ؟!! . . فاعرف قَدْرَك ؛ لن تَعْدُوَ قَدْرَك .

إخوتاه . .

لا يمنعنَّكم ما تغترونَ بهِ مِن حالي أنْ تَبْذُلوا لأخيكم النُّصح ؛ فخيرُكم عندي من أَهْدَىٰ إليَّ عيوبي . . قالها لي أحدكم : لعلك ترىٰ نفسَك !! ، فقلتُ لمن حولي : هل عَهِدْتُم عليَّ ذلك ؛ فقالوا : اللَّهُمَّ لا .

فقلتُ في نفسي : يا ابنَ التُّراب ، لَعَلَّ هذا صَدَقَك ، وَكَذَبَك هؤلاء ، لعلَّهُ أتاكَ بما لا تَدْري ، وَدَخَلَ عليك الدَّخَلُ مِنْ حيثُ لا تَدْرِي .

فلا يَحْسَبَنَّ أحدُكم أنِّي لا أَقْبَلُ نُصْحًا ؛ لما تَعلمون من شِدَّةِ طَبْعِي أحيانًا ، وأرجو - واللَّهُ شهيد - ألَّا أكونَ باذلًا لكم النُّصحَ استعلاءً ؛ بل شفيقٌ عليكم ، تَئِنُّ جوانِحُهُ حينَ يرىٰ الخَلَلَ فيكم[١] .

اللَّهمَّ سامِحْنا وتجاوزْ عنا ، واجعلنا بفضلكَ وكرمكَ من عبادك الصالحين ، واحشرنا اللَّهُمَّ في زُمْرَةِ النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشُّهدَاء ، وحَسُنَ أُولئكَ رفيقا .

* * *

(١) لنا محاضرة في شريطين عن كيفية الانتصار علىٰ النفس ، بعنوان : «**خَمْسُ طَلَقَاتٍ مِنْ مِدْفَعِ العبودية**» ، استمع إليها تُفِدْ بإذن اللَّه . وسيأتي الكلامُ معنا عن «**كيف تعرف عيوبَ نفسك ؟**» في «بداية العلاج» ، و«**مقامات محاسبة النفس**» في «وسائل العلاج» . . فاستعِنْ باللَّه ولا تُقصِّرْ .

(١٧) حب الظهور وطلب الشهرة

لم يكن صاحبنا قبل التزامه يعتبر نفسه إنسانًا عاديًا أبدًا . . إنه يحب دومًا أن يكون متميزًا ؛ فما من مكان يذهب إليه أو مجتمعٍ يخالطه إلا وهو يحب أن يكون فيه متميزًا ظاهرًا ، لا يحب أن يكون مغموصًا ، أو غير معروف ، أو أن يعامل معاملة عادية .

والتزم صاحبنا وظلت تلك الآفة بداخله ؛ فمن أول يوم في التزامه اسْتَشْرَفَ الظهورَ والتَّمَيُّزَ في ملابسه ، وعنايتَهُ الفائقة بمظهره ؛ فضلًا عن التمسح بالمشايخ والدعاة والتَّزَلُّفِ إليهم ، طلبًا للأضواء وسَعْيًا للشهرة .

وبدأت أحلام اليقظة تُرَاوده علىٰ الشهرة العالية ، والمؤلفات والمصنَّفات ، وبدأ يحلم بـ« أبو فلان الـ . . شيخ الإسلام » .

وبثَّ صاحبنا همومَه للشيخ ، ونظر إليه الشيخُ بإشفاقٍ وضَحِكَ كثيرًا حين رآه يحمل خاتمًا باسمه وكُنيته .

وبدأ الشيخ علاجَ هذا المرضِ الخطير . . وسطَ جدلٍ من صاحبنا يسوق مبرراتِه :

أليست الكُنْيَة سُنَّة ؟! . . فقال الشيخ : الكنية فرعُ التوقير ؛ فالناس تُكَنِّيك ولا تُكَنِّي أنت نفسك .

العناية بالمظهر ليست بالكبر، إنما أفعلها ليمدح الناس الملتزمين ويحبون الالتزام، ودِعايةَ حَقٍّ للإسلام.

قال الشيخ: يا بُنَيَّ أنتَ مسكين، وهل تستطيع أنت تحرير هذه النية.. إنَّ أغلب ما تفعل حظُّ نفس.. اسكُتْ وتحمّل معي آلام المِشْرَط لنعالج هذاالمرض الخطير.. ثم قال الشيخ:

عن عامر بن سعد قال: كان سعدُ بن أبي وقاص في إبلِه، فجاءه ابنُه عمر، فلما رآه سعدٌ قال: أعوذ باللّه من شَرِّ هذا الرَّاكب، فنزل فقال له: أنزَلْتَ في إبلك وغنمِك، وتركت الناسَ يتنازعون المُلْكَ بينهم؟!، فضرب سعدٌ في صدره، وقال: اسكت، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيّ الْغَنِيّ الْخَفِيّ**»[1].

قال النَّوويُّ رحمه الله: المُراد بالغِنىٰ غنىٰ النفس... و«الخفيُّ» الخامل المنقطع إلىٰ العبادة والاشتغال بأمورِ نفسه.

فاللّه تعالىٰ يُحِبُّ مَنْ عبادِه مَنْ تفرَّغَ له، ومَنْ لَمْ يَعبأ بالنَّاس، أعطَوْهُ أو منعُوه، أعلَوْه أو حقَرُوه، فهو خاملُ الذِّكْر عندهم؛ ولكنّه عند المَلِك جَلَّ جلالُه بالمنزلةِ العظيمة.. وهذا أدعىٰ للإخلاص؛ فحب الظهور يَقْصِمُ الظهور، وعادةً لا تستقيم أعمال النَّاس الظاهرة من آفات، كالرياء والعجب، وحب المَحْمَدَةِ والثناء، والشهرة وحب التصدر.

وللأسف!!.. قَلَّ في عالم الملتزمين اليوم مَنْ يُؤْثِرُ الخمول.. تجد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).

بعضهم- إذا فعل خيرًا أو أَسْدَىٰ معروفًا- حريصًا علىٰ أن يعرفه كُلُّ الإخوة، ويريدُ أن يَشْكُرَهُ الجميع؛ ويُثْنُونَ عليه.. حريص علىٰ الظهور.. وأهل العلم يقولون: كُلَّمَا كانَ العملُ أَخْفَىٰ رُجِيَ قَبُولُه.

قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].. ولذلك عَدَّ رسولُ اللَّه ﷺ من السبعة الذين يُظلهم اللَّه بظله: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا؛ حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**»(١).

فليس ثَمَّ ما يُتْلِفُ علىٰ العبدِ أمرَ دينه أكثرَ من حبه للشهرة وحرصه عليها؛ قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ما ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَىٰ المَالِ والشَّرَفِ لِدِينِهِ**»(٢).

فحرصُ المرءِ علىٰ المال والجاه والمنصب يُفْسِدُ دينَه؛ لاستدعائِهِ العُلُوَّ في الأرض والفساد المذمومين شرعًا.

ومن هنا كان السلف الصالح يَكرهون الشهرة غايةَ الكراهية، وكانوا يَذمُّون أنفسَهم غايةَ الذَّمّ، ويَسترون أعمالهم غايةَ السَّتْر. هذه ثلاثة فالْزَمْ!

دخل رجلٌ علىٰ داودَ الطَّائِيِّ فسأله: ما جاء بك؟، فقال: جئتُ أزورَك. فقال: أمَّا أنت فقد أصبتَ خيرًا حيث زُرتَ في اللَّه، ولكنْ أنا أنظر ماذا لَقِيتُ غدًا إذا قيل لي: مَنْ أنتَ حتَّىٰ تُزار؟.. مِنَ الزهاد

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وصححه الألباني (٥٦٢٠) في «صحيح الجامع».

أنت؟ ، لا والله . . مِنَ العُبَّاد أنت؟ ، لا والله . . مِنَ الصَّالحينَ أنت؟ ، لا والله . . . وعَدَّدَ خصال الخير علىٰ هذا الوجه ، ثمَّ جعل يُوَبِّخ نفسَهُ ، فيقول : يا داود ، كنتَ في الشبيبة فاسقًا ، فلمَّا شِبْتَ صِرْتَ مُرَائيًا ، والمرائي شَرٌّ مِنَ الفاسق .

وكان محمد بن واسع يقول : لو أنَّ للذنوبِ رائحة ؛ ما استطاع أحدٌ أنْ يُجَالسني .

وكان إبراهيم النَّخَعِيُّ إذا دخل عليه أحدٌ وهو يقرأ في المصحف غطَّاه .

وكان أُوَيْسٌ وغيره منَ الزهاد إذا عُرفوا في مكان ؛ ارتحلوا عنه .

وكان كثيرٌ من السَّلَف يَكرهُ أنْ يُطلبَ منه الدعاء ، ويقول لمن يسأله : أَمِنِّي أنا؟!!

ووُصِفَ بعضُ الصالحين واجتهادُهُ في العبادةِ لبعضِ الملوك ، فعزم علىٰ زيارته ، فبلغه ذلك ، فجلس علىٰ قارعةِ الطريقِ يأكل ، فوافاه الملك وهو علىٰ تلك الحالة ، فسلَّمَ عليه ، فردَّ عليه السلام ، وجعل يأكل أكلًا كثيرًا ولا يلتفت إلىٰ الملك ، فقال الملك : ما في هذا خير ، ورجع . فقال الرجل : الحمدُ للّهِ الذي رَدَّ هذا عنِّي وهو لائم .

وانظر إلىٰ الإمام أحمد . . يقول المَرْوَذِيُّ : كان إذا جلس في مجلسه بعد العصر لم يتكلم حتىٰ يُسأل ، وإذا خرج إلىٰ مجلسه لم يَتَصَدَّر ، يقعد حيثُ انتهىٰ به المجلس ، وكان لا يَقْطُنُ الأماكنَ الفارهة ويَكرهُ إيطَانَها .

إخوتاه . .

لَيْسَ الخُمُولُ بِعَارٍ عَلَىٰ امْرِئٍ ذِي كَمَالِ
فَلَيْلَةُ القَدْرِ تَخْفَىٰ وَتِلْكَ خَيْرُ اللَّيَالِي

فهل مِن مُؤْثِرٍ لدارِ القرارِ علىٰ دارِ البَوَار؟ . . هل مِن مُحِبٍّ لثناءِ المَلإِ الأعلىٰ لا ثناء أهلِ الأرض؟ . . هل مِنْ مُعَامِلٍ لِلَّهِ يخشاه . . ويراقبُهُ وَحْدَهُ؟!

أيُّها الإخوة . . علاجُ حُبِّ الظهور وطلبِ الشهرة:

أولًا: أن تعرفَ خطورةَ هذا الأمر وآفاتِه . . قال بعضُ السلف: هَلَكَ الأخْرَاض، قيل: مَنْ هُمْ؟، قال: الذين يُشَارُ إِلَيْهِم بِالبَنَان . . وقال سفيان: كل شيءٍ ظهرَ من عملي؛ لا أَعُدُّهُ؛ فقلوبنا أضعفُ مِن أن تُخْلِصَ والناسُ ينظرون .

ثانيًا: أن تعلَم أَنَّ هذا الأمرَ رِزْق . . لا بالتَّشَوُّفِ ولا بالتَّمَنِّي، وأنَّهُ ابتلاء؛ قال ﷺ: «**إننا لا نُعطي الإمارةَ مَنْ سَأَلَها، فَمَنْ سَأَلَها وُكِلَ إليها، ومَنْ أَخَذَها وهو كَارِهٌ أُعِينَ عليها**»[1] .

ثالثًا: أن تعرفَ يقينًا أَنَّ السَّلامَةَ في الخُمُول . . والمطلبَ الأَسْمَىٰ أَنْ تكونَ معروفًا في الملأ الأعلىٰ؛ فاعْمَلْ لذلك .

❁ ❁ ❁

(١) أصله في الصحيحين، البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢) .

(١٨) التعصُّب والتعلُّق بالأشخاص

كان صاحبنا قبل الالتزام «أهلاويًا»، ويا ويلَ من يخالفه.. إنـ
متعصِّبٌ بجنون.. وكذلك للمطرب الفلاني، وللراقصة الفلانية
وللممثل الفلاني.. أسماء هو يحفظها ويحتفظ بصورهم، ويعرف ويتابـ
دومًا أخبارَهم، يدافعُ وينافح عنهم، ويخترع القِصصَ في فضائلهـ
وأخبارِهم.

ثم التزم صاحِبُنا ودخل طريقَ الدِّين؛ ولكن التعصُّبَ ذاته ما زال في
قلبه، فقط تغيرت الأسماء، فالتعصب للجماعة الفلانية والشيخ فلان
والأخ فلان، والقارئ فلان، والمسجد الفلاني، ثم تعصبٌ للآرا
والفتاوىٰ.. أشياء تُقَسِّي القلب وتضيِّع الإيمان..

اكتشف الشيخ هذا المرض فجأة؛ فانزعج له، وبدأ في رحلةٍ طويلة
لعلاُج هذا المرض الخطير فقال:

من أخطر القضايا التي عُنِيَ الإسلامُ بها منذ بُزوغ فجره: قضيةُ
«الولاء والبراء»؛ فالولاء للدِّين، والبراء من مخالفه، الحب في اللّه
والبغض في اللّه، وهذا أوثق عُرَىٰ الإسلام.

لكنْ كلَّما ابتعد النّاس عن دينهم؛ رأيت مسالكهم في هذا الجانب
لا تنضبط بحال، فتراهم يُوَالُون أعداء اللّه تعالىٰ ولا يرَوْنَ في ذلك

غَضَاضَةً ولا حَرَجًا، ويعادون أولياء الله تعالىٰ ويؤذونهم، وتصير الرَّاية هي «المصلحة» و«المنفعة» و«الهوىٰ الشخصي»، وهذه هي الجاهليةُ العمياء.

وقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن هذه «العَصَبِيَّة»، وأرشدنا إلىٰ ما ينبغي «التعصب» له، وإلىٰ أَنَّ الخطر ليس فقط في أنْ تتمسك بمحبة أهلك وقومك الظالمين؛ بل الأخطر أنْ تُعِينَهم علىٰ الظلم حَمِيَّةً.. أو أنْ تفتخر بمن تعرف إعراضَهم عن دين الله؛ لأنَّهم من عشيرتك.. أو أن تصاحب هذا وذاك من الفَسَقَةِ الفَجَرَة؛ لأنَّ لك عندهم مصلحة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ»**[1].

و**«عُبِّيَّة الجاهلية»** تعني - كما قال الخطَّابي -: الكِبر والنَّخْوَة، وأصله من العَبِّ وهو الثِّقَل[2].

وفَرْقٌ بين التعصبِ للدِّين والتعصبِ في الدِّين.. فالتعصبُ للحقِّ فضيلة، وحُبُّ الإيمانِ وأهلِهِ مَنْدُوحَة.. أَمَّا أن نتعصبَ لآراءٍ وأشخاصٍ هَوًى؛ فذاك التعصبُ المَقِيت.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، وحسنه الألباني (٤٢٦٩) في «صحيح أبي داود».

(٢) قال ابن سِيدَه: والعَبَىٰ: الجافي.. وقيل: العَبَاء بالمَدِّ: الثقيل الأحمق. (لسان العرب: مادة ع ب ي).

لكنَّ الإنصاف عزيز، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وللأسف!!.. ينشأ الواحد منَّا في أوساط بعيدة عن الالتزام بدين الله تعالىٰ؛ فترىٰ أنواعًا من «العصبيات الجاهلية» المَقيتة.. هذا يتعصب لقومه وأهله وإنْ كانوا هم الظالمين، وهذا يتعصب لمن يشاركونه في التوجُّهات الفكرية وإنْ كانت جاهلية، حتىٰ انتهىٰ بنا الأمر للتعصب للأندية الرياضية، ورأينا العَجب العُجاب من أمةٍ تدَّعي أنها مسلمة، رأينا التشاحن والتباغض والتشاجر؛ لأنَّ الفريق الفلاني كسب الفريق العلاني في مباراة للكرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذه الجاهليات يبقىٰ لها أثر واضح بعد الالتزام، فتتحول الوجهة إلىٰ تيارات وأحزاب، وتجد الولاء للشيخ أو لمن يشاركه في الرأي الفقهي، والبراء ممن يختلف معه في الرأي، وترىٰ التعصب للمذاهب دون دليلٍ ولا برهان.. وهل تنافرت قلوبُ المسلمين إلا من هذا الباب؟!

كان المُتَصَوَّر أنْ تتحول هذه النزعات لتنصهر في بَوْتَقَةِ الالتزام، وأنْ يكون ذلك التعصب وَفْقَ منهج أهل السنة والجماعة، وأنْ يتَّحِدَ النَّاس في الأصول، فكلمة التوحيد هيَ أساس توحيد الكلمة، ثم يَسَعُهُم ما وَسِعَ سلَفَهم من اختلافٍ فقهيّ، متأدبينَ بالآدابِ الشرعيةِ عند الخلاف.. لكن ماذا نفعل والواقع كما ترىٰ؟!

أيها الإخوة..

دَعُوا عنكم هذا التنافر، وتخلَّصوا من هذه النزعات الجاهلية، فلا يتعصبنَّ أحدٌ لقولٍ إلا قولِ اللَّهِ وقولِ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

ومتىٰ كانَ النَّصُ جَلِيًا ؛ لَزِمَنَا التحاكمُ إلىٰ مفهومه الواضح ؛ فلا نَنْزَعُ إلىٰ التأويل الفاسد لخدمة أهوائنا لنصرة قول عالم أو زعيم . . إنها المَحَجَّةُ البيضاء . . ومتىٰ كان النَّصُّ خفيًا تختلف حوله نظرات علماء سلفنا الصالح ؛ فَيَلْزَمُنَا فَهمُ السَّلف من القرون الثلاثة الخيرية ؛ ففهمهم مقدَّم .

ولا يَتعصبنَّ أحدٌ لأيِّ أحدٍ إلَّا لرسول اللَّه ﷺ . . ولا لجماعةٍ إلا لأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ أنْ يَرِثَ اللَّه الأرض ومَنْ عليها . . هذا منهجُك وهذا سبيلك ؛ فاستمسِكْ بِغَرْزِهِ .

فالعِلاجُ إذًا :

① **الحبُّ في اللَّه لا التعصب للأشخاص** . . فالحب في اللَّه مبذولٌ لكل مسلم . . فحقُّه أن تحبَّه ولو كان عاصيًا ؛ فإنه يُحَبُّ من وجه ، ويُبغَضُ علىٰ قدر معصيته .

② **الأدب** . . ويالها من دُرَّةٍ مفقودة ! ! . . أدبُ القلب . . وأدبُ اللسان . . أدبُ الخلاف . . وأدب الكلام . . أدب المناظرة . . وأدب المناقشة . . الأدب . . أين الأدب ؟ ! ! . . فواجبٌ علينا تعلُّمُ الأدبِ معَ أهلِ الدِّين .

③ **تعلقُ القلب باللَّهِ وَحْدَه** . . وأن تَرَىٰ الناسَ جميعًا عبيدًا للَّه ، مُسَخَّرونَ مَقْهورونَ لقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِه .

❊ ❊ ❊

(١٩) التشبُّع بما لم يُعْطَ

التشبع بما لم تُعْطَ : أن تُظهر ما ليس فيك ، وأن تَتَقوَّلَ بما ليس عندك . . وأن تُكبِّر وتُكثِّر أعمالك الصغيرة القليلة . . وأن تفتخر فتنسب الفضل لنفسك بعملٍ لم تَقُمْ به أو شاركتَ فيه من بعيد ؛ لتُخْمِدَ ذِكرَ صاحبه وتَظهر أنت . . وهذا من الجاهلية الأولىٰ .

وهنا نتساءل :

هل للبيئةِ تأثيرٌ في صياغة نفسيةِ الشخصيةِ الإنسانية ؟

وهل للمواقف التي صاحَبَتْ الإنسان في حياته نفسُ التأثير ؟

وهل التغيير وارد ؟ ، وما نسبة التغيير الممكنة ؟ ، وكيف ؟

هذه الأسئلة الخمسة من أصول الفقه التربوي ، يرتكز عليها العمل كله في فهم نفسية المخاطب ، وكيفية التعامل معه .

إنَّ صاحِبَنا الذي قطعنا معه الشَّوْطَ الطويل السابق لابد له من الاستمرار في التغيير ؛ لأنه ما زال يَرْزَحُ تحت أغلال الجاهلية الأولىٰ ، من أخلاقيات ومفاهيم وتصورات وآمال وتطلعات .

ومن رواسب تلك الجاهلية التي رَسَخت في أذهان كثيرٍ من الناس من البيئة والواقع : « أنَّ النَّاس لا يعرفون شيئًا » ؛ فلذلك يدخل هذا الأخ الالتزام أو يختلط بالإخوة ، وقد أحاط نفسَه بِهَالةٍ كبيرةٍ من الكلمات والعبارات الكبيرة « المنفوخة » ، وهو في الأصل جاهل .

الشيخ فلان صديقي، وتعلمت علىٰ يدِ الشيخ فلان، وتربَّيتُ علىٰ يدِ الشيخ فلان، ودرست كتاب كذا، وأحفظ كذا وكذا، وكنت مع . . ، وصحبت . . ، وكان عندي . . ، وأنا أستطيع كل ذلك، . . إلخ .

صار مُتَشَبِّعًا بما لم يُعْطَ . . دعاوَىٰ عريضة فارغة . حتىٰ وإنْ كان عند البعض منها حقيقة؛ إلا أنّه دون الموصوف . . فالحقائقُ مبالَغٌ فيها بشكلٍ عجيب .

لماذا؟ . . نعم : هذا هو المَحَكّ . . لماذا؟ . . سأل صاحِبُنا الشيخ وهو يضغط علىٰ كُلّ حرفٍ من حروف هذه الكلمة «لِمَاذَا؟» . . وبدأ الشيخ العلاج قائِلًا : الجواب يا بُنَيّ :

إنَّ بعض النَّاس عجز عن الحصول علىٰ الدنيا بالدنيا؛ فلجأ للحصول عليها من طريق الدِّين . . لمَّا عجز أنْ يكون لاعِبًا مشهورًا، أو فنَّانًا معروفًا، أو حتىٰ مُجْرِمًا خطيرًا؛ جاء ليَشتهر عن طريق الدِّين .

عُذْرًا . . هذا واقعٌ موجود، ونوعٌ من الأنواع الرديئة التي تَصُدُّ عن دين اللَّه . . ولكِنَّ الأكثر ممن يفعل ذلك جُهَّال، يريدون مجدًا لم يبنوا منه لَبِنَة، ولم يَبْذُلوا في سبيل تحصيله قَطْرَةً مِنْ عَرَق .

والالتزام بالدِّين غير هذا تمامًا، إنَّ الدين الذي التزمته، والطريق الذي سلكته يريد منك بل ويشترطُ عليك أنْ تستر نفسَك . . بل ونكران الذات أصلٌ من أصول هذا الطريق، والصدقُ أصلُ أصولِه، فكيف يتحرَّىٰ إنسانٌ - يريد اللَّه ورسوله - الكَذِبَ المتعمَّد، ثم يريد به عرضًا من الدنيا، جاهًا أو مالًا . . سبحانَ المَلِك!!

أخي الحبيب . . إذا صدقت مع اللَّه وأخلصت النية في رجاء الدار الآخرة ، فما عليك من الناس ، ماذا تريد منهم لتكذب عليهم ، وتُظهر وتدَّعي ما ليس فيك . . أَخيَّ ، إياك والتشبع بما لم تُعط .

عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي ضُرَّةً ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[١] .

فالمُتَزِيِّنُ بما ليس عنده يتكثَّرُ بذلك ، ويتزينُ بالباطل ؛ كالمرأةِ تكونُ عند الرجل - ولها ضُرَّة - فتدَّعىٰ من الحُظْوَة عند زوجها أكثر مما عنده ، تريد بذلك غيظ ضرتها ، والرجل يلبس الثياب المُشْبِهَة لثياب الزهاد ، يُوهِم أنه منهم ، ويُظْهِرُ من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه .

وهذه خَصلةٌ ظاهرةٌ من خصال الجاهلية الشائعة في أوساط الملتزمين ؛ فتراه يرتدي ثياب أهل العلم ، ويُظهر معرفته بالأمور التي هو عليم بجهله لها . . تراه يتعالم فيتشدق ويتقعر ويتفيهق في الكلام ، ويا ليته يسكت بهذا الحديث : قال رسولُ اللَّه ﷺ : «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلُّلَ الْبَاقِرَةِ بِلِسَانِهَا**»[٢] .

قال المُنَاوِيُّ : أي المُظهر للتفصح تيهًا (تكبُّرًا) علىٰ الغير ، وتفاصحًا واستعلاء ، ووسيلةً إلىٰ الاقتدار علىٰ تصغير عظيم ، أو تعظيم حقير ، أو بقصد تعجيز غيره ، أو تزيين الباطل في صورة الحق ، أو عكسه .

(١) متفق عليه ، البخاري (٥٢١٩) ، ومسلم (٢١٢٩) .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥) ، وصححه الألباني (١٨٧٥) في «صحيح الجامع» .

و«**الباقرة**» جماعة البقر، «**بلسانها**» أي الذي يَتَشَدَّقُ بلسانِه كما تتشدق البقرة، ووجه الشَّبَه: إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلم، كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل، وخَصَّ البقرة من بين البهائم؛ لأنَّ سائرها تأخذ النبات بأسنانها، والبقرة لا تَحْتَشُّ إلا بلسانها.

مَرَّ بعض السلف بقاصٍ يدعو بسجع فقال له: أَعلىٰ اللّٰهِ تتبالَغ؟!، ادعُ بلسانِ الذِّلةِ والافتقار، لا بلسانِ الفصاحةِ والانطلاق.

إنَّ تشبعَكَ بما لم تُعْطَ دليلٌ علىٰ حُبِّكَ للظهور والثناء والمدح، والفرح بما لم تفعل، وهذا جزاؤه وخيم؛ قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

لِسَانٌ فَصِيحٌ مُعْرِبٌ فِي كَلَامِهِ ... فَيَا لَيْتَهُ فِي مَوْقِفِ الحَشْرِ يَسْلَمُ

وعِلاجُ هذا الأمر:

① **التخلُّص من رواسب الجاهلية التي أفْرَزَتْهَا: أحلامُ اليقظة..** فأحلامُهُ أن يكون كبيرًا مرموقًا تدفَعُهُ لصنعِ مَجْدٍ من الأوهام، وبناءِ قلعةٍ من الأحلام.

② **أن يعلمَ خطورة الكذب المُتَعَمَّد؛ «حتَّىٰ الكُذَيْبَةُ تُكْتَبُ كُذَيْبَةً»**[1].

③ **أن يخشىٰ أن يسقطَ من عينِ اللّٰه، بِتَبَاهِيهِ بالكذب ليكبرَ في أَعْيُنِ الناس.**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٥١١)، وضعفه الألباني (١٥٢١) في «ضعيف الجامع».

منشأ

الرواسب الجاهلية

وقَطْرٌ علىٰ قَطْرٍ إِذَا اتَّفَقَتْ نَهْرٌ

ونَهْرٌ إِلىٰ نَهْرٍ إِذَا اجْتَمَعَتْ بَحْرُ



منشأ الرواسب الجاهلية

بعد أنْ عالجَ الشيخُ الأمراضَ السابقة في قلبِ صاحِبِنا ؛ اعتدل صاحِبُنا في جِلسته مُواجِهًا الشيخ وقال له : هل انتهيت ؟، قال الشيخ : لا بَعْدُ . . إننا انتهينا من مرحلةِ الأمراض الظاهرة ؛ أما البواطن والأمراض الخاصة لكُلِّ شخصٍ نتيجة ظروفه الخاصة فَهَيْهَاتَ أَنْ نستطيعَ استقصاءها .

فقال صاحِبُنا : لقد تعبتُ . . وأُفْشِيكَ سِرًّا ؛ إنها مفاجأة فعلًا . . فُوجئتُ بهذا الرُّكام الهائل من الأمراض الخبيثة والرواسب السيِّئة ، وأشدُّ ما يُؤلمني : في كثرتها ونوعيتها . . لماذا؟ لماذا - أَيُّها الشيخ - كانت تلك الرواسب العميقة؟ لماذا؟ . . وهَدَّأَ الشيخُ من رَوْعِه وقال له :

أيها الحبيب . .

لا ريب أنَّ من وراء هذه الجاهليات أسبابًا ، تنشأ عنها ، وهذه الأسباب قد تجتمع فيكون أثرها أشد ، وقد يتخلَّف بعضها فيكونَ العلاجُ أسهل ، وعادةً ما يكون الأمرُ عائدًا إلىٰ الشخصِ ذاته ، والأسرة التي نشأ فيها ، وطريقة التربية التي رُبِّي عليها ، ثمَّ المجتمع الذي يختلطُ به ، سواءً كان في المدرسة أو الجامعة ، أو الشارع أو السوق ، أو غيره .

إنَّ بَحْثَنَا في مسألةِ مَنْشَإِ الرَّواسب مِنَ الأهميةِ بِمَكَان ؛ للوُصُولِ إلىٰ العلاجِ الصحيح ؛ فإنَّ وَصْفَ العِلاجِ المناسب مُرتبطٌ بقضيةِ التَّشخيصِ الصَّحِيحِ للمرض . . هذهِ **أوَّلًا** .

ثانيًا : أَنَّ العِلاجَ الصحيح أَنْ تُعَالِجَ الأسبابَ لا المظاهر ؛ لكي نستطيعَ التَّخَلُّص . . **أمَّا ثالِثُها** : في أنَّ ذلكَ ينفعُنا في تَفَادِي هذه الأسباب في تربيةِ أولادِنا ونُصْحِ غيرِنا . . والوِقَايَةُ خَيْرٌ مِنَ العلاج .

وهذا يُفِيدُنا أيضًا في زيادةِ الإيمان ؛ مِنَ العِلْمِ بارتباطِ الأسبابِ بِمُسَبَبَاتِها إلَّا ما شَاء اللَّه . . ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحدًا . . فما أنتَ فيهِ مِنْ بلاءٍ وشَرٍّ وفِتْنَةٍ له سَبَب ؛ فَدَقِّقِ البحثَ عن الأسبابِ الظاهرةِ والخَفِيَّة ؛ لتعرفَ مِنْ أينَ أُتِيت ؛ فَيَسْهُلَ عليكَ سَدُّ البابِ الذي يأتي منهُ الرِّيح فتستطيعَ أَنْ تستريح .

قال تعالىٰ : ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩] .

ثم إنَّكَ إذا تدبرتَ الأمرَ وجدتَهُ يعودُ إلىٰ ثلاثةِ أسبابٍ رئيسية :

الأول : قَبُولُ المَحَلِّ «القلب» .

الثاني : فسادُ التربيةِ والتنشئة .

الثالث : العادات الاجتماعية الجاهلية .

* * *

أوَّلًا قَبُول المَحَل

أنواع القلوب .. وألوان الفتن :

إخوتاه .. أيها الأحبة في الله ..

خلق الله القلوب مختلفة في تقبُّلها للأشياء ؛ فمنها ما تجده طيِّبًا سريعًا في تقبل الخير والتأثر به ، ومنها ما تجده خبيثًا لا يتقبل غيث الهُدىٰ .

قال ﷺ : **«مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ والعِلْم ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّة ، قَبِلَتْ المَاء ؛ فَأَنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِير ، وكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبَ ، أَمْسَكَتِ المَاء ؛ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاس ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا ، وأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخرَىٰ ، إِنَّمَا قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلأً** ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّه ، ونَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسَا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللَّهَ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ »[1] .

فالقلوب كالأراضي منها الطيِّب الذي يتقبل الماء ويُنبِت الزرع ؛ فينتفع بالحق ويَنفع به ، ومنها ما لا يتأثر بما يُتلىٰ عليه من الهدىٰ والحق .. ومن هاهنا يحدث التفاوت بين الناس ، فمنهم من لا تضره الفتن ، ولا تُبقي في قلبه أثرًا كبيرًا ، وهذا هو القلب السليم الذي إذا أتته الفتن أنكرها ، وفرَّ

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

منها، ولاذ بحصن اللَّه، ومنهم ما تُبقي فيه الفتن آثارًا ونُدوبًا تظل تشاكسه وتحول بينه وبين الكمال الإنساني حتىٰ تدخل معه القبر.

والناس في هذا ما بين مُسْتَقِلٍّ ومُسْتَكْثِرٍ، فقد تستقر الفتن وتتمدد حتىٰ تغلُب علىٰ القلب، وقد يبقىٰ منها الأثر قليلًا كان أو كثيرًا، وهذه الآثار هي التي نَعنيه بـ«الرواسب الجاهلية».

وقد بيَّن لنا رسول اللَّه ﷺ الحكمة من الفتن، وأنَّها لامتحان القلوب؛ حتىٰ يعلم كل منَّا حقيقة أمره وحال قلبه؛ فإذا وجده فاسدًا همَّ في إصلاحه، وإنْ وجده صالحًا شكر نعمة اللَّه عليه؛ فصانه عن غوائل الشهوات والشبهات.

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟، قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ. وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟، قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ. فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ، لِلَّهِ أَبُوكَ!

قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ: عَلَىٰ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا؛ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا،**

وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[١] . و**«مُجَخِّيًا»** : أي مَنْكُوسًا ، و**«مُرْبَادًا»** أي اختلط فيه سوادٌ ببياض .

بَيَّن لنا النبي ﷺ في هذا الحديث أنَّ اللَّه قضىٰ - وهو العليم الحكيم - أنَّه لابد من امتحان القلوب واختبارها ، فتعرض عليها الفتن .

- فهذا يُفتن بالمال والولد : قال تعالىٰ : ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] .

- وهذا يُفتَن بالعطاء ، وذاك يفتن بالمَنْع . . وآخر يُبتَلىٰ بالشر ، وغيرُه يُبتلىٰ بالخير ؛ قال جل وعلا : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]

- ويُفتَن العبدُ أيضًا بالإمهال : ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١] .

- ويُفتَن بالوسوسة : ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]

- ويُفتَن بالخُلطةِ مع النَّاس : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] .

- ويُفتَن بالظلم والقَهرِ والأذىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤) .

لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠-١١].

امتحان شديد.. جارٍ لا محالة.. فهي ابتلاءات متتالية (عَوْدًا عَوْدًا)، كثيرة شائعة كموج البحر، تؤثر في القلب وتلتصق به كما يلتصق الحصير بجنب النائم، يؤثر فيه شدة التصاقه به.

(فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاء).. هنا مَوْطِنُ الشَّاهِد: أنَّ القلوب تتفاوت وتختلف في القابلية.. فمنها ما يكون كالإسفنجة تتشرب كُلَّ ما يُلقىٰ إليها وتتشبع به، ومنها ما يكون كالقارورة المُصْمَتَة، تَصُدُّ ما يأتيها من خارجها، فلا يدخل فيها إلا ما يُفتح له.. وهذا شأن القلب مع الجاهليات من شبهات ومنكرات وأهواء ومخالفات.

فإذا أُشرِبَ القلبُ هذة الجاهليات؛ فحينئذ تترك فيه أثرًا كالنقطة السَّوداء في الثوب الأبيض، حتىٰ إذا توالت علىٰ القلب وطغت عليه، ولم تجد ما يصرفها؛ صار أسودَ مظلمًا، لا سبيل لنورِ الهدايةِ إليه؛ قال اللَّهُ تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ويصير صاحبه عبدًا خالصًا لهواه.. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومنها: ما ينكر تلك الفتن، فيترك ذلك أثرًا عظيمًا جميلاً، ويظل طاهرًا أبيض حتىٰ يشتد علىٰ عَقْدِ الإيمان، ويسلَم من الخَلل والآفات؛

فلا تؤثر فيه الفتن، كالصَّفَا - وهو الحجر الأملس الذي لا يَعْلَقُ به شيء.

قال صاحب التحرير: «معنىٰ الحديث: أَنَّ الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي؛ دخل قلبَهُ بكل معصيةٍ يتعاطاها ظُلْمَةٌ، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام. والقلب مثل الكوز؛ فإذا انْكَبَّ انْصَبَّ ما فيه، ولم يدخلْه شيءٌ بعد ذلك»[1].

أَقْدَارُ القلوب.. وقِسْمَتُها:

أحبتي في الله.. تأملوا معي هذين الحديثين:

عن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله تعالىٰ خَلَقَ آدمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جميعِ الأرض؛ فَجَاءَ بنو آدمَ علىٰ قَدْرِ الأرض؛ فجاءَ منهمُ الأحمرُ والأبيض، والأسودُ وبَيْنَ ذلك، والسَّهْلُ والحَزَن، والخبيثُ والطَّيِّب**»[2].

وجاء في حديثٍ آخر: «**إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلْمَةٍ، فألْقَىٰ عليهم مِن نورِه؛ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذلك النورِ اهْتَدَىٰ، ومَنْ أَخْطَأَهُ ضَلّ**»[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم (٢/٢٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٢٢)، وصححه الألباني (٢٩٥٥) في «صحيح الترمذي».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥)، وصححه الألباني (٢٦٤٢) في «صحيح الترمذي».

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا يَدُلُّ علىٰ أَنَّ مَنْ خُلِقَ مِنَ الصَّفَا صُفِّيَ له، ومَنْ خُلِقَ من الكَدَر كُدِّرَ عليه، فلم يَصْلُحْ للقُرْبِ والرِّياضة؛ وإنَّمَا يَصْلُحُ عبدٌ نَجِيب.

خُلِقَ إبليسُ مِنْ ماءٍ غيرِ طاهر؛ فكانت خِلْعَةُ العِبادة عليه عارية، فسَخُنَ ماءُ معاملته بإيقاد نار الخوف، فلمَّا أعرضَ عنه المَوقِد عاد إلىٰ برودةِ الغفلة. وخُلِقَ عمرُ مِنْ أصلٍ نقيّ؛ فكانت أعمالُ الشِّرْكِ عليه كالعارية، فلمَّا عَجَّتْ نيرانُ حَمِيَّةِ الجاهلية أثَّرَتْ في طبعِه، إلىٰ أن فَنِيَ مَدَدُ حَرِّها بفناء مُدَّةِ تقديرِ إعراضِه؛ فعاد سُخْنُهُ إلىٰ بَرْدِ العِرْفَان.

يا هذا: لاحَتْ عَقَبَةُ المعصيةِ لآدمَ وإبليس، فقال لهما لسانُ الحَال: لابد مِنْ سلوكها، فسلكا يتخبطان في ظلامها؛ فأمَّا آدمُ فانكسرَ قلبُه في طريقه، وبكىٰ لصعوبة مَضِيقِه، فهتفَ به هاتفُ اللُّطف: لا تَجْزَعْ؛ أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهم مِنْ أَجْلِي.

وأمَّا إبليسُ فجاءَ ضاحكًا مُعْجَبًا بنفسِه؛ فثار الكبرُ مِنْ قلبِه، فتكاثرتْ ظلمةُ طريقِه، فلما ارتفعا إلىٰ رأس العقبة؛ ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، فقال إبليس: يا آدمُ كُنَّا رفيقين في عَقَبَةِ المعصية، فكيف افترقنا؟، فنادىٰ منادِي الأَزَل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ [الزخرف: ٣٢]»[(١)].

(١) المدهش، ص (٣١٤).

شُبُهات .. وشهوات .. وردود:

إخوتاه..

وإذا كان أهم أسباب تلك الرواسب هو قابلية المَحَلّ «القلب» لِأَنْ تستقر فيه مثلُ هذه الشوائب؛ فقد تقول: وماذا عليَّ وقد خلقني اللَّه بذلك القلب؟.. المشكلة ليست من قِبَلِي؛ فلو أنَّ اللَّه هداني لكنت من المتقين؟!

وهذا - لَعَمْرُ اللَّه - كذب وبهتان، وخداع من النفس ووسوسة شيطان قال تعالىٰ ردًا علىٰ هذه الشبهة: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩].. فاللَّه يرسل إلىٰ جميع الخلق رسائل هداية وبيان، ولا تمر بعمر الإنسان لحظة لا تخلو من إشارة؛ لكنَّ النَّاس يتفاوتون في الفهم.

فلا تزعمنَّ أنَّ سبيل الهدىٰ لم يُمَهَّد لك أبدًا؛ بل جاءتك الآيات والنُّذُر، وبُيِّنَ لك طريق الهدىٰ؛ فكنت بحيثُ لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن، ولكن أعرضت عنها، وعاندتها وتكبرت، وجحدت بها مع إيقانِ نفسِكَ بصدقها؛ قال تعالىٰ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].. وقال جل وعلا: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

فأرجو اللَّهَ أنْ نُلْقِيَ عنك - أيها الحبيب - هذه المعاذير الحاضرة عند أي نقدٍ يُوجَّهُ إليك؛ وإلا فقل لي باللَّه عليك، واصدق مع نفسك، هل تجد

نفسَكَ مُرْغَمًا علىٰ فعل السيئات ؟ . . هل لم تمر بك لحظة اخترت فيها طريق الغِواية وآثرته علىٰ سبيل الهداية ؟ . . كان أمامك نداء الصلاة : حي علىٰ الفلاح ، ومن الجانب الآخر ضجيج حزب الشيطان . . فأيهما اخترت ؟ !

كان بمقدورك سماع القرآن ودروس العلم ، فآثرت الغناء والملاهي والأفلام .

ستقول : لأنني خُلِقتُ هكذا ، وأراد اللَّه لي ذلك وكتبه عليَّ ؟

للأسف ! . . أنت تَحْتَجُّ بالقَدَرِ في غير موضعه ؛ فما أدراك بما كُتب لك في اللَّوْحِ المحفوظ ؟ . . وكيف تتجرأ علىٰ ربك - وهو الحَكَمُ العَدْل - فيخطرَ ببالك أنَّه يظلم أحدًا . . أتظنُّ أنَّ اللَّه ظلم هؤلاء فرزقهم قلوبًا غُلْفًا وآذانًا صُمًّا ، واصطفىٰ هؤلاء فيَسَّرَ لهم الأمر ؟ !

يا مَنْ تقولُ مِثْلَ هذا ، واللَّه الذي لا إله إلا هو ، أنتَ لا تعرف ربَّك ، ولو عَرَفْتَهُ لَمَا خطر ببالك أدنىٰ شك في ذلك . . إنها شبهات تنبع من نفسٍ لا تعرف مدىٰ حقارتها ووضاعتها في جنب اللَّه تعالىٰ ، نفس لم تُقَدِّرْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه .

وأنا أسألك :

أَوَّلًا : هل أنتَ عبدٌ أم رَبٌّ ؟ ! . . أمثل هذا الاجتراء يصدر من عبد لسيِّده ؟ ! . . لا واللَّهِ ، ما هذا حق العبودية . . ولكنك لا تدري ، وتلك هي المصيبة . . . قال الشَّاعر :

فَإِنْ كُنتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

أنتَ عبدُ اللَّهِ الذي خلقكَ فسواكَ فعدَلَك، في أيِّ صورةٍ ما شاءَ رَكَّبَك، وقد بيَّن لك الحق والباطل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؛ فهل اخترتَ الهُدَىٰ والحق أم آثرْتَ الغَيَّ والضلال؟

ثُمَّ ألمْ يقلِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].. إذًا فالعبد ذو إرادة عليها مَنَاطُ التكليف؛ ومن أجل ذلك كان الثوابُ والعقاب.. فَهِمْتَ؟!!

ثانيًا: تقول: خلقني بقلبٍ خبيثٍ لا يُحِبُّ الطاعة ولا يعرف إلا طريق المعصية، وأسألك باللَّه: هل اطلعتَ علىٰ الغيب فعرفت ما كان وما هو كائن؟.. ومادمت تنفي هذا قَطْعًا فلماذا تحتَجُّ بما تَجْهَل؟.. لماذا لا تنظر فيما قدمتْ يداك؟، لماذا لا تَرْجع باللائمة علىٰ نفسك فتسعىٰ في إصلاحها.

وبعيدًا عن مثل هذه التُّرَّهاتِ والشبهات: هل جلست الليل والنهار لا تَفْتُر عن سؤال ربك أنْ يَهَبَك قلبًا سليمًا؟.. هل ظللت تمد يديك إلىٰ السماء تقول: يا رب قد فسد قلبي منِّي؛ فآتني قلبًا جديدًا يوحِّدُكَ ويعرفُكَ، ويحبُّكَ ويَخضعُ لك؟!.. هل اشتهيتَ ورَجَوْتَ وعَمِلْتَ لذلك؟

أرأيتَ كيفَ أنَّ الجِنايةَ مِنْكَ لا مَحالة؟، وأنَّك لا تَفْقَهُ الدُّخولَ علىٰ المُلُوك كيفَ يكون؟.. فمن تقرب إليه سبحانه شبرًا تقرب إليه ذراعًا، ومن أتاه يمشي يأتيه الودود سبحانه هَرْوَلَةً.. فإنْ لم تجد قربًا فاعلم أنَّك

لم تتحرك أصلًا ، بل هي أوهامٌ وحظوظُ نفس ، فاللَّه لا يقبل إلا الطيِّب الخالص الذي يُبتغىٰ به وجهُهُ سبحانهُ وحدَه .

اللَّهُ عَدْلٌ . . لا يظلمُ أحدًا :

ولحرصي عليك فلن أَدَعَكَ علىٰ مِثل هذه الشُّبهات والشُّكوك ؛ فإليك هذا الكلام النفيس الذي ينبغي أنْ يُنقش علىٰ القلوب بِمِدَادِ الإيمان ، لشيخ الإسلام ابن تيميَّة- رحمه اللَّه تعالي- ؛ إذ يقول :

«اللَّه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة ؛ بل مع غاية عدله فهو أرحم الراحمين ، وهو أرحم بعبده من الوالدة بولدها كما أخبر بذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح[١] .

وهو سبحانه أحكم الحاكمين ، كما قال نوح في مناجاته : ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ، فالظلم هو: وضع الأشياء في غير مواضعها .

وحينئذٍ فليس في الوجود ظلمٌ من اللَّه سبحانه ؛ بل قد وضع كل شيء موضعه ، مع قدرته علىٰ أن يفعل خلاف ذلك ، فهو سبحانه يفعل باختياره ومشيئته، ويستحق الحمد والثناء علىٰ أن يعدل ولا يظلم .

فهو علىٰ كل شيء قدير ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو

---

(١) في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قدم علىٰ النبي ﷺ سَبْيٌ ؛ فإذا امرأةٌ من السبي قد تحلب ثديها تَسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ : «أترون هذه طَارِحَةً ولدَها في النار» . قلنا: لا، وهي تَقدِرُ علىٰ أن لا تطرحه؛ فقال: «لَلَّهُ أرحمُ بعبادِهِ مِنْ هذهِ بولدِها» .
متفق عليه ، البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) .

خالق كل شيء، وهو عادلٌ في كل ما خلقه، واضعٌ للأشياء في مواضِعِها، وهو قادرٌ علىٰ أن يظلم؛ لكنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن ذلك، لا يفعله؛ لأنه السلام القدوس المستحق للتنزيه عن السوء.

وهو سبحانه سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ يُسبِّحُ له ما في السماوات والأرض، و«سبحان اللّٰه» كلمة - كما قال مَيمونُ بنُ مِهْرَان -: هي كلمة يُعَظَّمُ بها الرَّب، ويُحَاشَىٰ بها مِنَ السوء. وكذلك قال ابن عباس وغير واحد من السلف: إنها تنزيهُ اللّٰهِ مِنَ السوء.

وقال قتادة - في اسمه المُتكبر -: إنه الذي تكبر عن السوء.. وعنه أيضا: إنه الذي تكبر عن السيئات.

فهو سبحانه منزه عن فعل القبائح؛ لا يفعل السوء ولا السيئات، مع أنه سبحانه خالق كل شيء، أفعالَ العبادِ وغيرَها، والعبدُ إذا فعل القبيحَ المَنْهِيَّ عنه؛ كان قد فعل سوءًا وظلمًا، وقبيحًا وشرًّا، والربُّ قد جعله فاعلًا لذلك، وذلك منه سبحانه عدلٌ وحِكمةٌ وصواب، ووضعٌ للأشياء مواضِعَهَا.

فخلقُهُ سبحانه لِمَا فيه نقصٌ أو عيبٌ للحكمةِ التي خلقه لها هو محمودٌ عليه، وهو منه عدلٌ وحكمةٌ وصواب، وإن كان في المخلوق عَيبًا، ومِثلُ هذا مفعول في الفاعِلين المخلوقين.

فإن الصانع إذا أخذ الخَشَبَةَ المُعْوَجَّة، والحَجَرَ الرديء، واللَّبِنَةَ الناقصة فوضعها في موضع يليق بها، ويناسبها؛ كان ذلك منه عدلًا واستقامةً وصوابًا، وهو محمودٌ، وإن كان في تلك عِوَجٌ وعيبٌ هي به مذمومة.

ومَنْ أخذ الخبائث فجعلها في المَحِلِّ الذي يليق بها ؛ كان ذلك حكمةً وعدلًا ؛ وإنما السَّفَهُ والظلم أَنْ يضعَها في غيرِ موضعِها ، ومَنْ وَضَعَ العمامة علىٰ الرأس ، والنَّعْلَيْنِ في الرِجلين ؛ فقد وضعَ كُلَّ شيءٍ موضِعَه ، ولم يظلم النعلين ؛ إذ هذا مَحلُّهما المناسبُ لهما .

فهو سبحانه لا يضع شيئًا إلا موضعه ؛ فلا يكونُ إلا عَدْلاً ، ولا يفعلُ إلا خيرًا ؛ فلا يكون إلا مُحْسِنًا جَوَادًا رحيمًا ، وهو سبحانه له الخَلْقُ والأمر »[١]

إخوتي في الله . . مَنِ السَّبب؟!

أريد أن تصلوا إلىٰ أصل الداء الذي يقطع كل واحدٍ منكم عن ربه . . فكثيرًا ما يتوقف الإنسان عند مفاهيم معينة ، ويثبت له بعد وقت عدم صحتها . . قد ترىٰ أنَّك تؤتىٰ بسبب الظروف التي تحيطك ؛ فتقول : لو أنَّ البيت كان خاليًا من المنكرات فلا تلفاز ولا أغاني ولا . . ولا . . لكنت ملتزمًا حقًّا .

* أو تقول : مشكلتي هي الناس ، فالشوارع تموج بالفتن ، وكلما جاهدت نفسي سقطت في وحل المعصية من جديد ، وماذا عساي أن أفعل وَسْطَ هذا الزحام الهائل من الفواحش؟!

* أو تقول : إذا عاملتُ الناس اليوم بالدرهم والدينار فحدث ولا حرج عن البلايا . . ماذا أصنع؟؟ . . كلما أردت أنْ ألتزم تشدُّني

(١) «رسالة في معنىٰ كَون الرَّبِّ عَدْلًا» ، لشيخ الإسلام ابن تيميَّة ، بتحقيق : د. محمد السيد الجليند ، ط مؤسسة علوم القرآن بدمشق ٢ ص (١٢٩ - ١٣٠) .

الدنيا.. لا يمكن أنْ أعيش كما تتخيلون - أيها الدعاة -؛ فإنَّ ما تتحدثون عنه غير واقعي.

* وآخَرُ يرىٰ مشكلته أنّه دائمًا كلما حاول السير في طريق الهداية؛ تزِّل قدمه، ولا يلبث أنْ ينحرف، فهو يفعل ما يقدر عليه؛ لأن اللّه لا يريد له الهداية (بِزَعْمِهِ!!)، فيقول لك: لا تحاول معي، فالطريق مسدود، وأنا الآن أعيش حياتي، حتىٰ لا أخسرَ الدنيا والآخرة.

والشبهات نحو ذلك كثيرة، ولكني ألفت نظرك ابتداءً قبل أن أظهر لك ما التبس عليك؛ أنّك تلاحظ أنّه لا أحد يعترف بأخطائه، وأنه أُتِيَ من قِبل نفسه، فالمشكلة هي: البيت.. والشارع.. والنساء.. والحكومة.. إلخ.. لا أحد يقول: المشكلةُ: أنا.. وأنا فقط.. هذه مصيبته.. وهذه هي الآفة الحقيقية: نفسه.

ما أُتينا إلا من قِبل أنفسنا الأمارة بالسوء.. لابد أن نعترف بذلك.. بكُلِّ صراحةٍ ووُضُوح.

أيها الإخوة..

إنَّ نفوسنا تتشكل وتتلون بألوان ثلاثة: فتارةً تأمرك بالمعاصي والسيئات، وتارةً تلومك وتزجرك عن فعل كل ما يُشينك، وتارةً تجدها هادئة مطمئنة.

لذا فإن مَكْمَنَ الخطر في نفسك الخبيثة الأمارة التي أُمرتَ بمخالفتها، فلا تظننَّ أنَّ تركك نفسَك هكذا بلا ضابط؛ سيُعْفِيكَ ويبَرِّئ ساحتَك أمامَ اللّه.

تقول : ولماذا خلق الله هذه النفس وجعلها تتشكل هكذا؟ . . لماذا لم يخلقنا جميعًا بنفوسٍ مطمئنة؟!!

أقولُ ما قالَهُ اللَّهُ سبحانه وتعالىٰ : ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] .

ليبتليَ الصدقَ والإخلاصَ فيك ، ليظهر ما في باطنك ظاهرًا ؛ فتعرفَ حقيقة أمرك ؛ فتسعىٰ في تغيير ما بك ؛ فتكونَ له عبدًا حقًا ، توحِّده حقَّ التوحيد ، وتعرفَهُ حقَّ المعرفة .

ثم اعلمْ أنَّ للَّه سُنَنًا كونية لا تتبدل ولا تتغير : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] ، ومن ذلك : أنَّه كلما اشتدت الفتن زادت الرحمة . . ومُحَالٌ أنْ يُضيِّعَ اللَّه عبدًا أراده وحده ، وكيف وهو القائل سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٥-١١٦]

أخي في اللَّه . .

أريدكَ أنْ تُوقن بأنَّ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] . . فما لم تُقِرَّ بأنَّ نفسك هذه الأمارة هي أعدىٰ أعدائك ، وأنَّك مأمور بمجاهدتها ؛ فلن يصلح لك التزام

ولن تجد لذة وحلاوة الإيمان حتىٰ تجاهدها في اللَّه تعالىٰ . . وهذا المعنىٰ هو ما أشار إليه رسول اللَّه ﷺ بقوله في سيِّدِ الاستغفار : **«أَبُوءُ لكَ بنعمتِكَ عَلَيَّ ، وأَبُوءُ بذنبي ؛ فاغْفِرْ لي ؛ فإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا أنت»**(١) .

سببُ الخُذْلان . . عدمُ أَهْلِيَّةِ المَحَل :

حبيبي في اللَّه . .

إذا فهمتَ هذا عن نفسك ، وعرفت حال قلبك ، وعلمت أنك أنت السبب ؛ حينها ستعرف سبب اختلاف الناس من حيث التوفيق والخذلان ، فالشأن شأن القلب ؛ فمن كان ذا قلب نقيٍّ طاهرٍ يَصْلُح أنْ يتقبل نور الهداية ؛ وُفِّقَ لكل خير ، ومن كان قلبُه مظلمًا ؛ حُجِبَ وخُذِل .

يقول ابن القَيِّم في كلام كالشَّهْدِ بالماءِ الزُّلال العَذْب :

«ثم فَكَّرْتُ هل للتوفيق والخذلان سببٌ ، أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟ ؛ فإذا سببهما أَهْلِيَّةُ المَحَلِّ وعَدَمُهَا ؛ فهو سبحانه خالق المَحَالِّ متفاوتةً في الاستعدادِ والقَبول أعظمَ تفاوت ؛ فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان ، وكذلك النوعان كلٌّ منهما متفاوتٌ في القَبول ؛ فالحيوان الناطق يَقبل ما لا يقبله البهيم ، وهو متفاوتٌ في القبول أعظمَ تفاوت ، وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول ، لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنسانيّ .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) .

فإذا كان المَحَلُّ قابلًا للنعمة بحيث يعرفها، ويعرفُ قدرَها وخطرَها، ويشكرُ المُنعِمَ بها، ويُثني عليه بها، ويعظِّمه عليها، ويعلم أنها من مَحْضِ الجُودِ وعينِ المِنَّة، من غير أن يكون هو مستحقًّا لها، ولا هي له، ولا به؛ وإنما هي لله وحده، وبه وحدهُ، فوحَّده بنعمته إخلاصًا، وصرفها في محبتهِ شكرًا، وشهِدَها من محضِ جودِهِ مِنَّةً، وعرف قُصُورَه وتقصيرَه في شُكرِها عجزًا وضعفًا وتفريطًا، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محضُ صَدَقَتِهِ وفضلهِ وإحسانه، وإنْ سَلَبَهُ إياها فهو أهلٌ لذلك مستحقٌّ له.

وكُلَّمَا زاده من نِعَمِهِ ازداد له ذُلًا وانكسارًا وخضوعًا بين يديه، وقيامًا بشكره، وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها لعدم تَوْفِيَتِهِ شكرَها، كما سلب نعمته عمَّن لم يعرفها، ولم يَرْعَها حَقَّ رعايتِها، فإنَّ مَنْ لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن يقابَل به؛ سلبه إياها ولابُدّ.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها، وأحبوها وأثنوا علىٰ المنعم بها، وأحبوه وقاموا بشكره.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وسببُ الخُذلان: عدم صلاحية المَحَل وأهليته وقبوله للنعمة؛ بحيث لو وافته النِّعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهلُه ومستحقه، كما قال تعالىٰ - حاكيًا عن قارون -: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨]، أي علىٰ علم علمه أنه عندي أستحق به ذلك، وأستوجبه وأستأهِلُه.

ومما ينبغي أن يُعْلَم: أنَّ من أسباب الخذلان: بقاءَ النفس علىٰ ما خلقت عليه في الأصل، وإهمالُها وتخليتُها؛ فأسبابُ الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جَعْلِ اللَّه سبحانه لها قابلةً للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض؛ هذه قابلةٌ للنبات، وهذه غيرُ قابلةٍ له، وخَلق الشجر، هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلةً لأن يخرج من بطونها شرابٌ مختلف ألوانه، والزُّنْبُور غيرِ قابلٍ لذلك، وخَلق الأرواح الطيِّبة قابلةً لذِكْرِه وشكره وحُجَّتِه، وإجلاله وتعظيمه، وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غيرَ قابلةٍ لذلك، بل لضده، وهو الحكيم العليم[1].

إخوتاه.. طهِّروا قلوبكم:

يقول ابن الجوزي - عليه رحمةُ اللَّه -: «يا هذا، طهرٌ قلبك من الشوائب؛ فالمحبة لا تلقىٰ إلا في قلبٍ طاهر، أما رأيت الزارع يتخيرُ الأرضَ الطيبة، ويسقيها ويرويها، ثم يثيرها ويقلبها، وكلما رأىٰ حجرًا ألقاه، وكلما شاهد ما يُؤذي نحّاه، ثم يلقي فيها البَذْر، ويتعاهدها من طوارق الأذىٰ.

وكذلك الحَقُّ عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد عبدًا لوِدَادِه حَصَدَ من قلبه شَوْكَ الشِّرك، وطهره من أوساخ الرياء والشك، ثم يسقيه ماء التوبة والإنابة، ويثيره بِمِسْحَاةِ الخوف والإخلاص، فيستوي ظاهره وباطنه في التُّقىٰ، ثم

---

(١) الفوائد، ص (٢١٨ - ٢٢٠) بتصرف.

يلقي فيه بذر الهدىٰ، فيثمرَ حَبَّ المَحَبَّة؛ فحينئذ تَحْمِدُ المعرفة وطنًا ظاهرًا، وقوتًا طاهرًا.

فَيَسْكُنَ لُبُّ القلب، ويثبت به سلطانها في رُسْتَاقِ البَذْرِ، فيسري من بركاتها إلىٰ العين ما يَفُضُّها عن سوىٰ المحبوب، وإلىٰ الكَفِّ ما يَكُفُّهَا عن المطلوب، وإلىٰ اللسان ما يحبسه عن فضول الكلام، وإلىٰ القدم ما يمنعه من سرعة الإقدام.

فما زالت تلك النفس الطاهرة رائِضُها العلم، ونَدِيمها الحلم، وسِجنها الخوف، ومَيْدانها الرجاء، وبُستانها الخَلْوة، وكَنزها القناعة وبضاعتها اليقين، ومَرْكِبها الزهد، وطعامها الفكر، وحُلْواها الأنس، وهي مشغولة بتوطئة رَحْلِها لرحيلها، وعينُ أَمَلُها ناظرةٌ إلىٰ سبيلها.

فإن صعد حافظاها؛ فالصحيفة نقية، وإن جاء البلاء؛ فالنفس صابرة تقية، وإن أقبل الموت؛ وجدها من الغش خَلِيَّة؛ فيا طوبىٰ لها إذا نُودِيَتْ يومَ القيامة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]»[١].

❊ ❊ ❊

(١) مواعظ ابن الجوزي، ص (٩٧).

ثانيًا: فساد التربية والتنشئة

كلُّنا نشأ في بيئةٍ جاهليةٍ.. نعلمُ هذا ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ ينكرَه - خصوصًا هذا الجيل -، ووسَط أبوين يَرَيَان أنَّ الدِّينَ خطرٌ، وأنَّ التديُّنَ مشكلةٌ، والواجبُ البعد عن التدُّين الظاهر قدر الإمكان، علىٰ هذا رُبِّيَ الشباب، من خلال مناهجِ الدِّراسة، ومن خلال أفكارِ المجتمع، وآمالِهُ وأحلامِه وتصوُّرَاتِه.

وإنَّما يخرج الرجلُ منَّا ثمرةً للمجتمع الذي عاش فيه، فهو مثلُ الشجرة إن نبتت في تربةٍ سيئة؛ كانت خاملةً ضعيفةً مُعَرَّضةً للآفات، وإن نبتت في تربة صالحة؛ ضَربت بجذورها في الأرض وبفروعها في السماء، وآتت أُكُلَها كل حينٍ بإذن ربها.

ولَيسَ النَّبتُ يَنبُتُ فِي جِنَانٍ   كَمِثْلِ النَّبتِ يَنبُتُ في الفَلَاةِ

فشأن المُرَبِّي شأن المزارع الذي يَقلع الشوك، ويُخرج النباتات الدَّخِيلة من بين الزرع؛ ليَحْسُنَ نباتُه ويَكْمُلَ رِيعُه[1].

فإن تيسر للإنسان مؤدِّبٌ أو مُرَبٌّ حاذق يتعهده بتطهير آفاته التي تلحق به من بيئته ومجتمعه، واختلاطه بالخلق من حوله، وما سرقته طباعه من

---

(١) انظر: «أيها الولد» ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ط. دار الكتب العلمية. بيروت، ص (١٠٨)، بتصرف.

آفات المتعاملين معه، وما خبثت به نفسه الأمارة بالسوء مما يوافق هواها، يقوم هذه المربي باقتلاع تلك الآفات أولًا بأول - فإن الآفات السيئة تتفشىٰ وتنتشر وتتكاثر -، ثم يزرع مكانها الصالحات، ويملأ نفسه - التي تميل للذات والشهوات - بالخيرات والمشاغل الأُخْرَوِيّة التي تزكّي نفسه وتطهرها وتسمو بها . . إن وجد الإنسان هذا المربي الصالح؛ كانت سعادةُ الدنيا والآخرة.

أما إن فُقِدَ ولم يوجد هذا المربي المتابع الناصح الأمين القوي الرشيد؛ فإن التخبط يلازم الإنسان ويحيط به، فيحبِّطَه ويُضيِّعَ هُويته، ويصبحَ نَمُوذجًا سيِّئًا للتضارب الأخلاقي في باطنه مع ظاهره . .

فأصل فطرته تشده وتدعوه إلىٰ الخير وتحثه عليه، ونفسه الأمارة يساندها هواه وما اكتسبه من فساد بيئته وتنشئته؛ تجُرُّهُ للباطِل جَرًّا . .

ففيه لمساتُ خير وومضات بر؛ ولكن الغالب من حاله الظاهر باطلٌ يغلُب علىٰ تصرفاته، وضياعٌ وتِيهٌ في همومٍ وشهوات . . حتىٰ يقيِّض الله له سبيلَ هداية؛ فيجدَ من يأخذ بيده، فيعودَ الرصيدُ الفطريُّ للهداية إلىٰ الارتفاع . .

ثم إن وجد رجلًا من أهل السُّنَّة فقيهًا بالنفوس، عليمًا بالآفات، طبيبًا للقلوب؛ كانت نجاته بتخليصه من آفات الجاهلية ورواسبها التي لَحِقَت به؛ فتعودَ نفسُهُ للطهارة، وقلبُهُ للصفاء، وينطلقَ في طريق السعادة الحقيقية بانشراحِ الصَّدْر وطمأنينةِ القلب.

أمّا إنْ تَرَبَّىٰ منذ طفولته علىٰ الخير ونَمَا عليه، وتشبع منه فلم يُصبه من لَوْثَاتِ الجاهلية شيء؛ كان في غِنَىٰ عمّا ذكرنا.

ولذلك تَوَعَّدَنَا اللّه جل وعلا في شأن تربية الأولاد، وحَمَّلَ الآباء المسؤولية تجاه إصلاح أو إفساد أبنائهم.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].. قال ابن عباس: أي أدبوهم وعلِّموهم.

وقال علي رضي الله عنه: علموا أنفسكم وأهليكم الخير.

وقال مُقَاتِل: أن يؤدِّب المسلمُ نفسَه وأهلَه، فيأمرَهم بالخير وينهاهم عن الشر.

ووقاية العبد نفسه وأهله النار لا تتحصَّل إلا بترك المعاصي وفعل الطاعات، وأن يَحفَظَ اللّهَ في أهلِهِ فيؤاخذَهم بما يؤاخذُ به نفسَه.

وقد بيَّن لنا رسول اللّه ﷺ خطورةَ شأنِ التربيةِ، وأنَّها المؤثِّرُ الأقوىٰ في تكوين شخصية الأبناء؛ فقال في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا يُولَدُ علىٰ الفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِه، كما تُنْتِجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاء، هل تُحِسُّونَ فيها مِنْ جَدْعَاء».. قال أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠][(١)].

نعم - إخوتاه..

وينشأُ ناشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا عَلَىٰ مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

(١) متفق عليه، البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

ومَا دَانَ الفَتَىٰ بِحِجَىٰ ولَكِنْ ... يُـعَـوِّدُهُ الـتَّـدَيُّـنَ أَقْـرَبُـوهُ

إنَّ تربية الأبناء - أيها الإخوة - من أجَلِّ وأعظم الواجبات، وللأسف! قلَّ اليوم اهتمام المسلمين بها؛ فصار الأب يفهم أنَّ دوره ومسؤوليته تنحصر في الإنفاق، والسعي علىٰ الرزق، فمنْ ذا الذي يهتم اليوم - إلا من رحم ربك - بتربية ابنه تربية دينية صحيحة ويصبر علىٰ ذلك؟!

هذه واجبات وحقوق تُسأل عنها أيها الوالد يوم القيامة؛ أنك تركتَ ولدك في التِّيه يُضلُّه المُضلُّون، ثمَّ تَسألون لماذا ينحرفون؟!

قال ﷺ: «**كُلُّكم رَاعٍ وكُلُّكم مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِه، الإمامُ رَاعٍ ومَسؤولٌ عن رَعِيَّتِه، والرَّجُلُ رَاعٍ في أهلِه، ومَسؤولٌ عن رَعِيَّتِه، والمرأةُ رَاعِيَةٌ في بيتِ زوجها، ومَسؤولَةٌ عن رَعِيَّتِها، والخَادِمُ رَاعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسؤولٌ عن رَعِيَّتِه، وكُلُّكم رَاعٍ وكُلُّكم مَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه**»(١).

ويؤكِّدُ ابنُ القيِّم رحمه الله علىٰ هذه المسؤوليةِ فيقول: «فمن أهملَ تعليمَ ولدِهِ ما ينفعُه وتركَهُ سُدَىٰ؛ فقد أساء غاية الإساءة، وأكثرُ الأولاد إنَّما جاء فسادُهم من قِبل الآباء، وإهمالُهم لهم، وتركُ تعليمِهم فرائضَ الدِّين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا، كما عاتب بعضُهم ولدَه علىٰ العقوق، فقال: يا أبت إنك عققتَني صغيرًا، فعققتُك كبيرًا، وأضعتني وليدًا، فأضعتُك شيخًا»(٢).

---

(١) متفق عليه، البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود، بتحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ط. دار البيان بدمشق، ص (٢٢٩).

فهذه حقوق واجبة، ليست من باب النَّدْب والاستحباب، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عمَّا استَرْعَاه؛ أَحَفِظَ أم ضَيَّع؟، حتىٰ يُسأَلَ الرَّجُلُ عَنْ أَهْلِ بيتِه»[١].

قال الشيخ محمد الخِضْر حُسين رحمه الله:

«أيها الكَفيل، إذا أَلقيت مسؤولية الطفل في مراتعَ وخيمة؛ أخشىٰ أنْ يُضاعفَ لك العذاب ضِعفين: تُعذَّب علىٰ تشويهِ تلك الجوهرة المُكرَّمة عذابًا نكيرًا، وتحوزَ من تلك الجِناية العامَّة نصيبًا مفروضًا»[٢].

فقد توعَّدنا رسولُ اللَّه ﷺ إذا لم نبذل النصح، ونبذل الجهد فيمن استرعانا اللَّه تعالىٰ؛ فقال: «ما مِنْ عَبْدٍ استرعاهُ اللَّهُ رَعِيَّةَ فلَمْ يُحِطْهَا بنصيحة؛ إلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّة»[٣].

والغزَّالي رحمه الله قال:

«فالصبيُّ أمانةٌ عند والديه، وقلبُهُ الطاهر جوهرةٌ ساذَجةٌ خاليةٌ من كل نقش وصورة، وهو قابلٌ لكل ما نُقش، ومائلٌ إلىٰ كل ما يُمالُ إليه؛ فإنْ عُوِّدَ الشر وأُهمل إهمالَ البهائم؛ شَقِيَ وهلك، وكان الوِزر في رقبة القيِّمِ عليه والوالي له»[٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٤٩٣)، وصححه الألباني (١٦٣٦) في «الصحيحة».

(٢) السعادة العظمىٰ، ص (٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٥٠).

(٤) إحياء علوم الدين (٨/ ١٣٠).

أين من يأخذُ بيدِ ولده اليوم ليتعلمَ دينه؛ فيدخلَهُ معاهد تحفيظ القرآن الكريم، ويَدُلَّهُ علىٰ مجالس أهل العلم، ويأتيه بالكتب والأشرطة، ويعظِّم عنده فرائض اللَّه عليه؟!.. أين مَنْ يسخط ويشتد غضبه علىٰ ولده إن وجده يقصِّر في حقوق اللَّه تعالىٰ، ويثيبه إن وجده ملتزمًا مستقيمًا؟!

أليست الصورة معكوسة؟!.. أنَّ الأَبَ يفرح بتفوق ابنه في الدنيا، ولا يحزن علىٰ تخلفه عن الدين.. وإلا فاصدقني القول: أليس فرحُك بنجاح ولدك في الثانوية العامَّة مثلًا أشد من فرحك بإتمامه لحفظ القرآن الكريم؟!، ولو خُيِّرتَ بينهما لاخترت الأُوْلَىٰ «الدنيا»؟!

المأساةُ - أيها الإخوة - أَنَّنا نُربِّي أولادنا لأنفسنا؛ لكي ينفعونا ويحمِلوا عنَّا!!.. لسنا نربيهم للَّه، ليكونوا مؤمنين موحِّدين علىٰ الجادَّة، أولياءَ للَّه، وهذا هو الإشكال.. **ولذلك يَكْمُن الخطرُ في أمرين:**

أَوَّلُهما: الإخلاص للَّه في تربية الولد:

ينبغي أن نتساءل: لماذا نحرص علىٰ أن نربي أولادنا تربيةً صالحة؟:

* هل لينفعونا كبارًا حين نكبر ونحتاج إليهم؟

* هل لنفتخر بهم أمام الناس ونتباهىٰ بهم عند الآخرين؟

* هل لكيلا نُعَيَّرَ بهم وتسوؤُنا سيرتُهم؟

هذه نياتٌ باطلة ومآسٍ ظاهرة، لَعَلَّها السِّرُّ الأكبر في فسادِ الأولاد؛

فإن النِّيَّاتِ الفاسدة لا يَصلح معها العمل، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]؛ فيجب إن أردنا ذرِّيَّةً صالحةً أن نصحِّحَ نياتِنا: أننا إنما نربِّيهم لِأَنَّ اللَّه أمرنا بذلك.

إن استشعار هذه المسئولية واجبٌ علينا.. إنَّ هذه التربية تكليفٌ من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وأنها فريضةٌ نُؤْجَرُ بفعلها ونأثم علىٰ تركها.. تعميق هذا المعنىٰ في القلب أنك تؤدِّي واجبًا فَرْضًا حَتْمًا لازِمًا يُراقبك فيه اللَّه وسيحاسبُك؛ يجعلك تؤدي هذه المهمة كما يُحِبُّ هو ويرضىٰ، لا كما تبتغي وتَهْوَىٰ. وأيضًا بهذه النية تستجلب إعانته وتثبيته وتوفيقه، فكم من حريصٍ علىٰ تربية الأبناء شَغُوفٍ بها وهو غيرُ مُوَفَّق؛ فتأتي النتائج العكسية.

والأَمْرُ الثاني: شُكْرُ النِّعْمَة:

نعم: إننا لم نشكر نعمة اللَّه علينا أن وَهَبَنَا الأولاد - وهي النعمة التي لا يدري عِظَمَهَا إلا مَنْ حُرمها -، وكان من أوليَّاتِ ذلك: أنْ نحسن تربيتهم ليكونوا عبيدًا للَّه الذي خلقهم لنا ورزقنا إيَّاهم، واستخلفنا في رعايتهم، قال ربِّي سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

فمن يكفر بنعمة اللَّه فلا يشكرُها؛ فإنَّ اللَّه شديدُ العقاب، فيبتليه من جنس النعمة فتصيرَ عليه نِقمة، فيُرْهِقَهُ الأولاد بمتطلباتهم فلا يقدر عليها، ويحزنوه بانحراف سلوكياتهم وفساد أخلاقهم؛ طغيانًا وكفرًا.

أمَّا المؤمنونَ الشاكرونَ لأَنْعُمِ اللَّه جل وعلا ، المحافظون علىٰ أولادهم من الضلال ؛ فيرزقَهم رِزقًا حسنًا ، فيبَرّهم أبناؤهم ، ويكونون خيرًا لهم في دينهم ودنياهم : قال ربّي - وأَحقُّ القولِ قولُ ربِّي - : ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨١].

فانظر - أيها الوالد - ماذا عساك أن تصنع حين يعاتبك اللَّه تعالىٰ علىٰ نعمه ، فيقول : «**أَلَمْ أَجْعَلْ لكَ سَمْعًا وَبَصرًا وَمالًا؟!**، **وسَخَّرتُ لكَ الأنعامَ والحَرْث؟**، **وتَرَكْتُكَ ترَأَسَ وتَرْبَع؟**، **فكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلاقِيَّ يَوْمَكَ هذا؟**، **فيقول : لا**، **فيقول له : اليومَ أنساكَ كَما نَسِيتَني**»[(١)] .

ينساكَ اللَّه كما نسيت أولادك وضَيَّعْتَهم ، وتَرَكْتَهم في بَراثِنِ الجاهلية ؛ فاغتالتهم شياطين الإنس والجن . . ألا فاستعدَّ للقاء اللَّه وحسابه !! ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) .
قال ابن الأثير في «النهاية» : (تَرْبَع) أي الغنيمة. يقال رَبَعْتُ القومَ أربَعُهم: إذا أخَذْتُ رُبع أموالهم، مثل عَشَرْتُهم أعشرُهم . يريد : ألم أجعَلْكَ رئيسًا مُطاعًا؛ لأنّ الملك كان يأخذُ الرُّبع من الغنيمة في الجاهلية دُون أصحابه، ويُسَمَّىٰ ذلك الرُّبع: المِرْباع .

نماذج مِنْ تربيةِ السَّلَفِ لأولادِهم :

لندرك مدىٰ الجاهلية التي نُربِّي عليها أولادنا في هذا العصر . . وتكون هذه النماذج منارًا لنا في توجيه أبنائنا .

لقد كان الرجل من السلف إذا فُطِمَ ولده ؛ بدأ بتأديبه ورياضة أخلاقه ، قبل أن تهجِمَ عليه أخلاق المفسدين ؛ فيلقِّنُهُ كلمة التوحيد ، ويرسِّخ في قلبه حب اللَّه تعالىٰ ، وحب رسوله ﷺ ، ويعلمه القرآن ، ويثبته علىٰ العقيدة والتضحية من أجلها . . يعوِّده العبادات من صلاة وصيام وصدقة وبر . . ويربيه علىٰ الصبرِ علىٰ الطاعة ، والأُنس باللَّه تعالىٰ . . ويحبب إليه طلب العلم والتفاني في خدمة الدعوة . . ويُجَمِّلُهُ بالآداب الشرعية والعمل بهدي خيرِ البَرِيَّة ﷺ .

إخوتاه . .

إنَّ مطالعة سِيَرِ السلف تثير أصحاب الهمم العالية ؛ كيما يَلحقوا بهذا الرَّكْبِ المبارك ؛ فيتشوَّفون اهتداءً وتأسيًا . كذا أقصد دومًا من ذكرها . . فكن معي علىٰ هذه النوايا مستحضرًا . .

أوَّلًا : تربية الأولاد علىٰ طلب العلم الشرعي وحُبِّه

انظر إلىٰ حرصهم علىٰ تعليم أولادهم العلم الشرعي ، وبذلِ الغالي والنفيس لكي يَشُبَّ الولدُ علىٰ العِلْم :

■ الإمام أبو الوَقْتِ السِّجْزِيّ يُرَبِّي ولدَهُ ويَحكي له ويقولُ :

يا وَلَدِي ، رحلتُ أيضًا لِسَمَاعِ « الصحيح » ماشيًا مع والدي ، من هَرَاةَ إلىٰ الداوودِيِّ ببُوْشَنْج ، ولي مِنَ العُمُر دونَ عَشْرِ سنين ، فكان والدي

يَضَعُ علىٰ يَدَيَّ حجَرَينِ، ويقول: احمِلْهُما. فكنتُ من خَوْفِهِ أحفَظُهما بيدَيَّ، وأمشِي وهو يتأمَّلُني، فإذا رآني قد عَيِيتُ أمَرَني أن أُلقِيَ حجرًا واحدًا، فأُلقِي، ويَخِفُّ عني، فأمشي إلىٰ أن يتبينَ له تَعَبي، فيقولَ لي: هل عَيِيتَ؟ فأخافُهُ وأقولُ: لا، فيقول: لِمَ تُقصِّرُ إذًا في المشي؟، فأُسرِعُ بين يديه ساعةً، ثم أَعجِزُ، فيأخُذُ الحجَرَ الآخَرَ فيُلقِيه، فأمشي حتىٰ أَعْطَب؛ فحينئذٍ كان يأخذُني ويَحمِلُني.

وكنا نلتقي جماعةَ الفلَّاحين وغيرَهم، فيقولون: يا شيخ عيسىٰ، ادفَعْ إلينا هذا الطِّفلَ نُرْكِبْهُ وإياك إلىٰ بُوْشَنْج، فيقول والدي: معاذَ اللّٰه أنْ نَرْكَبَ في طلبِ أحاديثِ رسولِ اللّٰه ﷺ، بل نمشي، وإذا عجَزَ أركبته علىٰ رأسي إجلالًا لحديث رسولِ اللّٰه ورجاءَ ثوابِهِ. فكان ثمرةُ ذلك من حُسْنِ نِيَّتِهِ أني انتَفَعتُ بسماع هذا الكتابِ وغيره، ولم يبقَ من أقراني أحَدٌ سِوَاي، حتىٰ صارَتْ الوفودُ ترحَلُ إليَّ من الأمصار»[1].

ويُعَلِّقُ الشيخُ أبو غُدَّة - عليه رحمةُ اللّٰه - قائلًا:

«ما هذا الاشتغالُ بحُبِّ الحديث، وطلبِهِ والرغبةِ في تحصيلِهِ، وإسماعِهِ للطفل ابنِ سَبْع سنين؟!، وما هذه الحِيلةُ النادرةُ، والوسيلةُ العجيبة: تحميلُهُ الحجَرَينِ ثم إلقاؤهما عنه واحدًا بعدَ واحد، في تهوينِ المَشَقَّة عليه، وتنشيطِ العَزْمِ منه، وشَدِّ القُوَّةِ والدَّأْبِ فيه، علىٰ السَّيْرِ

---

(١) صفحات من صبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل، لعبد الفتاح أبي غُدَّة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط٣، ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م، ص (٧٧ - ٧٨) بتصرف يسير.

وقَطْعِ المسافات الطويلة؟! وهَمُّ أمثالِهِ اللَّعِبُ واللَّهْوُ بالمُلْهِيَات، وأكلُ الحلاوة والسُّكَّرَات!!

وبِمثل هذه الأشواق المُحرِقة؛ عاشَتْ السُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ في صدور هؤلاء المسلمين العَجَم في تلك البلاد، التي ليسَتْ لُغَتُها اللغةَ العربية، ولكنْ في قلوبِ أهلِها وعقولِ بَنِيها حُبُّ العربيةِ وحُبُّ السُّنَّةِ النبوية»[١].

■ الإمام السَّمْعَانِي:

«وُلِدَ الإمامُ الحافظ أبو سَعْد السَّمْعَاني التميميُّ المَرْوَزِيُّ الشافعي، في مدينة مَرْو من مُدن خُراسان، ونَشَأ في أُسرةٍ كلُّ أفرادِها ما بين عالمٍ، وحافظٍ، ومُحَدِّثٍ، وفقيهٍ، وأديبٍ، وواعظٍ، وخطيب، فغُذِّيَ بالعلم من مناهلِهِ الثَّرَّة، وأُدرِجَ في مَدَارج الفقهاءِ والعلماءِ في مُقْتَبَل شبابِه.

وقد اعتَنَىٰ به والدُه عنايةً كبيرة، فبكَّرَ بإسماعِه مِنْ أَجِلَّةِ مشايخِ مَرْو، ثم رَحَل به إلىٰ نيسابور بَلَدِ الحديثِ والمُحَدِّثين، في سنة ٥٠٩، وكانت سِنُّهُ آنذاك بلغَتْ الثالثةَ والنصفَ من العمر، فكان والده في مَرْوَ وفي نيسابور يُحضِرُه مجالسَ المُحَدِّثين، ويكتُبُ له ما أَمْلَوْه، أو ما قُرِئ عليهم في تلك المجالس وهو حاضر، ويُثبِتُ ذلكَ ويُصحِّحُه، ليكون أصلًا يَرجِعُ إليه ولدُه، ويَروِي منه إذا كَبِرَ، وكان يأخذُ له الإجازاتِ منهم، وبهذا حَصَلَ لولدِهِ عُلُوُّ الإسناد من مشايخ عصره، وكانت هذه الإجازاتُ والسَّماعَاتُ والمقروءاتُ أساسَ مادَّتِهِ العِلْمِيَّةِ الأُوْلىٰ»[٢].

---

(١) صفحات من صبر العلماء، ص (٧٧).

(٢) صفحات من صبر العلماء، ص (٨١ - ٨٢).

سبحان الملك !! . . واللّهِ إنَّ هذا لَعَجَب ؛ أن يهتمّ هذا الأَبُ بأن يُسْمِعَ ابنَهُ الحديثَ وهو ابنُ ثلاثِ سنين ونصف ! . . مِنْ أَجْلِ هذا كان جيلُهم يأتي بالعجائب ، وأجيالنا اليوم لا تعرفُ إلا البطالةَ والكسل . . أينَ الآباءُ اليومَ ليَسمعوا ويَعُوا فيُدركوا كيف يُرَبُّون أولادَهم .

■ **الإمام السِّلَفِي :**

« وهذا أَحَدُ العلماء الرَّحَّالين ، والمُعَمَّرِين الجامعين ، الذي مَلأَ ذِكْرُه آفاقَ الدنيا في عصرِه ، ودَخَل في تاريخ العلماء الذين جاؤوا بعدَه من مِصره وغير مِصرِه ، الإِمامُ الحافظ السِّلَفِي ، الذي طَبَّقَتْ شُهرتُه الشرقَ والغرب ، وأصبح تاريخًا بنَفْسِه .

الحافظُ العَلَّامَة ؛ شيخُ الإِسلام ، عِمادُ الدين ، أبو طاهر ، أحمد بن محمد بن أحمد ، السِّلَفِي ، الأصبهاني ، ثم الإِسكندريُّ ، المُعَمَّرُ ، أحفظُ الحُفَّاظ ، وشيخُ العلمِ والحديثِ مِئَةَ سَنَة ، المُحَدِّثُ الجِهْبِذ ، المُقرِئ ، الأديب ، المؤرِّخ ، اللُّغَوِي ، الناقدُ ، الضابطُ المُتقِن ، وُلِدَ بأصبهان سنة ٤٧٢ أو بعدَها .

نشأ هذا الإِمامُ من صِباه فَذًّا في الذكاءِ والنباهة والحفظِ وتحصيلِ العلم وجمعِه ، ثم تعليمِه ونشره ، حَدَّثَ عن نفسه فقال : كتبوا عني بأصبهان - بلدِهِ - في أول سنة ٤٩٢ ، وأنا ابنُ ١٧ سنة أو نحوها ، وليس في وجهي شَعْر .

قال الأَوْقِيُّ : سمعتُه يقول : لي سِتُّونَ سنة ما رأيتُ مَنَارَةَ الإِسْكَنْدَرِيّة -

وكانت من أعاجيب الدنيا السَّبْعَة - إلا من هذه الطاقة ، يعني طاقة حُجْرتِهِ في المَدْرَسة .

قال الحافظ عبد القادر الرُّهَاوي : بلغني أنه في مدة مُقامه بالإِسكندرية ، ما خَرَج إلىٰ بُستانٍ ولا فُرْجَةٍ غيرَ مَرَّةٍ واحدة ؛ بل كان عامَّةَ دهرِه ملازمًا مدرستَهُ ، وما كنا نَدخُلُ عليه إلا نراهُ مُطالِعًا في شيء .

ولم يكن في آخر عُمرِهِ في عصرِهِ مِثْله ، قال الحافظ الذهبي : لا أعلمُ أحدًا في الدنيا حدَّثَ نَيِّفًا وثمانين سَنَةً سوىٰ الحافظِ السِّلَفِي . وكان حليمًا ، متحمِّلًا ، كِفَاءَ الغرباء - أي يتحملهم ويقومُ بكفايتِهم - ، وكان تَزوَّجَ بالإِسْكَنْدَرِيَّة امرأةً ذاتَ يسار ، وحصَلَتْ له ثروةٌ بعدَ فَقْر ، وكان لا تبدو منه جَفوةٌ لأحد ، ويَجلِسُ للحديث وإسماعِهِ فلا يَشرَبُ ماءً ، ولا يَبصُقُ ، ولا يَتورَّكُ ، ولا تبدو منه قَدَمٌ ، وقد جاوَزَ المِئَة »[1] .

■ وذكر الخطيب البَغدادِيُّ عن عليِّ بن عاصم « أنَّه دفع إليه أبوه بمئة ألف ، وقال : اذهب فلا أرىٰ لك وجهًا إلا بمئة ألف حديث .

فانظر كيف صنع هذا الفتىٰ المبارك . . يقول : خرجت من واسط إلىٰ الكوفة أنا وهُشيم لنلقىٰ منصورًا ، فلمَّا خرجت من واسط سِرت فَرَاسِخَ ؛ لقيني إمَّا معاويةُ وإمَّا غيرُه ، فقلت : أين تريد؟ ، قال : أسعىٰ في دَينٍ عليّ ، فقلت : ارجع معي ؛ فإنَّ عندي أربعةَ آلافِ درهمٍ أُعطيك منها ، فرجعت فأعطيته ألفين ، ثمَّ خرجت .

---

(١) صفحات من صبر العلماء ، ص (٩١ - ٩٤) باختصار .

فدخل هُشَيْمُ الكوفةَ بالغَدَاة، ودخلتها بالعَشِيّ، فذهب هشيم فسمع من منصور أربعين حديثًا، ودخلت أنا الحمَّام، فلمَّا أصبحت مضيت فأتيت باب المنصور فإذا جنازة، فقلت: ما هذه؟، قالوا: جنازة منصور، فقعدت أبكي..

فقال لي شيخٌ هناك: يا فتىٰ ما يُبكيك؟، قال: قلت: قَدِمْتُ علىٰ أنْ أسمع من هذا الشيخ وقد مات، قال: فأدُلُّكَ علىٰ مَنْ شَهِدَ عُرْسَ أُمِّ هذا؟، قلت: نعم، قال: اكتب: حدثني عِكْرِمَةُ عن ابنِ عباس.

قال: فجعلتُ أكتبُ عنه شهرًا، فقلت له: مَنْ أنتَ رَحِمَكَ اللّه؟، قال: أنت تكتبُ عنِّي منذ شهرٍ ولم تعرفْني؟!، أنا حُصين بن عبد الرحمن، وما كان بيني وبين أنْ ألقىٰ ابنَ عباس إلا سبعةُ دراهم - أو تسعة دراهم -، فكان عكرمة يَسمع منه، ثمّ يجيءُ فيُحَدِّثُني».

فتىً مبارك بَذَلَ نصفَ ماله، وهجر الأوطان، وذاق مُرَّ الاغتراب، ويموتُ مَنْ كان يُريد التَّعلُّمَ علىٰ يديه، وأبدًا لا يُضيِّعُهُ اللّه تعالىٰ؛ فيرزقَه اللّهُ بِشَيْخٍ مشايخِ البلاد آنذاك، فَيَنْهَلَ منه.. وما ذاك إلا لشدة إخلاصهم في طلب العلم.. الذي رَبَّوْهُ عليهِ أَهْلُوهُم ومشايِخُهم.

▪ وهذا الإمامُ مالك - رحمه اللّه تعالىٰ - كانت له ابنةٌ تحفظُ عِلْمَهُ - يعني الموطأ -، وكانت تقِفُ خَلْفَ الباب، فإذا أخطأ التلميذ؛ نَقَرَتْ بالباب نَقْرَةً، فَيَفْطَنُ مالكٌ فَيَرُدُّ عليه.

▪ وما ابنةُ سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ عن أذهانِ الورىٰ ببعيدة.. تلكَ التي قالت لزوجها غَدَاةَ ليلةِ عُرْسِها: تعالَ أُعَلِمْكَ عِلْمَ سعيد.

ثانيًا: تربية الأولاد علىٰ التوحيد:

■ هذا أبو داود سليمان بن نصير الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ، «لما بلغ من العمر خمس سنوات أسلمه أبوه إلىٰ المؤدِّب، فابتدأ بتلقينه القرآن، وكان يحفظ حفظًا جيدًا.. فلمَّا حَفِظَ سورة الإنسان رأته أمه يوم الجمعة مُقْبِلًا علىٰ الحائط، مفكرًا ويشير بيده، فخافت علىٰ عقله، فنادته: قم يا داود فالعب مع الصبيان، فلم يجبها، فضمته إليها ودعت بالويل.

فقال: مالكِ يا أُمَّاه أبكِ بأس؟، قالت: أين ذهنُك؟، قال: مع عبادِ اللَّه، قالت: أين هم؟، قال: في الجنة، قالت: ما يصنعون؟، قال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

ثمَّ مرَّ في السورة وهو شاخِص، كأنَّه يتأملُ شيئًا، حتىٰ بلغ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، ثمَّ قال: يا أمَّاه، ما كان سعيُهم؟، فلم تَدْرِ ما تُجيبه، فقال لها: قومي عنِّي حتىٰ أتنزَّهَ عندهم ساعة، فقامت عنه، فأرسلت إلىٰ أبيه، فأعلمته شأنَ ولدِه.

فقال له أبوه: يا داود، كان سعيهم أنْ قالوا: لا إله إلا اللَّه مُحَمَّدٌ رسولُ اللَّه؛ فكان داود يقولُها في أكثرِ أوقاته».

فعلىٰ كلمة التوحيد شَبُّوا ورُبُّوا، وعليها ينبغي أنْ نربي أولادنا؛ فنكثر من ذِكرها، لتتردد في جَنَبَات المنزل صباحَ مَساء، ونعلمَهم مُقْتَضَاها والعملَ بها.. ونحفِّظَهم حديثَ النبيِّ ﷺ: **«قولوا: لا إِلَه إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»**[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٩٢)، وقال الأرنؤوط: صحيح لغيره.

■ وكانَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللَّهِ التُسْتَرِي يقول : «كُنْتُ وأنا ابنُ ثلاثِ سنين أقومُ بالليل ، فأنظر إلىٰ صلاة خالي ، فقال لي يومًا : ألا تَذْكُرُ اللَّه الذي خلقك ؟! ، فقلت : كيف أذكره ؟ ، فقال : قُلْ بِقَلْبِكَ عند تقلُّبِك ، ثلاثَ مَرَّات ، من غير أنْ تُحَرِّك به لسانك : اللَّهُ معي ، اللَّهُ ناظري ، اللَّه شاهدي . . فقلت ذلك لَيَالٍ ، ثمَّ أعلمته فقال : قل ذلك كل ليلة إحدىٰ عَشْرَةَ مَرَّة ، فقلته ؛ فوقع في قلبي حلاوتُه .

فلمَّا كان بعد سنة ؛ قال لي خالي : احفظ ما عَلَّمْتُكَ ، ودُمْ عليه إلىٰ أن تدخلَ القبر ؛ فإنَّه ينفعُك في الدنيا والآخرة . . فلم أَزَلْ علىٰ ذلك سِنين ، فوجدتُ لذلك حلاوةً في سِرِّي . ثمَّ قال لي خالي يومًا : يا سَهْل ، مَنْ كَانَ اللَّهُ معه ، وناظرًا إليه ، وشاهدَه أيعصيه ؟! ، إياك والمعصية . .

فبعثوا بي إلىٰ المَكْتَب ، فقلت : إنِّي لأخشىٰ أنْ يتفرَّقَ عليَّ همِّي ويضيع عليَّ وقتي ، ولكن شارِطُوا المُعَلِّمَ أنِّي أذهب إليه ساعة ، فأتعلم ثمَّ أرجع ، فمضيت إلي الكُتَّاب ، فتعلمت القرآن وحفظته ، وأنا ابنُ سِتِّ سنين أو سَبْع ، وكنت أصوم الدَّهْرَ ، وقُوْتِي من خُبز الشعير ، اثنتىٰ عَشْرَةَ سنة» .

انظر إلىٰ تعويد قلب الغلام التعلُّقَ باللَّه ، والأنسَ به ، والخشيةَ منه ، ومراقبتَهُ سبحانه لاسِيَّما في الخَلَوَات . . وكيف يُربِّيه علىٰ الطاعة واجتناب المعصية . . انظر لأولادٍ يحفظون القرآنَ وهم أبناءُ سِتِّ سنين ، ويَعتادون القيام والصيام ، والزهد والكَفَاف ، وقلةَ المَأكل والمَشرب ، وهم في هذه السِّنِّ المبكِّرة . . اللَّهُمَّ أخرج من ذرِّيتنا عبيدًا لك يُرضونك ، وتَرضىٰ بهم عنَّا .

ثالثًا تربية الأولاد علىٰ الأخلاق والسلوكيات الجميلة

■ خُذْ مَثَلًا هذا الموقف.. قال بعضُ السَّلَف :

«بَنَيْتُ أمري علىٰ الصِّدْق ؛ وذلكَ أني خرجتُ من مكةَ إلىٰ بغدادَ أطلب العلم ، فأعطتني أُمِّي أربعينَ دينارًا ، وعاهدتْني علىٰ الصِّدْق . ولمّا وصلنا أرضَ هَمَذَان خرج علينا عربٌ ، فأخذوا القافلة ، فمرَّ واحدٌ منهم ، وقال : ما معك؟

قلتُ : أربعون دينارًا ، فظنَّ أني أَهْزَأُ به ، فتركني . فرآني رجلٌ آخر ، فقال : ما معك؟ ، فأخبرتُه ، فأخذني إلىٰ أميرهم ، فسألني فأخبرتُه ، فقال : ما حَمَلَك علىٰ الصِّدْق؟

قلتُ : عاهَدَتْني أُمِّي علىٰ الصِّدْق ؛ فأخافُ أن أخونَ عهدَها . فصَاحَ باكيًا ، وقال : أنت تخاف أن تخون عهدَ أمِّك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله !! ، ثم أمَر بِرَدِّ ما أخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائبٌ للّٰهِ علىٰ يَدَيْك .

فقال مَنْ معه : أنت كبيرُنا في قَطْعِ الطريق ، وأنت اليومَ كبيرنا في التوبة . فتابوا جميعًا ببركةِ الصِّدْقِ وسببه .

فللّٰهِ دَرُّهُ من صادقٍ رَضَعَ من أُمِّهِ الصِّدْق ؛ فوفَّىٰ ولم يَخُنْ .. يتوبُ علىٰ يديه وهو طفل قُطَّاعُ الطريق بصدقه !! ..

نعم: التربية تُثمرُ وتفعلُ أكثرَ مِنْ هذا .

رابعًا : تربية الأولاد على الدعوة إلى الله :

من القصص التي تُربِّي الطِّفل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والثبات على هذا الدِّين ، والتضحية من أجله . . قصة أصحاب الأخدود .

ينشأ الولد عاضًا على دينه ، مستمسكًا به ، وإن قُرِّض بالمقاريض ، وقُطِّع بالمناشير . . تزول الجبالُ الرَّواسي ولا يزوالُ ثباتُه أو يتزعزع إيمانُه . . وذلك حين يتربى على أمثال هذه القصة . . وأمثال هذا القول : «دِينَك دِينَك ، دينُك لَحْمُك ، دِينُك عِرْضُك ، دِينُك دَمُك» .

إخوتاه . .

هذا هو حالُ السَّلَفِ مع أولادهم . . أوردناه لِتَعْلَمَ حالَنا اليوم . . فاليومَ على ماذا رُبِّينا ، وعلى ماذا نُشِّئنا ؟!! . . هل أدركتم الفرق الشاسِعَ بيننا وبينهم؟! . . هل استشعرتم مدى الفساد الذي أنتم عليه في تربية أولادكم . . وتقصيركم في حقِّهم . . وتضييعِ هذا الواجبِ المهم ، وتلك الأمانةِ الشديدة ؟! . . وإياك أن تُلقي باللائمة على الظروف الخارجية . . فالبداية من عندك .

توجيهات مهمة في تربيةِ الأولاد :

إنَّ أخطر وسائل التربية على الإطلاق . . التربيةُ بالقُدْوَة . . فكونوا أيها الآباء وأيتها الأمهات قُدْوَةً . . واعلموا أنه مهما بذل الوالدانِ في إصلاحِ فسادِ الولد ؛ فلن يَصْلُحَ إلا بعد أن يراهم يُطَبِّقونَ ما يقولون .

ثم عليكم بعد أن تكونوا قدوة ؛ أن تُرَبُّوهم علىٰ سيرةِ الرَّسُولِ القدوة ﷺ ، وسيرة أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - ، وسيرة الصالحين من العلماء والعُبَّاد والزاهدين .

إخوتاه . .

يا أَيُّهَا المُلْتَزِمُون . . يا مَنْ اكْتَوَيْتُم بِنَارِ الجاهلية في طفولتكم وشبابكم . . عَلَامَ تُرَبُّونَ أولادكم؟!! . .

إِنَّنا في السبعينيات كنا نظن أن أولاد الإخوة هم ، جِيلُ التَّمْكِين ؛ لأنهم سيربَّوْنَ في بُيُوتٍ مُلْتَزِمَة ؛ فلا اعتقاداتٌ فاسدة ، ولا حياةٌ شائهة ، لا تلفاز ، لا أغانٍ ومسلسلات . . سيربَّوْنَ في بيوتٍ يملؤها ذِكْرُ الله . . يُسْمَعُ بين جنباتها القرآن يُتْلىٰ . . ولكن للأسف! كانت الطَّامَّة ؛ فأولادُ الإخوة - في الكثير الغالب وللأسف! - صاروا أسوأَ من الإخوة ؛ لأنَّ الأَخَ لم يُرَبَّ ابتداءً بصورةٍ سليمة ، فحمل مع التزامه رواسبَ جاهلية ، فلمَّا أراد أن يُرَبِّيَ ولدَه ضَلَّ الطريق ؛ لأن فاقدَ الشيء لا يُعطيه .

إخوتاه . .

إنَّ علماءَ عِلْمِ النفس السُّلُوكي يقولون : إنَّ أصحابَ الشخصياتِ السَّوِيَّة لا يَهْتَمُّونَ إلا بـ(الآن) و(هنا) . . نعم : السُّعَدَاءُ هم الذين يتركون «أمس» و«غدًا» ، ولا يفكرون إلا في «اليوم» .

فلا تقل : لو كان كذا لكان كذا ؛ فإنها تَفتح أبوابَ الشياطين ؛ وإنَّما قل : قَدَّرَ اللَّهُ - وهو العزيز الحكيم - ، وما شاءَ فَعَلَ - وهو العَدْلُ الرَّحِيم .

ثم لا تحزن علىٰ ما فات منك في تربية ولدك ؛ لأن حزنك لن يعيده ، ولا يُصيبك الهَمُّ والغَمُّ بالتفكير في تأمينِ مستقبل هذا الولد ؛ لأنك قد تُوَفِّرُ له كُلَّ أسبابِ الرَّاحةِ الدُّنيوية وتتعب في ذلك جدًا ، ثم تُفاجأ بأنه يُضيِّع ويُبَعْثِر كُلَّ ما جمعته له . . لأنه لم يعرف اللَّه . . فاهتمَّ بتربيته علىٰ الدِّين يخرج صالحًا ؛ فيسعد هو في حياته ، وترتاح أنت من التفكيرِ والهَمِّ والغَمِّ والنَّكد .

أيها الوالدُ الحبيب . . أيتها الوالدةُ الطيِّبة . .

افتحو الآن صفحةً جديدة مع أولادكم . . وبِجِدِّيَّة . . توبوا إلىٰ اللَّه واستغفروه . . وابدأوا أوّلًا بإصلاح أنفسِكُم . . ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

إنكم علىٰ ثَغرِ الإسلام ؛ فلا يُؤْتَىٰ الإسلام من قِبل أولادِكم ؛ فقد يخرجون خَطَرًا علىٰ البلاد والعباد . . وقد يصيرون نَسَماتٍ تَمْلأُ الأرض تسبيحًا وتهليلًا وعبادةً وعِلْمًا . . فاتقوا اللَّه فيهم وأحسنوا إلىٰ أنفسكم بحُسْنِ تربيتهم وملاحظتهم .

« وأنتِ أيَّتُها الأُمُّ الرَّؤوم . .

« ليسَ ذاكَ الذي بينَ يديكِ بالطِّفلِ الذي يَبْقَىٰ أَمَدَ الحياةِ طِفلًا ؛ بل هُوَ سِرُّ الوجودِ يُذَاعُ عنكِ ، وصَفْحَةُ الحياةِ تُنْشَرُ عن أَثَرِكِ ، وهُوَ أَدَلُّ عليكِ مِن أَسَارِيرِ وَجْهِكِ وبيانِ لسانِكِ . .

ليستْ هذهِ البُضْعَةُ المتحركةُ باللُّعْبَةِ المُلْهِيَةِ ؛ بل هِيَ العالَمُ الأكبرُ

يَضطَرِبُ كاضْطِرَابِه ، ويَتَخَايَلُ في مَخَايِلِه ؛ فانْظُرِي علىٰ أَيِّ حَالَةٍ تُرِيدِينَ أَنْ يكونَ الكَوْن . .

ليسَ ذلكَ الدَّارجُ بينَ عينيكِ بالصَّبِيِّ الخَلِيِّ ؛ بل هُوَ خَبِيئَةُ الدَّهْرِ وعُدَّتُه . . ورُبَّمَا ضَمَّ مَعَاطِفُ ثَوْبِكَ علىٰ رجلِ الدُّنيا وواحِدِها ، وما يُنبئُكِ لَعَلَّ هناكَ مُلْكًا يَتَرَقَّبُ سيفَه ، أَو عَرْشًا يَطْمَئِنُّ لقَدَمَيْه ، أو أُمَّةً مُتَعَثِّرَةً تنتظرُ النَّصَفَةَ مِنْ وَضَحِ رَأْيِهِ وفَيْضِ بَيَانِه !!»[1] .

فكوني - أيتها الأمّ - علىٰ قَدْرِ المسئولية . . واعلمي أنَّ وَزْنَكِ في هذهِ الأُمَّةِ كبيرٌ جِدًّا ؛ فأنتِ نِصْفُ الأُمَّة ، وتُنْجِبِينَ لنا النِّصْفَ الآخر ؛ فأنتِ أُمَّةٌ بِأَسْرِهَا . . فاحْمِلِي الأمانةَ ولا تُضَيِّعِيها . . فَإِنَّكِ أَمَلُنا البَاقِي في صُنْعِ الرِّجَال وتربيةِ الأبطال .

ولكِنْ أَهَمُّ شيءٍ في هذه المهمة ، مهمة تربية الأولاد : الصبر والاحتساب . . والمجاهدة . . قال اللّه تعالىٰ : ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . . فاصبروا - أيها الآباء وأيتها الأمهات ﴿وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

ومن العوامل المهمةِ أيضًا في إصلاح الأولاد وتربيتهم : الإكثار من الدعاء لهم ، والاشتغال مع اللّه بشأنِهم . . قال بعضُ السَّلَف لولدِه : يا بُنَيّ ، إنّي - واللّهِ - أَزِيدُ في صَلاتي مِنْ أجلِك ؛ لِأَجْلِ أَنْ أُحفَظَ فيك . .

---

(١) عودة الحجاب ، لمحمد إسماعيل ، (٢/ ٣٣٢) ، عن «المرأة العربية» .

وجاء آخَرُ يشكو إلىٰ بعضِ العلماءِ فَسَادَ ابنِه ؛ فقال له : ادْعُ لَه ، فقال : إنِّي أدْعُو عليه ؛ قال : أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ !! (يعني بِدُعَائِكَ عَلَيْه) .

أيها الآباء . . أيتها الأمهات . .

كلما ازْدَدْتُم لِلَّهِ تُقَىٰ ؛ أَصْلَحَ اللَّهُ الأولاد ؛ فإنَّ صَلَاحَ الآباءِ يَنْفَعُ الأبناء : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] .

وما عليكم بعدَ ذلك إلَّا أَنْ تُكْثِرُوا الدُّعاءَ لهم علىٰ الدَّوَام ، بالهِدايةِ والصَّلاح . . وبعدُ : فهذا واجِبُكم ، وتِلْكَ رِسالتُكم . . واللَّهُ معكم يتولَّاكم ، ولَنْ يَتِرَكُم أعمالَكم ؛ سَيَجْزِيكم ويُصْلِحُ بَالَكُم .

اللهم أصلحنا وأصلح أولادنا . . اللهم اهدنا واهد أبناءنا . . اللهم يا ربَّنا رَبِّ لنا أولادَنا . . اللهم اكلأهم بعينِكَ التي لا تنام . . واحفظهم بحفظِكَ الذي لا يُرَام ولا يُضَام . . من إفسادِ المفسدين وإضلال المُضِلِّين . . اللهم اجعلهم بَرَكَةً علينا وعلىٰ أُمَّةِ سيدِ المرسلين ﷺ . . وقرةَ عَيْنٍ لنا أجمعين . . ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] . . آمين [١] .

❊ ❊ ❊

---

(١) من الكتب المهمة في تربية الأطفال والتي ننصح دائمًا بها : كتاب «منهج التربية النبوية للطفل» ، لمحمد نور سويد ، وكتاب «مسؤولية الأب في تربية الولد» لعدنان حسن باحارث ، وكتاب «صورة البيت المسلم» لعصام بن محمد الشريف ، وكذا كتاب «المدارس والكتاتيب القرآنية وقفات تربوية وإدارية» صدر عن دار المنتدىٰ الإسلامي .

ثالثًا: العادات الاجتماعية

إخوتاه..

إننا اليوم حين التزمنا؛ التزمنا وسط كل هذا الكَمّ الهائل من الموروثات الجاهلية.. موروثات جاهلية في التصور للدين والحياة.. وموروثات جاهلية في الأخلاق والسلوكيات.. وموروثات جاهلية في الألفاظ والكلمات.. وموروثات جاهلية في التعامل مع الآخرين كبارًا وصغارًا.. ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فكانت هذه الموروثات سببًا رئيسًا في استقرار تلك الرواسب في أعماق نفوسنا.. للأسف!، دخلنا الالتزام بهذا الكَمّ الهائل منها، وعلىٰ عَتَبَةِ الالتزام لم يَجِدْ أكثرُنا مَنْ يقول له: قف.. اخلع عنك هذا.. تطهر.. وخذ هذا الثَّوْبَ الجديدَ فالْبِسْهُ.. نعم: لم يجد!!

معظمنا دخل الالتزام باجتهادٍ شخصي، أو بدعوة إنسان - لم ينضج الداعي أصلًا - دلّه علىٰ الالتزام، وظن أنه بمجرد دعوته إلىٰ الالتزام قد فعل ما عليه.. هذا كائنٌ واقعٌ ومشاهد.. ألسنا جميعًا دُعينا إلىٰ الالتزام فالتزمنا، ومعنا كُلُّ هذه الموروثات؟!.. بلىٰ واللّهِ.

أيها الإخوة..

الإنسان اجتماعيٌّ بطبعه، ولا شك أنّه يتأثر بمن حوله، فالعادة

مُحَكَّمَة ، والأعرافُ غالبةٌ ، وقد ذكر أهلُ العلمِ أنّ للعاداتِ تأثيرًا عظيمًا فيما يحبه الإنسان وفيما يبغضه ، وأنَّ من أشد ما يصعبُ علىٰ الإنسان : مخالفةَ الناس في طبائعهم وعاداتهم ، ومفارقة ما هواه الإنسان وأَلِفَه .

وإذا انضافت العادة إلىٰ الشهوة ؛ تظاهر جندان من جنود الشيطان علىٰ جند الله ، ولا يقوىٰ باعث الدين علىٰ قمعهما إلا بصدق اللُّجْإِ إلىٰ الله ، والتوكل عليه ، والصبر علىٰ المجاهدة .

قال أحدهم : ما زِلْتُ أَسوقُ نفسيَ إلىٰ الله وهي تبكي ؛ حتىٰ سُقْتُها إليه وهي تضحك . وقال آخَر : ما زلت أجاهد شهوتي عشرين سنة حتىٰ صارت شهوتي المجاهدة .

يقول ابن القيم رحمه الله عن خطورة العادات :

«الوصول إلىٰ المطلوب موقوفٌ علىٰ هَجْرِ العوائد وقطع العلائق وتَخَطِّي العوائق ؛ فالعوائد : السكونُ إلىٰ الدَّعَةِ والرَّاحة ، وما أَلِفَهُ الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المُتَّبَع ؛ بل هي عندهم أعظم من الشرع . فإنهم يُنكرون علىٰ من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون علىٰ من خالف صريح الشرع . وربما كفَّروه أو بدَّعوه وضلَّلوه ، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم ، وأماتوا لها السُّنن ، ونصبوها أندادًا للرسول ﷺ يوالون عليها ويعادون . فالمعروفَ عندهم ما وافقها والمُنكَر ما خالفها .

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت علىٰ طوائفَ من بني آدم ، مِنَ الملوكِ والوُلاةِ والفقهاءِ والصوفيةِ والفقراءِ والمُطَوِّعِين والعَامَّة . فرَبَىٰ فيها

الصغير ونشأ عليها الكبير ، واتُّخِذَت سُنَنًا بل هي أعظم عند أصحابها من السنن . الواقفُ معها محبوس والمُتقيِّدُ بها منقطع . عمَّ بها المُصاب ، وهُجِرَ لأجلها السنةُ والكتاب . مَن استنصر بها فهو عن اللَّه مخذول ، ومن اقتدىٰ بها دون كتاب اللَّه وسُنَّة رسوله ﷺ فهو عند اللَّهِ غيرُ مقبول . وهذا أعظم الحُجُب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلىٰ اللَّه ورسوله ﷺ»[1] .

وقال رحمه الله في « المَدَارِج» – بعد أن ذَكَرَ مراتبَ اليقظة وأصولَها – :

«والذي يملِكُ به ذلك كله خروجُ النفسِ عن العاداتِ، وتَوْطِينُ النفس علىٰ مفارقتِها، والغربةَ بين أهلِ الغفلةِ وأهلِ الأمراض، فما علىٰ العبد أضرُّ من مِلْكِ العادات له ، وما عارض الكفَّارُ الرسُلَ إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن أسلافهم الماضية ، فمَنْ لم يوطِّنْ نفسه علىٰ مفارقة العادة ، والخروج عنها ، والاستعدادِ المطلوب منه ؛ فهو مقطوع ، وعن فلاحِهِ ممنوع ، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] »[2] .

لذا فاعلم – أيها الحبيب – أنَّهُ لن يتم لك الأمرُ حتىٰ تخلعَ نفسَكَ عن هذه العاداتِ المستوطنة التي أَلِفها الناس من المخالفات ، حتىٰ صار أهلُ الدين في غربةٍ شديدةٍ في هذه الأيام ، وراح فريقٌ منهم يتأذَّوْنَ من القبض علىٰ الجمر ؛ فذهبوا للتأويل الشاذ والمنكر طلبًا للأُنس بغير اللَّه في هذه الغربة الموحشة .

---

(١) الفوائد ، ص (٢٧٤) .

(٢) مدارج السالكين (١/١٤٦) .

ولسنا نقول إلا ما يرضي ربنا ، ولا نتحاكم إلىٰ أهواء الناس ؛ فالمَرجعيَّةُ للكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ؛ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وجعل الهدايةَ إلىٰ سبيلهم طريقَ النجاة . . فاستمسِكْ ولا تستوحِشْ .

إخوتاه . .

ولأنَّ للعادات سلطانًا ؛ جاء الشرع فلم يهدم منها إلا ما كان معارضًا لمقاصده ، مما يوجب الفساد في العاجل أو الآجل .

يقول شيخ الإسلام - عليه رحمةُ الله - :

«فالشريعةُ جاءت في العادات بالآداب الحسنة ، فحرَّمت منها ما فيه فساد ، وأوجبت منها ما لابد منه ، وكرهت ما لا ينبغي ، واستحبَّت ما فيه مصلحةٌ راجحةٌ في أنواع هذه العادات ومقاديرها وصفاتها»[1] .

وأقرَّتِ الشريعةُ بالعُرْف ؛ بل هو أحد أدلة الأحكام - علىٰ اختلافٍ بين أهل الأصول معروف عندهم - ؛ قال تعالىٰ : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

بل كان من هديه ﷺ أنَّهُ اذا خالف عادته أمام أصحابه ؛ بيَّنَ لهم وجة الحِكمة .

ففي البخاري عن سَهْل بن سعدٍ الساعديّ : أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ فُلَانَةَ امْرَأَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ - قَدْ سَمَّاهَا سَهْلٌ - : مُرِي غُلَامَكِ النَّجَّارَ أَنْ

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٢٩/ ١٨) .

يَعمَلَ لِي أَعْوَادًا أَجْلِسُ عَلَيْهِنَّ إِذَا كَلَّمْتُ النَّاسَ ، فَأَمَرَتْهُ فَعَمِلَهَا مِنْ طَرْفَاءِ الْغَابَةِ ثُمَّ جَاءَ بِهَا ، فَأَرْسَلَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ بِهَا فَوُضِعَتْ هَا هُنَا ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّىٰ عَلَيْهَا ، وَكَبَّرَ وَهُوَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ رَكَعَ وَهُوَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ نَزَلَ الْقَهْقَرَىٰ فَسَجَدَ فِي أَصْلِ الْمِنْبَرِ ثُمَّ عَادَ ؛ فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ فَقَالَ : **«أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا ؛ لِتَأْتَمُّوا بِي وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي»**[1] .

قال الحافظ ابنُ حَجر رحمه الله : ويُستفاد منه أن من فعل شيئًا يُخالف العادة ؛ أن يبيِّن حكمته لأصحابه .

إخوتاه . .

أريد من هذا أن أُوَصِّلَ لك أصلًا مهمًّا في هذا الباب . . وهو أنَّك حين تلتزم بشرع اللَّه تعالىٰ ؛ فليس الشأن أن تخالف عادات النَّاس ، وتحكم عليهم بالجاهلية المطلقة ، ويذهب الضالُّون إلىٰ القول بتكفيرهم . . لا . . إنَّما أنت تخالفهم فيما لم يأذن به اللَّه . . وما تركه الشرع دون تحديدٍ مُعَيَّن كأمور المطعم والمشرب والمأكل ونحوها ؛ فالأَوْلىٰ مُوافقتُهم فيها ؛ فهو أَدْعَىٰ لِتَقَبُّلِهِم ما تأتيهم به من أمور الشرع .

أذكر ذلك ابتداءً ، بعيدًا عن الغلو والتقصير ، أو الإفراط والتفريط ؛ فكِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ . . فأقول لك مؤكِّدًا ومكرِّرًا : من عادات الناس ما هو مقبولٌ في الشرع ؛ فلا بأس في أنْ توافقهم فيها ؛ بل الأولىٰ ذلك .

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٩١٧) ، ومسلم (٥٤٤) .

لكن منها ما هو قبيحٌ مذموم ، يُعارِض شرعَ اللَّه تعالىٰ ، فهذا يجب اجتنابهم فيه ، ومجاهدة النفس في عدم الخضوع لهم ؛ بل ويلزمُ الإنكارُ عليهم فيه برفقٍ وتُؤَدَةٍ وحُسنِ خُلُق ، فهو عند بعضهم شرعٌ مُتَّبع ؛ فلابدَّ من النصيحة المخلصة الصادقة ، بهدوءٍ ومَحَبَّةٍ ليتقبلوا منك .

لا تُريحوا النَّاسَ . . وتَهدِمُوا الدِّين :

إنَّك حين تَجْهَر في الناس بالحق تجد من يلومك ، وحين تودُّ أن تغيِّر تجد من يطالبك بأنْ تَنصاع لهوىٰ الناس باسم الإسلام . . تجد من يرىٰ أن الأسلوب الدعوي الأمثل في أسلمة كل شيء في الحياة هو إراحة الناس وموافقتهم ، حتىٰ في الأمور الجاهلية التي لا يصح إلا أن تُستبدل أساسًا ، ولا يبقىٰ لها أثرٌ بين الناس .

انظر إلىٰ من يقول لك : «الزَّفَّةُ الإسلامية» ، و«الأغاني - المصحوبة بالمعازف - الإسلامية» ، حتىٰ قالوا : «الديمقراطية الإسلامية» و«الاشتراكية الإسلامية» . . و . . و . . في محاولة لتطويع الدين لأهواء الناس ، وعاداتهم ومألوفاتهم .

انظر إلىٰ من يقول : لابد من تأويل نصوص الشريعة ؛ لتتناسب مع الأحوال والظروف التي يعيشها الناس اليوم ، يقول : علينا أنْ نلفت أنظارهم إلىٰ القضايا الكبرىٰ ، ودع عنك المَساس بهذه الجاهليات التي اعتادها الناس وألفوها ؛ فإنها ستسبب نفرتهم عن الدين ، فعلينا أنْ نيسِّر لهم الدين - زَعَمَ ! . . وهذا - لَعَمْرُ اللَّه - ؛ باطلٌ يقود إلىٰ باطل ؛ فلا تصدقهم ولا تتبعهم ، قال اللَّه سبحانه : ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

وهؤلاء نسألهم: وهل مِن يُسْرِ الإسلام أنْ نُحِلَّ ما حرَّمَ اللَّه، ونرتضي التأويلات الشاذة والفاسدة التي لم تكن في أسلافنا باسم الدعوة؟!.. هل باسم الدعوة نجعل الشرك إسلامًا؟!، والبدعةَ سُنَّة لنجذب أفئدةَ الناس؟!!

هل إذا اعتاد الناس الباطل نُقِرُّهُ ولا ننكره؛ لكي يَرضَوْا عنا ويَقْبَلُوا منا؟!.. كلا واللَّهِ لن يكون ذلك.

إنني أتساءل: هل هناك خطوطٌ حمراء لا ينبغي الاقتراب منها؟؛ لأنها تَمسُّ مألوفات الناس؛ كالأغاني والأفلام والتلفاز، والاختلاط الفاحش، وخروج العاريات في شوارع بلاد المسلمين، واعتياد بعض الطقوس المبتدعة في الأفراح والجنائز، واتخاذ الأعياد دون ما أَذِنَ به الشرع؟!

إذًا فبِلامَ ندعو الناس إذا كنا بُعداءَ عن دعوةِ الإسلام وهي عنَّا بعيدة؟!.. وهل ندعوهم فقط إلىٰ «تحرير بلاد المسلمين المسلوبة من أيدي الكافرين» وهم مُلَوَّثُونَ بجاهلياتٍ لا يَنفكُّونَ عنها؟!.. هل يحرِّر الأقصىٰ مَنْ لم يتحرَّر من آصار الجاهلية؟!.. كلَّا واللَّهِ.. فأخو الظَّلْماءِ أَعْشَىٰ بالليل[1].

(١) يُضرَبُ لِمَنْ يُخطِئ حُجَّتَهُ، ولا يُبصِرُ المَخْرَجَ مِمَّا وقعَ فيه.

تلك هي القضية . . هل نحن نريد رضا الناس أم رضا رب الناس؟ ، هل نريد اللَّهَ ورسولَه والدارَ الآخرة ، أم نريد ذلك والدنيا والناس معًا؟

نتائجُ العادات . . بِدَعٌ وضَلالات :

إخوتاه . .

إنَّ المسلمين اليوم لمَّا شاعت فيهم الفواحش والمنكرات ؛ ابتعدوا عن شرع ربهم . . فخاضوا في الجاهلية . . معاصيَ وذنوبًا اجترحوها ، وشيئًا فشيئًا اعتادوها ، ثُمَّ اسْتَمْرَؤُوها . . فصارت كأنها هي الأصل ، وصار الملتزم بشرع اللَّه تعالىٰ غريبًا مَنبوذًا ، تُلقىٰ عليه التُّهَمُ من كل جانب . . «وليس الخَبَرُ كالمُعَايَنَة» . . وكل من لم تفسد فطرته التي خلقه اللَّه عليها شاهدٌ بذلك .

انظر إلىٰ شوارع المسلمين . . سفورٌ وتَبَرُّج . . تَكَشُّفٌ وعُرِيٌ . . وسَفَالَةٌ من ورائِها دِياثَةٌ وخُنُوثة . . وميوعةٌ وسوءُ أدبٍ ظاهر . . أخلاقنا ذهبت فلم يعد فينا أصحابُ نَخْوَةٍ أو شَهَامةٍ أو رجولة .

آهٍ يا قوم . . آهٍ يا قوم . . أين أصحابُ المُرُوءة؟! . . أين مكارمُ الأخلاق؟! . . أين الأدبُ والحياء؟! . . أين الأمانة؟! . . أين التوقير للكبير والرحمةُ بالصغير؟! . . أين الإخاء والصِّلة؟! . . أين البَشَاشةُ والوَدَاعة؟! . . أين الجودُ والإحسان؟! . . أين الإيثار؟! . . أين لِيْنُ الجانب والتواضع؟! . . أين الاستقامةُ والاعتدال؟! . . أين حفظُ

السر؟!.. أين الوفاء؟!.. أين الحِلْمُ والأَنَاة؟!.. أين..؟!.. وأين..؟!!.. اللَّهم ارزقنا حُسْنَ الخُلُق.

نعم - إخوتاه..

إنَّك إذا فتشت عن معالم الدين في المجتمع وجدتها مُغيَّبَة.. أخلاق سيئة، وعقائد مُلَوَّثة، وعبادات قليلة فاترة؛ فأين المُصَلُّونَ في المساجد؟!.. وأين المصحف من أيدي المسلمين اليوم؟!.. مهجور وربِّ الكعبة.

والكثير يعبد اللَّه علىٰ غيرِ هُدَىٰ، فيضلّ ويبتدع، وإذا واجهتهم تذمَّروا؛ لأنهم اعتادوا ذلك، ولسان حالهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].. فحدِّث ولا حَرَجَ عن بِدَعِ المناسبات، وبدع الأعياد، وبدع ومنكرات الأفراح، وبدع الجنائز.. وبدع.. وبدع.. بدع كثيرة.

إخوتاه..

لا شك أنَّ هذه العادات بِحُكْمِ التعايش والاختلاط يتأثر بها الواحد منَّا، وتترسَّبُ في أعماقِ نفسه؛ فتُفْسِدَ كثيرًا من تصوراتِه؛ ومِنْ ثَمَّ لا يَشعرُ الإنسانُ بَلَذَّةِ الإيمان؛ فيُسْلَبَ منه وهو لا يَشْعُر.

قال الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: القلب لا يَلتذُّ حالَ الصحة إلا بذكر اللَّه ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات، كما يلتذ بعض الناس بأكل الطِّين، وكما يجد المريضُ الحُلْوَ مُرًّا.

قَدْ يَسْتَلِذُّ الفَتَىٰ ما اعْتَادَ مِنْ ضَرَرٍ   حَتَّىٰ يَرَىٰ فِي تَعَاطِيهِ المَسَرَّاتِ

ومن نتائج العادات : أَنَّكَ تَجِدُ صاحِبَها يدور ويَحتال كي لا يَنْفَكَّ عمَّا اعتاده :

فبعض الناس تراهم يُسرفون في المأكل والمشرب ، هو معتادٌ علىٰ ذلك ، فإذا دخل في الالتزام وعرف أنَّ الإسراف حرام ، وتبيَّنَ له أنَّ الإكثار من الطعام والشراب أحد سموم القلب التي تُمْرِضُه - هو علىٰ تصوره الأول يرىٰ أنَّ الطعام والشراب من المباحات . . إذا دخل الالتزام بهذا التصور غير المنضبط ؛ تراه تشده عادته المألوفة ، ويأبىٰ طبعه أن ينساق لِمَا عَلِمَ من الحق . . وإذا عُوتِب ؛ أخذَ يَسُوقُ المُبَرِّرَاتِ الفارغة .

آخَرُ تَرَبَّىٰ في بعض الطبقات الأرستقراطية (كما يقال ! !) . . تَرَبَّىٰ علىٰ أنْ يعامله الناس معاملةً خاصَّة ، فيأنف أن يخاطبه مَنْ هو أصْغَرُ منه ، ويأنف أن يُعَلِّمَهُ مَنْ هو أقلُّ منه ، يأنف أن يرىٰ أحدًا - أيًا كان - أعلم منه ، يأنف أنْ يتساوىٰ مع الفقير في مجلسِ علم . . هو يريد الدين ؛ ولكن هذا لا يَعني أنْ يُقَدِّمَ تنازلات فيتواضعَ ويُلْجِمَ نفسه بلجامِ التقوىٰ فيكونَ ذليلًا علىٰ المؤمنين ! . . إنه يستطيع ذلك ولكنه لا يريده ! !

إنها عاداتٌ جاهلية تترسب أيضًا عند أولاد هؤلاء الملتزمين إن أصبحوا ملتزمين يومًا ما . . ثم إنَّ عاداتِ الأغنياء الجاهلية هذه قد تتسبَّب في سُخْطِ الفقراء عليهم ؛ فتطفوَ عاداتٌ أخرىٰ سيئة في مجتمع الفقراء ، تترسب عند أولادهم أيضًا حتىٰ بعد التزامهم بالدِّين . . فافهموا يا قوم . . واتقوا اللّه .

أَتْبَاعُ العاداتِ يومَ القيامة :

إخوتاه . .

عاداتُ الساداتِ ساداتُ العادات . . فكثيرًا ما تجد الناس يَقفون وراء كبرائهم، ويعتادون عاداتهم من غير نظرٍ إلىٰ صحةٍ أو فسادٍ هذه العادات . . وسوف يَحْتجُّ هؤلاءِ الضعفاء أمام اللّٰه تعالىٰ يوم القيامة فلا ينفعهم اتباعهم شيئًا .

قال المَلِكُ جَلَّ جلالُه : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١-٣٣] .

ولذلك كان «خَلْعُ العادات» الجاهلية أمرًا واجبًا، وكانَ دِينُ ذَوِي العادات دينًا مُعْوَجًا فاسدًا؛ لأنّه وإن فعل الخير فعله بحُكْمِ الاعتيادِ لا بوجه الحِسْبَةِ للّٰه تعالىٰ . . فتُفَرِّغُ هذه الأعمالُ مِنْ شرطِ قَبولها عند اللّٰه تعالىٰ، أعني من الإخلاص الواجب للّٰه تعالىٰ، والاتِّبَاع الرَّاشد [illegible] سيد الأنام محمد ﷺ . . أمَّا اتّبَاعُ هَذي الكُبَراء [illegible] وخَسَار . . فاعتبروا يا أول [illegible]

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

إخوتاه..

عاداتُ المجتمع الجاهلية كانت سببًا رئيسيًا في تراكُمِ رواسب الجاهلية وتكاثرِها.. فهيًا تخلَّصُوا من تلك العادات فورًا.. الآن.. وبلا خوفٍ أو تَرَدُّد.

وَدَعْ دِينَ ذَا العَادَاتِ لا تَتْبَعَنَّهُ	وَعُجْ عَنْ سَبِيلِ الأُمَّةِ الغَضَبِيَّةْ
ومَنْ ضَلَّ عَنْ حَقٍّ فَلَا تَقْفُوَنَّهُ	وَزِنْ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ بِالْمَعْدَلِيَّةْ
هُنَالِكَ تَبْدُو طَالِعَاتٌ مِنَ الْهُدَىٰ	تُبَشِّرُ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْحَنِيفِيَّةْ
مِلَّةِ إِبْـرَاهِـيـمَ ذَاكَ إِمَـامُـنَـا	ودِينِ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةْ

كيف نتخلص

من رواسب الجاهلية؟

(العلاج)

وَلَمْ أَجِدِ الإِنْسَانَ إِلَّا ابْنَ سَعْيِهِ
فَمَنْ كَانَ أَسْعَىٰ كَانَ بِالْمَجْدِ أَجْدَرَا

وبِالهِمَّةِ العَلْيَاءِ تَرْقَىٰ إِلىٰ العُلَا
فَمَنْ كَانَ أَعْلَىٰ هِمَّةً كَانَ أَظْهَرَا

وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ أَرَادَ تَقَدُّمًا
وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَأَخَّرَا



كيف نتخلص من رواسب الجاهلية؟

قال الملكُ الرحيمُ سُبحانه : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]

قرأ الشيخ هذه الآية وهو يَمْسَحُ صَدْرَ صاحِبنا ويُطَيِّبُ خاطره، بعد رحلةِ العلاج الطويلة المُضْنِيَة، التي استخدم فيها الشيخ كُلَّ الأساليب المشروعة في تطهير رواسب الجاهلية من قلبه.. ثم قال الشيخ:

جزاكَ اللَّهُ خيرًا - أخي الحبيب -؛ لقد صبرتَ معنا طويلًا، ونسألُ اللَّهَ أن يُبارك في كُلِّ الجراحات السابقة التي حاولنا فيها استئصالَ جميعِ رواسبِ الجاهلية.. وأدرانها وأوساخها وظُلَمِها وظُلُمَاتها من القلب. فجزاك اللَّه خيرًا علىٰ الصبر هذه المدة الطويلة..

ولكن.. لا تعتقد أنَّ الرسالة قد انتهت.. بالعكس.. لقد بدأتْ مرحلةُ العلاج، ومِثْلُ العمليات الجراحية عادةً التي يتم فيها استئصال أجزاءٍ مريضة من الجسم، وزرع أجزاء سليمة - لابد أن يخضع المريض لفترة علاج بقية العمر؛ لكي يَقبل الجسم هذا العضو الجديد.

فلذلك - أخي الحبيب -؛ لابد أن تواظب علىٰ علاج، لا تهمله ولا تغيِّرْه ولا تنساه؛ بل: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]؛ مواظبًا علىٰ هذا العلاج حتىٰ الموت.

وبدأ الشيخُ يَسْرِدُ العلاج خُطْوَةً خُطْوَة بكلّ أَنَاةٍ وحِكْمة، وصاحبنا يفتح له عينيه وقلبَه وعقلَه سائلًا اللَّه أن يُتِمَّ له بخير .. وهنا أَكَّدَ الشيخُ أيضًا هذا المعنى قائلًا:

مِنَ الأسبابِ الخطيرةِ التي تَحْرِمُ ثَمَرَةَ العمل ونتيجةَ الجُهْد عدمُ الإتمام .. ومِمَّا أُثِرَ عَنِ السَّلَف: «إنَّ اللَّه يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُم عَمَلًا أَنْ يُتِمَّهُ».

فلابد - أخي - إذا شَرَعْتَ في العلاج أنْ تستمرَّ فيه إلىٰ النهاية كما يقول الأطباء: «الكورس»،.. ومن أقوالِ العَامَّة: «الصَّبْر مُرّ».. والصبر أصلٌ في علاج هذه الأدواء؛ فلابد من استمراءِ المُرّ واستعذابِ العذاب في سبيل اللَّه تعالىٰ.

تِلْكُمُ الوصيةُ الأولىٰ «الصَّبْر»؛ أما الوصية الثانية: فالثِّقَةُ واليقين.. الثقةُ في الشيخ، واليقينُ في وَعْدِ اللَّهِ تعالىٰ..

إنَّ كثيرًا من الإخوة يتناولُ العلاجَ مدةً يسيرة ثُمَّ يشكو عدمَ النتيجة، ونحن نقول - يَقِينًا -: الزَّمَنُ جزءٌ مِنَ العِلاج.. فلابدَّ من الصبر.

وثانيًا: لابد أن يكون التعامل في داخل أمور الدِّيانةِ باليقين؛ لأننا دَوْمًا نقول: اللَّهُ لا يُجَرَّب؛ فإنَّ اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - لا يُعطي شيئًا وَعَدَ به إلا لمن سأله بيقينٍ، لا علىٰ وجه التجربةِ والشَّك.

قال رسول اللَّه ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وأنتم مُوقِنُونَ بالإِجابة»[1]؛ بل وأَكَّدَ اللَّهُ - سبحانه وتعالىٰ - هذا المعنىٰ فقال عَقِبَ بعضِ وُعُودِه:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٤٨)، وحسنه الألباني (٣٤٧٩) في «صحيح الترمذي».

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] ، فاستبشروا ، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦] . .

فانْتَفَضَ صاحِبُنا قائلًا : والفتور أيها الشيخ . . والفتور؟! . . فجذبه الشيخ من أُذنه وهو يَفْرُكُها قائلًا : ينبغي لمن جاهَدَ وصبرَ ألا تصيبه الفَتْرَةُ لدَرَجَةِ الشكوىٰ . . نعم : الفتور وارد ؛ ولكن - كما قال ابن القيم عليه رحمة الله - : «لابد من سِنَةِ الغَفْلَة ؛ ولكن كن خَفِيفَ النَّوم ؛ فإِنَّ حُرَّاسَ البَلَدِ يُوقِظُون» . .

إنَّ علاجَ الفتور يا بُنَيَّ هو أن تعمل ، لا أن تشكو الفتور . .

فقال صاحبنا : وكيفَ إذا نَبَتَتْ رواسبُ الجاهلية - التي نزعناها - مَرَّةً أخرىٰ في القلب؟!

فقال الشيخ : - إِيهٍ يا بُنَيّ . . هذه هي مأساةُ كثيرٍ من الملتزمين . . الهزيمةُ النفسية ، وضعف القلب والإيمان ، يا بُنَيَّ ، كُنْ قويًا . . كن واثقًا . . كن ثابتًا . .

إنَّ من شروط صحة التوبة : العزمُ علىٰ عدم العَوْدَة ؛ فلذلك يجب من اليوم ابتداءَ حَلُّ عُقْدَةِ الإصرار . . بأن تعزمَ عَزْمًا أكيدًا بثقةٍ في النفس ، وعُلُوِّ هِمَّة أنَّكَ لن تعودَ إلىٰ شيءٍ من الجاهلية أَبَدًا . . وإنْ قُتِلْتَ ، وإِنْ حُرِّقْت . .

ينبغي أن تنطلق في طريقك إلىٰ الله علىٰ صراطٍ سَوِيّ ، بِهَدْيٍ قويمٍ

قويّ ، فلا تلتفت أبدًا . . وثِقْ - أيها الحبيب - أَنَّ اللَّه في عَوْنِ العبد طالما أنَّ العبد صادقٌ في طَلَب العون مِنَ اللَّه .

قالَ صاحِبُنا : إذًا ما الذي يُعِينُ علىٰ الثبات ، ويُشَجِّعُ علىٰ الاستمرار ؟

قال الشيخ : الذي يُعين علىٰ الثبات والاستمرار : القُرْبُ من الشيخ ، والصراحة المُطلقة في بَثِّ الشكوىٰ وطلب الفتوىٰ ، والنصيحة والعمل بها ، والثقة فيها . .

ثم مخالطةُ صُحبةٍ من ذَوِي الهمم العالية والإرادة القوية ؛ للتنافس علىٰ فِعْلِ الخيرات وترك المنكرات ؛ فإنَّ صحبةَ البَطَّالين ، ومعاشرةَ أهلِ الفوضىٰ والمعاصي ؛ تُهَوِّنُ علىٰ الإنسان التفلُّتَ من الالتزام واستصغارَ الكبائر . .

قال صاحبنا : وماذا أصنعُ إذا وَقَعْتُ ؟

فقال الشيخ : **لا تَبْكِ علىٰ اللَّبَنِ المَسْكُوب** ؛ قُمْ ، انْفُضْ عنكَ غُبارَ الكَسَل واستَفِدْ من غلطتك . .

يقول ابنُ الجَوْزِيّ - عليه رحمةُ اللَّه - :

«رأيتُ كُلَّ مَنْ يَعْثُرُ بشيءٍ أو يَزْلَقُ في مَطَرٍ ؛ يلتفتُ إلىٰ ما عَثَرَ به ، فينظرَ إليه ، طبعًا موضوعًا في الخَلْق . إما لِيحذرَ منه إنْ جَازَ عليه مَرَّةً أُخرىٰ ، أو لينظرَ - مع احترازه وفَهْمِه - كيف فاتَهُ التَّحَرُّزُ مِنْ مِثْلِ هذا .

فأخذتُ مِنْ ذلك إشارة ، وقلتُ : يا مَنْ عَثَرَ مِرَارًا ، **هَلَّا أبصرتَ ما الذي أَعثَرَكَ فاحترزتَ مِنْ مثلِه** ، أو قَبَّحْتَ لنفسِكَ مع حزمها تلكَ الواقعة .

فإنَّ الغالِبَ مِمَّن يلتفت أَنَّ معنىٰ التفاتِهِ : كيف عَثَرَ مثلي مع احترازِهِ بِمِثْلِ ما أَرَىٰ؟!

فالعَجَبُ لك : عثرتَ بِمِثْلِ الذَّنبِ الفُلانيّ والذَّنبِ الفُلاني؟

كيف غَرَّكَ زُخْرُفٌ تَعْلَم بعقلِكَ باطنَه ، وتَرَىٰ بعينِ فِكْرِكَ مآله؟ ، كيف آثَرْتَ فانيًا علىٰ باقٍ؟ ، كيف بِعْتَ بِوَكْس[1]؟ ، كيف اخترتَ لَذَّةَ رَقْدَةٍ علىٰ انتباهِ معاملة .

آهٍ لك !! ، لقد اشتريتَ بما بِعْتَ أحمالَ نَدَمٍ لا يُقِلُّها ظَهر[2] ، وتنكيسَ رأسٍ أمسىٰ بَعيدَ الرَّفع ، ودُمُوعَ حُزْنٍ علىٰ قُبْحِ فِعْلٍ ما لِمُدَدِهَا انقطاع .

وأَقْبَحَ الكُلّ ، أَنْ يُقَالَ لك : بماذا؟ ، ومن أجل ماذا؟ ، وهذا علىٰ ماذا؟

يا مَنْ قَلَبَ الغُرُورُ عليه الصَّنْجَة ، وَوُزِنَ له ، والميزانُ راكِب[3] .

وقد قال رسول الله ﷺ : **«لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مَرَّتَين»**[4] . . فإذا وقعتَ فَتُبْ ، واعرِفْ مِنْ أينَ أُتِيْتَ ؛ لكي لا تُلْدَغَ مِنْ نفسِ الجُحْرِ مَرَّةً أخرىٰ . .

---

(١) الوكْس : النقص .

(٢) لا يُقِلُّها ظهر : لا تقوىٰ علىٰ حملها أيُّ دابّة .

(٣) صيد الخاطر ، ص (١٨٩) .

(٤) متفق عليه ، البخاري (٥٧٨٢) ، ومسلم (٢٩٩٨) .

لا تَلْتَفِتْ . . بل دَافِعْ الشيطانَ والنفسَ والهَوَىٰ ، وأَصْلِحْ حالَكَ مَع اللَّه ، وزِدْ في أعمالِكَ الصَّالحة ، وأَتْقِنِ التوبةِ ، ولا تُشْمِتْ بِكَ الأعداء .

قال صاحِبُنا : فما عَلَيَّ الآنَ يا شيخَنا ؟

قال الشيخ : اسْتَجْمِعْ عَزْمَك ، وأَخْلِص قَصْدَك ، وتَوَكَّلْ علىٰ اللَّه . . لا تُؤَخِّرْ ولا تُؤَجِّلْ ولا تُسَوِّف . . هذه البدايةُ القويَّة والانطلاقةُ الرَّشِيدة إذا حَالَفَها توفيقُ اللَّه – وهو مُوَفِّقُ الصَّادقين لا مَحَالَة – ؛ تُوَصِّلُ للمطلوب إنْ شَاءَ اللَّه . . هيَّا بِنا إلىٰ العمل . . هيَّا بنا إلىٰ وَصْفَةِ العِلاج .

أيها الأحبة في اللَّه . .

لعلكم مُتَشَوِّقُون متسائِلُون: ما العلاج إذًا؟، وكيف السبيل كي نتخلص من هذه الرواسب ليستقيمَ التزامُنا؟

أقول: العلاج لابد له من ثلاثةِ أصولٍ ينبني عليها ؛ وإلا فلن يَنْفَع ، ولن يُنْجِع ، وسيكونُ أَعَزَّ من السَّرَاب . . هذه القواعدُ هِيَ:

- أسس العلاج.
- بداية العلاج
- وسائل العلاج

❁ ❁ ❁

أسس العلاج

لَا تَسْعَ فِي الأَمرِ حَتَّىٰ تَسْتَعِدَّ لَهُ

سَعْيٌ بِلَا عُدَّةٍ قَوْسٌ بِلَا وَتَرِ



أوَّلًا : الاعتراف

إخوتاه . .

الاعتراف يَهدم الاقتراف ، فكونُكَ تُقِرُّ بذنوبك ومعاصيك ، وتعرف أنَّها بسبب فسادٍ في نفسك ، وأنَّك تحتاج إلىٰ التطهر من هذه الشوائب والرواسب ؛ فهذا هُوَ أَوَّلُ أساسٍ وأهمُّ بدايةٍ للعلاج . . الاعتراف بأنَّ فيك رواسبَ جاهلية .

الاعتراف بها ؛ لتتوب إلىٰ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ منها ، فيأذنَ لك في السير إليه ، ويهديك إلىٰ الصراط المستقيم ، الذي حِدْتَ عنه بسبب الوقوع في هذه المزالق .

وقد قال اللَّهُ تعالىٰ : ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال الطبري وغيره: العمل الصالح : الاعتراف والندم.

وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. . فالشرطُ عدمُ الإصرار . .

فلا تَرْكَبْ رأسَكَ فتعاندَ أو تُكَابِر ؛ بل تقف مُقِرًا للَّهِ بذنبك ، وأنَّه مِن قِبَلِ نفسك ، فلا مَعَاذيرَ ولا حُجَج ، ولا دَعَاوَىٰ ، ولا تبريرات فارغة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ فيما يَحكي عن ربِّه عز وجل قال: «إنَّ عَبْدًا أَصابَ ذنبًا - ورُبَّمَا قال: أذنبَ ذنبًا - ؛ فقال: ربِّ أذنبت - وربما قال: أَصَبْت - ؛ فاغفر لي، ؛فقال ربُّه: أَعَلِمَ عبدي أَنَّ له ربًّا يغفرُ الذنبَ ويأْخُذُ به؟ ، غَفَرْتُ لعبدي، ثم مَكَثَ ما شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَصابَ ذنبًا - أو أذنب ذنبًا - ، فقال: ربِّ أَذنبتُ - أو أَصَبْتُ - آخَرَ فاغْفِرْهُ؟ ، فقال: أَعَلِمَ عبدي أَنَّ له رَبًّا يغفرُ الذنبَ ويَأْخُذُ به؟ ، غفرتُ لعبدي، ثُمَّ مَكَثَ ما شَاءَ اللَّه ، ثم أذنبَ ذنبًا - وربما قال: أَصابَ ذنبًا - ، قال: قال: ربِّ أَصَبْتُ - أو قال: أذنبتُ - آخَرَ فاغفِرْهُ لي ، فقال: أَعَلِمَ عبدي أَنَّ له رَبًّا يغفرُ الذنبَ ويأْخُذُ به؟ ، غفرتُ لعبدي، ثلاثًا ، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاء»[1] .

قال القرطبيُّ رحمه الله: ودَلَّتِ الآيةُ والحديث علىٰ عِظيمِ فائدةِ الاعتراف بالذنبِ والاستغفارِ منه[2] .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ، ثم تابَ إلىٰ اللَّه ؛ تابَ اللَّهُ عَلَيْه»[3] .

قال الشاعر:

يَسْتَوْجِبُ العَفْوَ الفَتَىٰ إِذَا اعْتَرَفْ ... بِمَا جَنَىٰ مِنَ الذُّنُوبِ واقْتَرَفْ

وقال آخر:

أَقْرِرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ اطْلُبْ تَجَاوُزَهُ ... إِنَّ الجُحُودَ جُحُودَ الذَّنْبِ ذَنْبَانِ

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٣٧)، ط. دار الكتب العلمية.

(٣) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري (٢٦٦١).

والاعتراف اليوم - إخوتاه - حَرِيٌّ بالعبد اللَّبِيب قَبل ألا ينفع إقرارٌ ولا ندمٌ ، وقبل أن يَحِلَّ سخط الله تعالىٰ ، ويُفاجأ مَنْ لم يُعِرِ الأمرَ اهتمامًا .

قال الملِكُ جَلَّ جلالُه : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥] .

وقال سبحانه : ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠-١١]، وقال سبحانه : ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥] .

إخوتاه . .

هل تَظنون أنَّ الاعتراف بالأخطاء وأسبابها الحقيقية أمر يُشِينُ الإنسان ويَعيبه ؟! . . سبحان الله ! . . أَوَ يخلو من هذا الأمر أحدٌ ؟! . . إننا جميعًا ذوو أخطاء ؛ فليست العِصْمَةُ إلا للأنبياء ، ومن وراء هذه الأخطاء أسباب كثيرة ، ونحن نحاول سَبْرَها ، والعمل علىٰ علاجها ؛ كي لا يزداد الأمر علينا وَبالًا .

لذلك دعني أتساءل: كم فينا اليوم من رواسب الجاهلية ؟! ، إنه شيءٌ كثير، ركامٌ طويلٌ وكبير ، وهذا ليس بغريب ؛ فأبو ذر بَعْدَ عُمْرٍ في الإسلام سَبَّ إنسانًا وعَيَّرَهُ بأُمِّه ؛ فقال له رسول الله ﷺ : **«إنك امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّة»**[1] .

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) .

أبو ذَرّ ، وما أدراكَ ما أبو ذَرّ!! أحدُ أربعةٍ أخبرَ اللَّهُ رسولَهُ ﷺ بأنه يحبُّهم ، وأَمَرَهُ بحبِّهم . .

رُوِيَ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : **«إنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِحُبِّ أَرْبَعَةٍ ، وأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُم** ، قيل : يارسول اللَّه ، سَمِّهِمْ لنا ؛ قال : **عَلِيٌّ مِنْهُم** - يقول ذلك ثلاثًا - ، **وأَبو ذَرّ ، والمِقْدَاد ، وسَلْمَان ، أَمَرَنِي بِحُبِّهِم ، وأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُم»**[1] .

أبو ذر المَشْهُودُ له بالصِّدْق : قال الحبيبُ ﷺ : **«مَا أَظَلَّتِ الخَضْرَاءُ ، ولا أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرّ»**[2] .

هذا الصحابي الجليل بَدَتْ منه لَفْظَةٌ جاهليةٌ بعد عُمْرٍ طويل . . سبحان الملك ، هذا شيءٌ عجيب!! . . إذًا فوجودُ مِثْلِ هذه الرواسب ليس بغريب ، فلا تَسْتَحِ من الاعتراف بذلك ؛ لأنه أوَّلُ سبيلٍ للتخلُّصِ من تلكَ الرَّواسب . . بل والاعتراف بأن فينا من رواسبِ الجاهليةِ الشيءَ الكثير .

وهذا الرُّكَام نِتَاجُ ما درسناه في المدارس، ودرسناه في الجامعات من أقوال وأفعال وآمال . . ومِنَ الأب والأم، وأحكام المجتمع . . وأقوال وأفعال الأصدقاء . . وأفكار المفكِّرين الذين قرأنا لهم ؛ بل والجرائد والمجلات ، والأخبار التي نقرؤها ، والحوادث والحكايات التي نسمعها . . هذه الأفكارُ والمفاهيم ، وتلك الآمالُ والآراءُ والتصرفات

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧١٨) . وضعفه الألباني (٧٧١) في «ضعيف الترمذي» .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٠١) ، وصححه الألباني (٥٥٣٧) في «صحيح الجامع» .

يجب - أوَّلًا وقبلَ كُلِّ شيء - أن تعترف بأنها ما زالت فيك ؛ فتقفَ منها مَوْقِفَ المُسْتَرِيبِ الحذِر .

ثم لا يكفي مجرد الاعتراف ؛ بل لابد من عمل على إزالة هذه الرواسب ؛ فإن كثيرًا من الملتزمين يكتفي بمجرد الاعتراف بخطئه وغفلته وجهله وذنوبه ، ثم لا يُغَيِّرُ مِنْ هذا الواقع المَرِير شيئًا . . وتلك مصيبة ثانية .

إخوتاه . .

تذكرونَ قِصَّةَ الصَّحَابِيِّ الذي رأىٰ امرأةً كانت بَغِيًا في الجاهلية ، فما زال يكلِّمُها حتىٰ مَدَّ يدَه إليها ، فقالت : مَهْ ؛ لقد أذهبَ اللَّهُ الجاهليةَ وجاء بالإسلام!! ، فَوَلَّىٰ الرجل ، فأصابَ وجهَهُ الحائطُ فَشَجَّه ، ثم أتىٰ النبيَّ ﷺ فأخبره ، فقال : «**أنتَ عبدٌ أرادَ اللَّهُ بِكَ خيرًا ، إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خيرًا عَجَّلَ له عُقُوبَةَ ذنبِه ، وإذا أَرَادَ بِعَبْدٍ شرًّا أَمْسَكَ عليه بِذَنْبِه حَتَّىٰ يُوَافَىٰ بِهِ يَوْمَ القيامةِ كَأَنَّهُ عِيرٌ**»[1] .

الشاهد : أَنَّ أحدَهم (أي الصحابة) كان إذا وقع في الرِّجْس لم يُسَوِّغه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٨٧) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٩١) : رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال : «بينما نحن مع رسول اللَّه ﷺ وهو يبايع تحت الشجرة وإني لرافع أغصانها عن رأسه ؛ إذ جاء رجل يسيل وجهه دمًا ، فقال له : يا رسول اللَّه هلكت ، قال : «**وما أهلكك؟**» ، قال : إني خرجت من منزلي ؛ فإذا أنا بامرأة فأتبعتها بصري ، فأصاب وجهي الجدار فأصابني ما ترىٰ» . والباقي بنحوه ، ورجال أحمد رجال الصحيح وكذلك أحد إسنادي الطبراني . وقال الشيخ الأرنؤوط : صحيح لغيره .

لنفسه ، لم يُحِلَّهُ لنفسِه ؛ فالمؤمن كما قال رسولُ اللّٰه ﷺ : «**خُلِقَ مُفَتَّنًا تَوَّابًا نَسِيًا ؛ إِذَا ذُكِّرَ ذَكَر**»[١] .

وهذا هو مُرادي منكم في هذا المَقَام ؛ أن تُفَتِّشَ في نفسك : يا تُرَىٰ أهذه توافقُ الإسلام فتتمسكَ بها ، أم تخالفه فتتخلصَ منها . . وكلٌّ منا أعلم وأَدْرَىٰ بما فيه .

ولذلك يجب أن تجلس لتتفحَّص نفسك : ما الذي يوجد عندي من عقائد الشرك؟ ، الظاهر والخفي . . هل عقيدة القضاء والقدر عندي سَليمة «**أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَك ، وأَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَك**»[٢] ، أَمْ أَنَّكَ مِن أصحاب المنطقِ التبريري؟!

وكذلك عقيدة القضاء والقدر في الرزق عند عامَّة أو أكثر المسلمين اليوم . . نحن نعلم جميعًا أن الرَّزَّاقَ هو اللّٰه؛ ولكن هل قلوبُنا حَقًّا مع اللّٰه أم متعلقةٌ بالأسباب؟!

أيضًا التصورات : فطالبٌ في كلية الشريعة يقول : أريدُ أن ألتحقَ بكلية التربية . . لماذا؟ . . يقول : إنَّ أبي يقول لي : ماذا ستتخرج في كلية الشريعة؟! ، أما كلية التربية فتتخرج فيها مُدَرِّسًا للُغة العربية ، أو الفيزياء أو الرياضة . . وهؤلاء صاروا يتمتعون بِدَخْلٍ جيِّد في المجتمع .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٠٤)، وصححه الألباني (٥٧٣٥) في «صحيح الجامع» .

(٢) جزء من حديث ، أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) ، وصححه الألباني (٥٢٤٤) في «صحيح الجامع» .

والآخر يحتجز شَقَّةً لأولاده في «مدينة نَصر»، وأخرىٰ في «المدن الجديدة»، وثالثة في «المهندسين»، وحينما تسأله؛ يقول: أُؤَمِّن لهم حياتَهم.. هل هذا تأمينٌ للمستقبل؟!.. مستقبلُ ولدِكَ الحقيقي أن يكونَ مُتعلِّقَ القلبِ بالله، والذي يرزقك سيرزقه.

هذه عقائد تحتاج إلىٰ تصحيح.. ليس فقط قضية الرزق وقضية المستقبل، إنما قضية الإيمان أيضًا.. و.. و.. فإذا وجدت في نفسك من هذه الجاهليات شيئًا؛ فلابد أن تُقِرَّ بها أوَّلًا، ثم تستعين بالله في أَنْ يُخَلِّصَكَ منها.

الشاهد: أَنَّ أَوَّلَ أساسٍ في التخلُّص من رواسب الجاهلية: هو الاعتراف بأن عندنا أفكارًا، وتصوراتٍ، وآراءً، ومفاهيمَ، ومعتقداتٍ جاهليةً ينبغي التَّخَلُّصَ منها.

فهل أيقنتَ الآن بِأَنَّ فيكَ جاهلية.. وجاهلية كثيرة.. أم أَنَّكَ لا زِلْتَ جاهلًا مكابرًا مغرورًا؟!!.. قِفِ الآنَ لحظة.. وجُلْ بِفِكْرِكَ في رواسِبِكَ السَّوْدَاء؛ لتصلَ إلىٰ «الاعتراف» قَبْلَ أن نَنْتَقِلَ إلىٰ بَقِيَّةِ العِلاج.

❊ ❊ ❊

ثانيًا: الاستعانة وصدقُ اللُّجُوءِ إلىٰ اللَّه

أجمع العلماء علىٰ أنَّ حقيقةَ الخذلان: أن يَكِلَكَ اللَّهُ إلىٰ نفسك، وأنَّ التوفيق أنْ يأخذ اللَّه بيدك؛ ولذلك كان من وصايا النَّبيِّ ﷺ أنْ يَدْعوَ العبد بذلك:

فعَن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ لفاطمة ابنته رضي الله عنها: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تسمعي ما أُوصِيكِ به، أَنْ تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ: يا حَيُّ يا قَيُّومُ برحمتكَ أَستغيث، أَصْلِحْ لي شَأْنِي كُلَّه، ولا تَكِلْنِي إلىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»[1].

قال الحليمي: وهذا تعليمٌ منه لأمته؛ أنه ينبغي كونهم مشفقين من أن يُسلَبوا الإيمان أو التوفيق للعمل؛ فإنَّ من سُلِبَ التوفيق لم يَملك نفسه، ولم يأمن أن يُضيِّع الطاعات، ويَتَّبِعَ الشهوات؛ فينبغي لكل مؤمن أن يكون هذا الخوفُ من همِّه.

فلا تقل: إني أستطيع - إذا أردتُ أن أتخلَّصَ من شيء - أن أتخلَّصَ منه؛ لِأنَّ عندي عزيمة قويَّة.. هنا ستخدعك نفسك، وتذوق مرارةَ الخُذْلان والحِرْمان.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٤٥)، وحسنه الألباني (٥٨٢٠) في «صحيح الجامع».

إخوتاه . .

مَطَالِبُ العبدِ لا يَنالها إلا باستعانتهِ باللّه ، وتَوَكُّلِهِ عليه ، والتوكل عمل القلب - كما قال الإمام أحمد - ، فليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والمعارف ، فلا تظنَّ أنَّك إذا قلت : توكلت علىٰ اللّه واستعنت به علىٰ فعل كذا أو كذا ؛ أنَّ هذا يُعَدُّ توكلًا حقيقيًا ؛ بل لابد أن ينطرح القلب بين يدي الرب كانطراح الميِّت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء ، وإذا صرت متوكلًا علىٰ اللّه مستعينًا به ؛ فلابد أنْ تتبرَّأ من حَوْلِكَ وقوتك ، وتَسْتَرْسِل مع اللّه كما يُريد .

قال سَهْل التُّسْتَرِي : التوكل : الاسترسال مع اللّه مع ما يريد .

ولتعلم أنَّك إذا صرت للّه كما يريد ستجده لك فوق ما تريد ، فثق بوعد اللّه تعالىٰ ، واطمئن إليه ، ولا يتسرب إلىٰ نفسك شكٌّ أو ريبٌ .

ولن تكون مستعينًا باللّه حتىٰ ترضىٰ بأقداره وأحكامه تمامَ الرضي . .

فيا من تريد أنْ يخلصك اللّه من آثار المعاصي والذنوب ، ومن رواسب الجاهلية في القلوب ، لن يستقيم أمرك ، ولن تهنأ بعافية قلبك حتىٰ تَنْزِلَ أقدارُ اللّهِ عليكَ بَرْدًا وسلامًا ؛ فترضىٰ بقدره خيره وشره .

قال بِشْرُ الحافي : يقول أحدهم «توكلت علىٰ اللّه» ، يكذب علىٰ اللّه ؛ لو توكَّلَ علىٰ اللّه ؛ رَضِيَ بما يفعلُ اللّه .

وسُئل يحيىٰ بن معاذ : متىٰ يكونُ الرجلُ مُتوكِّلا ؟ ، فقال : إذا رَضِيَ باللّه وكيلًا .

فشرط صحة العلاج أنْ تترك تدبير نفسك ، وأن تنخلع من حَوْلِكَ وقوتك ، وأن تعلم أنَّ الحق سبحانه يعلم ويرىٰ ما أنت عليه ، وما هو فيك ، وهو قادرٌ علىٰ أنْ يخلصك من هذه الآفات . . فاصدق اللَّه يصدقك ، اصدقه في طلب النجاة حتىٰ يُنَجِّيَكَ ويأخذَ بيدك .

وإذا وجدت الأمر خلاف ذلك في الواقع ؛ فاعلم أنَّك لم تُخْلِص ؛ فإنما يتعثرُ مَنْ لم يُخْلِصْ ، وأنَّ هذا دليلُ عَدَمِ تمام الصدق . . فتعلَّقْ باللَّه في كل حال ؛ فشرط التصفية : الذُّلُّ والانكسار للعزيزِ الجَبَّار .

إخوتاه . .

إذا نَبَحَتْكَ كلابُ الراعي ، فلا تطلب دَفعها عنك بنفسك ؛ بل استعن بالراعي يَكْفِكَ أمرَها . . اللهم لا تَكِلْنا إلىٰ أنفسنا طرفة عينٍ ، ولا أقلَّ من ذلك . . فافهم طبيعةَ النفس وما جُبِلَتْ عليه وأدرك حدودَها . . فهي لن تُنجِّيك . . استعانتك باللَّه عليها تنجِّيك . . فاعرف قدر نفسك وتأمل شأنها جيدًا ؛ فإنما أنت عبدٌ ضعيفٌ مُحتاجٌ إلىٰ اللَّه علىٰ الدَّوَام .

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ :

«سبحان اللَّه ! ، فىٰ النفس كِبْرُ إبليس ، وحسدُ قابيل ، وعُتُوُّ عاد ، وطغيانُ ثمود ، وجُرأةُ نَمرُود ، واستطالةُ فرعون ، وبغيُ قارون ، وقِحَةُ هامان ، وهوىٰ بَلْعَام ، وحِيَلُ أصحاب السبت ، وتمرُّدُ الوليد ، وجهلُ أبي جهل ، وفيها من أخلاق البهائم حرصُ الغراب ، وشَرَهُ الكلب ،

ورُعُونة الطاووس، ودناءةُ الجُعْل[١]، وعقوقُ الضَبِّ، وحقدُ الجمل، ووُثُوبُ الفهد، وصولةُ الأسد، وفسقُ الفأرة، وخُبْثُ الحَيَّة، وعَبَثُ القرد، وجَمْعُ النملة، ومكرُ الثعلب، وخِفَّةُ الفَراش، ونومُ الضَبْع؛ غيرَ أنَّ الرياضةَ والمجاهدةَ تُذْهِبُ ذلك كُلَّه.

فمَنْ استَرْسَلَ مع طبعه فهو من هذا الجُند، ولا تَصلح سلعته لعقد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]، فما اشترىٰ إلا سلعةً هذَّبها الإيمان، فخرجتْ من طبعها إلىٰ بلدِ سُكَّانُهُ التائبون العابدون، سلِّمْ المَبيع قبل أن يَتْلَفَ في يدِك، فلا يقبله المشتري، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريَها، فسلِّمْها ولك الأمان من الرَّد، قَدْرُ السلعة يُعْرَف بقدر مشتريها، والثمنِ المبذولِ فيها، والمنادي عليها، فإذا كان المشتري عظيمًا، والثمنُ خطيرًا، والمنادي جليلًا؛ كانت السلعةُ نفيسة»[٢].

أخي..

تُرىٰ هل تترك لنفسٍ - هذا شأنُها وتلك صفاتُها - العَنانَ فتَجْمَح؟، أم تبيعها لباريها الذي هو أعلم بما فيها فيصلِحَها ويُهَذِّبَها؟، فاستسلم وأذعن واخضع لربك، واستعن به وحده، قال رسولُ اللَّه ﷺ: **«إذا سألت فاسألِ اللَّه، وإذا استعنتَ فاستعِنْ باللَّه»**[٣].

---

(١) الجُعْلُ: حيوانٌ كالخنفساء، يَكْثُر في المواضع النَّدِية. المعجم الوسيط.

(٢) الفوائد، ص (٧٤-٧٥)، ط دار الكتب العلمية.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني (٢٠٤٣) في «صحيح الترمذي».

واعلم أنه لن يُنجِيك إلا اللَّه ، ولن تتخلص من آفاتك إلا بمشيئته وقدرته ، وأنَّ الأسباب مهما تَضافَرَتْ لا تؤثِّرُ إلا بإذن اللَّه ، فمهما وَصَفَ لك الأطباء من الأدوية لن تنتفع بها ، ولن تؤتي ثمرتها إلا بحول اللَّه وقوته ؛ فأنزل ما بك إلىٰ اللَّه ، وتعلَّم الشكايةَ لرب العالمين ؛ ليَكْفِيَك ويعينَك .

قال رسولُ اللَّه ﷺ : **«مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بالناسِ ؛ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُه ، ومَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا باللَّهِ فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَو آجِلٍ»**[1] .

يقول ابنُ القيِّم - عليه رحمةُ اللَّه - :

«كيف يَسْلَمُ مَنْ له زوجة لا ترحمُه ، وولدٌ لا يَعْذُرُه ، وجارٌ لا يأمنُه ، وصاحبٌ لا ينصحُه ، وشريكٌ لا يُنْصِفُه ، وعَدُوٌّ لا ينامُ عَنْ مُعَادَاتِه ، ونفسٌ أمَّارَةٌ بالسُّوء ، ودُنيا مُتَزَيِّنة ، وهَوَىٰ مُرْدٍ ، وشهوةٌ غالِبَةٌ له ، وغضبٌ قاهِر ، وشيطانٌ مُزَيِّن ، وضعفٌ مُسْتَوْلٍ عليه . فإن تَوَلَّاهُ اللَّهُ وجَذَبَهُ إليه ؛ انقهرَتْ لهُ هذه كُلُّها . وإنْ تَخَلَّىٰ عنهُ ووَكَلَهُ إلىٰ نفسِه ؛ اجتمعتْ عليهِ فكانتْ الهَلَكَة»[2] .

أيُّها الحبيب . .

انتبهْ . . إنَّكَ وحدَكَ لن تستطيع أن تفعل شيئًا مُطْلَقًا إلا بإذن اللَّه

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٦) ، وصححه الألباني (١٨٩٥) في «صحيح الترمذي» .
(٢) الفوائد ، ص (٨٠) .

ومشيئته وتوفيقه؛ فباللَّه كُلُّ شيءٍ يَسيرٌ وهيِّن.. إنك مع اللَّه وباللَّه وللَّه؛ تستطيع أن تُغيِّرَ كلَّ شيء، وبعيدًا عن اللَّه لن يكون شيءٌ علىٰ الإطلاق.. فليكن يقينك أنك باللَّه سيكون ما لا يتصوره وما لا تتخيله..

إنَّ الذي يرىٰ ماضيَ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه في حربه للإسلام؛ لَيَعْجَبُ أَشَدَّ العَجَب؛ فمن كان يتصور أن يُسْلِم؟!؛ ولكن مَنْ يهد اللَّه فلا مُضِلَّ له.. فإيَّاكَ والثقةَ بالنفس دُونَ الثقةِ باللَّه.

واعلمْ - أيها الحبيبُ المُحِبُّ - أنَّ هذا الكلام لا ينافي الأخذ بالأسباب.. فخذ بالأسباب كلِّها ولا تَدَعْ سببًا واحدًا إلا أخذتَ به؛ فالأخذُ بالأسبابِ لا يُنافي التوكل.

ولكن ما أُحذِّرُكَ منه، وأُؤَكِّدُ عليه: ألا يتعلقَ قلبُك بالأسباب؛ وإنما ينبغي دائمًا أن تعلمَ أنَّ هذه الأسباب قد تُؤتي نتائجها، وقد لا تُؤتي؛ فكُلُّ شيءٍ بقَدَرِ اللَّه تعالىٰ.. فخذ بالأسباب وكن بها مستمسِكًا، وعليها حريصًا؛ ولكن دون تَعَلُّق قلبِكَ بها.

وإنما تأخذ بالأسباب وتسألُ اللَّهَ القَبُولَ والثَّمرة.. فليكنْ ذلك واضحًا ومَعْلُومًا.. هذا قَصْدِي؛ فتأمَّل.

يقولُ ابنُ القَيِّم - عليه رحمةُ اللَّه -:

«ماذا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ مَنْ نَاصِيَتُهُ بِيَدِ اللَّه، ونفسُهُ بيدِه، وقلبُهُ بينَ

إِصْبَعَيْنِ مِنْ أصابعِه يُقَلِّبُهُ كيف يشاء، وحياتُه بيدِه، وموتُه بيدِه، وسعادتُهُ بيدِه، وشقاوتُهُ بيدِه، وحركاتُهُ وسَكَنَاتُه، وأقوالُهُ وأفعالُهُ بإرادتِهِ ومشيئتِه؛ فلا يتحرَّكُ إلا بإذنِه، ولا يَفعلُ إلا بمشيئتِه.

إنْ وَكَلَهُ إلىٰ نفسِهِ؛ وَكَلَهُ إِلَىٰ عَجزٍ وضَيْعَةٍ وتَفريطٍ وذَنْبٍ وخطيئة، وإنْ وَكَلَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ وَكَلَهُ إِلَىٰ مَنْ لا يَملِكُ لَهُ ضَرًا ولا نَفْعًا ولا مَوْتًا ولا حَيَاةً ولا نُشُورًا. وإنْ تَخَلَّىٰ عَنْهُ؛ اسْتَوْلَىٰ عليهِ عَدُوُّه وجَعَلَهُ أَسيرًا لَه.

فهو لا غِنَىٰ لَهُ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ بل هُوَ مُضطَرٌ إِلَيْهِ علىٰ مَدَىٰ الأَنْفَاس، في كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِه، بَاطِنًا وظَاهِرًا.

فَاقَتُهُ تَامَّةٌ إِلَيْه؛ ومَعَ ذلك فهو مُتَخَلِّفٌ عنه، مُعْرِضٌ عنه، يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِمعصيتِهِ مَعَ شِدَّةِ الضرورةِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْه. قَدْ صَارَ لِذِكْرِهِ نَسِيًا، واتَّخَذَهُ وَرَاءَهُ ظِهْرِيًا. هذا: وإِلَيْهِ مَرْجِعُه، وبَيْنَ يَدَيْهِ مَوْقِفُه»[1].

أَخي ..

الْجأْ إلىٰ اللّه؛ فإنه لا مَلْجأَ منه إلا إليه .. انْطَرِحْ علىٰ عَتَبَاتِ بَابِه، وابْكِ إليه .. ادْعُهُ ليَكشف عنك .. تضَرَّعْ إليه في الثُلُثِ الأخير من الليل، واطلبْ منه أن يُزيل عنك هذه الرواسب، ويعينك علىٰ التخلصِ منها .. نادِهِ وقُلْ: يا رب يا رب .. يا اللّه .. يا اللّه .. يا حيُّ يا قيُّوم:

---

(١) الفوائد، مكتبة المؤيَّد بالطائف، ط٢، ١٩٨٨م، ص (١٠٢ - ١٠٣)، بتحقيق: بشير محمد عيون. وهو تحقيقٌ طَيِّبٌ عليكَ به.

«يا مقلِّبَ القلوبِ والأبصار، ثَبِّتْ قلبي علىٰ دينِك، يا مُصَرِّفَ القلوب والأبصار، صَرِّفْ قلبي إلىٰ طاعتك».

قُلْ: «اللَّهُمَّ أَسلمتُ وجهيَ إليك، وفَوَّضْتُ أمريَ إليك، وألْجأْتُ ظَهريَ إليك؛ رغبةً ورَهْبَةً إليك، لا مَلْجأَ ولا مَنجىٰ منك إلا إليك، اللَّهم آمنتُ بكتابِكَ الذي أَنْزَلت، وبنبيِّكَ الذي أَرْسَلْت».

«اللَّهُمَّ لكَ الحمد؛ أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ، ولك الحمدُ؛ أنتَ قَيِّمُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنّ، ولكَ الحمد، أنتَ ملِكُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ، ولكَ الحمد؛ أنتَ الحقُّ، ووَعْدُك حَقٌّ، ولِقَاؤُك حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقّ، والنَّارُ حَقّ، والسَّاعةُ حقّ، والنبيون حقٌّ، ومُحَمَّدٌ ﷺ حقٌّ.

اللَّهُمَّ لكَ أَسْلَمْت، وعليكَ توكَّلْت، وبكَ آمَنْت، وإليكَ أَنَبْت، وبكَ خَاصَمْت، وإليكَ حَاكَمْت، أنتَ ربُّنا، وإليكَ المصِير؛ فاغفرْ لي ما قَدَّمْتُ، وما أَخَّرْت، وما أَسْرَرْتُ، وما أَعْلَنْتُ، ومَا أنتَ أَعْلَمُ بهِ مِنِّي؛ أنتَ المُقَدِّمُ، وأنت المُؤَخِّرُ، أنتَ إلَهي لا إلهَ إلَّا أنت، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بِك».

وهكذا: تَسْتَعِينُ باللَّه دائمًا.. وصَادِقًا في اللُّجإ والفِرَارِ إليه سبحانه.. واضعًا بين عينيك قولَ اللَّه تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] أي الْجَأُوا إليه.

وإيَّاكَ - حبيبي - والادِّعَاء . . إني أريد منك الجَزْم والحَزْم والعَزْم . . علىٰ الصدق في هذا اللُّجُوء إليه سبحانه وتعالىٰ . . فإنك إذا صدقتَ مع اللَّه ؛ آل أمرُكَ إلىٰ كُلِّ خير : قال سبحانه تعالىٰ : ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١] .

فاستعن باللَّه واعزم واصدق . . توكَّلْ علىٰ اللَّه - حبيبي في اللَّه - ؛ **فقد حَانَ وقتُ الجِدّ . . هيا . . هيا . .**

❖ ❖ ❖

ثالثًا : الاستعداد والقابلية

إخوتاه . .

هل أنتم علىٰ استعدادٍ للقيام بمجموعة من التضحيات الخطيرة في سبيل التخلص من هذه الرواسب؟ . . إنه شرط : لابد من التضحية . . أمَّا أن تلتزم وتريد أن تظل محتفظًا بكل ما تحبه وتهواه ؛ فأنت واهم .

لابد من التضحية ؛ أو علىٰ الأقل أن يكون عندك استعداد حقيقي لأن تضحي بكل شيء ؛ من أجل رضا ربك سبحانه وتعالىٰ ؛ وإلا فلن يُمكنك التخلص من جاهليتك القديمة .

واعلم - أيها الحبيب - أنَّ الرواسب السيئة تتفشىٰ وتنتشر ؛ لذا فهي خطر .

أَرَىٰ خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ نَارٍ وَأَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُذْكَىٰ وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ

فلا تَسْتَهِنْ بتلك الرواسب ، واعزِمْ علىٰ التخلص منها بكُلِّ السُّبُل ؛ ولكن شرط ذلك : التضحية ببعض الوقت والجُهْد والمال . . التضحية بشيءٍ من وقتِ النوم والراحة . . التضحية بكرامتك المزعومة التي تجعلك تتكبر وتغتر . . التضحية بالمنصب والهَالَةِ المحيطةِ بشخصيتِك .

إخوتاه . .

هل أنتم مُدركون - حقيقةً - حجمَ الخطر الذي يُداهِمُكم إنْ استمرَّ

بكم الحال علىٰ ما أنتم عليه.. بأن بَقِيَتْ في بواطنكم بأفكاركم وأحوالكم رواسب تلك الجاهلية المَقِيتة.. فَتُفْسِدَ دينكم؛ فلا تستقيمَ حياتكم؟!.. ثم تظنون أنكم تُحسنون صُنعًا؟!

لابد أن تُفيقُوا - أيها الإخوة -؛ فإلىٰ متىٰ هذا الرُّقاد وهذا المَوَات؟!.. انتبهوا.. تيقَّظوا.. تحرَّكوا.. تَخلَّصُوا.

نعم: لابد من استعداد، قال اللَّهُ تعالىٰ: : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦].. إذا أردت أنْ تخرج من دائرة الجاهلية إلىٰ الإسلام والالتزام؛ فلابد أنْ يكون عندك حافز، واستعداد داخلي، يَدفعك للعمل والبذل والتضحية.

كيفية إثارة الحافز .. وتكوين الاستعداد:

أوَّلًا: بالخوف:

اعلم أنَّ الخَوفَ من أكبر محفِّزات الهمم، كما قال السلف: الخوف أفضل سائقٍ إلىٰ اللَّه تعالىٰ.

فإذا وجدت في نفسك تكاسلًا، وعدمَ رغبةٍ في الإصلاح، وإلْفًا للمعاصي ووَحْلِها، وعدمَ أَنَفَةٍ منها، واسْتِمْرَاءً لحياةِ الباطل، إذا وجدت همتك دانية، والفتور يدخلُ عليك من كل بابٍ حين تَهُمُّ بالإصلاح، وأَلْفَيْتَها لا تبغي أنْ تضحي بهذه المعيشة الضَّنْك، ووجدتها تقول لك: لماذا كل هذا العنت؟!، وما الذي أجْرَمْتَ حتىٰ تَبذُلَ مُهجَتَك وتَبْخَع نفسك؟!.. رواسب جاهلية!!.. معاصٍ وذنوب!!.. تقول لك

نفسُك: لا تُضَخِّمْ الأمور، أما ترىٰ فلانًا وفلانًا يعيشون ويَمْرَحُون ويُغْدَقُ عليهم بالنِّعم؛ مع أنهم رُبَّمَا اجترحوا من السيئاتِ ما هو أكثر منك؛ فلماذا كُلُّ هذا الظُّلْمِ لنفسك؟!.. إذا وجدت في نفسك ذلك - وإنكَ واللهِ واجدٌ لا مَحَالَةَ -؛ فقل لها:

تاللهِ إنْ سِرْتُ وراءكِ فسَتُرْدِيني؛ فإنَّك تَهْنَئِينَ براحةِ ساعة وتَنْسِينَ عذابَ الخُلد، فما عساك حينها تفعلين؟، لماذا لا تنظرين لعيبك؟!، أما تعلمين أنَّ نفسًا بهذه الحال لا تصلح أنْ تنعم بمِنَنِ ذي الجلال.

ومَالَكِ مغرورةٌ بلُطْفِ الله عليك؟!!، أَمَا تعلمينَ أنَّ بطشَهُ شديد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٣]، وبأْسَه لا يُرَدّ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

لا أحدَ عزيزٌ عليه إن عصاه، ولو كان نبيًا مرسلًا: قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

إخوتاه..

اللهُ هُوَ القهّارُ جَلَّ جلالُه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، وهو الغنيُّ عنّا وعن أعمالنا الصالحة؛ ولكنه يحب الطاعة وأهلها: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧].

فالذي يعامله فقط علىٰ صفات الجمال: من رحمةٍ وعفوٍ وجُودٍ

ولُطفٍ وإنعام؛ فقد عَطَّل صفات جلاله: من عظمةٍ وكبرياءٍ وقَهرٍ وجَبَرُوت.. أوَلَيسَ هو المُخبرُ عن نفسه بذلك؟!، فأمرنا أن نحذر سطوته وعقابه، فقال عزَّ مِن قائِل سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وأمرنا بخشيته وتقواه؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وأمرنا أن نَعْلَمَ عنه هذا؛ فقال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

ثمَّ أنتَ بعد هذا لا يتحرك فيك ساكن، ولا تعلو لديك همَّة.. أما تخشىٰ نزول النِّقم.. أمَا تخاف من فجأة الموت وحسرة الفوت.. أما تَرْتَعِدُ فَرَائِصُك؟! فلعلك تكون ممن يعاملهم اللّه بالاستدراج، قال رسولُ اللّه: «**فإنَّ أَحَدَكُم لَيعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّىٰ لا يَكُونُ بينَها وبينه إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عليهِ الكِتابِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَ النَّار، وإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ ما يَكُونُ بينَها وبينَهُ إلا ذِرَاع، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتاب، فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلَهَا..**»[(١)].

فيا لَيْتَنَا نعرفُ عظمةَ ربِّنا، ونعرفُ شِدَّة عذابه، وعِزَّته وقَهرَه.. يا ليتنا نعرف أنه غيورٌ علىٰ أن تُنتهك محارِمُه، قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللّه؛ ولِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَن**»[(٢)].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

ثانيًا : بمعرفةِ حقيقةِ المَصِير :

مِمَّا يُثير الهِمَم ويحفِّزُها أيضًا ، ويساعد في توليدِ الاستعداد والقابلية أن تعلم حقيقة المصير .. إمَّا جنَّة وإمَّا نار .. فتعرف ما النار ، وتَشْهَد هولها وشدتها وعَظَمتَها وبُعْدَ قَعْرِها .. وحينئذٍ كيف باللَّه يهدأ لك جَفن - خاصةً وأنت تعصاه؟! .. كيف بمن يسمع عنها وعن عذابها ثم لا يعمل اتقاءً لها؟!

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**يُؤْتَىٰ بِجهنمَ يومئذٍ لَهَا سبعون أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سبعون أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها**»[1] .

أشدُّ ما شعرتَ به من حَرِّ الصيف ، أو زَمْهَرِيرِ الشتاء فقط مجرد نَفَس من أنفاسها ؛ ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «**اشتكتِ النارُ إلىٰ ربِّها فقالت : يا ربِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لها بِنفَسَيْنِ ؛ نَفَسٍ في الشتاء ونَفَسٍ في الصيف ، فهو أَشَدُّ ما تَجِدُونَ من الحَرِّ ، وأشدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِير**»[2] ، وهو البَرْدُ الشديد .

ونارُ الدنيا جزءٌ من سبعين جزءًا منها ؛ ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «**نَارُكُم هذهِ التي يُوقِدُ ابنُ آدم جزءٌ مِنْ سبعينَ جزءًا مِنْ نارِ جَهَنَّم**» ، قيل : يا رسول اللَّه ، إن كانت لكافية؟! قال : «**فإنها فُضِّلَتْ عليها بِتسعةٍ وسِتين جزءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**»[3] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٣٢٦٠) ، ومسلم (٦١٧) .

(٣) متفق عليه ، البخاري (٣٢٦٥) ، ومسلم (٢٨٤٣) .

وأَشَدَّ ما تَجِدُ مِنْ شقاءٍ وبلاءٍ؛ لا يُقَدَّر بغَمْسَةٍ فيها؛ فعن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُؤتَىٰ بأَنعَمِ أهلِ الدنيا من أهلِ النارِ يومَ القيامة فيُصْبَغُ في جهنَّم صَبْغَةً، ثم يُقالُ له: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ خيرًا قط؟، هل مَرَّ بك نعيمٌ قط؟، فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ويُؤتَىٰ بأشدِّ الناس بُؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبَغُ في الجنة صَبْغَةً، فيقالُ له: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ بُؤسًا قط؟، هل مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قط؟، فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ما مَرَّ بي بُؤسٌ قط، ولا رأيتُ شِدَّةً قط»[1].

وانظر إلىٰ أدنىٰ عذابها: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أدنَىٰ أهلِ النارِ عذابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ من نارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِن حَرارةِ نَعْلَيه»[2].

إخوتاه..

النار بالغةُ العُمْق: عن عُتبةَ بنِ غزوَان أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الصَّخْرَةَ العظيمةَ لَتُلْقَىٰ من شَفِيرِ جَهنم فتَهوِي بها سبعين عامًا ما تُفضِي إلىٰ قَرارِها»[3].. سلِّم يا ربِّ سَلِّم.

وهي لا تَشْبَع: قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وعن أنس بن مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَزَالُ جهنَّمُ يُلقَىٰ فِيها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢١١).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٧٥)، وصححه الألباني (١٦٦٢) في «صحيح الجامع».

وتقول: «هَلْ مِن مَّزِيدٍ»، حتىٰ يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمُه، فيَنْزَوِي بعضُها إلىٰ بعض، وتقولُ: قط قط، بعزَّتك وكرمِك، ولا يَزَالُ في الجنةِ فَضْلٌ حتىٰ يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ فيُسْكِنُهُم في فَضْلِ الجنة»[1].

طعامُ أهلِها الزَّقُّوم، وما أدراك ما الزَّقُّوم!: عن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لو أَنَّ قَطْرَةً من الزقومِ قَطَرَتْ في دارِ الدنيا، لأَفْسَدَتْ علىٰ أهلِ الدنيا مَعَايِشَهُم، فكيفَ بِمَنْ تكونُ طَعَامَه؟!»[2].

إخوتاه..

طاعةُ اللَّه أهونُ علينا من النار.. فاعرفوا مصيركم وحاسبوا أنفسكم قبل أن يفوت الأوان.. ابكوا علىٰ خطاياكم قبل أن تبكوا غدًا دَمًا.

قال رسولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ أهلَ النارِ لَيَبْكُونَ، حتىٰ لو أُجْرِيَتْ السُّفُنُ في دُمُوعِهِم جَرَتْ، وإنَّهمُ لَيَبْكُونَ الدَّم»[3].

كان مالك بن دينار يقول: لو وَجَدْتُ أعوانًا لفَرَّقْتُهم يُنادونَ في سائرِ الدنيا كلِّها: أيها الناس، النار.. النار.

وكان عطاء السُّلَمِي يقول: إذا ذُكِرَتْ جهنم؛ ما يَسَعُنِي طعامٌ ولا شراب.

وكان طاوس يُفْرَشُ له الفُرُشُ، فيضطجع وَيَتَقَلَّىٰ كما تَتَقَلَّىٰ الحَبَّةُ

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨٤٨) مختصرًا، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، وضعفه الألباني (٤٨١) في «ضعيف الجامع».

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٥)، وحسنه الألباني (٢٠٣٢) في «صحيح الجامع».

في المِقْلَىٰ ، ثم يَثِبُ فيدرجه ويستقبل القبلة حتىٰ الصباح ، ويقول : طَيَّرَ ذِكْرُ جَهَنَّمَ نَوْمَ الخائفين[(١)] .

أمَّا الجنَّة . . فسَلُوا عنها رسولَ اللَّه ﷺ . . واقرءوا عنها سورة «**الإنسان**» ؛ ففي هذه السورة جاءت أطول صورة حسية لنعيم الجنة في القرآن كله ، وتليها مباشرة سورة «**الواقعة**» . أما النعيم المعنوي فأمثال قول اللَّه تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] .

سَلُوا عن الجنة سورة «**الرحمن**» وسورة «**الزخرف**» و«**محمد**» و«**المطففين**» . . سَلُوا عنها القرآن . . سلوا عنها الصحابة . . سلوا عنها العبَّاد والزهَّاد . . الذين طاروا شَوْقًا إليها .

الجَنَّةُ - إخوتاه - سلعةُ الرحمن . . أجمل ما فيها أن ترىٰ اللَّه . . وأن يتكلم معك . . الجنة . . الكلام عنها لا ينتهي . . والشوقُ إليها لا يَنقضي . . فاجعلها علىٰ بالكَ دائمًا . . اقرأ كُلَّ ما وَرَدَ فيها وداوم علىٰ ذلك . . فتخيَّلْهَا وتصوَّرْ نعيمَها ، ومدىٰ سعادةِ أهلِها ، والرَّاحةِ التامَّةِ من كُلِّ الآلام والهموم والمشاكل والأحزان . . ثم الخلود . . وما أدراك ما الخلود ! ! . . كُلُّ ذلك يستثير عزيمتك ويُحرِّك سواكنك ؛ للاستعداد لِكُلِّ خيرٍ وبِرٍّ وإصلاح .

إخوتاه . .

إنَّ استثارة الهمم الفَيْنَةَ بعدَ الفَيْنَةِ أمرٌ لابد منه ، وعلاجٌ ناجعٌ للفتور ؛ فالتحفيز المستمر بالخوف والرجاء . . بالجنة والنار . . يُجبرُ النفس علىٰ

---

(١) أنصح إخوتي الشباب بقراءة كتاب «**التخويف من النار**» لابن رجب الحنبلي رحمه الله .

البذل وعدم السكون . . ثم تقديرك للموقف على النحو الصحيح ، مِن شأنِهِ أن يُحفِّزَك للقيام بأيِّ تضحيةٍ مهما كانت ؛ للتخلص مِنْ أَسْرِ تلك الرواسب الجاهلية التي تَأْكُلُ دينك ، وتُضْعِفُ إيمانَك ، وتُودِي بك إلى الهلاك .

القَابلِيَّةُ للتَّغْيِير . . والرَّغبةُ في التَّخْلِيَة :

وأيضًا لابد أن تكون لك نَفْسٌ طيِّعةٌ قابلةٌ للتغيير . . وهذا أول درس ينبغي أن تتعلمه حين تكون مسلمًا حقًّا ؛ فمعنى الإسلام : الاستسلام والخضوع والانقياد لأوامر اللَّه تعالى ، فلابد من الإذعان لشرع اللَّه تعالى ، فتكونُ عندك قابليةٌ لتغيير هذه الجاهليات ، ورغبةٌ مُلِحَّة للتَّصْفِيَة والتَّخْلِيَة والتطهير والتَّزْكِيَة .

ومنشأ القابليةِ للتغيير والرغبةِ في التصفية : أن تكون على يقينٍ جازمٍ بأنَّ شرعَ اللَّه فيه تمامُ مصلحتِكَ وسعادتِكَ وتغييرِ حالِك . . أن تكون واثقًا من أنه هو الحق . . . وأنه وحدُهُ فيه عِلاجَك . .

نعم : العبودية : أن تَقبلَ كل ما جاء عن اللَّه ، ثِقَةً باللَّه الذي رَضِيتَهُ ربًّا . . فعِلْمُكَ المُسبَّق بأنَّ كُلَّ ما جاء مِن عنده سبحانه فيه جَلْبٌ للمصلحة ودَفْعٌ للمَفْسَدة . . عِلْمُكَ المُسبَّقُ هذا يَجْعَلُك تُذْعِن وتستسلم . . فتكونَ نفسُك طَيِّعَةً مُنْقَادَةً مِطْوَاعَة .

إذًا فشأنُ صاحبِ هذه النفس المِطْواعة ألا يجادل ، وألا يتعلَّل ، وألا يتفلسف ، وألا يُعْرِض : قال تعالى : ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾

أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٢].

يُخبَرُ بالحقِّ فيُذْعِنَ له . . إذا سَمِعَ : قال اللَّه ، قال رسولُ اللَّه ؛ تراه يَطِيرُ فَرَحًا : لبيّك يا رَبِّ وسَعْدَيك . . ذليلٌ لأمرِ المَلِك جَلَّ جلالُه . . يتأثر به ، ويخضع له ، ويَحِنُّ إليه : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٤].

إخوتاه . .

هذا شرطٌ أساسٌ في العلاج . . أَنْ تُثيرَ عزيمتَك ، وترفع هِمَّتك . . بالخوفِ من اللَّهِ ومن سوءِ المصير والمُنقَلَب ، والحرمان من الجنَّة . . بذلك تتهيَّأُ وتستعِدُّ للبَذْل ثُمَّ تُطوِّع نفسَك ، فتُخْضِعُها لِتَنْقادَ وتَسْتَسْلِم لأوامرِ اللَّهِ ونواهيه ؛ لِتَقْبَلَ هذه الحياةَ الجديدة . . وبهذه القابلية وذلك الاستعداد فتَنْفُضُ عنك هذه الرَّواسب القذرة ، وتبدأ في السير .

فهيَّا انطلق . . انطلق وتَوَكَّلْ على اللَّه . . قال سبحانه : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]

* * *

بداية العلاج

(وقفة مع النفس)

فِي ضَمِيرِي دَائِمًا صَوْتُ النَّبِي

آمِـرًا : جَاهِـدْ وكَابِـدْ واتْعَـبِ

صَائِحًا : غَالِبْ وطَالِبْ واذأَبِ

صَارِخًا : كُـنْ أَبَـدًا حُـرًّا أَبِـي



بداية العلاج : وقفة مع النفس

إخوتاه . .

في قضية التخلص من رواسب الجاهلية التي شغلتنا في كل هذا الكتاب الطويل ؛ حاولنا أن نَدُلَّك - أيها الحبيبُ المحب - كيف تقتلع الفجور . . وباستكمال الكتاب ستعرف كيف تُعْلِي جانبَ التقوىٰ . . ولكنَّ هذه الخطوة التي سنتكلمُ عِنها الآن هي أهم وأخطر هذه النقاط علىٰ الإطلاق ؛ فإنه بعد الاستعداد والقابلية لابد من وقفةٍ مع النفس .

قال اللّه سبحانه وتعالىٰ : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] .

قال العلماء : ﴿أَمْشَاجٍ﴾ تعني : أخلاط . . وهذه الأخلاط التي خُلِق منها الإنسان تكوَّنت منها شخصيتُه ، وتشكَّلت منها نفسيته ، وتصوَّرت منها صورته .

قال تعالىٰ : ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ . . هذه الأمشاج - الأخلاط - التي تشكلت منها شخصية العبد ابْتُلِيَ العبد - يعني امتُحِنَ واختُبِرَ - أن يصوغها صياغةً زاكيةً بحيث تتكامل تلك الصفات لنفسه فتدُلَّهُ علىٰ الخير وتعينه عليه . . بمعنىٰ : أنَّ الإنسان خُلِقَ في الأصل ضعيفًا مُبتلَىٰ بهذا الضعف ، ودَلَّهُ اللّه عَزَّ وَجَلَّ كيف يتقوَّىٰ :

قال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣].

فافهم القضية إذًا: أنّك أمشاج.. أخلاط في النفسية.. وفي الأخلاق.. وفي الهِمَّة.. وفي القلب.. وفي العقل.. وفي العمل.. وفي الأمل.. وفي الجسم.. أخلاط في كل ذلك.. خُلِقَتَ مختلطًا خيرًا بِشَرٌ.. وابتُليتَ أن تُطَهِّرَ نفسَك من هذه الأخلاط؛ فتُهذِّب هذه الأخلاق، وتُشَذِّبَ هذه الأفكار، وتضبِط تلك الهِمم؛ لتكون العبدَ المُرَاد.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].. هذا مجملُ القضية بمنتهىٰ الصراحة والوضوح: أنَّ في النفس فجورًا وتقوىٰ.. والسعيدُ كُلُّ السعيد مَنْ استطاع أن يُزكِّي نفسه بتغليب التقوىٰ علىٰ الفجور.. ولكن كيف؟!.. هذا هو المحَكّ.

إذًا لابد - كما يقول العلماء - من وقفةٍ مع النفس للتأمل فيها.. تتأمل في نفسك كل شيء.. وقفة حقيقية لا صورية ولا وهمية.. إنها وقفةٌ جادّةٌ متأنية.. لا تجعلْها شكلية؛ وإنما وقفة فعلية.

إنَّ كثيرًا منا قد مَضَتْ في حياته هذه السنين الطِّوال؛ ولم يَتَسَنَّ له - ولو مرّة - أن يواجه نفسه تلك المواجهة الصَّرِيحةِ الحاسمة الفاصلة التي أنصحُ بها.

وكثيرًا ما أقول: قف مع نفسك، واجلس مع تلك النفس هناك، وقل لها: يا نفسُ ماذا تريدين؟.. الجنة أم النار؟!.. إنه سبيلٌ واحدٌ منهما!

أَذْكُرُ منذ فترةٍ قريبة أنه دُعِيَ أحدُ الأثرياء إلىٰ الالتزام فالتزم وهو يبلغ من العمر خمسين، أو إحدىٰ وخمسين، ومنذ التزم وهو يَقطع أشواطًا عديدة في طلب العلم وحفظ القرآن، وعمره في الالتزام عامانِ فقط، وكذلك قطع أشواطًا في الدعوة، وأشواطًا في التربية.. سبحان الله!

تعجبتُ وقلت: إذًا لِمَ نرىٰ حال الشباب هكذا؟!.. منذ أكثر من عشر سنوات ونحن نَتَبَارَىٰ فيهم؛ ولكن بلا فائدة!!.. أليس هذا موقفٌ يحتاج أن نتوقف عنده؟!.. أليس قد مضىٰ علينا في الدعوة المستمرة سنوات وسنوات؟!.. بذلنا فيها الغالي والنفيس.. فأين الثمرة الناضجة؟!.. وأين النتيجة الفَعَّالة؟!

قلت: هذا رجلٌ مَلَّ الدنيا وعرف ما فيها؛ بل كرِهَهَا، فلمَّا دخل الالتزام دخل مندفعًا دون التفاتٍ أو ترددٍ بين الدنيا والآخرة.. أما شبابنا فدخلوا إلىٰ الالتزام بقَدَمٍ إلىٰ الجنة وقدمٍ إلىٰ النار.. قدم في الدنيا وقدم في الآخرة!!.. عينٌ علىٰ الدنيا، وعينٌ علىٰ الآخِرة.. تسأله: أي الدارينِ تريد؟.. فيقول: الاثنتين.. إنه مخادعٌ يخدع نفسه، وهو لا يريد الاثنتين؛ إنما يريد الدنيا، وإن جاءت الآخرة عَرَضًا فلا بأس!

وقد أخبر الله تعالىٰ الصحابة أنَّ هذا كان سببًا في هزيمتهم يوم أحد؛ فقال سبحانه وتعالىٰ وجَلَّ شأنه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

نعم : إذا دخلَتْ الدنيا أفسدتْ الآخرة . . وقد وجدنا مَنْ يعمل بعملِ الآخرةِ يريد الدنيا ؛ بل ويبيع دينه طلبًا للدنيا . . ولهذا يجب أن تقف مع نفسك وقفةً جادَّة صَارِمَة .

وبمنتهىٰ الوضوح ، أنصحُكَ تحديدًا - أخي الكريم - أَنْ تذهب إلىٰ مكانٍ بعيد متفرغًا لمدةٍ طويلة . . معذرةً - أخي - ، إنني أريدك أن تأخذ كلامي مَأْخَذَ الجدّ ؛ فليس هذا اقتراحًا ، ولا مُجَرّد نصيحة عابرة ؛ إنه إلزام . . من طبيبٍ مُجَرّب إلىٰ مريضٍ مُبْتَلَىٰ مُتَلَهّف علىٰ العلاج للشفاء . . فاحفظ كلامي ، ونَفّذ بمنتهىٰ الدّقّةِ والجِدّيّة ، وإيّاك وتَمَحُّل الأعذارِ للتّفَلُّت .

فِعْلًا . . حَقًّا . . صِدْقًا . . أنت محتاجٌ للخروج من السَّاقِيَة التي تُدِيرُها وأنت مُغْمَضُ العينين . . اخرج إذًا وفَرِّغْ وقتًا غيرَ محدود ، واجلس في خَلْوَةٍ هادئة من غير مكدِّرات . . وواجه نفسك بمنتهىٰ الصراحةِ والصدق ، والهدوءِ والإخلاص . . مَنْ أنتَ ؟! . . وماذا تُرِيد ؟!

استعْرِضْ شريطَ حياتِك ، واسترجع كُلَّ تفاصيلِه . . ارجع بذاكِرتك إلىٰ الخلف بأقصىٰ ما تستطيع . . وسَجّلْ لنفسك علىٰ شريط «كاسيت» أو اكتب علىٰ الورق : مَنْ أنت ؟ . .

حَلِّلْ شخصيتك . . تصرفاتك . . أفكارك . . آمالك . . آلامك . . مشاعرك . . أحلامك . . أقوالك . . أفعالك . . مواقفك . . رغباتك . . شهواتك . . عاداتك . . محبوباتك ومكروهاتك . . اكْتُبْ كُلَّ هذا . .

وأكثر منه . . ليس عليك حسيب ولا رقيب إلا اللّه . . إنك تبتغي أن تعرف نفسك ، تريد أن تصل إلىٰ ذاتك ، تريد أن تكتشف شخصيتك .

إنها رحلة طويلة إلىٰ أعماقِ النفس . . تجلس معها هناك ، وتتوغَّل في أعماقِها . . ثم تتحدث معها بصراحة ودون خجل . . وباعترافٍ اكتب ذنوبك ومعاصيك . . وآفاتِك وسقطاتِك . . وعيوبَك ومَذَامَّك . . اكتب فضائِلَك ومآثِرَك وأعمالَك . . اكتب . . واكتب . . واغْزُ نفسَك . . أَبْحِرْ إلىٰ ذاتِك حتىٰ تصل إلىٰ الأغوار البعيدة . . في الأعماق . .

وأنصحك في البداية أن تعتقد – أو أن تُقَرِّر حَتَّىٰ – أنك لن تَعْرِضَ ذلك علىٰ أحد ، ولن يراه بشر ؛ بل إنه لنفسك فقط . . فتوسَّعْ ولا تخف ، واكتب علىٰ اطمئنان . . واعلم – أخي الحبيب – أنني أعلم أنك ستقرأ هذا الكلام وينتهي الأمر عند مجرد الكتابة . . ولو عَلِمْتَ مَدَىٰ أهميته لَفَعَلْت . . أشكُّ أن تفعل . . أرجو اللّهَ أن تفعل . . باللّهِ عليك افعل . .

وقد تقول : وأنتَ يا شيخ ، هل فعلتَها مرَّة ؟! . . وأنا أقول لك : نعم واللّهِ . . تقول بعد أن تَهُزَّ رأسَك : كلام مشايخ !! ؛ ولكني – كما وَعَدْتُك في أول الكتاب – لن أَكْذِبَ عليك ولن أتجمَّلَ لك ؛ بل تعاهَدْنَا علىٰ المصارحة التامَّة .

ولذلك سأفعل شيئًا ترددتُ فيه كثيرًا وطويلًا جدًّا ، واستشرتُ فيه آخرين ، وتضاربتْ فيه الأقوال والآراء . . وهو أن أُسَجِّلَ في هذا الكتاب جَلْسَتي مع نفسي . .

■ وقفتي مع نفسي سنة ١٩٨٤ :

هأنذا أنقل لك طَرَفًا يسيرًا مما كتبتُهُ في «أجندة» خضراء أحتفظ بها عندي . . وكان تاريخ هذه الجَلسة ١١ يوليو ١٩٨٤م في المدينة المنورة . . وكانت الجلسة علىٰ مدار عَشرةِ أيامٍ طويلة ، قضيتها هناك وحدي في غرفةٍ بسيطةٍ صغيرة . . قضيتُ هذه الأيامَ العشرة مُلازِمًا نفسي . .

حَاصَرْتُ نفسي في أحدِ أركانِ الغرفة ، وواجهتها بمنتهىٰ الصراحة والوضوح . . وكل ما سأذكره لك علىٰ مَدَارِ عشرة أيامٍ متوالية ؛ لم يكن يقطعها إلا الصلوات في جماعة في مسجد الرسول ﷺ متحريًا الرَّوْضَةَ الشريفة ، ملازمًا – في تلك الصلوات ونوافلها – الدعاء ؛ أن يُلْهِمَني اللَّهُ رُشْدِي ، وأَنْ يَقِيَنِي شرَّ نفسي .

وهأنذا . . بعد عشرين سنة أكتب هذا الكلام ٢/ ٨/ ٢٠٠٤م . . أُشْهِدُ اللَّهَ . . الكريمَ الحَليم . . الحَيِيَّ السِّتِّير . . القويَّ المُعِين . . أَنَّني تَخَلَّصْتُ بعونه وتوفيقه سبحانه من ٩٥٪ من هذه الآفات أو أكثر . . هذا من باب التحدُّث بنعمة اللَّه ، لا كِبرًا ولا غُرورًا ، ولا عُجْبًا ولا رِضَىٰ عن النفس . . وإنما أخبرك لتفعل ، وأَدُلُّكَ لتعمل ؛ فإنَّ العلم بالشيء نصفُ طريق العلاج .

أَذْكرُ لكَ بعضَ هذه الآفات التي وجدتُها ؛ لتعرف أَنَّ الإنسان في بداية الطريق – كل الناس بلا استثناء – لا يخلو من آفات . . فمن عرفها وخَبَرَها وسَبَرَها وأثبتها ، ثم تعرَّفَ علىٰ كيفيةِ علاجها ، والحصولِ علىٰ دوائها ،

ثم داواها بصبرٍ وتُؤَدَة ، وعلىٰ مَهَل ، مستعينًا باللَّه ، مستمدًا منه سبحانه حولًا وقُوَّة بِصَبْرِ سِنِين - فإنه لابد أن يؤول أَمْرُه إلى خير .

فاللَّهُ لا يَرُدُّ مَنْ أقبلَ عليه بصدقٍ واستعانه سبحانه بإخلاص . . وهو يعلم جل جلاله من قلب عبده صدقَ إرادتِهِ ونِيَّتِه . . اللَّهُ أكرم من أن يَرُدَّه . . فاستعن باللَّه . . ولك فيمن سبقوك أُسوة :

قال بعضهم : عَالَجْتُ قيامَ الليل عشرين سنة ، ثم استمتعتُ به .

وقال آخَر : عالجتُ شهوتي عشرين سنة ؛ حتىٰ صارت شهوتي المُعَالَجَة .

وقال ثالث : ما زِلْتُ أَسوقُ نفسي إلىٰ اللَّه وهي تبكي عشرين سنة ؛ حتىٰ انقادت إليه وهي تضحك .

وأنا أعترف ، وأُقِرُّ للَّه تعالىٰ . . أنني ما زِلْتُ أُعَانِي من آفاتٍ وهَنَاتٍ ، أسأل اللَّه جَلَّ جلالُه أن يعافِيَنِي منها تمامًا . . وهأنا أُشهدكم أنني أستعين باللَّه تعالىٰ علىٰ التخلُّصِ منها ؛ حتىٰ ألقاه سبحانه علىٰ الطهارة التَّامَّة .

إخوتاه . .

وقفتُ مع نفسي . . وآهٍ لو وقفتم . . إنني جَرَّبْتُ علىٰ نفسي هذه التَّجرِبة ؛ وهي الجَلسة مع النفس منفردًا طويلًا مُتَأَمِّلًا مُدَقِّقًا . . جلست شاخِصًا . . دخلتُ إلىٰ أعماقِ أعماقِ نفسي ، وأَبْحَرْتُ في أغوارِها المظلمة والمضيئة . . دُرْتُ في أنحائها ، وتَلَفَّتُّ في أرجائها ، وجُزْتُ أوديتها وشِعابها . . عَبَرْتُ من جبالها ووِهَادها .

نعم: جلستُ أيامًا طويلة وحدي.. معي فقط ورقة وقلم.. واستشعرت نظرَ اللَّه تعالىٰ وعلمه.. ودوَّنتُ وكتبتُ، ويا هَوْلَ ما وجدت.. ماذا وجدت؟! ماذا رأيت؟!.. مضطرٌ أن أُفشِيَ سِرِّي، وأن أواجهكم بحقيقةِ نفسي؛ لتكونوا واقعيين وتتجرَّءوا لتفعلوا.

إنَّ النيَّةَ في ذلك - أيها الإخوة -: أَنْ نُكْشَفَ لنُعَالَج.

أَنْ نَعرِفَ لنتخلَّص.

أَنْ نتطهرَ ليرضىٰ ربُّنا عنَّا.

أَنْ نتوبَ لندخلَ الجَنَّة.

تعالوا أحدثكم علىٰ استحياءٍ شديدٍ ماذا وجدتُ في نفسي.. وجدتُ فيها:

- حُبَّ الرَّاحة، وكراهية المشقَّة ولو كانت للَّه، واختلاق المعاذير لتبرير المواقف.
- لَمَسْتُ فيها: الفضول، وشغفها لمعرفة ما لا يَعنيها.
- لَمَسَتُ فيها: العبث والضحك، والجلوس في جَلَسَات اللَّهو وإضاعةِ الوقت فيما لا يفيد.
- وَلَمَسْتُ من نفسي: كرهها واستثقالها لخدمة الآخرين؛ بل لمست حبها ووَلَعَها أن يَخْدُمَها الآخرون.
- وأَحسَسْتُ بفَرَحِها عندما يمدَحُها أحدُ المُقربين، وعلىٰ العكس رأيت نفورها عندما ينتقدها أحدٌ من الآخرين.

• رأيتُها وهِيَ شديدة الغضب عندما تُجْرَح ولو بكلمة، وشَعَرْتُ بتحفزها - إذا جُرِحَتْ - للانتصار ممن جَرَحَها.

• رأيتُ نفسي وهي تمنعني أن أقول: «لا أعلم» - عندما أُسْأَلُ عما أجهله -، وبخاصة أمام من يظنني من أهل العلم.

• لَمَسْتُ مِنْ نفسي: أنني إذا جادلتُ أحدًا أحببتُ لنفسي العُلُوَّ والصواب، وكَرِهْتُ لِمَنْ أُجادل الحقَّ والانتصار.

• لاحظتُ أَنَّ نفسي إذا أخطأت، وكان لابد لها أن تعتذر عن هذا الخطإ؛ نطقت بصعوبة - وهي مقهورة - هذا الاعتذار.

• لاحظتُ من نفسي: أنني إذا جلستُ مجلسًا؛ أردتُ أن أَسْتَأْثِرَ لنفسي بالكلام، تدفعني نفسي لأُطيل في الحديث، وأن أتحدّث عن أعمالي وإنجازاتي، أشعر بها تُلِحُّ عليَّ لكي أقاطع المتحدث وأنفردَ بالحديث.

• في كثيرٍ من المَرَّات: رأيتُ من نفسي استشرافًا لِأَنْ يَعْرِف الناسُ كُلَّ أعمالي التي وفقني الله إليها، رأيت إصرارها على أن تَنْسِبَ الفضل لي، وتتناسىٰ أنه من عند الله.

• رأيتُ منها أنه إذا وفقني الله لِأَنْ أكونَ سببًا في جلب الخير لأحدٍ من الناس؛ أَلَحَّتْ عليَّ إلحاحًا شديدًا لأن أَمُنَّ عليه كلما سَنَحَتْ لِيَ الفرصةُ بذلك.

• **أَجِدُ فيها** - أيضًا - غضبًا شديدًا إذا أساء هذا الشخص أو قصَّر في أي شيء تِجاهي ؛ فأجدها تقول: هذا الذي أحسنتَ إليه؟!!

• **ولاحظتُ في نفسي** : أنها تنتظر خطأ غيري لِتُصَحِّحه ؛ بل تُظْهِرُ الفضلَ والتميُّز .

• **ولاحظت فيها أيضًا** : الخوف التام من الفقر وضِيق العيش ، ووجدتها تحاول أن تمنعني من الإنفاقِ في سبيلِ اللّه .

• **لَمَسْتُ منها** : عدمَ سماع العقل عند وَزْنِ الأمور؛ بل تريد الانصياع والانسياقَ وراءَ العواطف.

• **لَمَسْتُ من نفسي** : التسرُّعَ في اتخاذِ القرار، وعدَم نظرها إلىٰ العواقب ونهاياتِ الأمور .

• **لَمَسْتُ من نفسي** : حُبَّهَا للشهوات ، وتَطَلُّعَهَا للملذّات وإيثارَها الرَّاحات .

• **لاحظتُ من نفسي** : سرعة الغضب والشِدَّة والحِدَّة بصفةٍ مستمرة .

لَمَسْتُ من نفسي كُلَّ هذا وأكثرَ منه!! . . فخبَرْتُها . . وعَرَكْتُها . . وعلِمْتُ طبيعتها . . فاكتشفتُ عيوبها . . وأدركتُ مواضع الثَّلْمِ فيها . . نعم : إنَّها حَرْبٌ ضَروس . . حقيقةُ المنازعة بين القلب وبين النفس الأمَّارة . . حقيقةُ المنازعة بين الواقع وبين الشرع . . حربٌ حقيقية ومتاعبُ فِعْلًا شَرِسَة ؛ حتىٰ وصلنا في النهاية . . وبدأتُ العلاج .

■ وَقْفَةُ ابْنُ الجَوْزِي مَعَ نَفْسِه :

إخوتاه . .

هذه الوقفة التي وقفتُها مع نفسي لنا فيها سَلَف ؛ بل يبدو أنَّ هذا كان دَأبَ السَّلَفِ الصالحين - رضي اللَّه عنهم أجمعين . . انظر إلىٰ كلام ابن الجوزي - عليه رحمةُ اللَّه - في كتابه «صيد الخاطر» ، وهو يتكلم عن نفسه . . ثم قال : «وجدتُ ابنَ عَقيل ينوحُ علىٰ نفسه» . . فكأنَّ الأمرَ كان دَيْدَنَ الجميع .

اقرأ معي كلام ابن الجوزي . . في وقفته مع نفسه . . وقد أعجبني - واللَّهِ - صدقُه مع صدق ابن عقيل . . فاللهم اجعلنا مع الصادقين . . قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] .

يقولُ ابنُ الجَوزِيِّ - عليه رحمةُ اللَّهِ وبركاتُه - :

«تفكرتُ في نفسي يومًا تَفَكُّرَ مُحقِّق ؛ فحاسبتها قبل أن تُحَاسب ، ووزنتها قبل أن تُوزن ، فرأيتُ اللُّطْفَ الرَّبَانِي رَبَّاني ؛ فمنذ الطفولة وإلىٰ الآن أرىٰ لُطْفًا بعد لطف ، وَسَتْرًا علىٰ قبيح ، وعفوًا عمَّا يُوجب عقوبة .

وما أرىٰ لذلك شكرًا إلا باللسان .

ولقد تفكَّرْتُ في خطايا لو عُوقبتُ ببعضها لهلكتُ سريعًا . . ولو كُشِفَ للناس بعضُها لاستحييت . . ولا يَعتقِدُ مُعتقِدٌ عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب ، حتىٰ يَظُنَّ فِيَّ ما يَظُنُّ في الفُسَّاق . . بل هي ذنوبٌ قبيحةٌ في حَقِّ مِثْلِي ، وقعتْ بتأويلات فاسدة . . فصِرْتُ إذا دَعَوْتُ أقول : اللهمَّ بحمدك وسِترك عليَّ اغفر لي .

ثم طالبتُ نفسي بالشكرِ علىٰ ذلك ؛ فما وجدته كما ينبغي .

ثم أنا أتقاضىٰ القَدَرَ مُرَادَاتي ، ولا أتقاضىٰ نفسي بصبرٍ علىٰ مكروه ، ولا بشكرٍ علىٰ نعمة .

فأخذتُ أَنُوحُ علىٰ تقصيري في شكر المنعم ، وكوني أتلذذُ بإيرادِ العلم من غير تحقيقِ عملٍ به .

وقد كنت أرجو مَقَامات الكِبار ، فذهبَ العمرُ وما حَصَلَ المقصود . . فوجدتُ أبا الوفاء بنَ عَقيل قد نَاحَ نحوَ ما نُحتُ ؛ فأعجبتْني نِيَاحَتُه ، فكتبتها هاهنا .

قال لنفسه : يا رَعْنَاءُ ، تُقَوِّمِينَ الألفاظَ ليُقَال : مُنَاظِر . وثمرةُ هذا أن يُقال : يا مُنَاظِر . . كما يقال للمصارع الفارِه .

ضَيَّعْتِ أَعَزَّ الأشياءِ وأنفسها عند العقلاء ، وهي أيامُ العمر ؛ حتىٰ شاع لكَ بين مَنْ يموتُ غدًا اسمُ مُنَاظِر . . ثم ينسىٰ الذاكر والمذكور إذا دَرَسَتِ القلوب . . هذا إنْ تَأَخَّر الأمرُ إلىٰ موتِك . . بل ربما نشأ شابٌ أَفْرَهُ منك فَمَوَّهُوا له وصارَ الاسمُ له ، والعقلاءُ عنِ اللَّه تشاغلوا بما - إذا انطووا - نَشَرَهُم ، وهو العمل بالعلم ، والنظر الخالص لنفوسهم .

أُفٍّ لنفسي . . وقد سَطَرْتُ عِدَّة مجلدات في فنون العلوم ، وما عَبِقَ بها فضيلة : إنْ نُوظِرَتْ شَمَخَتْ ، وإنْ صَحَّت تعجرفت ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيرانَ الرَّخَم ، وسطقتْ عليها سقوطَ الغُراب علىٰ الجِيَف .

فليتها أَخذتْ أخذَ المضطرِ من المَيْتَةِ .

تُوَفِّرُ في المخالطة عيوبًا تُبْلِي ، ولا تحتشمُ نظرَ الحقِّ إليها .

وإنِ انكسر لها غَرَضٌ تضجرت ، فإن أَمَدَّتْ لك بالنِّعَم اشتغلتْ عن المُنعِم .

أُفٍّ - واللّهِ - منِّي . . اليوم على وجه الأرض وغدًا تحتها .

واللّهِ ؛ إنَّ نَتَنَ جسدي بعد ثلاثٍ تحت التراب أَقلُّ مِن نَتَنِ خلائقي وأنا بين الأصحاب .

واللّهِ ؛ إنني قد بَهَرَني حِلْمُ هذا الكريمِ عنِّي . . كيف يسترني وأنا أَتَهَتَّك ، ويجمعني وأنا أتشتت .

وغدًا يُقال : مات الحَبْرُ العالمُ الصالح ، ولو عرفوني حَقَّ مَعرفتي بنفسي ما دفنوني .

واللّهِ ؛ لأناديَنَّ على نفسي نداء المُكَشِّفين مَعَائِبَ الأعداء .

ولَأَنُوحَنَّ نَوْحَ الثَّاكِلين للأبناء ؛ إذ لا نائِحَ لي يَنُوحُ عليَّ لهذه المصائب المكتومة ، والخِلالِ المُغَطَّاة التي قد ستَرَها مَنْ خَبَرَها ، وغطَّاها مَنْ عَلِمَها .

واللّهِ ؛ ما أَجِدُ لنفسي خَلَّةً أستحسِنُ أن أقول متوسِّلًا بها : اللهم اغفر لي كذا بكذا .

واللّهِ ؛ ما الْتَفَتُّ قط إلَّا وجدتُ منه سبحانه بِرًّا يكفيني ، ووقايةً تحميني ، مع تَسَلُّطِ الأعداء .

ولا عَرَضَتْ حاجةٌ فمددتُ يدي إلا قضاها . . هذا فِعلُهُ معي ، وهو رَبٌّ غَنِيٌّ عَنِّي . . وهذا فِعْلِي وأنا عبدٌ فقيرٌ إليه .

ولا عُذْرَ لي فأقول : ما دَرَيْت ، أو سَهَوْت .

واللَّهِ ؛ لقد خلَقَني خلقًا صحيحًا سليمًا ، ونَوَّرَ قلبي بالفِطنة ، حتىٰ إنَّ الغائبات والمكتومات تَنْكَشِفُ لِفَهْمِي .

فواحسرتاه علىٰ عُمْرٍ انقضىٰ فيما لا يُطابق الرِّضَىٰ .

واحِرْمَاني لمقاماتِ الرجال الفطناء . . يا حسرتي علىٰ ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّه ، وشماتةِ العدوِّ بي .

وَاخَيْبَةَ مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بي إذا شَهِدَتْ الجوارحُ عَلَيَّ .

واخُذْلاني عندَ إقامةِ الحُجَّة . . سَخِرَ واللَّهِ مِنِّي الشيطانُ وأنا الفَطِن .

اللَّهُمَّ توبةً خالصةً من هذه الأقذار ، ونهضةً صادقةً لتصفية ما بَقِيَ من الأكدار .

وقد جِئْتُكَ بعد الخمسين وأنا مِنْ خَلَقِ[١] المَتَاع .

وأَبَىٰ العِلْمُ إلَّا أن يَأخذَ بيدِي إلىٰ مَعْدِنِ الكَرَم ، وليسَ لي وسيلةٌ إلَّا التَّأَسُّفُ والنَّدَم .

فَوَاللَّهِ ما عَصَيْتُكَ جاهِلًا بمقدارِ نِعَمِك ، ولا ناسيًا لِمَا أَسْلَفْتَ مِنْ كَرَمِك ؛ فاغْفِرْ لِي سَالِفَ فِعْلي»[٢] .

---

(١) خَلَقِ المتاع : أي المتاع المُهْتَرِئ البالي .

(٢) صيد الخاطر ، ص (٥٧٦ - ٥٨٠) .

إخوتاه..

هذا ما أدعوكم إلىٰ كتابته، والنظرِ فيه تفصيليًا لنتخلَّص منه.. وقد كانت هاتانِ الوَقْفَتَانِ القديمةِ والمُعَاصِرة؛ دَلِيلَكُم العَمَلِيّ الواضح لكيفيةِ تدوينِ المَعَايب.. ثم اعلموا - بَعْدُ - أنَّ ذِكْرَ هذه العيوب والذنوب، والاعتراف بتفاصيل ذلك شَاقٌّ علىٰ النفس؛ فلابد لمن أراد العلاج أن يستعين بالله سبحانه وتعالىٰ.. ثم يقف من هذه النفس مَوْقِفَ المُؤَدِّبِ الرَّادِعِ لها.. فخالِفْها واكتب عُيُوبَك حَالًا..

«واعْلَمْ: أَنَّ اللَّه تعالىٰ إذا أرادَ بعبدٍ خيرًا بَصَّرَهُ بعيوبِ نفسِه، فمن كانت له بصيرة، لم تَخْفَ عليه عيوبُه، وإذا عَرَفَ العيوبَ أمكنه العَلاج، ولكِنَّ أكثرَ الناس جاهلون بعيوبهم، يرىٰ أحدُهُم القَذَىٰ في عَينِ أخيه ولا يَرَىٰ الجِذْعَ في عينِه»[1].

■ كيفَ تعرِفُ عيوبَ نفسِك؟

جاء في «مختصر منهاج القاصدين»:

«ومَنْ أرادَ الوقوفَ علىٰ عَيْبِ نفسِه؛ فلَهُ فِي ذلكَ أَرْبَعُ طُرُق:

الطريقة الأولىٰ: أن يجلس بين يدي شيخٍ بصيرٍ بعيوبِ النفس، يُعرِّفُهُ عيوبَ نفسه وطرقَ علاجها، وهذا قد عَزَّ في هذا الزمان وُجُودُه، فمن وقع به؛ فقد وقع بالطبيب الحاذق؛ فلا ينبغي أن يفارقه.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص (١٥٦).

الطريقةُ الثَّانية : أن يطلبَ صديقًا صَدُوقًا بصيرًا مُتَدَيِّنًا ، ويُنَصِّبُهُ رقيبًا علىٰ نفسه لِيُنَبِّهَهُ علىٰ المكروهِ مِنْ أخلاقِه وأفعالِه .

وقد كان أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يقولُ : رَحِمَ اللَّه امْرَءًا أهدىٰ إلينا عيوبَنا . . ولذا سألَ سَلمانَ رضي الله عنه لمَّا قَدِمَ عليه عن عيوبه ، فقال : سمعتُ أنك جمعتَ بين إدامينِ علىٰ مائدة ، وأنَّ لك حُلَّتَيْن : حُلَّةً بالليل ، وحُلَّةً بالنهار ، فقال : هل بلغك غير هذا ؟ ، قال : لا ، قال : أما هذان فقد كُفِيتَهُما . وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة : هل أنا من المنافقين ؟ ، وهذا لِأَنَّ كل مَنْ عَلَتْ مرتبته في اليقظة زادَ اتهامه لنفسه ، إلا أنه عَزَّ في هذا الزمان وجودُ صديقٍ علىٰ هذه الصفة ؛ لأنه قَلَّ في الأصدقاء من يترك المُدَاهَنَة ، فيُخبِرُ بالعيب ، أو يتركُ الحسد ، فلا يَزيد علىٰ قَدْرِ الواجب .

وقد كان السَّلَفُ يُحِبُّون مَنْ يُنبهُهُم علىٰ عيوبهم ، ونحن الآن في الغالب أبغضُ الناسِ إلينا مَنْ يُعَرِّفُنا عيوبَنا .

وهذا دليلٌ علىٰ ضعف الإيمان ، فإنَّ الأخلاق السيئة كالعقارب ، ولو أن مُنَبِّهًا نَبَّهنا علىٰ أن تحتَ ثوبِ أحدِنا عقربًا لَتَقَلَّدْنَا له منه ، واشتغلنا بقتلها ، والأخلاق الرَّدِيئة أعظمُ ضَررًا من العقرب - علىٰ ما لا يخفىٰ .

الطريقةُ الثَّالثة : أَنْ يستفيد معرفةَ عيوبِ نفسه من ألسنةِ أعدائه ؛ فإن عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِئ ، وانتفاعُ الإنسانِ بعدوٍّ مُشَاجِر يَذْكُرُ عيوبه ، أكثرُ من انتفاعه بصديقٍ مُدَاهن يُخفي عنه عيوبَه .

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يَرَاه مذمومًا فيما بينهم، يجتنبه»[(١)].

إخوتاه..

النفسُ بَحرٌ هائج.. النفسُ أشكالٌ وألوان.. النفسُ مَطِيَّتُكَ إلىٰ اللَّه.. فاعرفْ عُيُوبَها.. وادرِسْ أحوالَها.. ومواضِعَ الخَلَلِ فيها.. وقِفْ معها وَقْفَة.. وَقْفَةَ تركيزٍ وجَمْعٍ للهِمَّة.. كحَالِ هؤلاءِ العدَّائينَ في السِّباق؛ فإنَّه لا يَنطلق حتىٰ يتهيَّأ نفسيًا وبدنيًا.. فتراه يقفُ قبل العَدْوِ وقفةً يستجمِعُ فيها قُوَاه، ويُحدِّد فيها هدفَه، حتىٰ إذا ما آذَنَ السَّباقُ وأُشِيرَ إليه بالانطلاق؛ انطلقَ بِكُلِّ قُوَّة.

إخوتي الأَحِبَّة.. رَضِيَ اللَّهُ عنكم:

هذه الوقفةُ مع النفس خطيرةٌ جدًا.. وأُحَذِّرُكَ أن تخرجَ منها مغرورًا مُعْجبًا؛ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].. احْذَرْ أن تَخدعَكَ نفسُك، ويَضحك منك الشيطان..

وانتبِه لِتَلَوُّنِ النفس ودوافعها الرَّدِيئة.. أَثْبِتْ عيوبَك وذنوبَك، واعترف، وانوِ الإصلاح.. ولا تَستَحِ مِن طَلَبِ النُّصحِ وَعرْضِ المَرَض بصراحةٍ ووضوحٍ علىٰ طبيبٍ ناصحٍ أمين.. واستسلِمْ للعلاج وأَقْبِلْ عليهِ بيقين؛ يَشْفِكَ الشَّافِي سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص (١٥٦ - ١٥٧).

حبيبي في الله . .

كُنْ واقعيًا ونُموذَجِيًا . . لا تَأْنف ولا تَتَأَفَّفْ . . لا تَسْتَطِلِ الطَّرِيقَ ولا تَمَلّ . . اصبر علىٰ مَرَارَةِ العلاج وصَابِر . . رَابِطْ علىٰ ثَغْرِ النفس وجَاهِد . . انطلِقْ فأنتَ لها . . عَافَاكَ مَوْلَاك .

❁ ❁ ❁

وسائل العلاج

حَرَامٌ على قلبٍ

أَنْ يَشُمَّ رَائِحَةَ اليَقِين وفِيهِ سُكُونٌ إلىٰ غَيْرِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ .

وحَرَامٌ على قلبٍ

أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وفِيهِ شَيءٌ يَكْرَهُهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ .



وسائل العلاج

تحدثنا عن أسس العلاج، ونتحدث هنا عن وسائله.. وفرقٌ بين قولنا: «أسس» وقولنا: «وسائل».. فأنت مثلًا عندما تذهب إلىٰ الطبيب تضع في ذهنك وقلبك واعتقادك أَنَّ الشفاء بيد اللَّه.. وأَنَّ هذا بلاءٌ يجب أن تصبر عليه.. وأنه تكفيرٌ لذنوبك وسيِّئاتِك.. فهذه أسس.

أما الوسائل: فقد يعالجك الدكتور بالأعشاب الطبيعية وعسل النحل.. أو ينصحك بالرَّاحة النفسية.. أو يكتب لك بعض الأدوية والمضادات الحيوية.. إذًا فالأسس غالبًا ما تكون باطنة في النفس.. والوسائلُ ظاهرةً عنها.

فتعالوا بنا الآن لنمضي في خطوات العلاج العملية، مستعينين بحول اللَّه وقوته، عازمين علىٰ التخلص من تلك الرواسب التي بدَّدَتْ إيماننا، ووقفت حَجْرَ عَثْرَةٍ في طريق التزامنا ووصولنا إلىٰ اللَّه تعالىٰ.

فها أنت تُقبل معترفًا بما فيك، مستعدًا لما يلاقيك، ويُطلب منك.. فاقبل الدواء وإنْ كان مُرًّا أحيانًا، واعلم أنَّ الإخلاص في القصد وصدق النية سيجعلان الأمر عليك ميسورًا، قال ربُّك سبحانه وتعالىٰ وهو أصدق القائلين: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].. فلا تجزع، ولا تعجز، وقم ننفض عن أنفسنا الغبار؛ فقد طالت في الجاهلية حياتنا.

ها هي وسائل العلاج، فخذها علىٰ بركة اللَّه:

أوَّلًا : العزلة الشعورية عن الجاهلية

إخوتاه . .

لابد من إقامة حاجزٍ من الحلال بينكم وبين الحرام ، قال ﷺ : «اجعلوا بينَكُم وبينَ الحرامِ سِتْرًا مِنَ الحلال ، مَنْ فَعَلَ ذلك اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ ودِينه ، ومَنْ أَرْتَعَ فيهِ كان كالمُرْتِعِ إلىٰ جَنْبِ الحِمَىٰ ، يُوشِكُ أَنْ يقعَ فيه ، وإنَّ لكُلِّ مَلِكٍ حِمَىٰ ، وإنَّ حِمَىٰ اللَّهِ في الأرضِ مَحَارِمُه»[1] .

وهذا يعني بتعبيرٍ أدق : أن يكون عندك عزلة شعورية كاملة بين ماضٍ غابرٍ في الجاهلية ، وبين واقعٍ حاضرٍ في الإسلام . . عزلة شعورية تنشأ عنها عزلةٌ كاملةٌ عن الصِّلةِ بالمجتمع الجاهلي ، ومَنْ حوله و كل ما يتصل به من روابط اجتماعية .

نبتعد لكي نُنكِر ، وكما قيل : كثرةُ المَساس تُفقد الإحساس ، انظر إلىٰ قصة الرجل الذي قتل مئة نفس ، «سأَلَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فَدُلَّ علىٰ رجلٍ عالم ، فقال : إنه قَتَلَ مِئَة نفسٍ فهل له مِن توبة ؟ ، فقال : نعم ، ومَنْ يَحُولُ بينهُ وبينَ التوبة ؟ ، انطَلِقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا ؛ فإنَّ بها أُناسًا يعبدون اللَّه فاعبدِ اللَّهَ معهم ، ولا تَرْجِعْ إلىٰ أرضِك فإنها أرضُ سُوء»[2] ،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٣٨٠) ، وصححه الألباني (١٥٢) في «صحيح الجامع» .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .

ورغم جبروت وطغيان هذا الرجل قبل التوبة ؛ انْصَاعَ لأمرِ العالم بعد التوبة ، وصَدَقَ مع اللَّه ، فأنجاه اللَّه .

الشاهد : أنه لابد من الابتعاد عن تلك الأجواء الجاهلية ، فهو من الآن قد انفصل نهائيًا عن بيئته الجاهلية، واتصل كليًا ببيئته الإسلامية . . وهذا الانفصال شعوري ، فلا أقصد أن يعتزل الناس فيتركَ الجُمَعَ والجماعات . . أو لا يشتري ويبيع . . كلا . . بل هو مع الناس بجسده ، وعلىٰ قدر الضرورة . . فالعزلة الشعورية شيء ، والتعامل اليومي شيء آخَر .

وهنا لابد أنْ أوضِّح وبمنتهىٰ الصراحة والحَسْم في هذه النقطة بالذات ؛ لأن بعض الشباب يفهم الأمور علىٰ مزاجه وبطريقته ، ثم يستدلُّ بكلامٍ مُجْمَلٍ للمشايخ والدعاة فيوقعهم في حَرَجٍ كبير ؛ بأن فَهِمَ من كلامهم ما لا يَقصِدُون .

إنني إذا ذكرتُ هنا في كتابي هذا أو أي كتاب أو محاضرة أو شريط : قضية العزلة عن الجاهلية ؛ فإنما أقصِدُ تحديدا الابتعادَ عن الفتن والمخالطة المؤدية إلىٰ المعاصي والمخالفات . . بمعنىٰ أن يحاول ألَّا يتعامل بطريقة العُصَاة والمذنبين من الفُسَّاقِ والفُجَّار . . بل تكون له طريقته في التعامل بما يرضي الرب سبحانه وتعالىٰ .

فلا أقْصِدُ الكفرَ ولا الكفارَ بكلمة الجاهلية كما قَدَّمْتُ في أولِ الكتاب ، ولا أقصد الهجرةَ وتركَ البلاد والعِباد ، ولا أقصدُ قَطْعَ التعامل مع الآخرين ؛ وإنما أقصد فقط مقاطعةً شعوريةً نفسيَّةً للحرام ، تَأْنَفُ النفسُ منه . وترفضه وتأباه ، وتطلبُ النفسُ الطاعات والطهارة ورضا الرَّب بعيدًا عن رضا الخلق . . هذا ما أقصده تحديدًا فَلْيُعْلَمْ . . وانتبِهْ . . واحْذَر .

حقيقةُ الهِجْرة والمُقاطَعَة:

قال ربي - وأحقُّ القولِ قولُ ربي -: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فأمرنا اللَّه عزَّ وجلَّ بأنْ نفارق طريق الجاهلية، ونعرض عن أهلها، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد كان رسولُ اللَّه ﷺ يُشدِّد في كُلِّ ما يَمَسُّ هذا الشأن:

فعن جابر بن عبد اللَّه قال: غزونا مع رسول اللَّه ﷺ، وقد ثابَ معه ناسٌ من المهاجرين حتىٰ كثرُوا، وكان من المهاجرين رجلٌ لعَّاب[1]، فكسع[2] أنصاريًا، فغضب الأنصاريُّ غضبًا شديدًا حتىٰ تَداعَوْا، وقال الأنصاري: يا لَلأنصار، وقال المهاجريُّ: يا لَلمهاجرين، فخرج النبيُّ ﷺ فقال: **«ما بَالُ دَعْوَىٰ أَهْلِ الجاهلية؟»**، ثم قال: **«ما شأنهم؟»**؛ فأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ المهاجريِّ الأنصاريَّ، قال: فقال النبيُّ ﷺ: **«دَعُوهَا فإنَّها خَبيثة»**[3].

تأمل معي - أيها الحبيبُ المُحِب - هذا الحديث الجليل؛ فإنه من العَجب العُجاب:

(١) أي يلعب بالحراب.

(٢) ضربه علىٰ المُؤَخِّرَة.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).

المُهَاجِرُون والأنصار أحباب اللَّه جَلّ جلالُه ورسوله ﷺ..

المُهاجِرُون والأنصار اسمان شريفان أقرَّهما اللَّه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ: قال تعالىٰ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [التوبة: ١١٧]..

ولكن لمَّا تَنادىٰ بهما البعض علىٰ عَصَبِيَّة؛ قال رسول اللَّه ﷺ قولته الشديدة هذه: **«أَبِدَعْوَىٰ الجاهلية» «دَعُوها فإنها خبيثة» «دعوها فإنها مُنْتِنَة»**.. ما هي الجاهلية؟ ما هي الخبيثة؟ ما هي المنتنة؟

الاسمان شريفان ثابتان!!!

إذًا فالمقصود: العصبية والتحزب للأسماء، وأصحاب الأسماء، والانتماء للأسماء؛ ولو كانت هذه الأسماء شريفة.. ومن هنا كان الذَّمُّ للتعصب للمذاهب المتبوعة أو أسماء الأعلام من حَمَلَةِ رسالة دين الإسلام.. أَنَّ التَّعَصُّبَ لذلك والموالاة والمعاداة علىٰ الاسم دَعْوَىٰ جاهلية خبيثة مُنْتِنَة.

فما بالُك إذا كان التنادي علىٰ عصبيات غير شريفة وعلىٰ غير دين؛ فالنُّجْعَةُ أبعد والذَّمُّ أشدّ، ووجوب التَّخَلُّصِ أَوْلَىٰ.

لابد إذًا من المفاصلة الشعورية عن الجاهلية الأُولىٰ، وإن تَعَصَّبَ الناس وتَدَاعَوْا بأسماء ومناهج نَصَّبُوها آلهةً كالشرع المُتَّبع.. فلا ينبغي أن يحمِلَنا ذلك إلىٰ التنادي علىٰ عصبياتٍ أخرىٰ لنا، أو أن تؤثر فينا عصبياتنا الباقية من رواسب جاهليتنا.

أخي الحبيب، أَلْقِ عنك عُبِّيَّةَ الجاهلية ، وتمسك بَغَرْزِ النبي ﷺ وأصحابه . . قال النَّبِيُّ ﷺ : «ليس مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُود ، وشَقَّ الجُيُوب ، ودَعَا بِدَعْوىٰ الجاهلية»(١) .

وقد امتاز الصحابة في انخلاعهم التام عن مجتمع الجاهلية الذي نشأوا فيه ، فانخلعوا من عقيدة الشرك إلىٰ عقيدة التوحيد ، من تصورات الجاهلية إلىٰ تصور الإسلام للحياة والوجود .

فكانوا يسألون النبي ﷺ عن كل أمرٍ كانوا يصنعونه في الجاهلية هل يُقِرُّه الإسلام أم يرفضه ، كانوا يَعْلمون أنَّهم منذ لحظة إسلامهم قد وُلدوا وِلادةً أخرىٰ ، فلابد لهم من التخلص التام من كل أمرٍ جاهليّ ؛ فكانوا يحتاطون غايةَ الاحتياط فيما كانوا عليه .

عن معاويةَ بن الحَكَم السُّلَمي ، قلت: يا رسول الله ، إني حديثُ عهدٍ بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام ، وإنَّ مِنَّا رجالًا يأتون الكُهَّان ، قال : «فلا تَأْتِهِم» ، قال: ومنا رجالٌ يَتَطَيَّرُون ، قال : «ذَاكَ شَيءٌ يَجِدُونَهُ في صدورِهم ، فلا يَصُدَّنَّهُم» ، قال : قلت : ومنا رجالٌ يَخُطُّون ، قال «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأنبياء يَخُط ، فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَاك»(٢) .

وكما كانوا يسألونه عن الشر مخافةَ أن يدركهم ؛ كانوا يسألونه عمَّا كان منهم من فِعَال الخير قبل الإسلام وما لهم فيه :

فعن حكيم بن حِزَام رضي الله عنه قال: يا رسول الله ، أرأيت أشياء كنتُ

---

(١) متفق عليه ، البخاري (١٢٩٤) ، ومسلم (١٠٣) .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٥٣٧) .

أَتَحَنَّثُ بها في الجاهلية، مِن صدقةٍ، أو عِتَاقةٍ، وصلةِ رحم، فهل فيها من أجر؟؛ فقال النبيُّ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَىٰ ما سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ»[1].

إنها صبغة الإسلام.. حياة جديدة.. وتصورات جديدة.. ومحوٌ لكل آثار الماضي؛ حتىٰ لا يبقىٰ منها شيء.

إخوتاه..

وهكذا المسلم ينبغي أن يكون.. أن تتغير تصوراته عن الوجود.. أن يجعل ولاءه للّه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

هذا مَفْرِقُ الطريق، وهذه أول خطوة علىٰ الطريق، أنْ يتخفف من التبعات، من العلائق التي تشده إلىٰ الماضي؛ فيترك كل التقاليد والتصورات التي تَوَافَقَ عليها المجتمع الجاهلي، حتىٰ وإن لاقىٰ في ذلك كل أذىٰ وفتنة.. وهو - مع كل ذلك - يمضي في عزم؛ فلم يعد لتصورات المجتمع الجاهلي، ولا لضغط المجتمع الجاهلي عليه من سبيل.. فقد أعلنَ الخُصُومَةَ وعَلَا بإيمانِه.

«والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حولِه خصومةٌ ذاتية، ناشئةٌ عن عدم استطاعته حياةً مزدوجةً بين تصوره الإيماني وواقعه العملي. وعدم استطاعته كذلك التنازلَ عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم، في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف.

---

(١) متفق عليه، البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣).

فلابد من حربٍ بينه وبين الجاهلية من حولِه ؛ حتىٰ تُثْنَىٰ هذه الجاهلية إلىٰ التصور الإيماني والحياة الإيمانية»[١].

هما قَنَاتَان : وفُسْطَاطان:

إخوتاه..

أقول بحق : إنه لن يستقيم تصور الإسلام في عقولنا، ولن تَتَّضِحَ معالم الإسلام في نفوسنا، ولن ينشأ مِنَّا جيلٌ مثل الذي أنشأه الإسلام في العهد الأول - إلا بالعزلة التامَّة ، والمفاصلة الكاملة عن تلك الجاهلية ، لابد مِن تمام المفارقة ، وكمال المفاصلة .. أن تنفصل القناتان : قناةُ ماءٍ طاهرٍ لا تشوبه شائبة، وقناةُ ماءٍ نجس ليس فيه طهارة.

فهما فُسْطَاطان : فسطاطُ إيمانٍ خالصٍ لا نفاقَ فيه ، وفسطاط نفاقٍ خالصٍ لا إيمانَ فيه ، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن ذلك وأنه كائنٌ في آخر الزمان ، فقال ﷺ : **«حتىٰ يصيرَ الناس إلىٰ فُسْطَاطَيْن: فسطاطِ إيمانٍ لا نفاقَ فيه، وفسطاطِ نفاقٍ لا إيمانَ فيه ، فإذا كان ذَاكُم ؛ فانتظروا الدَّجَّال مِنْ يومِهِ أو غَدِه»**[٢].

إخوتاه..

إنَّ ولاءنا لله.. يُحَتِّمُ علينا أن نعتزل كُلَّ فِرَقِ الضلال.. من الفاسقين والفاجرين.. والمنافقين والعلمانيين.. وأصحاب الفكر المسموم المَشِين.. لا نخالطهم ولا نجلس معهم.. إنَّ ذوباننا فيهم

---

(١) الظلال (٦/ ٣٣٤٩ - ٣٣٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٤٢)، وصححه الألباني (٤١٤٩) في «صحيح الجامع».

يَعني ضياعَ إسلامِنا والتزامِنا وَسَطَ جاهليتهم . . ثم إنه من حق المجتمع علينا أن نُرِيَهُ الصورةَ النقيةَ للإسلام الصحيح . . هذا واجبنا .

إذًا لابد أن نتجرَّدَ - في تلك الفترة - من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها، ونستمر فيها، لابد أن نرجع إلىٰ إسلامنا ، ذلك النبع الخالص الذي استمدَّ منه هؤلاء الرجال الأوائل ، استمدوا منه عقائدَهم وتصوراتِهم وأعمالَهم وأقوالَهم .

وهنا ينبغي أن أُبَيِّن ما أَقْصِدُه - وبمنتهىٰ الحسم والصراحة والوضوح - مرةً أخرىٰ : أنني أقصد بالعزلة والمفاصلة والمفارقة والمقاطعة والخصومة وكل الألفاظ التي ذكرتها في هذا العلاج - أقصد بذلك ألا نَرَىٰ تليفزيونَهم ولا برامجَهم . . ألا نقرأ جرائدَهم ولا مجلاتِهم . . ولا نَتَسَمَّع أخبارهم . . ألا نعرف آخر أخبار الموضة وألبومات الأغاني وبرامج التلفاز .

أنْ تحصل المفاصلة الشعورية . . أنك تعيشُ حياةً إيمانية زَادُكَ فيها القرآن ، وإمامك فيها الرَّسول ﷺ . . فتعيشَ حياةً إيمانيةً جديدةً رَغِدَة ، مليئة بالأعمال الجديدة التي تملأ عليك حياتَك .

ولا تَكُنْ كصاحبِ الحَقِيبة ! !

أحبتي في الله . .

موقف طريف أحب أن أرويه . . أحد الإخوة اعتكفَ جدُّه في مسجد في منطقةٍ من المناطق الراقية ، في العشر الأواخر من رمضان .

وجاء هذا الرجل كبير السنّ، فسأل أحدَ الإخوة: لماذا أنتم هنا؟!، قالوا له: إننا في اعتكاف.

قال: وما يعني «اعتكاف»؟!.. قالوا: «اعتكاف» يعني: أن نجلس هنا نصَلي ونذكر اللَّه ونقوم الليل.

قال: أهذا يعني أنكم لا تعودون إلىٰ بيوتكم؟!، قالوا: نعم.. لا نعود.. قال: أبدًا؟!!.. قالوا: نعم، الأيام العشرة الأخيرة من رمضان فقط.. قال: لِمَ؟!.. قالوا: هذا فعل النبي ﷺ.

قال: إذًا سأعتكف أنا الآخر.. قالوا: مرحبًا، اعتكف إن أردت.

قال: حسنًا؛ لكن- فقط - سأذهب إلىٰ البيت؛ لإحضار حقيبتي، فذهب وأحضر الحقيبة.. فلمّا عاد بها؛ إذا باثنين من الخدم يحملانها له.

فلمّا فَتَحا الحقيبة؛ وجدوا بداخلها تلفازًا، و«فيديو»، وشرائط «للفيديو»، وماكينة حلاقة، ونحو ذلك!!.. وهكذا نقل الرجل البيت إلىٰ المسجد!!

للأسف!!.. كثيرٌ منا يريد أن يَدْخُلَ الالتزامَ «بالحقيبة»!.. يريد أن يأخذ معه كل شيء داخل الإسلام.. فنفسه المُدَلَّلة يَعِزُّ عليها أن تترك وسائل رفاهيتها المحرمة.. لأنها يوم التزمت التزمت ومعها كل مورثاتها الجاهلية.. ولم تقف في أول يومِ التزمت فيه لتصفي حساباتها مع هذه الجاهلية.. فكانت النتيجة ما ترىٰ وما تَسمع!

عَوْدَةُ القلب . . بالعُزْلَة مع سِيَر السَّلَف :

إخوتاه . .

لابد من فترة في بداية العلاج تختفي فيها . . عن العيون والآذان والألسنة . . لابد من فترة تُصلح فيها نفسك . . يا مَنْ تريد التخلص من رواسب الجاهلية ، اعتزل حتىٰ إذا اتصلوا بك يُقال : إنه مشغول جدًا في هذه الفترة ، فهو لا يُحادث أحدًا الآن ، يبدو أنَّه بصدد اتخاذ قرارٍ خطير ، وهذا القرار الخطير الشجاع هو : التخلص من رواسب الجاهلية .

يقول ابنُ الجَوْزِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

«من أراد اجتماع همِّه وإصلاح قلبه ؛ فليحذر من مخالطة الناس في هذا الزمان ، فإنه قد كان يقع الاجتماع علىٰ ما ينفع ذكره ، فصار الاجتماع علىٰ ما يضر ، ولقد جرَّبْتُ علىٰ نفسي مِرارًا أن أحصرها في بيت العزلة ، فتجتمع هي ، ويضاف إلىٰ ذلك النظر في سير السلف ، فأرىٰ العزلة حَمِيَّة ، والنظرَ في سِيَر القوم ، واستعمال الدواء مع الحمية عن التخليط نافع»[1] .

هكذا : حينما تمنع نفسك من العدوىٰ ، وتستعمل الأمصال والمضادات اللازمة ، مع تناول الأكل النافع ؛ حينئذٍ لن يتطرق إليك مرضُ القلبِ أبدًا .

---

(١) صيد الخاطر ، ص (٤٣٢ - ٤٣٣) .

فالحَمِيّة رأس الدواء، وهي العزلة.. وسيرة السلف هي الغذاء النافع لحياة القلوب.

ثم قال: «فإذا فَسَحْتُ لنفسي في مجالسة الناس ولقائهم؛ تشتّت القلبُ المجتمِع، ووقع الذهول عما كنتُ أراعيه، وانتقش في القلب ما قد رأته العين، وفي الضمير ما تسمعه الأذن، وفي النفس ما تطمع في تحصيله من الدنيا، وإذا جمهور المخالطين أربابُ غفلةٍ، والطبعُ بمجالستهم يسرق من طباعهم»(١).. نعم: الطِباعُ سَرَّاقة، والفِتَنُ خَطَّافة.

اعتزِل الناسَ شهرًا..

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].. ثم ألم يكن النبيُّ ﷺ في بداية الطريق إلىٰ ربه يذهب إلىٰ الغار ويترك الناس.. ليتفكر ويتعبد، وليعرف هدفه في هذه الحياة.

ولذلك أنصحك - حبيبي في الله - في بداية الالتزام أنْ تعتكف شهرًا في مكانٍ لا يعرفك فيه أحد.. اذهب فأدِ العمرة في بيت الله الحرام.. اعتكف في مسجدٍ بعيدٍ لا يعرفُك فيه أحد، لا يسألك فيه أحد: من

---

(١) صيد الخاطر، ص (٤٣٣).

أنت؟، أو ماذا تفعل؟.. اذهب إلىٰ أحد إخوانك الأحبَّاء في اللَّه، الذين يتمتعون بقدرٍ من الهدوء النفسي.. اذهب إلىٰ الريف عند أقاربك..

المهم أنْ تبتعد عن ضجيج مَنْ حولك مِمَّنْ يجتذبونك لطريق الغواية.. ابتعد عنهم ولازِمِ الخَلْوَة..

اذهب فاقضِ أكثر يومك في المكتبات العامَّة.. ابدأ في حفظ كتاب اللَّه تعالىٰ، تعلَّمْ كيف يُتلىٰ.. انضم إلىٰ معهد علمي لإعداد الدعاة.. كن منهمكًا في قراءة كتب العلم النافع.

ابدأ في قراءة سيرة السلف؛ فاقرأ مثلًا «صِفَةُ الصَّفوة»، وتصفَّح أكثر كتاب «سِيَر أعلام النبلاء».. تعلَّمْ عقيدتك الصحيحة؛ فاقرأ كتاب «معارج القبول» من أوَّلِهِ إلىٰ آخره.. اقرأ «فقه السنة» من أولهِ إلىٰ آخره.. اجلس في هذه الفترة - فترة العزلة -؛ لتقرأ وتتعلَّم.. لتصحح عقيدتك، وتصلح عبادتك، وتعرف مَثَلَكَ الأعلىٰ.

حين ذاك تُصبح مُحَصَّنًا؛ فمهما قيل لك بعد ذلك فأنت ثابت.. أَمَّا إِذَا تعرضتَ لكلام الناس من بداية ظهور لِحْيَتِك، وتردَّدَ كلام الناس وكَثُرَ علىٰ سمعك، فإنك ستهتز مع أول اصطدامٍ بالواقع.. فمع أول معارضةٍ ظاهرةٍ وقوية من المجتمع ستتخبط فلا تثبت.. لذلك اعتزل ولا تلتفت، وامْضِ حيثُ أمرك اللَّه سبحانه تعالىٰ، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

لماذا لا تَتَوَارىٰ؟!

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «فإذا عُدْتُ أطلبُ القلبَ لم أجدْه، وأَرُومُ ذلك الحضور فأفقده، فيبقىٰ فؤادي في غِمار ذلك اللقاء للناس أيامًا حتىٰ يسلوَ الهوىٰ. وما فائدة تعريض البناء للنقض؟!»(١).

لماذا لا تتوارىٰ حتىٰ يُتِمَّ اللهُ لك؟!.. ما فائدة أن تُعرِّض قلبك للناس فيردموه لك وأنت لا تَزال تُؤَسِّسه؟!.. خبِّئ قلبَكَ عنهم.. لِتَحُوطَه بالعزلة، وتستطيعَ أن تتفرَّغ لبنائه.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «فإنَّ دَوَامَ العزلة كالبناء، والنظرُ في سير السلف يرفعه، فإذا وقعت المخالطة انتقض ما بَنَىٰ في مدة، في لحظة، وصَعُبَ التَّلافِي، وضَعُفَ القلب.

ومن له فَهْمٌ يعرف أمراض القلب، وإِعْرَاضُه عن صاحبه، وخُرُوج طائره من قفصه. ولا يُؤْمَنُ علىٰ هذا المريض أن يكون مرضه هذا سببَ التَّلَف، ولا علىٰ هذا الطائر المَحْصُورِ أن يقع في الشَّبَكَة.

وسببُ مرضِ القلب أنه كان مَحْمِيًا عن التخليط، مَغْذُوًّا بالعلم وسير السلف؛ فخلط، فلم يحتمل مزاجه؛ فوقع المرض.

فالجِدَّ الجِدّ؛ فإنما هي أيام و ما نرىٰ مَنْ يُلْقَىٰ؛ ولا مَنْ يُؤخذ منه، ولا مَنْ تَنفع مجالسته، إلا أن يكون نادرًا ما أعرفه..

مَا فِي الصِّحَابِ أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُهُ ... حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلٌّ نُجَارِيهِ

---

(١) صيد الخاطر، ص (٤٣٣).

فالْزَمْ خَلْوَتَك ، و راعِ - ما بَقِيَتْ النفس - وإذا قَلِقَتِ النفس فاشتاقت إلىٰ لقاء الخلق ؛ فاعلم أنها بعدُ كَدِرَة ، فَرَضْهَا ليصيرَ لقاؤهم عندها مكروهًا .

ولو كان عندها شغلٌ بالخالق لما أحبت الزَّحْمَة ، كما أَنَّ الذي يخلو بحبيبه لا يُؤْثِرُ حضورَ غيرِه ، و لو أنها عَشِقَتْ طريقَ اليَمَن ؛ لم تلتفت إلىٰ الشَّام »[١] .

إخوتاه . .

هذا هو السبيل الأول : العزلة وترك الخُلْطة . . غَيِّرْ مجموعة الأصدقاء ، وابتعد عن الناس قدر الإمكان . . لا تناقش . . ولا تجادل . . ولا تناظر .

ولو كان ممكنًا لكان حَرِيًّا بِكَ فِعْلُه : أن تُحْضِرَ قطعةً من شريطٍ لَاصِقٍ عريض ، وتضعَها علىٰ قلبك ، وتكتب عليه بِمِدَادِ اليقظة : «مُغْلَق للتحسينات» .

إنَّ الطَّرِيقَ طويلٌ وَعْر . . فلا يَسْتَوْقِفَنَّك أَوَّلُ عَارِض . . امضِ وساعَتَها يَثْبُتُ بِنَاؤك .

* * *

(١) صيد الخاطر ، ص (٤٣٣ - ٤٣٤) .

ثانيًا : وجود مجموعة من الثوابت لا تقبل المناقشة

قضىٰ صاحِبُنا وقتًا طويلًا في معرفة نفسه ومناقشتها واكتشاف عيوبها ، ثم حصَلت له خطوة في العلاج أيضًا استغرقت منه مُدَّةً مَدِيدَة وهي العزلة الشعورية : استطاع فيها أن يُحَصِّل مجموعة من أصول علوم الدِّين في العقيدة والفقه والتفسير والسيرة وعلم السلوك .

فخرج من هاتين الخطوتين : (١) معرفة النفس ، (٢) والعزلة عن الخلق - بجملة من علوم الشريعة تُؤهِّلُه لأن يفهم دينه ويعمل بما فهم بوعيٍ وإدراك . فإذا حصل للإنسان ذلك أقبل علىٰ **الخطوة الثانية في العلاج** : وهي أن يلتزم بمجموعة من الثوابت التي لا تَقْبَل المناقشة :

فلا تمييع للقضايا . . ولا تقبُّل لكل شيء دون ضابطٍ أو دليل ، ولا سَيْرَ خلف أهواء الناس حيثما خَطَت أقدامهم ؛ فهذا لا يصلح . . إنما التَّمَسُّك بمبادئنا ، والالتزام بمنهجنا . . رَضِيَ الناسُ أم سخِطوا . . وهل نَوَدّ أن نكون ممن يُرضون الناس ويُسْخِطون اللَّه !!

وكثيرًا رأينا مَنْ دعا الناس علىٰ وَفْقِ أهوائهم ، وتأوَّلَ لهم ؛ تفاديًا للاصطدام مع عاداتهم ومألوفاتهم . . فما كان من هؤلاء إلا أنْ سقطوا بعد فترة يسيرة . . نعم : أمثال هؤلاء يقعون ولا يستمرون ؛ لأنَّه لم يكن التزامًا حقيقيًا ، بل هو الهوىٰ ، وليس هواهم في درك المعاصي فحسب ؛ بل قد يكون هواهم في الطاعات أيضًا . . قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فلابد من ثوابتَ عندك لا تَقْبَلُ الجدال ، لابد أنْ تكون صاحب منهجٍ ومبادئ ، وقضيةٍ تعيش من أجلها .

انظر إلىٰ سعد بن أبي وقاص ، وكان رجلًا برًا بأمه ، لما أسلم قالت له أمه : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ ، لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتىٰ أموت فتُعيَّرُ بي ، فيقال : يا قاتلَ أُمِّه ! ! ؛ فقال لها : يا أُمَّه لا تفعلي ؛ فإنِّي لا أدعُ ديني هذا لشيء .

فمكثت يومًا وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جَهِدت، فمكثت يومًا آخر وليلة ، حتىٰ ذكر أهل السير : أنهم كانوا إذا أرادوا أن يسقوها بعض الماء ليبقىٰ بها رَمَقُ الحياة ؛ وضعوا بين أسنانها خشبة ! ! فاشتد جَهْدُها ، فلما رأىٰ ذلك قال لها : يا أُمَّه ، تعلمين - والله - لو كانت لك مئة نفس فخرجتْ نفسًا نفسًا ؛ ما تركتُ ديني هذا لشيء ، فإن شئتِ فكلي وإن شئتِ فلا تأكلي .

فلما رأت ذلك أكلت. فنزلت هذه الآية ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥] .

وانتهىٰ الموقف . . لا توجد مناقشة، ولا جدال ، ولا تمييع ، ولا تعريض . . هناك أمور لا يمكن أنْ تُترك لأهواء الناس ؛ كأمور الانحرافات العَقَديَّة ؛ فقضايا مثل : التَوسُّل غير المشروع بالصالحين ، وسَبُّ الدِّين ، والاستهزاء بشرع الله تعالىٰ ، والاستعانة بالجن ، والكَهَانة والشعوذة ، والبِدَع المحدثات في العبادات والمناسك والأعياد والجنائز ، والمنكرات الفاحشة والكبائر الموبقات . . كيف بالله يمكن أنْ نُخضِعَ هذه الأمورَ لـ« قِيلَ وقال » ؟ !

نصحني أحدُ مشايخِنا عندما بدأتُ الدَّعوةَ إلىٰ الله ؛ فقال : إذا جاءك مَنْ يُريد أن يناقش في مسألة تحريم الخمر ؛ فلا تُعِرْهُ بصرَك ، ولا تلتفت له ، كيف يُمكنُ النّقاشُ في معلومٍ من الدِّينِ بالضرورة ؟ !

ففي الدِّين ثوابت لا تَخْضَعُ للتغيير ، وأمورٌ سكت عنها الشرع تُركت لاجتهاد أهل العلم في كل زمانٍ ومكان ، يَسَعُنا فيها الخلافُ طالما وَسِعَ سلَفَنا .

وهناك أمور للتَّمايُز ؛ كما هو الحال في مسائل الهيئات ؛ فَلِلْمُسْلِم هيئة تُميِّزُه عن باقي أصحاب المِلَلِ والنِّحَل ، هذا التمايز مطلوب . . وللمرأة حجابٌ شرعي بمواصفاتٍ معينة تفارق به غيرَ المسلمة . . ومخالفة أصحاب الجحيم أمرٌ ضروريٌّ نادىٰ به الشرع وأَكَّدَ عَلَيْه(١) ، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «خَالِفُوا المُشْرِكِين»(٢) .

وأمر ﷺ بمخالفة اليهود والنصارىٰ ، فقال : «يا مَعْشَرَ الأنصار ، حَمِّرُوا وصَفِّرُوا ، وخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَاب» ، قال : فقلنا : يا رسول اللَّه ، إنَّ أهل الكتاب يَتَسَرْوَلُون ولا يَأْتَزِرُون ؟ ؛ فقال رسولُ اللَّه ﷺ : «تَسَرْوَلُوا وائْتَزِرُوا وخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَاب» ، قلنا : يا رسول اللَّه ، إنَّ أهلَ الكتاب يَتخفَّفُون ولا يَنْتَعِلُون ؟ ؛ فقال رسولُ اللَّه ﷺ : «فَتَخَفَّفُوا وانْتَعِلُوا وخَالِفُوا أَهْلَ الكتاب» ، فقلنا : يا رسول اللَّه ، إنَّ أهل الكتاب يَقُصُّونَ عَثَانِينَهُم

---

(١) راجع في ذلك : كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية المهم «اقتضاء الصراط المستقيم بمخالفة أصحاب الجحيم» ؛ فهو أَجْمَعُ ما كُتب في قضية «الولاء والبراء» .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٥٨٩٢) ، ومسلم (٢٥٩) .

(لِحَاهُم)، ويُوَفِّرُونَ سِبَالَهُم (شَوارِبَهم)؟، قال: فقال النبيُّ ﷺ: **«قُصُّوا سِبَالَكُم، ووَفِّرُوا عَثَانِينَكُم، وخَالِفُوا أَهْلَ الكِتَاب»**[1].

وللرجل كذلك ضوابط شرعية في لباسه وهيئته لابد أنْ يتأدَّبَ بها.. نعم: ليس هناك زِيٌّ خاصٌ في الإسلام؛ فهذه مسائل تُركت لأعراف القوم؛ لكِنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُحِبُّ من الثياب البَيَاض، والقميص، ويَرْتَدِي القَلَنْسُوَة (الطَّاقِيَّة) والعِمَامة وكانت لِعَمَامَتِهِ ﷺ ذُؤَابَةٌ مِنْ خَلْفِه.. وكُلَّمَا كانت هيئتُكَ قريبةً منه ﷺ؛ فلا شك أنه حَسَنٌ تُؤْجَرُ عليه، ولو مِن بابِ المَحَبَّة.

أمَّا مَا جاء فيه الأمر كأمر توفير اللِّحَىٰ وقَصِّ الشارب؛ فلا يَسَعُكَ فيه المخالفة.. وهكذا باقي الأمور ليست تَبَعًا للأهواء؛ بل هو الشرع وأدلته، نسيرُ معه حيث سَار.

فإذا جاء والدك وقال: يا بُنَيّ، حافظ علىٰ الأسرة ولا تُسَبِّب لنا الأذىٰ، ويحاول أن يضغط عليك: إذا لم تَحْلِق لِحيَتَك، فسأُطَلِّقُ أُمَّك.

كأنَّك لم تسمع شيئًا، فالمرأة التي سَيُطَلِّقُهَا ليست مسؤوليتك، إنما هي زوجته، إذا طلقها فهو حر، هو لا يريد زوجة، فما له بي؟!.. وليس هذا من العقوق؛ لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

فدينَكَ دينَكَ؛ لَحْمُك ودَمُك، لا تُفَرِّطْ فيه؛ فهو أغلىٰ عندك من أيِّ أحد.. ولكن حذار من الأفعال الغَوْغَائِيَّة، وعدم التأدُّب في المعاملة؛

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٦٥)، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح.

بل ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وبِرُّ الوالدين فريضةٌ حتمية، لا فرق فيها بين والدٍ مسلم أو حتىٰ غير مسلم؛ لكن عند حدود الله فلا.

كذلك إذا أَمَرْتَ زوجتك بالنِّقاب، ومنعتَها من مصافحة غير المحارم؛ جاءوك ليجادلوك.. يقولون: لِمَ هذا التَّزَمُّت؟!.. أتخاف عليها من أخيك؟!.. هذا أخوك!!.. إنه لو رآها عاريةً لسترها؟!..

أما أنت فلا تناقش.. لأنك لو فتحت بابًا للمناقشة؛ فلن تنتهي معهم إلىٰ رأيٍ أبدًا.. أوامرُ ربِّك تُنفِّذُهَا علىٰ رَغمِ أَنْفِ الجميع أيًا كانوا.

مجموعة من المُسْلِمَات لا تقبل المناقشة؛ **حتىٰ يُحفَظ عنك**: «آسف، هذا الموضوع لا يقبل المناقشة».. ولا تلتفت لما يُلقىٰ إليك من سهام النقد؛ بل أَخلِصْ العمل وسيصرِفُ الله قلوبهم، وسيقولون: مستمسكٌ بدينه وفَّقَهُ الله.

أما أنْ يكون في قلبك دَخَنُ العُلُوِّ أو الكبر؛ فتتصرَّفَ معهم بدافع الغلظة وقسوة الطبع؛ فهذا لن يُجدي وسيزداد عليك الأمر وَبالًا.. فقط: أَخْلِصْ تَتَخَلَّص.

سيقولون بعدها: هذا فلان صاحب «آسف، هذا الموضوع لا يقبل المناقشة».. انتهت القضية - وكل قضية - من أول يومٍ بهذه الطريقة.

تدخل علىٰ ابنة عمِّك فتقول لك: أهلًا بكَ، وتَمُدُّ يدَها لتصافحك، وأنت واضعٌ يدك خلف ظهرك، تقول لها: غفرَ اللَّهُ لي ولكِ، وعفا اللَّهُ عني وعنكِ، تابَ اللَّهُ علينا وعليكِ.. ستقول عنك بأنك أصبحت

دَرْوِيشًا أو أنك أُصبت بجنون . . فليقولوا ما يقولون . . ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

الحياء في موضع عدم الحياء عجزٌ وفشل . . إنك إذا استَحْيَيْتَ منها اليوم، ومَدَدْتَ لها كُمَّ القميص؛ فغدًا سَتَمُدُّ لها ذراعك . . وبعدها ستَمْسِكَ هِيَ يدك بمزاحٍ وضحك . . وهذه ليست سلوكيات رجلٍ ملتزمٍ بدينه، يخشىٰ اللَّه من فوقه، يخاف أنْ يَحِلَّ عليه غَضَبُه ومَقْتُه، فيُطْرَدَ من رحمته.

رَحِمَ اللَّه سلفنا الصالح . . قالت أم محمد بن كعب القُرَظِيِّ له: يا بُنَيَّ، لولا أنِّي أعرفُك طيِّبًا صغيرًا وكبيرًا؛ لقلتُ: إنَّك أذنبتَ ذنبًا مُوْبِقًا، لِمَا أراكَ تَصنعُ بنفسك.

قال: يا أُمَّاه، وما يُؤَمِّنُني أنْ يكون اللَّه قد اطَّلعَ عليَّ وأنا في بعض ذنوبي؛ فمَقَتَنِي وقال: اذهب، لا أغفرُ لك[١].

أخي الملتزم . . حبيبي في اللَّه . .

فليكن هذا فقط شغلَك: رِضَا اللَّه تعالىٰ؛ ولو بسَخَط الناس . . تقول لأهلك وأصدقائك: ماذا أصنع إذا وَقفتُ بين يدي ربي فقال: كنتَ تعرف أنَّ هذا الفعل حرام فانتهكْتَه؟ . . ماذا أصنعُ لو أنَّ اللَّه رآني وأنا مُقيمٌ علىٰ الذنوب والمعاصي؟ . . ماذا لو طُردتُ من رحمته؟ . . ماذا لو مَقَتَنِي؟ . . ماذا لو كَرِهَني؟ . . ماذا لو سَخِطَ عليَّ؟ . . ماذا عساي أن

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٥-٦٦).

أفعل وقد قال الله : . . . . وقال رسول الله : . . . . وعند ذلك لن تجد أحدًا يُجادلك أو يُناقشك .

زوجتك أو ابنتك، من لحظة أن التزمت تقول لها : الْبَسِي النِّقَاب ؛ تقول لك : أنا لستُ مُقتنعة ؛ قل لها : الْبَسِي أَوَّلًا ثم أقنعكِ . . تقول لك : نتناقش، قل لها: لا توجد مناقشات ، الْبَسِي أَوَّلًا وبعدها نتناقش .

فليس من الحكمة أبدًا أن تترك زوجتك تمشي متبرجةً بعد سَنَةٍ من التزامك ، وتتركَها حتىٰ تقتنع !! . . الحكمة : الالتزامُ بالسُّنَّة . . يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]؛ «شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»(١) .

ولو قامتِ الدنيا كُلُّها علىٰ مسألةِ النِّقَاب مثلًا – وقد أثاروا فيها الجدال بالفعل ، وقالوا : إنه ليس من الإسلام – ؛ فأقوالهم جميعًا لا تُمثّلُ شيئًا بالنسبةِ لك ، فكلامهم دبَرَ الأُذُن ، وخَلْفَ الظَّهر ، وتَحْتَ النَّعْل ؛ لِأَنَّ مَثَلُهم كَمَثَل مِئةِ كَنَّاسٍ قاموا لِيُغبِّرُوا وَجْهَ الشمس بالتُّرَاب ! . . فإنَّ هذا التُّرَاب سيرجعُ علىٰ رءوسهم طِينًا ، ويبقىٰ وجهُ الشمسِ نظيفًا جليًا مُشرِقًا كما هو . معك كلام اللَّه وكلام رسوله . . أدلة واضحة علىٰ قولك ؛ فدعكَ من كلام البشر .

وتسأل ابنتك أو زوجتك كذلك ساعةَ صلاةِ العصر : هل صَلَّيْتِ العصر؟ ، تقول: لا ، قل: لماذا؟ ، تقول: كنت مشغولة ، قل : لا يوجد

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٠٢) ، وصححه الألباني (٣٤٥٧) في «صحيح أبي داود» .

شيء اسمه : كنت مشغولة . . إذا أُذّنَ للعصر فاتركي كُلَّ شيءٍ لكي تصلي .

تقول : ابني كان يبكي ، قل : دَعِيه ، تقول : الغداء سيتأخر ، قل : دعيه يتأخر ، الصَّلاة أوَّلًا . . قال تعالىٰ : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

لابد أن تكون هناك مجموعة من الثوابت التي لا تقبل المناقشة . . أنا لا أصافح النساء . . لا أحد يدخل علىٰ زوجتي إلا محارمها . . يُكَلِّمُك أخوك ليطمئن عليك ، ثم يقول لك : هات زوجتك أُكَلِّمْها ، فلا تستحِ من قول : لا . . بكل صرامةٍ وحَزْم .

إذا حان وقت الصلاة وأنت جالسٌ مع أبيك وأخيك وأقاربك ؛ فقل : هيا نُصَلِّي ، سيقولون : انتظر ؛ فأمامك مُتَّسَعٌ للصلاة ، أو اذهب ونحن سنُصَلِّي هنا . . أعرِضْ عن هذه الأقوال ولا تَرُدَّ عليها . . وكَرِّرْ كلمتك أنت : أقولُ لكم : قوموا لنُصَلِّي . . هيًا . . قوموا . . ثم تأخذ كُلَّ الرجال معك إلىٰ الصلاة ، حتىٰ ولو اتهموك بقلة الأدب والذوق ، هذا لا يهمك ، المهم هو : ماذا أنتَ عند الله ؟ . . هذه هي القضية . . والتزم غاية الأدب والتوقير والاحترام ؛ ولكن دون تضييع للدين وطاعة الله والرسول .

يجب أن تكون حازِمًا حاسِمًا قويًا . . والقوة الحقَّة : قُوَّةُ الإيمان . . فأين قوتُك في الحَقِّ يا مؤمن ؟!

وحقيقة الإيمان تلوح بالمواقف ، قال رسولُ اللّه ﷺ : «الْمُؤْمِنُ

القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ»[1] .

وإنْ وجدت في نفسك خَوَرًا وعَجْزًا ؛ فالزم التَّضرُّعَ والدُّعاء :

أخبر أنسُ بنُ مالك ﷺ - وكان خادِمَ رسولِ اللَّه ﷺ - : كنتُ أسمعُه كثيرًا يقول : «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ ، والبُخْلِ والجُبْنِ ، وضَلَعِ الدَّيْنِ ، وغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[2] .

إخوتاه . .

وفي ذات الوقت يكون التعامل بالرِّفْق ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال ﷺ : «**مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَمُ الخَيرَ**»[3] . . فلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَرْفُقُ بِغَيْرِه .

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، ويُعْطِي عَلَىٰ الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ العُنْفِ ، ومَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ مَا سِوَاه**»[4] .

قال الغَزَّاليُّ ﷺ : في «الإحياء» «الرِّفْقُ محمود ، وضِدُّهُ العُنْفُ والحِدَّة ، والعنف يُنتجه الغضب والفَظاظة ، والرِّفْقُ واللِّين يُنتجهما حُسْنُ الخُلُق والسَّلامة ، والرِّفْقُ ثمرةٌ لا يُثمرها إلا حُسْنُ الخُلُق ، ولا يَحْسُنُ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) .

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) .

الخُلُقَ إلا بضبطِ قُوَّةِ الغضب وقُوَّةِ الشَّهْوة، وحفظهما علىٰ حَدِّ الاعتدال؛ ولذلك أثنىٰ المصطفىٰ ﷺ علىٰ الرِّفْقِ وبَالَغَ فيه» اهـ.

وانظروا إلىٰ هَدْيِ نبيِّكم مُحَمَّدٍ ﷺ وأدبِهِ مع قُوَّتِه.. فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رَهطًا مِنَ اليهود استأذَنَ علىٰ النبيِّ ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك، فقلتُ: بل عليكم السَّامُ واللَّعْنَة؛ فقال: «**يا عائشة، إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّه**». قلت: أَوَلَمْ تَسْمَع ما قالوا؟!؛ قال: «**قُلْتُ: وَعَلَيْكم**»[1].

فلا فظاظة ولا غِلظة ولا تَعنيف.. بلِ الرَّدُّ بِلُطْفٍ وحِكْمَة، مِن غيرِ سُكُوتٍ علىٰ باطل، وبدون حِدَّةٍ في التعامل، فما دَخَلَ الرِّفْقُ في شيءٍ إلا زانه، وما نُزِعَ من شيءٍ إلا شَانَه.. وليس معنىٰ أَنْ تكونَ حازِمًا أَنْ تَضْرِبَ وتَشْتُمَ وتَسُبَّ وتُعَنِّف.. فقط: عليكَ أَنْ تَسْتَقْوِيَ.. لِأَنَّكَ لا حَوْلَ لكَ ولا قُوَّة.. إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ.

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه، البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

ثالثًا : التغيير لا الترقيع

تَصَوُّر الإسلام للحياة :

هناك حقيقة يجب أن يفتخر بها المسلمون ، ويعلموها تمامَ العلم عن دينهم وشريعتهم العظيمة ، وهي : أنَّ للإسلام تصورًا مستقلًا للوجود ، ورؤيةً خاصَّةً للحياة .

فهو دينٌ له أصولٌ وجذور ، تَخرج منها ثمارٌ وزروع ؛ فهو عقيدةٌ وشريعةٌ ومنهجُ حياة ، وعلىٰ هذا المنهج يقومُ نظامٌ ذو خصائصَ معينة .

وبَلِيَّةُ الناس اليوم أنهم لا يعرفون الإسلام ، والذين يعادونه - سواءٌ من أبنائه أو من غير أبنائه - إنما يعادونه لجهلهم به . . وكما قيل : « الإنسان عَدُوُّ ما يَجهل » . . فواللّٰهِ الذي لا إله إلا هو ، لو عرفوه لأحبُّوه ووالَوْه .

نعم : للإسلام تصورٌ مستقلٌ خاص ، وهذا نفهمه من قول اللّٰه جل وعلا : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، لا يهودية ولا نصرانية ؛ بل كما وصف اللّٰه جل وعلا ، ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥].

إنه دينُ الاعتدال والوسطية ، وهو المنهج الوحيد الذي يصلح لإدارةِ هذه الحياة ، بدون زيغٍ أو ميلٍ لأهواء طبقةٍ أو فئةٍ معينةٍ من البشر ، فكل مناهج البشر التي جرَّبوها لإدارةِ حياة الناس ثَبَتَ فشلها .

مَرَّةً يقفون بجانب الفقراء، وتارَةً يقفون وراء الأغنياء!!.. جرَّبوا الرأسمالية، وجرَّبوا الشيوعية، ثم طريقة نصف اشتراكية، وديمقراطية، وعلمانية.. كل هذا لم يَفلح، ولن يَصْلُحَ إلا نظامُ اللَّه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وينبغي أن تعتقد - أيها المسلمُ - يقينًا أَنَّ نظام الإسلام لا شيوعية، ولا رأسمالية، ولا ديمقراطية ولا.. ولا.. إنما هو نظام الإسلام، ومخادعٌ مَنْ يقول لك خلاف ذلك، ألم يقولوا في السِّتينيات: إنَّ النظام الاشتراكي هو النظام الذي نادىٰ به الإسلام، فلمَّا انقلبت المعايير الدولية والاتجاهات القومية؛ خرجوا يقولون: لا.. النظام الديمقراطي هو الشورىٰ التي يأمرنا بها الإسلام.. وغيرها.. وغيرها.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣].. أسماءٌ تُلصق بالإسلام، والإسلام منها بَرَاء.. فاحذر هذا الفكر وتلك الأنظمة والتيارات.. وكن سَلَفِيًّا علىٰ الجادَّة، لا يتلاعب بك الأهواء، واحذر مَكْرَ الليلِ والنهار؛ إذ يأمرونكَ أَنْ تجعلَ للَّه أندادًا ليصدُّوا عن سبيلِه[١].

---

(١) أنصح جميع الإخوة بقراءة كتاب «تيارات فكرية في المِيزان»، للأخ الحبيب الدكتور علاء بكر؛ فالمسلمون - والملتزمون خصوصًا - لابد أن يكونوا علىٰ علمٍ وإلمامٍ بالفكر المعاصر، وهذا الكتاب - بفضلِ اللَّه - شاملٌ يكفي.
ويا حبَّذا لو قرأتَ معه لشيخ العربيةِ وحارِسِها الشيخ العلَّامة الأستاذ محمود محمد محمد شاكر كتابَه الدَّامِغ «أباطِيل وأسْمَار». قال عنه الأستاذ محمود محمد الطَّنَاحِي - عليه رحمةُ اللَّه - في (المدخل/ ص ٧٢): «واقرإ الكِتَابَ كُلَّهُ تَزْدَدْ بَصِيرًا بتاريخِ أُمَّتِك، ومَكَائِدِ أعْدَائِها».

المسلم الملتزم لا يعرفُ التخليط :

والمسلم الملتزم تَبَعًا لهذا المنهج الفريد والتصور المستقل ؛ ذو شخصية ذات ملامح معينة ، لا تعرف التخليط ، ولا الامتزاج بالباطل ؛ فهذه الأمة تُغاير سائر الأمم الأخرىٰ ، والإسلام لا يقبل أنصاف الحلول ، لا من ناحية التصور ، ولا من ناحية الأوضاع ، فالأمر إما إسلام وإما جاهلية . . فليس هناك شيءٌ يقبله الإسلام بنصفه الجاهلي .

ليس للإسلام إلا منظور واحد لا يتعدد، وليس بعد الحق إلا الضلال، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

هذا كلام الله : ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

قال الله تعالىٰ في محكم تنزيله : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وهكذا : فإما إسلام ، وإما أهواء . . بدون تخليط . . أَمَّا أهواءٌ «مُؤَسْلَمَة» فلا .

الارتفاعُ بالناس وعدمُ الهبوطِ معهم :

إخوتاه . .

قال اللّه تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

فالإسلام إذا عُرِض علىٰ الناس طُلِبَ منهم الانتقال إليه جملةً واحدة ، فيجب أن تقف مع نفسك ، وتقول : يا نفس ، لا أنصاف حلول، إما التزام بالكلية ، وإما البقاء في طينٍ وأذىٰ وعِمايةِ الجاهلية ، أما نصف حق مع نصف باطل فلا .

لذلك نحن نَعيب علىٰ كثيرٍ من المناهج التي تَنزل علىٰ رغبات الناس ، فيقولون : تعال فالتزم ، وإذا أردت أنْ تُدَخِّنَ سيجارة فسنسمح لك أن تخرج في خمس دقائق وتدخن سيجارة ، تعال والتزم . . ما هي مشكلتك؟ «التلفاز» ، عندنا - أيضًا - يوجد تلفاز ، المسرح؟ ، يوجد مسرح ، أغاني؟ ، عندنا أناشيد إسلامية (زعموا!! . . معازف واضحة وأصوات تَخضع بالقول ثُمَّ هي إسلامية؟!!) . . رحلات؟ ، عندنا رحلات . . لا حول ولا قوة إلا باللّه . . سبحانك هذا بهتانٌ عظيم .

الإسلام قِيمة ، الإسلام أصل ؛ فعندما يلتزم الإنسان لا توجد له بدائل جاهلية ، لا يُوجد عنده «فرح إسلامي» علىٰ غِرار الفرح الجاهلي ؛ إنما يلتزم الإنسان فيُسَلِّمَ نفسَه ، وينتقل تمامًا من الجاهلية إلىٰ الإسلام .

كثيرًا ما أقول: إنَّ الإسلام لا ينزل إلىٰ أهواء الناس، ولا يتبع أهواءهم، ولا يخضع لعواطفهم، أو ينصاع لرغباتهم..

أيُّ إسلام هذا الذي يهبط إلىٰ حضيض الناس ودنوِّهم؟!.. الإسلام لا ينزل إلىٰ رغبات الناس؛ لذا يجب علينا أن نرتفع بالناس إلىٰ أُفقِ الإسلام السَّامي، لا نهبط معهم.. ويجب أن يكون هذا أمرًا مُسَلَّمًا به.

فحين نَعرض الإسلام، أو نَقبله؛ علينا أنْ نتعامل مع أحكامه بعزَّة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤]، إنه ليس لعبًا أو لهوًا.. وليس عبثًا أو تهريجًا.. إنه إسلام.

انتبه- أخي في الله-: إن الإسلام لم يأتِ ليوافق شهوات الناس المتمثلة في تصوراتهم وأهوائهم، وعاداتهم وتقاليدهم، سواء ما كان إبَّان الجاهلية الأولىٰ، أو ما تخوض فيه البشرية اليوم في الشرق والغرب من ضلالٍ مُبين؛ بل جاء الإسلام بمخالفة الهوىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]..

جاء الإسلام ليُلغيَ هذا كله إلغاءً، ويَنْسَخَهُ نَسْخًا، ويُقيمَ الحياةَ علىٰ أُسُسِهِ الخاصة وقواعده الخاصة؛ لِيُنشِئَ الحياةَ إنشاءً، ينشئ حياةً تنبثقُ منه انبثاقًا.

وقد تُشابه جزئياتٌ في الإسلام جُزئياتٍ في الحياة التي نعيشها اليوم

في جاهلية، ولكن ليست هِيَ هِيَ، وإنما هو مجرد تَشابه جانبي في الفروع، أما أصل الشجرة فمختلفٌ لا يُسقىٰ بماءٍ واحد.

فمثلًا: البيوت التي يسمونها: عائلات محافظة، عندما يأتي ضيوف؛ يجلس الرجال وحدهم، وتجلس النساء وحدهن، نعم: الإسلام أمرَ بهذا؛ لكن ليس هذا هو الإسلام، الإسلام حين يأمر بهذا يأمر به لغرضٍ آخر.

إنَّ الذي كان يفعل ذلك قبل الالتزام رجولةً وحَميَّة، أو لأنه لا يُحِبُّ أن يجلسَ شخصٌ مع زوجته؛ إنما فعل ذلك لأغراضه الشخصية، أما حين يلتزم فإنه يفعل ذلك امتثالًا؛ لأن اللّٰه أَمَرَ به.. فهو تشابهٌ ظاهريٌّ فرعي؛ أما الأصلْ فمختلفٌ تمامًا.

شجرةٌ ترويها وتَسقيها آياتُ اللّٰه، وشجرةٌ أخرىٰ تَرويها وتَسقيها أهواءُ البشر، هل تستويان؟!!

حينما يكون لهذا الرجل - قبل الالتزام - صديقٌ طيبٌ ومهذب، تجده لا يُمانع أن تصافح زوجته هذا الصديق وتجلس معه، أما شخصٌ آخر فلا يسمح له بالجلوس معها.. لماذا؟، إنه الهوىٰ.. والخَبَث.. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

لكنَّ اللّٰه ربَّ البشر، يعلم طبيعة تكوين الإنسان، ويعلم كيف تستجيبُ القلوب حين تَصْدع بالحق صَدْعًا بكل قوةٍ دون تَلَعْثُم؟، فهو الذي خلق النفس البشرية وهو الذي أتاها بهذا الدِّين، وأمرَها أن تلتزم به.

الله هو الذي خلق الكون، وشرَّع الشرع، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب.. ألا يعلمُ كيف يَصْلُحُ حالُ البشر، وكيف يُدْعَىٰ البشرُ إلىٰ الإصلاح؟!، بلىٰ، وهو العليمُ الحكيمُ الخبيرُ سبحانه.

لذلك يجب أن ندعوَ إلىٰ الإسلام بعِزَّة، ونرفعَ الناس إلىٰ أُفُق الإسلام السَّامي، سيقولون: إذًا فلن يلتزم أحد؛ أقول: لستم أعلمَ مِن الله، ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، بلِ اللَّهُ أعلم.. نعم: إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ الذي خلق النفس البشرية أعلمُ بما يُصلحها ويُهذِّبها.. وينفعها في دنياها وأُخراها.

نتائِجُ التَّرقِيع.. أَشْبَاهُ ملتزمين:

أيها الإخوة..

انتبهوا لتفقهوا هذه المسألة الخطيرة التي ضلَّ فيها كثيرٌ من الناس اليوم.. «مسألة الترقيع».. إنَّ الإسلام - أيها الإخوة - دينٌ تغييريٌّ لا ترقيعَ فيه.

لقد كانوا يُسمُّون النبيَّ محمَّدًا ﷺ: المُفرِّق!!.. وكان من أَمْيَزِ أوصاف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه الفاروق؛ يُفرِّق بين الحق والباطل، بين «الجاهلية» و«الإسلام».. وعلىٰ هذا فكونوا.

ولا يأتي بعضُ أصحاب المناهج ليقول: نحن لا نتحدث فيما فوق السماء أو تحت الأرض؛ لأن «العِلم» يُفرِّق!.. لا يا أخي، الجهلُ هو الذي يُفرِّق المسلمين.. ومِنْ أخبث ما سمِعْتُ مِن هؤلاء حينما يُقال

لأحدهم: تَحَدَّثْ عن العقيدة: (عقيدة ماذا؟!، الإسلام ليس فيه عقيدة)، انظر إلىٰ هذه المصيبة!!.. وبعضهم قد يكون من أكثر الناس بذْلًا في دعوة الناس إلىٰ الإسلام، وإدخالهم المساجد، ولكِنْ دعوةٌ بهذا المنهج الفاسد لا تَصْلُحُ أن تكون هي دعوة النبيِّ محمد ﷺ وأصحابه.. إنَّ أيَّ دعوةٍ - أيها الإخوة - لا تنطلقُ ولا تبدأ بالعلم ليست بدعوة.

إننا حينما ندعو الناس إلىٰ الإسلام فينفرون منا؛ يجب ألا نتبئس كما أُمِرَ نبيُّ اللَّه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين دعا قومه ثم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦].

فقال له اللَّه جلّ وعلا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [هود: ٣٦].. فلا يَضُرَّك هذا الذي تراهُ اليوم.

فإنَّ النفس البشرية فيها استعدادٌ للانتقال من حياةٍ إلىٰ حياة، وذلك أيسرُ عليها من التعديلات الجُزئية، لماذا؟؛ لِأَنَّ الانتقال من نظامٍ ناقصٍ إلىٰ نظامٍ كامل، من نظام أدنىٰ إلىٰ نظام أعلىٰ منه وأنظف وأكمل؛ انتقالٌ له ما يُبرره في منطق النفس.

ولكِنْ ما الذي يَدفع النفس إلىٰ الانتقال من نظام الجاهلية إلىٰ نظام الإسلام، إذا كان نظام الإسلام لا يريد إلا تعديلًا بسيطًا هنا، أو تغييرًا طفيفًا هناك؟!.. تدبَّرْ معي!

إنَّ الثبات علىٰ النظام المألوف أقربُ إلىٰ المنطق؛ لأنه - علىٰ الأقل - نظامٌ قائم، قابلٌ للإصلاح والتعديل، فلا ضرورة لطرحه، أما الانتقال لنظامٍ غير قائم، وغير مُطبَّق؛ فذلك شيءٌ آخَر.

ويمثالٍ أوضح أكثر فأقول: دعني أُجرِّب، سأدعو شخصًا إلىٰ الالتزام وأقول له: عندنا «أغاني»، وتلفاز و«فيديو» و«دش».. الخ؛ فلن تشعر بحَرَجٍ ولا تَعَنُّتٍ كما تعتقد!!

فلو كان هذا الإنسان عاقلًا فسيقول: ولماذا ألتزم إذًا؟! طالما أنَّ هذا مثلُ هذا، تقول: ولكن هذا نظامٌ إسلاميٌّ وذاك نظامٌ جاهليّ، يقول: إن هي إلا أسماءٌ سميتموها، وما عندكم نسميه تَطَرُّفًا، ولو تركتُ ما أنا عليه وكنت معكم فسوف أصبح مُتطرِّفًا وأَفقدُ حياتي؛ فالأفضل أن أبقىٰ كما أنا، «ما دامت أغاني بأغاني ومسرح بمسرح».. أليس الأمر كذلك - أيها الإخوة؟!!

أما إذا قلت لإنسانٍ آخر: تعال، وانتقل إلىٰ نظام يختلف عما أنت عليه تمامًا.. عندنا لابد من لِحْيَة للرجل، ولابد للمرأة من الحجاب الشرعي «النقاب» وما يلزم من الالتزام، وهذا فرضٌ حَتْمٌ لازمٌ ولا يوجد عندنا موسيقىٰ ولا غناء ولا تلفاز ولا تمثيل ولا اختلاط ولا حفلات ولا رقص ولا أموال من الحرام؛ بل إنك إذا التزمت معنا أَخْضَعْتَ كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياتِك: لأحكام الشرع والدين: يجوز أو لا يجوز حلال أو حرام..

ولا يوجد عندنا إلَّا.. صلاةٌ، وصيامٌ، وصدقةٌ، وذِكْرٌ، وصِلةٌ، وبِر.. عندنا الأصل: أن تقوم الليل لتدعو الله، فإن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل نزولًا يَليق بجلاله وكماله؛ فيقول جَلَّ وعلا:

«مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَه، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَه، مَنْ يستغفرُنِي فَأَغْفِرَ لَه»[١]، فتقومَ لتستشعرَ القُرْب، وتَفيضَ عليك الرَّحَمات؛ فتشعرَ بلذةِ الإيمان، وحلاوة الإيمان. فيستريحَ قلبُك وينشرحَ صدرُك.

وصدق - واللَّهِ - إبراهيمُ بنُ أدهم حين قال: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه مِنَ النعيم؛ لجَالَدُونا بالسيوفِ أيامَ الحياةِ علىٰ ما نحنُ فيهِ مِنَ لَذِيذِ العَيْش.

نعم - إخوتاه -: لابد أن نكون واضحين مع مَنْ ندعوهم؛ لِأَنَّ ديننا واضحٌ لا غُمُوضَ فيه.

ولابد أن يَعلمَ الناسُ أنه ليس في الإسلام باطلٌ أو شر، وأنه ليس في الجاهلية أيُّ خير.. وأَنَّ السعادة كُلَّ السعادة في الالتزام بهذا الدِّين.. وأَنَّ القيود الحقيقية هي قيود الجاهلية.. فعندنا لا ذُلَّ ولا خُضُوعَ لأحدٍ إلا للَّهِ رَبِّ العالمين.

فلن تخضع لمُدِيرِكَ لأنك تَبغي الترقية وعلو المنصب، بل تُوقن أنَّ الناس لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك فلن ينفعوك إلا بإذن اللَّه؛ فتلجأ إلىٰ اللَّه وتَذَرَ شأنَ الناس.

ولن تَذِلَّ لامرأةٍ تُحبُها؛ لأنك ساعتها لن تعرف إلا حُبَّ الودودِ جَلَّ وعلا، ولن تُحِبَّ أحدًا إلا فيه، فتسكنَ نفسُك، وتطمئنَ في كَنَفِ اللَّه تعالىٰ، فإن أَحْبَبْتَ زوجتك أحببتها للَّه، وناصيتُها وقلبُها بيد اللَّه.

---

(١) متفق عليه، البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

عندنا أنك إذا نزل بك هَمٌّ أو حُزنٌ ، أو شعرت باكتئاب ؛ فليس الحل أنْ تُدمن المخدرات أو تصاحب العاهرات أو تتسكع في الطرقات ؛ بل إذا حزبك أمر فاهرع إلىٰ الصلاة . . تسجد وتتقرب ؛ فتشعر براحةٍ كبيرة . . ترفع يديك إلىٰ السماء وتدعو اللَّه جل جلاله ، فيكشفَ ما بك من سُوء . . تُمسك بمصحفك وتقرأ فَتُدَاوِي جراحاتِ نفسِك .

بعد أن كنت منضبطًا علىٰ مواعيد الأفلام والمسلسلات ؛ سوف تنضبط نفسُك علىٰ مواعيد الصلاة، سوف تقول: نلتقي في صلاة العصر ، نتقابل في المسجد في صلاة الظهر ، لا أستطيع أن أقابلك يوم الأربعاء ؛ لأن لَدَيَّ دَرْسًا في مسجد كذا . .

وبعد إدمان السجائر والمخدرات والخمر ؛ سيكون التحميد والتكبير والتهليل والتسبيح دَأْبَك وَدَيْدَنَك ، وستكون لذةُ الإيمان أعظمَ لذةٍ عندك .

بعد أن كنت ترافق هذه وتلك ، وتمشي في الشوارع تعاكس النساء ؛ ستصبح دعوةُ الشباب في الشارع لدخول المساجد شُغْلَك الدائم ، وسيكون النظر لبديع خلق اللَّه في الكون من سماء وكواكب ونجوم ، وجبال راسيات وأراضٍ مُسطَّحات ، وبحار وأنهار ، ونخيل وأشجار . . سيكون هذا التأمل شاغلًا لك عن هذه المنكرات . . وستجد في النظر إلىٰ الكعبة في بيت اللَّه الحرام أعظمَ نعيم ، وفي النظر إلىٰ المصحف جَنَّةً وفرحةً وانشراحًا كبيرًا لصدرك . .

بعد أن كنت تحب قراءة المجلات الفنية ؛ لتطالع أخبار المُطربين والمُطربات ، والمُمثلين والمُمثلات والراقصين والراقصات من أهل

الفجور والعصيان؛ ستجد متعةَ المُتَع في قراءة سيرة النبيِّ محمد ﷺ، وقصص الأنبياء وسيرة الصحابة ﭫ، وأخبار السلف الصالح الكرام.

بعد أن كنت تُفاخر بالمطرب فلان، ولاعب الكرة فلان، وتقلِّدُهُ وتتشبَّهُ به؛ ستعرِف أنَّ النبيَّ محمدًا ﷺ قال: **«مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم»**[1]، وأنَّه ﷺ قال: **«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»**[2].

سيكون شوقُك وغرامُك وحبُّك الدَّافق؛ للحبيبِ محمدٍ ﷺ، ولأبي بكرٍ وعُمَر، وعثمانَ وعليّ، وطلحةَ والزُّبَيْر، وسعدٍ وأبي عُبَيْدَة، وسعيدٍ وأَبي ذَرّ، وأبي هُريرة وابنِ عُمَرَ، وابنِ عباسٍ وابنِ عَمْرو.. سيملأون جَنَبَاتِ قَلْبِك.. فهُمْ خَيْرُ الأَحِبَّة.

ستنتقل من سماع أشرطة فلان من المُغنيين إلىٰ سماع أشرطة فلان وفلان من العلماء والدعاة إلىٰ اللَّه تعالىٰ..

إخوتاه..

اعلموا أنه قد يقولُ قائِل: ومَنْ يتحمَّلُ كُلَّ هذا؟!!، هذا شَطْحٌ في التصور، وغِيابٌ عن الواقع المعاصر!!

وأقول: واللَّهِ إني لأعلمُ الواقعَ جَيِّدًا، وهذا واللَّهِ ليس شَطْحًا ولا إفراطًا، ولا ضَرْبًا من المِثاليَّة الخيالية؛ بل هو الحق الذي ابتعد

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وصححه الألباني (٦١٤٩) في «صحيح الجامع».
(٢) متفق عليه، البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤١).

الناس عنه طويلًا ؛ فصاروا اليوم يستثقلونه ، ولو أنصفوا لاختاروا طريق الهداية كما هو ، وإلا فإنَّ الترقيع لم يُثمر لنا إلا تلك المُسوخ الشائهة من أنصاف المُلتزمين ؛ بل أشباه الملتزمين !!

الإسلامُ لا يَقبل إلا الرجال ، رجالًا ذوي همم كالجبال . . فهذا دينٌ عزيز لا يَنبغي إلا لإنسانٍ نظيف ، يَتبعُ طريقَ الحقِّ الواضح ، دون عِوَجٍ أو ترقيع . . ولو تمارىٰ الناسُ واتَّبعوا الباطل ؛ فلن تَغيب شمسُ الإسلام ما دامت السمواتُ والأرض . . قال رسولُ اللَّه ﷺ : **«لا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ ، حتىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وهُمْ ظَاهِرُونَ»**[1] .

وظيفتنا في التغيير . . كيف تكون؟ :

إخوتاه . .

لسنا في حاجةٍ إلىٰ أن نمسك العصا من الوسط ؛ فنعيش «جاهلية وإسلام» ، «إيمان مع كفر» ؛ فهذا في عُرْفِ الإسلام نفاق ، وقد قال اللَّه تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣] . .

لسنا في حاجةٍ إلىٰ دينٍ في الظاهر لا دليل عليه من الباطن .

إنَّ النبيَّ ﷺ اشترط عليه المشركون في صلح الحديبية : أنَّ من جاءه مسلمًا يَرُدُّه ، ومن جاءهم كافرًا لا يَرُدُّوه ، فلم يشترط النبيُّ ﷺ أنه إذا

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٧٣١١) ، ومسلم (١٩٢١) .

جاءهم رجلٌ كان مسلمًا أن يردوه، فمن كفر فعليه كفره، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨].

نعم: نحن مُهتمُّون جدًّا بأن يُؤمِنَ الناس، ومُصَمِّمون علىٰ أن يلتزم الناس، ولكن بدون تنازلات؛ فنحن لا نقدم تنازلاتٍ في ديننا مطلقًا مهما حدث؛ إنما ينبغي أن يلتزم الناس علي أمر اللَّه ونهيه، لا علي أهوائهم.

إخواتاه..

إنَّ وظيفتنا الأولي هي إحلال العقائد الإسلامية، والتصوّرات الإسلامية، والأحكام الإسلامية مكان هذه الجاهلية.. أن ندفن الجاهلية تمامًا.. أن نغيِّر ثوب الجاهلية المتقطع البالي، فنخلعه ونلقيه عنا، ونرتدي ثوب الإسلام الطاهر النظيف الجميل، لا نُرَقِّعَ ثوبَ الجاهلية بِقِطَعٍ جميلة من الإسلام.

إنني أرىٰ ذلك فعلًا واللَّهِ وواقعيًا حين أرىٰ متبرجة تُمسِكُ مصحفًا وتقرأ فيه، أو حَشْدَ شبابٍ وفتياتٍ في اختلاطٍ مَهِين ومناظرَ مُؤذية لسماع درسٍ في الدِّين من أحدِ الدعاة «المودرن» المشاهير!!.. هذا فعلًا هو الترقيع..

ثوبٌ قبيحٌ قَذِر؛ ولكنه مُرَقَّعٌ بِقِطَعٍ جميلة..

وأعجبُ التَّرَاقيع الحديثة - أو التقاليع كما يقولون - أن نرىٰ متبرجةً تُمسِكُ مِسْبَحَةً في الشارع!!

ولكل هؤلاء نقول: الإسلامُ كُلٌّ لا يتجزَّأ.. الإسلام لا يُؤْخَذ

بالتقسيط، وللأسف! صار الناس من كثرةِ إِلْفِهم للتعامل بالتقسيط في المعاملات المادية - صاروا مع الدِّين كذلك؛ فالعادة الغالبة أنّه يأخذ السلعة بالتقسيط فيدفع المُقَدَّم وقِسطًا أو قِسطين ثم تراه بعد ذلك يُمَاطِلُ في السَّدَاد.

وبِمثلِ هذا يريد أن يلعب بدينه، يصلي.. يصوم.. ثُمَّ تقول له: لا للرِّبا.. لا للمال الحرام بكافة أشكاله.. لا لرفاق السوء؛ فيبدأ في المماطلة، يريد من الدِّين أنَّ اللَّه عفوٌ كريمٌ رحيمٌ ودود، ولا يريد أنْ يعامله بعزته وقهره وجبروته وكبريائه.. عَوَرٌ في التصور.

وفي الملتزمين ترىٰ الدِّين عند البعض هو الدعوة، وعند البعض هو العلم، وعند البعض هو العبادة، وعند البعض إقامة الدولة.. وفرَّط في باقي الجوانب.. ليس هذا هو الدِّين.. الدِّينُ هو العلمُ والعملُ والعبادةُ والدعوةُ والجهادُ للتمكين.. الدِّين كُلٌّ.. قال ربِّي - وأحقُّ القولِ قولُ ربِّي -: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ أي خذوا الإسلام بِكُلِّيَّاتِه، واعملوا بكُلِّ ما فيه مِنْ بِرٍّ[1].

شرطُ التخلُّص.. عدمُ المُجَارَاة:

إخوتاه..

لن يتحققَ التخلُّصُ من رواسبِ الجاهلية بمجاراة الجاهلية، والسيرِ معها ولو خطواتٍ في أولِ الطريق.. وقد يُخيَّلُ للبعض أنَّ هذا يَعني

---

(١) راجع: الأصل الثاني والعشرين «لا تتجاهل جانبًا واحدًا من الدين» من كتابنا «أصول الوصول إلىٰ اللَّه تعالىٰ».

إعلانَ الهزيمة من أول الأمر . . أعترفُ معكم أنَّ ضغطَ التقاليد الاجتماعية نعانيه جميعًا كما تُعَانُون ؛ ولكن ليس معنىٰ هذا أن نستسلم ؛ بل كلما ضغطت علينا الجاهلية بعاداتِها وتقاليدِها وتصوراتِها ؛ كلما زاد تمسُّكُنا بالتزامنا .

قال النبيُّ محمَّدٌ ﷺ : «**يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِم عَلَىٰ دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَىٰ الجمر**»[1] . . فهل قال النبيُّ ﷺ : ارْمِ الجمر أم قال : اقْبِضْ ؟ ! ؛ قال : اقبض عليه ، وتحمَّلْ شدَّةَ حرارته في باديء الأمر ، ثُمَّ سيجعله ربُّكَ بردًا وسلامًا بالصَّبْرِ والصِّدْقِ والاحتساب .

نعم : نعيش جَاهليةً تَضغطُ علينا ؛ ولكن لابدَّ أن نثبُتَ أوَّلًا ، وأَنْ نستعلي ثانيًا ؛ فنُرِي الجاهليةَ الفرق بين الدَّرْك الذي هِيَ فيه وبين المعاني العظيمة المُشرقة للحياةِ الإسلامية التي نُريدها .

إخوتاه . .

إذا دخلتْ إحدىٰ قريباتك ، ومدت يدها لتصافحك ، فقلت : لا ، أنا لا أصافح النساء ، ثم أَلَحَّ عليك أهلُك ؛ فلا ترجع لتصافحها ، اثبت ، ولا تهدم كل ما صَنَعْتَ ، وسيقولون بعد ذلك : دَعُوه في حاله ؛ فإنه لا يصافح النساء ، وربما يقولون : مُعَقَّد . . أو مُتزمِّت . . أو متشدد . . لا إشكال ، هذا شأن الغُرْبة ، والنبي ﷺ يقول : «**طُوبَىٰ لِلْغُرَبَاء**»[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠) ، وصححه الألباني (٨٠٠٢) في «صحيح الجامع» .
(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) .

سيعرف القوم أنك لا تصافح النساء، وأنَّ زوجتك لا تنكشف علي غير محارمها، وأنَّك لا تمزح بكلام ماجن، وأنك لا تجلس في مجالس التلفاز، وأنَّك لا تسمع الأغاني، وأنَّك لا تذهب إلىٰ فرحٍ فيه لهوٌ ورقصٌ وفجور، وأنَّك تحاربُ البدع وتَمْقُتُها، ولا تجلسُ مع أهل الأهواء والضلالات... قضايا مُسلَّمَة ستعاني من تقريرها وتثبيتها فترة وبعدها ستستغْلِي بدينك، وينظرُ الناس إليك علي أنك إنسانٌ محترم، ورجلٌ صاحب مبدأ.

أما إذا تمسكتَ مرة وتساهلتَ مَرَّة؛ فسيقولون عنك: إنك منافق، يصافح هذه ويترك تلك؛ لأن الأُوْلَىٰ اجْمَل!!.. لا؛ بل اثبت، واللّهُ سيثبّتُك.

ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا .. وأنتم الأَعْلَوْن:

إخوتاه..

الأُمَّةُ مصابةٌ بالهزيمة النفسية، حتىٰ صار بعضنا يخجل من التزامه، ويتوارىٰ من إسلامه، كأنَّ الدِّين والالتزام عار!!

إخوتاه..

إننا أصحابُ حق؛ فلا تهنوا، قال اللّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

انفضوا عن أنفسكم هذا الخُنُوع والذُّل؛ فأنتم صفوة خلق اللّه إذا التزمتم حقًّا بدينه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

فإنَّك وإنْ لم تجد مِلْحًا تأكله ؛ فأنت عند اللَّه أفضل من أكبر مليونير فاسق أو فاجر أو كافر ، إن كنت مؤمنًا مخلصًا صادقًا . . لابد أن يستشعر قلبك هذا المعنىٰ : أنك مع المَلِك المُقتدِر الذي يَمْلِكُ السمواتِ والأرضَ ومَنْ فيهن . . لابد أن تستعلِي ؛ فليس في ديننا شيءٌ يُستحيَىٰ منه ؛ إنه دينُ العظمة والطهارة، والأدبِ والعِزَّة .

نعم – إخوتاه – : إننا يجب أن نستشعر العِزَّةَ بديننا.

بعض الأخوات – حين ترتدي النِّقاب – تستحي أن تذهبَ به إلىٰ بعض الأماكن ؛ فإذا دُعيَتْ لأحد الأعراس – حيثُ لا مُنكرات – تستحي أن تذهب ، سبحان اللَّه ! ، أَوَلمَّا كانت عاريةَ الرأس والأكتافِ والأَرْجُل لم تكن تستحي ، والآن تستحي من الإسلام!! . .

نحن نقول: إذا كان العُرْسُ خاليًا من المنكرات؛ فلتذهبْ دَعْوَةً لأبناءِ جنسِها، وعندما يَرَيْنَها، ويسخرن منها، ويتهمنها بأنها مُعقَّدة؛ فعليها أن تفرح وتَحْمَدِ اللَّه، لا أن تحزن وتبكي ؛ بل تستعلي وتدعوهُنَّ لما هي عليه ، وتشرح لَهُنَّ وبإسهاب جمالَ الالتزام ، ومتعة الطاعة ، ولذة العبادة ، وحلاوة الإيمان ، و . . . و . . . إلخ .

أعجبني جدًا أَنَّ رجلًا كان يدعو إلىٰ الإسلام في الأندلس «أسبانيا» قريبًا، فكان يمشي في الشارع ويشير بيده إلىٰ الآثار الإسلامية ، ويقول: هذه آثارنا . . هذا ديننا . . هذا إسلامنا . . وسوف نعود . . فكان الناس يقولون عنه : إنه مجنون. يقول: فلم أكن أفرح بشيءٍ في الدنيا كفرحي

بكلمة «مجنون» هذه؛ لأنها قِيلت للنبيِّ محمَّد ﷺ؛ فكانت تُساوي عندي مليون دولار.

قال ربُّ العِزَّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

فحين ترىٰ المُجرمين يتغامزون، عليك ويضحكون منك؛ فافْرَحْ؛ لِأَنَّ اللّه أخبر بأَنَّ هذا سيحدُث، وقد حدَث، فلتجلس مُعتزًّا، ولتقل: صَدقَ اللّه.. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

كذلك المسلم الملتزم حين يذهب إلىٰ مكان بِلِحْيَتِه وقميصِه القصير، والناس يَلْبَسُون أفخرَ الثِّياب العصرية؛ فليَعْلَمْ أنه يرتدي ثوبًا أكثرَ فَخامةٍ في معناه؛ فهو سُنَّةُ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فإن واجهوه؛ فإن عنده أدلته المقنعة؛ فيقول: أنا أتشبَّهُ بالنَّبِي مُحَمَّدٍ ﷺ، وأنتم تتشبهون بِمَنْ؟!.. اعترفَ الكفار بأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ من عظماء الدنيا، وأنا قد تشبهتُ بأعظمِ رجل، رسولِ اللّه ﷺ، أمَّا أنتم فبمن تشبهتم؟!.. فكلٌّ يتشبه بمن هو علىٰ شاكِلَتِه.

يجب - أيها الأخوة - أن نعتزَّ بديننا، ونفتخرَ بإسلامنا، فلا نستحي منه. إنَّ ديننا دينٌ عزيز، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون، قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فاثْبُتْ علىٰ الدِّين . . واسْتَعْلِ به علىٰ الواقع . . ولا تحزن ؛ فالغُرْبةُ شَرَفٌ ولَهَا لَذَّة . . استمسِكْ بدينك ؛ فإنَّكَ علىٰ الحقِّ المُبين إنْ كنتَ مِنَ المُتَّقِين .

النَّاسُ سَمِعُوا عنَّا ولَمْ يَسْمَعُوا مِنَّا . . فَأَرُوهُمُ الفَرْق :

إخوتاه . .

من وسائلِ الإعلام المقروءةِ والمسموعةِ والمرئية ، ومن حكاياتِ المصاطب وتأليف المفترين وترويج الحاقدين ؛ سمع الناس عنَّا ، ورَسَمُوا في أذهانهم صورةَ الملتزم ، وطريقةَ تفكيرِه ، وسُلُوكَهُ ، وأساليبَ حياته . . بتخيلاتهم وافتراءاتهم دون الحقيقة الواقعية . . وهي وسيلةٌ - لا شك - جائرةٌ في الحُكْمِ علىٰ الأشخاص . . وتِلْكُم خبيثةٌ مِنْ قومٍ خُبثاء بَثُّوها .

لكن أقول : أين دورنا في إيصالِ الحقِّ الذي معنا إليهم ؟! . . أين مسؤوليتنا تجاه تغيير هذه الصورة وتلك الجاهلية ؟! . . أين ثباتنا واستعلاؤنا وعملُنا ؟!

لابُدَّ - أيها الإخوة - أن نُرِي جاهليةَ عصرِنا حقيقةَ الحقِّ الذي معنا ، وحقيقةَ الباطلِ الذي هُمْ عليه . . لابد أن نريَهُم الفرق ؛ ليدركوا مدىٰ الظلام الذي هم فيه ، ومدىٰ النور الذي هو معنا ، والسعادة الحقيقية التي نحياها .

إننا نريد أن نريَهم الفرق : **أيهما أفضل**، إنفاق خمسةِ جنيهاتٍ لشراء عُلْبَةِ سجائر ، أم خمسةِ جنيهاتٍ تَضَعُهَا في يدِ فقيرٍ يأكل بها ؟!

ثلاثُمِئةِ جنيهٍ نشتري بها حذاء ، أم ثلاثمئةٍ نشتري بها طُوبًا من أجل بناء بيتٍ من بيوت اللَّه ؟!

ألفُ جنيهٍ نشتري بها فُستَانًا ، أم ألفُ جنيهٍ نساعد بها شابًا مُعسِرًا يريدُ الزواج ولا يستطيع ؛ فنعينه علىٰ العفاف وطهارة المجتمع .

وهذه الألف : تعالج كم مريضًا، وتكسو كم عُريَانًا ، وتُؤوِي كم شريدًا .

لابد أن نريَهم الفرقَ بيننا وبينهم، ونريهم أن تفكيرهم أنانيّ ؛ فهم لا يفكرون إلا في شهواتهم ، وأنهم قوم يفكرون ببطونهم، ويُحِسُّون بفروجهم . . وأمّا أهل الإيمان فيعيشون للّه وباللّه ومع اللّه ، يعيشون لطلب رضا اللّه رغبةً في الجنة . . فأيُّ الفريقين أحقُّ بالسُّمُوّ والعُلُوّ ؟!! . .

لابد أن نُفهِمَهم أنهم في جاهليةٍ حيوانيةٍ بحتة ، وأنهم لا يُمثّلون شيئًا حقيقيًا علىٰ مَسْرَحِ الحياة . . فوجُودُهم كعَدَمِهم .

فهم قومٌ يعيشون علىٰ هامش الحياة . . وإلا فَبِمَ يفتخرون؟! ، يفتخرون بسيارة وعِمارة وملابس ، أو برصيدٍ في بنك ، أو بامرأةٍ جميلة ، أو بمرافقةِ عاهرة ، ومعرفةِ منافقين ، أو بمساعدةِ راقصات ، وحُبِّ زانيات . . يفتخرون بذلك .

أما نحن فربُّنا اللّه . . الرَّحمنُ المُستَعَان . . ليس لنا ما نَفتخرُ به سواه . . دينُنا هو مصدر عِزِّنا وفخرِنا ؛ فبِمَ يفتخرون هم؟!

لابد أن نريَهم الحضيضَ الذي هم فيه، والنور الذي نعيش فيه ، قال تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] . .

ثم من واجبنا أيضًا أن نُعَرِّفهم كيف يخرجون من هذه الظلمات . . بأن يعلموا كيف يكونون مؤمنين حقًا .

ولا يكون هذا بمجاراة الجاهلية ولو عِدَّةَ خُطُوَات، كما أنه لا يكون بالابتعاد عنها والانزواء والانعزال ؛ إنما هِيَ المخالطة مع التَّمَيُّز ، والأخذُ والعطاء مع التَّرَفُّعِ والصَّدْعِ بالحقِّ في مَوَدَّة ، والاستعلاءُ بالإيمان في تواضعِ ورِفْقٍ وصَبْرٍ وأَنَاة ، والدعوة إلىٰ اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة .

والامتلاءُ بعد هذا كله بالحقيقة الواقعة ، التي ينبغي أن نُعلنَ الآن عنها وهي : أننا نعيش في وَسَطٍ جاهليّ ، وأننا أهدىٰ منهم طريقًا ، وأننا علىٰ وشكِ نَقْلَةٍ خِلال هُوَّةٍ واسعة ، هذه النَّقْلَةُ : مِنَ الجاهليةِ إلىٰ الإسلام .

التَّغْييرُ . . أَنْ تُؤَثِّرَ ولَا تَتَأَثَّر :

إخوتاه . .

مهما كان الواقعُ مُرًّا . . ومهما كانت الأخطاءُ من خارجنا لا مِنَّا . . ومهما غَزَتِ الجاهليةُ بيوتَنا وأنفسَنا . . فلا احتجاجَ لنا ولا عُذْرَ أمامَ اللَّه في التأثرِ بها . . والاسْتِرْسَالِ معها . . والخوضِ فيها . . فتغييرُها لا يكونُ إلا بالتأثير وعدمِ التأثر .

وانظروا إلىٰ يوسف - عليه وعلىٰ نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلام - حين تَرَبَّىٰ في بيتِ عزيزِ مِصر ، في بيئةٍ فاسدةٍ مِن كُلِّ الوجوه : شِركٌ ظاهر ، وفجورٌ واضح ، خَمْرٌ ورقص ، زنا ولِواط ، كُلُّ هذا ؛ وربَّما أكثرُ منه كانَ موجودًا ؛ ومع ذلك خرجَ يوسفُ من هذه البيئة الفاسدة نظيفًا طاهرًا خالصًا . . أثَّرَ ولم يتأثر .

بل وانتقل من هذه البيئة إلىٰ بيئةٍ أَشَدَّ فسادًا ، وهي بيئةُ السِّجن ، في وسَط المُجرمين والفاسقين ، وقُطَّاع الطُرق والسَّارقين ، والمنافقينَ المُضَلِّلين ، والكفارِ المَارِقين .

ومع ذلك أيضًا أثَّر ولم يتأثر ؛ فدعا إلىٰ اللَّه فهدىٰ اللَّه به ؛ فامرأةُ العزيز علىٰ يديه تابت ، وأصحابُ السِّجن بدعوتهِ اهْتدَوْا ، وإخوتُهُ جميعًا بعفوه عنهم تابوا وأنابوا . . في كُلِّ هذه الفتن صبرَ يوسفُ فثبتَ ولم يتأثر ؛ واستعصمَ باللَّه علىٰ الباطل فدافعه وأثَّرَ فيه .

وكان اللُّطْفُ من اللَّهِ العليم الحكيم بيوسفَ ثمرةَ جهادِهِ وصبرِهِ طُوال حياته في دفعِ أنواع البلاءِ وألوانِهِ المختلفة . وكانت الرَّاحة والسعادة حين رأىٰ يوسفُ أبويه وعاد إليهما ، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠٠-١٠١].

إنَّها النتيجةُ الحتميةُ للثباتِ والصِّدْق : الفوزُ العظيم . . شَهِدَ له إخوته : ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] ، وشَهِدَ اللَّه تعالىٰ له : ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] .

نعم - أخي الحبيب -: اتق اللَّه واصبر ، وآثِرِ اللَّه علىٰ هَوَاك ؛ لكي يُؤْثِرَكَ اللَّهُ علىٰ غيرِك ؛ فيُطَهِّرَكَ ويُنجِّيكَ ويُثَبِّتَكَ ويُعَافِيكَ .

للإسلام قَنطَرَة.. وللجاهليةِ قَنطَرَة:

إخوتاه..

التغييرُ لا الترقيع.. مسألةٌ خطيرة.. فليس ثمةَ قنطرةٌ متصلةٌ في منتصفِ الطريق بين الجاهلية والإسلام يَلتقيان عليها.. للإسلام قنطرةٌ وللجاهلية قنطرة.. للإسلام شاطِئٌ وبَرّ، وللجاهليةِ شاطِئٌ وبَرّ، لا تَصِلُ بينهما قنطرة.. فَلِكُلٍّ منهما قنطرة.

فإذا أراد أهل الجاهلية العُبُورَ إلىٰ الإسلام؛ فلابد لهم مِنْ تركِ قنطرتِهِمُ الجاهلية، وعبور قنطرة الإسلام؛ ليخرجوا من الظلمات إلىٰ النور، ويَنْعَمُوا بالعيشِ في ظِلِّ هذا الدِّين العظيم.. دِيْنِ الإسلام.

وإلا سنقول كما أَمَرَ اللّه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

هكذا.. فلْنُعْلِنْ للناسِ جميعًا أَنَّ الإسلام شيءٌ آخَر، مختلِفٌ مِنْ جميعِ الوجوه..

وهكذا معَ النفسِ رَدِّدْها بِقُوَّةٍ وعِزَّة: يا نَفْسُ، قد أذهب اللّهُ الجاهليةَ وجاءَ بالإسلام.. فهنيئًا لكِ إسلامُكِ، وهنيئًا لك تَخَلُّصُكِ من أَسْرِ سِجْنِ الجاهلية.. فاحْمَدِي اللّهَ يا نَفْس، وافعَلي الخيرَ لعَلَّكِ تُفلِحِين.

***

رابعًا : زراعةُ مَحَلَّ ما قُلِع

قال الله العظيم، العليمُ الحكيم، الخبيرُ الرحيم :

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] .

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ .
[مريم: ٦٠]

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧٠-٧١] .

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ .
[القصص: ٦٧]

وقال رسول الله ﷺ : «**اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[(١)] .

هذه الآيات والأحايث تُخبرُك بشَرْطٍ خطيرٍ من شروط التوبة . . ألا وهو العملُ الصَّالح . . فلابد من الأعمال الصالحات عَقِبَ التوبة . . وهذا دليلٌ علىٰ صحة التوبة، ودليلٌ علىٰ قَبُول التوبة . . وهو الذي ذَكَرَهُ اللَّهُ تعالىٰ في آيات أُخَر بقوله سبحانه : ﴿وَأَصْلَحَ﴾ :

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وصححه الألباني (١٦١٨) في «صحيح الترمذي» .

قال سبحانه : ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ [المائدة: ٣٩] . . وقال : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤] . . وهكذا في كثيرٍ من الآيات ؛ أنَّ المقصود بالإصلاح بعد التوبة : الأعمال الصالحات الكثيرة .

وأنت - أخي الحبيب - بعد أن تخلصتَ من تلك الآفات الجاهلية والرواسب السيئة ؛ فأنت في مُفترَق الطُّرُق . . كمِثْلِ من طهَّر الأرضَ من القاذورات ، وقلع ما فيها من الزروع الضارَّة ؛ فإنْ تركها خالية نَبَتَتْ فيها النباتات الضَّارة مَرَّةً أخرىٰ . .

فانطلق - أخي الحبيب - رضي اللّٰه عنك - في زراعةٍ حقيقية . . زراعة الخيرات في نفسك . . زراعة حُبِّ الخيرات . . زراعة المسارعة إلىٰ الخيرات . .

فانفُضْ عنكَ غُبارَ الكسل ، وشَمِّرْ عن سَاعِدِ الجِدِّ ، واعْزِمْ عزيمةَ الرِّجال ، وابدأ في تلك الزراعة الخطيرة ، زراعةِ شجرةِ الإيمان ، ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾

[إبراهيم: ٢٤-٢٥]

وَمَنْ خَسِرَ الرَّاحَاتِ يَكْتَسِبِ العُلَا ... وبَعْضُ خَسَارَاتِ الرِّجَالِ مَكَاسِبُ

وَمَا قَدْرُ الإِنْسَانِ إِلَّا اقْتِدَارُهُ ... أَجَلْ وعَلَىٰ قَدْرِ الرِّجَالِ المَرَاتِبُ

فالخُطوَةُ الرَّابعةُ إذًا: أنْ يُمحىٰ أثرُ هذه الرواسب بمُزيلٍ لا مثيلَ له، ولا غِنىٰ عنه، ذلك هو غيثُ الإيمان، الذي إذا خالط القلبَ أخرجَ ما فيه من دَخَن.. ومعلومٌ أنَّ الإيمان يَزيد بكثرة الطاعات، وينقص ويضمحل باقتراف السيئات، وهو إنْ لم يَزِدْ؛ فإنه لا مَحالةَ ينقص.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧]: «تهييجًا علىٰ فِعْلِ الخيرات، وامتثالًا للأوامر، وأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عالم بجميع ذلك وسيجزي عليه أوْفرَ الجزاء وأتمّه»[١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨].. ورواسب الجاهلية بلاء؛ فاستبقوا الخيرات لترفعوه عنكم. قال رسول الله ﷺ: «**وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها**»[٢].

فأيُما عبدٍ أراد التوبة النَّصوح، والالتزامَ الحقيقيَّ بشرع الله تعالىٰ؛ فلابد أنْ يُكثِرَ من فعل الخيرات؛ فإنَّه «**إِذَا كَانَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلِ الْخَبَثَ**»[٣]، أي: لم يُنَجِّسْهُ شيء.. ومن فضلِ الله تعالىٰ ورحمتِه أنَّ الأعمال الصالحة كثيرةٌ ومتنوعة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٣٢).
(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وصححه الألباني (١٦١٨) في «صحيح الترمذي».
(٣) أخرجه الترمذي (٦٧)، وصححه الألباني (٤١٦) «في صحيح الجامع».

ومنها : إسباغُ الوضوء ، والمشيُ إلىٰ الصلاة ، والمحافظةُ علىٰ إدراك تكبيرة الإحرام في الجماعةِ الأولىٰ ، وحفظ وتلاوة كتاب اللّه ، والصَّدَقَة ، والكلمة الطيبة ، وقيام الليل ، وصيام النهار ، والذكر ، والصلاة علىٰ النبيِّ ﷺ ، والاستغفار ، والدعاء ، والاعتكاف ، والدعوة إلىٰ اللّه ، والسعي في قضاء حوائج المسلمين وتنفيس كرباتهم ، وقضاء الديون ، وإطعام الجَوْعىٰ ، وكسوة العريان ، وعيادةُ المرضىٰ ، وزيارة القبور ، والحج والعمرة ، وطلب العلم ، وصلة الأرحام ، والعطف علىٰ الأيتام ، والإحسان إلىٰ الجيران ، وإفطار الصائمين ، وإكرام الضيف ، وبِرُّ الوالدين . . . وغيرها من أعمال البر التي لا يَخْفَىٰ عليكم فَضْلُها .

الواصِلُ إلىٰ اللّهِ علىٰ الحقيقة :

يقول ابن القيم - عليه رحمةُ اللّه - وهو يُعَدِّدُ أصنافَ الناس في فِعل هذه الأعمال ، وأنَّ أفضلهم هو الذي يَسْلُكُ كُلَّ طُرُقِ الخير - :

« ومنهم جَامِعُ المَنفَذ ، السالِكُ إلىٰ اللّهِ في كُلِّ وَادٍ ، الواصِلُ إليه من كُلِّ طريق ؛ فهو جعَل وظائفَ عبوديتِه قِبلَةَ قلبِه ، ونَصَبَ عينَه يَؤُمُّهَا أين كانت ، ويسير معها حيث سارت ، قد ضرب مع كُلِّ فريقٍ بسَهْم ، فأين كانت العُبُودِيَّةُ ؛ وجَدْتَهُ هناك .

إنْ كانَ عِلْمٌ وجَدْتَهُ مع أهله ، أو جهادٌ وجدتَه في صَفِّ المجاهدين ، أو صلاةٌ وجدتَه في القانتين ، أو ذِكْرٌ وجدتَه في الذَّاكِرِين ، أو إحسانٌ ونفعٌ وجدتَه في زُمْرَة المُحْسِنين ، أو مراقبةٌ ومحبةٌ وإنابةٌ إلىٰ اللّه وجدتَه

في زُمْرَةِ المحبِّين المُنيبين ، يَدِينُ بدينِ العبوديةِ أنّى اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبُها ، ويَتوجَّهُ إليها حيثُ استقرَّتْ مَضارِبُها .

لو قيل له : ما تُريد مِنَ الأعمال؟ ؛ لقال : أريد أن أُنَفِّذَ أوامرَ ربِّي حيثُ كانت وأين كانت ، جَالِبَةً ما جلَبَتْ ، مُقتضيةً ما اقتضت ، جَمَّعَتْنِي أو فَرَّقَتْنِي ، ليس لي مُرادٌ إلا تنفيذُها والقيامُ بأدائها ، مراقبًا له فيها ، عاكفًا عليه بالرُّوح والقلبِ والبدن والسِّر ، قد سَلَّمْتُ إليه المَبيع منتظرًا منه تَسليمَ الثَّمَن ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا هُوَ العبدُ السَّالِكُ إلىٰ ربِّه النَّافِذُ إليه حقيقةً ، ومن النفوذ إليه أنْ يتصلَ به قلبُه ويَعْلَقَ به تَعَلُّقَ المُحِبِّ التَّامِّ المَحَبَّةِ بمحبوبه ؛ فيسلوَ به عن جميع المطالب سواه ، فلا يبقىٰ في قلبه إلا مَحَبَّةُ اللَّهِ وأمِره ، وطلبُ التقرُّبِ إليه . فإذا سلك العبدُ علىٰ هذا الطريق عَطَفَ عليه ربُّهُ فقرَّبَهُ واصطفاه ، وأخذ بقلبه إليه ، وتولَّاهُ في جميعِ أُمورِه»[١] .

أحبتي في اللَّه . .

اعلموا أيضًا أَنَّ هذه الأعمال لا تَضيع أبدًا مهما كانت صغيرة ؛ قال ربِّي - وأحقُّ القولِ قولُ ربِّي -: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال سبحانه تعالىٰ : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] . . فاللَّهُ عدلٌ لا يظلمُ أحدًا .

(١) طريق الهجرتين ، ص (١٨٤) .

ثم إنَّ الحسنات تشفع لصاحبها عند اللَّه، وتُذَكِّرُ به إذا وقع في الشدائد، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].. وقال رسول اللَّه ﷺ: **«احْفَظِ اللَّهِ يَحفَظْك، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَك، تَعَرَّفْ إلىٰ اللَّهِ في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة»**(١).

وقال ﷺ: **«إنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّه، التَّسْبِيحُ والتَّهْلِيلُ والتَّحْمِيد، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ العَرْش، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْل، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَّا يُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَكُونَ لَهُ (أو لا يَزَالُ له) مَنْ يُذَكِّرُ بِه»**(٢).

فمَنْ رجحت حسناته علىٰ سيئاته أفلح، ولم يُعذَّب، وذهبت سيئاته لأجل حسناته؛ ولأجل هذا يُغفر لصاحب التوحيد ما لا يُغفر لصاحب الإشراك؛ لأنه قام بما اقتضىٰ أن يُغفر له به، ويُسامَح به، ويُجازىٰ عليه.

وكم من أعمالٍ يسيرة رتَّب عليها الشرعُ جوائزَ عظيمة؛ فمن الغَبْنِ والخُسران أنْ نترك هذا الفضل العظيم، ونولِّيَ عنه مُعرضين.

اللَّهُ في كُلِّ لحظةٍ يُنادينا: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].. فالبِدَارَ البِدَار قبل أنْ يُغلق دونك الباب، فتريد ولا تُراد، وتَطْلُب ولا تُجاب.. هل مِن مشمر؟!!.. اللَّهم خذ بأيدينا ونواصينا إليك.. يا أكرمَ الأكرمين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني (٢٠٤٣) في «صحيح الترمذي».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٩)، وصححه الألباني (٣٠٧١) في «صحيح ابن ماجه».

أحبتي في الله . .

إنني كثيرًا ما أقول : إنَّ أعمالنا القاصرة لا يمكن أن تفي بمحوِ سيئاتنا ؛ ولذلك لابد من تنميتها . . بعمل مشاريع خيرية جديدة ومتنوعة تُدِرُّ علينا حسنات كثيرة .

إنَّ بعض الإخوة يشعرون بالرَّتابة والمَللِ في حياتهم ؛ والسبب أنهم لم يَطرقوا أبواب الخير الكثيرة الأخرىٰ . . لم يُعمِلُوا أذهانهم في ابتكار وسائل جديدة يجددون بها إيمانهم ، ويُزوِّدون بها رصيدَهم من الحسنات .

ولذا وجب علىٰ كلٍّ منا أن يَختَطَّ لنفسه خَطًّا جديدًا وهو : أن يُؤدِّيَ عبادة من العبادات الفَذَّةِ الكبيرة المُتَألِّقَة . . عبادة جديدة يتقرَّب بها إلىٰ الله . . ولستُ أقصد أن يبتدع ؛ وإنما جديدة بالنسبة لك لم تعملها قبل ذلك .

إننا نحتاج أن نجدِّدَ إيماننا إن أردنا التخلُّصَ من هذه الرواسب ، قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ الإيمَانَ لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أَحَدِكُم كَمَا يَخْلَقُ الثَّوب ، فاسألوا اللَّهَ أنْ يُجَدِّدَ الإيمَانَ في قُلوبِكُم** »(١) . . اللَّهُمَّ جَدِّدِ الإيمانَ في قلوبنا .

إذا أردنا قلبًا جديدًا صافيًا ؛ فنحتاج أن نُؤَدِّيَ إلىٰ ربِّنا عملًا جديدًا . . ماذا نُؤدِّي ؟ . . سأقترحُ عليك بعضَ الأعمال التي لعلك لم تعملْها من قبل أو لم تعملها منذُ سنين . . وهي مشاريعٌ للخير . . اعمل بها وزِدْ عليها . .

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤) ، وصححه الألباني (١٥٨٥) في « الصحيحة » .

فكِّرْ وابتكِرْ في حُدُودِ ما أَذِنَ به الشرع . . وفَرِّغْ وقتًا جديدًا للأفكار الجديدة . . واستكثِر ما أمكنك ؛ فإنَّ مَنْ يَتَحَرَّ الخيرَ يُعْطَه .

مشاريع خيرية . . وعبادات مهجورة :

وهاكَ بعضَ هذه المشاريع . . فهيًا جدِّدْ بها إيمانَك . . وافتح للخيرِ بابًا :

المشروع الأول : انشُرْ هذه الكُتُب بين الناس :

من الممكن لكل أخٍ ملتزم أن يشتري هذه الكتب أو بعضها بكمياتٍ ويوزِّعَها علىٰ الناس ، أو يشتري المجموعة كلها كل فترة ويعطيها لأحد الإخوة الجُدُد الذين يتوسَّم فيهم عُلُوَّ الهمة وحُبَّ المطالعة :

«**مختصر تفسير ابن كثير**» لنسيب الرفاعي أو «**أيسر التفاسير**»[1] للشيخ أبي بكر الجزائري ، أو «**تفسير السعدي**» ، و«**رياض الصالحين**» ، و«**منهاج المسلم**» ، و«**جامع العلوم والحكم**» ، و«**مختصر منهاج القاصدين**» ، و«**زاد المعاد**»[2] ، و«**الداء والدواء**» ، وكتاب «**التوحيد**» للفوزان ، وسلسلة «**تمام المِنَّة في فقه الكتاب وصحيح السُّنَّة**» للشيخ عادل العَزَّازي ، وكتاب «**ففروا إلىٰ الله**» ، و«**مختصر النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة**» ، و«**التربية علىٰ منهج أهل السنة والجماعة**» للشيخ أحمد فريد .

---

(١) طبعته دار الحرمين بالقاهرة في مجلد واحد .

(٢) الأفضل : أن يكون بتحقيق الأرنؤوطَيْن ، الذي طبعته مؤسسة الرسالة .

المشروع الثاني : «صلاحُ الأمة» ، و «مواردُ الظمآن» :

الكتاب الأول : «صلاح الأمة في علو الهمة» للشيخ سيد حسين العفاني ، موسوعة شاملة من سَبْعِ مجلدات ، يُمكنك أن تشتريَه وتُهديَه لأحد الخطباء ، ولا سِيَّما خطباءِ الأوقاف ؛ وبذلك نستفيد فائدتين : **الأولىٰ** : تعريف الخطباء بمنهج السلف في التربية . **والثانية** : تربية الناس علىٰ هذا المنهج .

هذا الكتاب يُربِّيك علىٰ القدوة ، والقدوة هي أهم وأخطر أنواع التربية علىٰ الإطلاق ، خاصةً في هذا العصر الذي قَلَّ فيه المُرَبُّون ونَدُرُوا ، فيُستَعاضُ عن هذا النقص الشديد في عدد المُربِّين بذِكْرِ سِيَرِ السَّلَفِ وأحوالِهم . . جزىٰ اللَّه الشيخ سيد عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

أما «موارد الظمآن لدروس الزمان : خطب وحِكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حِسان» ؛ فهو للشيخ عبد العزيز السَّلمان - رحمه اللَّه تعالىٰ - ، من أربَعِ مجلدات أو خمسة ، احصل عليه وأهدِهِ أيضًا لخطيبٍ أو واعظٍ أو إمام . . «يسَّر اللَّه مَنْ ينشُرُه للناس ويُخرجهُ من حَيِّزِ الوَقْفِ لِيَتِمَّ تداوُلُه» . . آمين .

المشروع الثالث : مجلة «التوحيد» :

هذه المجلة من المجلات الرائدة في العالم الإسلامي ، وينبغي أن يتابعها الإخوة والمشايخ شهرًا بعد شهر . . فاعمل علىٰ نشرها ونصيحة كل من تعرف بالاشتراك فيها . . وهي مجلة مباركة تُصدِرُها أنصار السنة بمصر . . تَجْنِ بذلك حسناتٍ كثيرة ، وتكونَ صدقةً جاريةً لك تنتفعُ بها في حياتِكَ وبعدَ مماتك .

المشروع الرابع : أنفِقْ أَعَزَّ ما تَمْلِك :

من الأعمال التي هُجِرَت ونُسِيَتْ : أن تُنفق من أعز ما تملك ، قال الله : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال سبحانه : ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

تجدُ أكثرَ الناسِ اليومَ لا يُنفقون . . لماذا؟! . . يقول : أنا فقير . . من أين آتي بالمال؟! - اللهم وَسِّعْ أرزاقَ المسلمين بالحلال وبارك لهم فيها - ، أنا أدلُّك علىٰ بابٍ لسَعَةِ الرزق . . تَصَدَّقْ . . واللَّهُ يُضاعف ، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

أيها الإخوة ، أُقسِمُ لكم باللَّهِ العليِّ العظيم . . أُقْسِمُ عامِدًا غيرَ حانِث . . وعِزَّةِ جلالِ اللَّه ؛ اللَّهُ كريم . . هل تُصدقونني؟ . . كريم . . أنت تتعامل مع كريم . . فلماذا تخاف؟! . . معك عشرة جنيهات اقسمها بينك وبينه وانظر ماذا سيصنعُ لك . . كريم . . لماذا لا تُصدِّقون وُعودَ اللَّه؟!

إنَّ البنوك حين تَعِدُ بـ١٠٪ أو ١٢٪ أرباح ؛ يَثِقُ الناسُ في البنوك ، ألا تَثِقُ أنتَ في اللَّه وهو يَعِدُكَ أن يُخْلِفَ عليك في الدنيا قبل الآخرة؟!

ثم إذا أنفق بعضُنا تجده يتصدق بالحذاء القديم ، والقميص القديم ، والبطانية القديمة ، والسجادة القديمة . . لِمَ لا تتصدق من أعز ما تملك؟!

لمَّا نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ قال أبو طلحة الأنصاري : يا رسول اللَّه ، إنَّ أَحَبَّ مالي إليَّ بَيْرُحَاء ؛ أُشهِدُكَ أنها لوجهِ اللَّه .

إخوتاه..

إنَّ لنا أُسْوَةً في قصة أبي الدَّحْدَاح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمَّا سَمِعَ رسولَ اللَّه ﷺ يقرأ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]:

فعن عبد اللَّه بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ قال أبو الدَّحْدَاح الأنصاري: وإنَّ اللَّه يُريد مِنَّا القَرْض؟، قال: نعم يا أبا الدَّحْدَاح، قال: أرني يدَك يا رسولَ اللَّه، قال: فناوَلَهُ رسولُ اللَّه يدَه، قال: فإني أقرضتُ ربِّي حائطي، قال: حائطه له فيه سِتُّمئةِ نخلة وأُمُّ الدَّحْدَاح فيه وعِيَالُها. قال: فَجَاءَ أبو الدَّحْدَاح فَنَادَىٰ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاح، قالت لَبَّيْك، قال: اخرجي مِنَ الحائط؛ فإني أَقْرَضْتُهُ رَبِّيَ عَزَّ وجَلَّ. وفي رواية أخرىٰ أنها لمَّا سمعته يقول ذلك عَمَدَت إلىٰ صبيانها تُخرِجُ ما في أفواهِهم وتَنْفُضُ ما في أَكْمَامِهِم؛ فقال النَّبِيُّ ﷺ: **«كَمْ مِنْ عِذْقٍ رَدَاحٍ في الجَنَّةِ لأَبِي الدَّحْدَاح»**[(١)].

حديقة تُقَدَّرُ اليوم بسبعة ملايين جنيه.. سَبعمئة نخلة تصدَّق بها للَّه.. ثم يُسَارِعُ إلىٰ زوجتِه يقول: يا أُمَّ الدَّحْدَاح، اخرجي وأخرجي الصبيان؛ فإني أقرضتُ ربِّي حائطي، فخرجتْ وهي تقول: رَبِحَ البَيْع.

---

(١) العِذْقُ من النخل كالعنقود من العِنب، رَدَاح: ثقيل لكثرة ما فيه من التمر.
انظر: الإصابة (٧/٥٧)، صفة الصفوة (١/٦١٧).
والحديث أخرجه ابن حبان (٧١٥٩)، وصححه الألباني (١٢٠) في «مشكلة الفقر».

إنه لمَّا صدق مع اللَّه ؛ أصلح اللَّهُ له زوجته وأرضاها بما فعل ، فلم تُنَكِّدْ عليه وعلىٰ أولادِه ؛ بل صارت تُخرج التَّمْرَ مِنْ فَمِ الأولاد .

هكذا تتصدق بأعزِّ ما تملِك . . بثوبِكَ الجديد . . بحذائِكَ الجديد . . من مالِكَ الذي ادَّخَرْتَه . . وثِمَارِك التي تَعِبْتَ فيها . . أنفِق وتصدَّق . . ولا تخف . . قال رسول اللَّه ﷺ : **«أَنْفِقْ بِلَالُ ، ولا تَخْشَ مِن ذِي العَرْشِ إقْلَالًا»**[1] . . أنفِق وتصدَّق لِيَلِينَ قلبُك وتزولَ قساوتُه .

إنَّ كثيرًا منا يخشىٰ العواقب . . بُنَيّ ، أنتَ تتعامل مع ربِّ نواصي العباد في يده ، وقلوبُ الخلق بين أصابعه ، وهو القاهرُ فوق عباده ؛ فكن له كما يُريد ؛ يكن لك فوق ما تريد . . كن له يكن لك . . واستعن به ولاتعجَز . . اللهم استعملنا في الطاعة .

المشروع الخامس : ابْنِ بَنِيَّةً لِلَّهِ مَجَّانًا :

ابْنِ مسجدًا للَّه . . أو مَعْهَدًا دِينيًا . . أو جمعية خيرية . . أو دار أيتام . . أو مستشفىٰ . . أو مستوصفًا . . أو مكتبةً عامَّة . . أو كُتَّابًا لتحفيظ القرآن . . أو مكانًا لمحو الأمية . . أو خلية نَحْل ووَزِّعْ منها علىٰ مرضىٰ المسلمين في المستشفيات . . أو صيدلية في المسجد . .

ابْنِ مكانًا علىٰ الطريق يشرب منه المسلمون ، ويستظلون تحته عند السفر . . ابْنِ عمارة سكنية للشباب المتعفف الذي يريد أن يتزوج ولا يملك مكانًا . . ابْنِ دارًا لمعاونة المُعَاقِين وتشغيلهم . .

---

(١) أخرجه الطبراني (١٠/١٩٢) ، وصححه الألباني (٢٦٦١) في الصحيحة .

ابْنِ مصنعًا أو مَشْغَلًا للملابس واجعل عُمَّالَهُ من أولاد الفقراء ووَزِّعْ الملابس علىٰ المُحتاجين في موسم المدارس والصيف والشتاء والأعياد . . ابْنِ مجموعة من الحَمَّامَات ، ولاسيما علىٰ الطريق العام الصحراوي . . ابْنِ مسجدًا علىٰ الطريق يستريح فيه المسافرون ويُصلُّون . .

ابْنِ مكانًا للكتب والرسائل الإسلامية ووَزِّعْ علىٰ المسلمين . . ابْنِ مجموعة من المقابر لموتىٰ المسلمين يُدْفَن فيها الغريب وابنُ السبيل . .

ابْنِ مكانًا لجمع الصدقات من المحاصيل واللحوم والسكر والشاي والزيت والسمن وغيره ووزع شهريًا أو نصف شهري علىٰ المحتاجين . .

ابْنِ . . وابْنِ . . وابْنِ . . واجعل لك صدقةً جاريةً تمحو بها ذنوبَك ، وتكثر بها حسناتك ، وتنفعك بعد موتك . . وفكِّر . . وشغِّل عقلك في اكتشاف مشاريع جديدة . . وإن لم تَقْدِرْ علىٰ تنفيذها فانصح بها غيرَك والْفِتْ نظرَهُ إليها ؛ تكن لك أيضًا . .

فإنْ لم يكن لك المالُ الكافي لبناء شيءٍ من ذلك ؛ فابذلِ المشورة . . وتحمَّسْ وأظهرِ الحماس وانْقُلْهُ لقلوب الآخرين ؛ ليجتمعَ مجموعة علىٰ تنفيذ أحد هذه المشاريع . . وكل المشروعات بدأت بفكرة وشخص متحمس وتمَّمَ اللَّهُ الأمر . . استعِنْ باللَّهِ ولا تعجَزْ .

المشروع السادس : التَّبتُّل :

قال اللَّه : ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] . . التَّبتُّل : هو الانقطاع . . ألم تَرَ أنَّ أهل « المزاج » . . أهل المعاصي . . أصحاب الهوىٰ . . يذهب في « غرزة » . . يخلو لمزاجه . . يذهب في الصيف

«يُصَيِّف» أو يسافر.. إنَّ أهل اللَّه يحتاجون إلىٰ خَلْوة ينقطعون فيها للَّه.. يوم.. ليلة.. يومين.. عشرة.. عشرين.. بعيدًا عن ضجيج الحياة وهمومها.. بعيدًا عن المآسي والمعاصي.

إنني أريدك أن تتبتل ولو ساعتين.. ولو ساعة.. ولو نصفَ ساعة.. بشرط أن تكون وحدَك تمامًا.. في مكانٍ هادئ حيثُ لا ترىٰ أحدًا، ولا تسمعُ أحدًا، ولا تنشغلُ بشيء.. تَدَعُ همومَكَ ومشاغلَكَ وأحزانَك، وآلامَكَ وآمالَك.. ترمي تليفوناتِك، وتُلْغِي مواعيدَك، وتَنسىٰ همومَك، وتتفرَّغُ لِلَّه..

تجلس له وحدَه.. أنت وحدَك تقول: سَيِّدِي، إليك جِئْتُ.. تَبُثُّ همومَكَ وأحزانَك، وتَذْكُرُ له حاجاتِك، وتطلب منه مُرَادَاتِك، وتعترفُ له بعجزِكَ وتقصيرِك.. وَحْدَك.

أخي، واللَّهِ إني لأحبُك في اللَّه؛ ولكن أجبني: متىٰ خلوتَ يومًا وحدَك مع اللَّه؟!!.. اذكر لي باللَّهِ منذُ كم؟!.. سنة؟!.. ستين؟!. عشر.. لم تعمَلْها في حياتك؟!.. أنت الخَسْرَان.

إخوتاه..

التَّبَتُّل عبادة مفقودة في هذه الأيام.. أحيُوها.. ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨-٩].. فاتخذه وكيلًا.. نعم: تُوَكِّل ربَّك في كل شيء؛ فتستريح من همومِكَ وأثقالِك، وتستطيعَ بسهولة أن تقومَ بمِهَامِّكَ ومسوؤلياتِك.. فهيًا تَبَتَّلْ إليه تَبْتِيلًا.

المشروع السابع: الرِّباط:

قال رسول الله ﷺ: **«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَات؟»؛** قالوا: بلىٰ يا رسول الله؛ قال: **«إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَىٰ المَكَارِهِ، وكَثْرَةُ الخُطَا إِلَىٰ المَسَاجِد، وانتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاة؛ فَذَلِكُمُ الرِّبَاط، فَذَلِكُمُ الرِّبَاط، فَذَلِكُمُ الرِّبَاط»**[١].

وقال رسول الله ﷺ: **«واعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُم الصَّلَاة»**[٢].. الصَّلاةُ أفضلُ عمل.. إننا إذا أردنا صلاحَ الأعمالِ والأحوال؛ وَجَبَ علينا إصْلَاحُ الصلاة.

قال رسول الله ﷺ: **«أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ الصَّلَاة؛ فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِه»**[٣].. إننا بحاجة لإصلاح الصلاة لنُصلح أعمالنا.. وتَنصلحَ أحوالنا.

ولذلك سأذكرُ نقطتين من الأعمال المفقودة التي نُحِبُّ أن تُحيِيَها؛ لِيَسْهُلَ التخلُّص من رواسب الجاهلية:

أوَّلًا: التبكير إلىٰ الصلاة: مساجد المسلمين تشكو.. إذا دخلتَ قبل أذان الظهر تجد كم إنسانًا في المسجد؟!.. ستجد المسجد مغلقًا.. إذا دخلتَ قبل أذان الفجر بنصف ساعة، أو حتىٰ عند الأذان حين يُؤَذِّنُ

(١) أخرجه مسلم (٢٥١).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وصححه الألباني (٢٢٤) في «صحيح ابن ماجه».
(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢/١٣)، وصححه الألباني (١٣٥٨) في «الصحيحة».

لفَرْضٍ أيِّ فرض . . كم إنسانًا تجد في المسجد؟! . . بعد الإقامة تجد الصَّفَّ اكتمل؟! . . مساجد المسلمين تشكو إلىٰ الله غربتها . . إخوتاه . . التبكير إلىٰ الصلاةِ والسعي إليها مهمٌّ وخطير .

ثانيًا : المُكْثُ في المسجد : قال رسول الله ﷺ في السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : **«ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالْمَسَاجِدِ»**[1] . . قلبه كالمصباح المُعَلَّق في المسجد لا يُفَارِقُ المسجد . . فهو وإن خرج تجد قلبه يهفو إلىٰ الرجوع بسرعة . . هكذا يحب المساجد . . بيوت الله .

نعم : إنك في بيت الله . . في ضِيافة المَلِك . . اللهُ ينظرُ إليك ، والملائكةُ تَستغفرُ لك ، قال رسول الله ﷺ : **«إنَّ المَلَائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لِلْمُصَلِّي مَا دَامَ في مُصَلَّاه ، تقول : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَه ، اللَّهُمَّ ارْحَمْه ، مَا لَمْ يُحْدِث»**[2] . . فهل هناك خسارة أكبر من أن تخرجَ مِنَ المسجد فتخسرَ كُلَّ هذا؟! . . ماذا وراءك؟! . . إلىٰ أين ستذهب؟! . . صَدَقَ الله : **«فَأَيْنَ تَذْهَبُون»**؟!!

صَلَّيْتُ بِنَاسٍ مَرَّة صلاةَ الظهر ، وفُوجئت بعد الصلاة بثورة في المسجد . . يا «عم الشيخ» حرام عليك ، خلفك المريض والمشغول ، وصاحب الحاجه . . قلتُ : سبحان المَلِك ، لا يأتي المرضُ إلا عندَ الصَّلاة!! . . لو وقفتَ علىٰ «طابونة عيش» «تشحت» رغيفين ؛ ما كفىٰ

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٢) متفق عليه ، البخاري (٤٤٥) ، ومسلم (٦٤٩) .

وقتُ الصلاة لشراء رغيفين خُبز!!.. لو وقفت علىٰ بِقَالة تشتري بربع جنيه جبن؛ لاستغرقتَ نصف ساعة، والصلاة لم تُكمِلْ رُبعَ ساعة!.. سبحان اللَّه!!

أيها الإخوة.. إننا في زمانٍ أُحِيْط بنا، وحُرِمنا عباداتٍ عظيمةً هي ذِروة سَنَامِ الإسلام.. لكن لها تعويض.. **الرِّباط**.. أوتادُ المساجد.. لماذا لا يوجد في مساجدنا إلا مَنْ ليس له عملٌ ولا شُغل، فيُضطَّرَ للمُكْثِ في المسجد؟!!.. أين من يَمْكُثُ في المسجد إيثارًا للَّه.. وطلبًا لرضا اللَّه؟!

أيُها الحبيب.. اجعل حديث «**فذَلِكُمُ الرِّباط**» أمام عينيك دائمًا؛ احفظْهُ، وكَرِّرْهُ، وانشُرْهُ بينَ الناس، واعمل به؛ تكنْ من المُرَابِطِين الذين أثنىٰ عليهم رسولُ اللَّه ﷺ.. بهذا الحديث تُنَمِّي ثَرْوَتَكَ مِنَ الحَسَنَات.

المشروع الثامن: الوَقْف:

أيها الإخوة..

إننا في زمانٍ اندثرت فيه بعضُ المعاني الإسلامية تمامًا: منها هذا المعنىٰ: الوقف.. أَنْ أبنيَ بيتًا وأُوْقِفَهُ للَّه.. لا آخُذُ من إيجارِهِ شيئًا.. هذا البيت ملكي ولكنه موقوفٌ للَّه.. وأكتبُ بهذا وصيةً أتركها لأولادي.. إنَّ هذا البيت ليس مِلْكِي.. إنه مِلْكُ اللَّه.

الوقف.. أَوْقِفْ مصحفًا في مسجد.. أَوْقِفْ كُتُبًا في مكتبة.. أوقف أحذية.. أَوْقِفْ حديقة.. أوقف كذا وكذا.. الوقف باب فقهي عظيم مَنْسِيٌّ في حياة المسلمين في هذه الأيام.

إنها وزارة الأوقاف.. أُنشئت «وزارة» لأجل هذا الوقف الذي كان يُوقفه الأكابرُ والأغنياءُ والعلماء.. تُوْقِفُ هذا على طلبة العلم.. وهذا على الفقراء.. وهذا للأيتام.. وهذا للمساكين.. وهذا لزواج بنات الفقراء والأيتام.

أيها الإخوة.. إننا مُعَرَّضون لِأَنْ نموتَ في أيَّةِ لحظة - اللهم ارزقنا حُسْنَ الخاتمة -؛ فمن سيعملُ لكَ بعدَ الموت؟!

لقد رأيتُ بعيني وشهِدتُ بنفسي تقسيمَ تَرِكَةِ أحدِ الأغنياء.. رجلٌ مات وترك ستةً من الأولاد وأربعًا من البنات.. ووُزِّعتْ التَّرِكَة ونال كلٌّ منهم مبلغًا عظيمًا من المال.. فقلت لهم: هذا الرجل الذي مات وترك لكم هذه الأموال ألا تصنعون له شيئًا؟.. تَبْنُونَ له مسجدًا.. تُوقفون له عِمارة من هذه العمارات التي تركها.. تَكْفُلُونَ مِئَةَ يتيمٍ في الجمعية الشرعية.. أيَّة مجموعة من الأيتام في أي مكان.. اصنعوا للرجل شيئًا.. قالوا: «اللَّه يرحمه بقىٰ، مات وراح لحاله»!!

إنني أخشىٰ أن تقول زوجتُك وأولادُك بعدك هذا الكلام؛ فاصنع لنفسك.. أَوْقِفْ لنفسِك.. قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ؛ انقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا صَدَقَةٍ جَارِيَة** ...»[1].

هذا هو الوَقْف.. أن تُوقِفَ لنفسك.. فتُخرِجَ مِنْ مِلْكِكَ إلىٰ مِلْكِ اللَّهِ شيئًا..

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

سيارة تجعلها لنقل الموتىٰ . . لِلّهِ بدونِ أجر . . تَبني في مكان مجموعة من الحمّامات للّه . . تبني معهدًا دينيًا . . أو مستوصفًا لعلاج الفقراء بدون أجر . . وَقْف . . أوقف شيئًا ينفعُكَ بعد موتك ، ويُعِينُك وأنتَ في قبرِك ، ويساعدُكَ بعدَ أَنْ تتركَ هذه الحياة .

إننا بحاجةٍ فِعْلًا لإحياء سُنَّةِ الوَقْف . . هذه السُّنَّةُ العظيمة . . قِيراطان من الأرض . . أوقفهما للّه . . أنَّ الزروع والثمار التي تخرج منها للّه . . فلا يُباعوا ولا يُوهَبُوا ولا يُوَرَّثُوا . . بل تَظَلُّ قراريطُ الأرضِ للّه . . إلىٰ أَنْ تقومَ السَّاعَة .

المشروع التاسع : القَرْضُ الحَسَن :

أيضًا من الأعمال المفقودة التي نحتاج إلىٰ إحيائها في هذه الأيام : القَرْضُ الحَسَن . . لو أننا في مَوْسِمِ المدارس وهناك مسلمٌ مسكين أُعْسِر ويحتاج إلىٰ خَمسِمئة جنيه أو ألف جنيه ؛ فمن أين يأتي بها؟!. . من البنوك رِبًا يُحاربُ اللّه؟!!. . ثم تتضاعف الألف لتصير عشرة آلاف؟!. . أم مِنْ أين؟!. . وهنا نسأل : أين سُنَّةُ القَرْضِ الحَسَن؟!

قال رسولُ اللّهِ ﷺ : **«الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، والقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَر»**[1] . . القَرْضُ بِكَم؟ . . بِثَمانيةَ عَشر . . فلِمَ لا تُقْرِض؟ . . تقول : يا شيخ! ، ليس هناك أحدٌ يُسَدِّد ، كُلُّ مَنْ يستلف لا يَرُدُّ المال ؛ أقول لك : وليكن ، وليكن . . إن لم يَرُدَّ ؛ تصدَّقْ عليه بها ، تَكُنْ في ظِلِّهَا يوم

---

(١) أخرجه الطبراني (٨/ ٢٩٧) ، وصححه الألباني (٣٤٠٧) في «الصحيحة» .

القيامة ؛ فحَبِيبُكَ مُحمَّد رسولُ اللَّه ﷺ قال : «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أو وَضَعَ عَنْهُ ؛ كان في ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَوْمَ القِيَامَة»(١).

يومَ القيامة تدنو الشمسُ من الرُّؤوس ويُلْجِمُ العَرَقُ الناسَ إلجامًا . . والزِّحَام . . والمعاصي . . في هذه الساعة لك عنده ألف جنيه وخَمسمئة أو مئة أو خمسين أو عشرين . . سَتُرَصُّ جنيهاتٍ بجوار بعضِها البعض وتُظِلُّكَ مِنْ حَرِّ الشمس . . هل هذه خسارة؟! . . هل هناك شيء يَضيع ؟! . . أبدًا .

هذه قضية القرض . . أَوْقِف خَمسمئة جنيه أو ألف جنيه ، وقل لأولادك : هذه الألف للقرض . . إنسان يقترض مئة ، وإنسان يقترض خمسين ، وإنسان يقترض عشرين . . وتأخذ عليهم الإيصالات ، قال اللَّه : ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٢] . . سَتُسَدَّد بعد كم؟ . . بعد شهر . . بعد ستة أشهر . . على مدار سنة . . في الشهر خمس جنيهات ؛ لا بأس . . وتكتب هذا .

وإياكَ أَنْ تَسْجِنَ مُسْلِمًا . . إياك أن تشتكِيَهُ بهذا الإيصال . . ماذا ستستفيد؟ . . دفعَ فخيرٌ وبركة ، وتُقرض غيرَه . . لم يدفع ، فضَعْ عنه وسامِحْهُ واتركه . . لِلَّه . . فَنِيَتْ الألف . . لا بأس . . فليس عليك شيء . . قد أَدَّيْتَ عَمَلًا لِلَّه .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٣١٠)، وصححه الألباني (٨٧٢) في «صحيح الترغيب والترهيب» .

ما يَضُرُّنا لو فعلنا ذلك.. تقول: ومَنْ عنده ألفٌ اليوم؟!.. أقول: مئة.. خمسون.. عشرة.. خمس.. المهم: قَرْضٌ حَسَن.. لِلَّه.

لستُ أَنصحك أَنْ تَمُرَّ على الناس فتقول: مَنْ يُريد أَنْ يقترض؟.. لا.. لا.. إنما حين ترىٰ مَكْرُوبًا؛ ساعِده في تفريج كربته، قال الحبيبُ المصطفىٰ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَة..**»[1].. اللَّهُمَّ فَرِّجْ كُرُبَاتِ المسلمين.. يا أرحم الراحمين.

لا تقترض..

وإذا نصحتُكَ أن تُقرِض؛ فإني أنصحُكَ ألا تَقْتَرِض.. إياكَ أَنْ تقترضَ مِنْ أحدٍ شيئًا.. مُصيبةُ القرض مُصيبتان: مصيبةٌ في الدنيا ومصيبةٌ في الآخرة:

أمَّا في الدنيا؛ فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وأُحَدِّثُكُم حَدِيثًا فَاحْفَظُوه: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَة، ولَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، ولَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ؛ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيهِ بَابَ فَقْرٍ**»[2].

الرَّسُول يُقْسِم.. ﷺ.. أَنَّ مَنْ فَتَحَ علىٰ نفسِهِ بابَ مَسْأَلَة؛ وهيَ

(١) متفق عليه، البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (٢٦٩٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وصححه الألباني (١٨٩٤) في «صحيح الترمذي».

أن يقول : ساعدني . . أعطني . . أنا مُحتاج . . هات . . فُتِحَ عليه بابُ فقر . . ولذلك تَجِدُ دائمًا أنَّ من فَتَحَ علىٰ نفسِهِ هذا الباب ؛ لا يَغْتَنِي أبدًا ، ولا يُسَدِّدُ أبدًا . . اللهم استرنا ولا تفضحنا يا رب . . فلا تفتح علىٰ نفسك باب مسألة . . اصبر ولا تقترض . . واستعن باللّه وعِشْ علىٰ الكفاف .

أما مصيبة الآخرة ؛ فإِنَّ اللّهَ لا يغفرُ للمُقْتَرِض ، فيُعَذَّبُ في قبره بما عليه من مال . . والحديث مشهور : أنَّ رسول اللّه ﷺ كان لا يُصَلِّي علىٰ ميِّتٍ حتىٰ يسأل : «**أَعَلَيْهِ دَيْن**» ؛ إنْ قالوا : لا ؛ صلَّىٰ عليه ، وإِنْ قالوا : نعم ؛ قال : «**صَلُّوا عَلَىٰ صَاحِبِكُم ، لا أُصَلِّي عَلَيْه**»[1] .

فَأُتِيَ بِمَيِّت ، فقال : «**أَعَلَيْهِ دَيْن؟**» ، قال رجل : نعم ، لي عِنْدَهُ ديناران ؛ فقال : «**صَلُّوا علىٰ صَاحِبِكُم**» ، قال أبو أَيوبَ الأنصارِيّ : صَلِّ عليه يا رسولَ اللّه ودَيْنُهُ عَلَيَّ ، فصَلَّىٰ عليه رسولُ اللّه ، فلما كان من الغَدِ قال : «**يا أبا أيوب ، ما فَعَلَ الدِّينَارَان؟**» ، قال : يا رسول اللّه ، وهَلْ كَانَ ذلك إلا أمس؟! ، فسكت رسول اللّه ، فلمَّا كان من ثاني يوم ، قال أبو أيوب : دفعتُ الدينارين يا رسول اللّه ، فقال رسولُ اللّه ﷺ : «**الآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدَتُه**»[2] .

كان يُعَذَّب بالدِّينارين ليوم أو يومين !! . . أرأيتَ إذا مِتَّ الآن كم من

---

(١) أخرجه مسلم (١٦١٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٣٠) ، وصححه الألباني (٢٧٥٣) في «صحيح الجامع» .

الأقساطِ المُتَأَخِّرَةِ عليك ستُعَذَّبُ بها في جهنم؟! ، ويمتلئ قبرك عليك نارًا؟!

اللَّهُمَّ اقْضِ عَنَّا الدَّيْن . . وأغنِنَا من الفقر . . اللهم إنا نعوذ بك من غَلَبَةِ الدَّيْن . . وذُلِّ الدَّيْن . . وهمِّ الدَّين . . قال بعضُ السَّلَف : إنَّ الدَّيْنَ يَذْهَبُ بأشياءَ في العقل لا تَعُودُ إليه أبدًا .

ولذا أُشَدِّد عليك - أخي - بألَّا تقترض أبدًا . . وإن كنتَ قَدْ فعلت ؛ فتب الآن واعزِم على عدمِ العَوْدَة ، واستعن بالله ليعينك على قضاءِ دَيْنِك ، واجتهد في الدعاء .

ومن أدعية رسول الله ﷺ العظيمة النافعة في هذا الباب : «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّل فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيء ، وأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيء ، وأَنت الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيء ، وأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيء ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ ، وأَغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ**»[١] . . وحديث : «**اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلالِكَ عَنْ حَرَامِكَ ، وأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**»[٢] .

فاللهم اقْضِ الدَّيْن عن المَدِينِينَ . . وفَرِّجْ كَرْبَ المَهْمُومِينَ مِنَ المُسْلِمِين . . اللَّهُمَّ وسِّع بالحلالِ أرزاقَ المُسْلِمِين . . اللَّهُمَّ اكْفِنَا بِحَلالَكَ عَنْ حَرَامِكَ ، وأَغْنِنَا بِفَضْلِك عَمَّنْ سِوَاك . . يا أرحمَ الرَّاحمين . . وأكرمَ الأكرمين . . وأجودَ الأجْوَدِين .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٢) ، وحسنه الألباني (٣٥٦٣) في «صحيح الترمذي» .

المشروع العاشر: الرِّضَا بالكَفَاف:

قال رسول الله ﷺ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَم، ورُزِقَ كَفَافًا، وقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاه**»(١). . اللهم ارزقنا القناعة. . اللهم قنِّعنا بما آتيْتَنا.

الرضا بالكفاف يعني: أن ترضىٰ أن تكونَ أقلَّ من الناس ممتلكاتٍ في الدنيا. . إنَّ كثيرًا منا بل كلنا يريد أن يقول: مثل الناس. . كما يعيشون نعيش. . وأنا أقول لك: ولِمَ لا نعيشُ أقلَّ مِنَ الناس؟!. . لِلَّه. . لِمَ لا؟!. . لِمَ لا؟!. . أن نعيش أقلَّ من الناس لِلَّه.

إنَّما ضَيَّعَ الناسَ التَّكَالُبُ علىٰ الدنيا والتَّنَافُسُ فيها. . الذي يعمل حتىٰ الظُّهر، ثم مِنَ الظهرِ إلىٰ العشاء، ثم مِنَ العشاءِ إلىٰ منتصف الليل - أَيْنَ دِينُهُ يومئذٍ؟!. . وماذا قدَّمَ لأهله؟!. . وماذا صنعَ للآخرة؟!

أخي في الله، عِشْ علىٰ الكفاف، وارض بحالك، واحْمَدِ اللَّه؛ تَسْتَرِحْ مِنَ التفكير وتَحيا سعيدًا. . لقد كان رسول اللَّه - بأبي هو وأمي ونفسي - ﷺ يأكل الدَّقَل (أردأ التَّمْر) ويعيشُ عليه، وربَّما لا يجده فيعيشَ علىٰ الماء، ويربطُ الحجر والحجرين علىٰ بطنه من شدة الجوع ﷺ. . ما شَبعَ مِنْ خُبزِ الشَّعِيرِ في حياته قط. . وما أكل خبزًا ليِّنًا في حياته قط. . وكان يَمُرُّ علىٰ بيوته كُلِّها الشهرُ والشهران ولا يُوقَدُ فيها نار. . بأبي هو وأمي ونفسي ﷺ(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤).

(٢) راجع: باب الجوع وخشونة العيش، من «رياض الصالحين».

كان ﷺ لا يَدَّخِرُ شيئًا لِغَد[١]؛ لأنه كان يَعْلَمُ أَنَّ هذه الحياة ليست له؛ إنما راحتُهُ واستقرارُه عند اللَّه.. فعِشْ أُخَيَّ كما عاشَ رسولُ اللَّه.

وهل أتاكَ نَبأُ أَبي عُبَيْدَة!!.. عند فتح بيت المقدس زارَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه منازل أمراء الجيوش، ثم قال لأبي عبيدة: أَرِني بيتَك، قال: ولِمَ يا أميرَ المؤمنين؟، قال أَرِني بيتَك يا أبا عبيدة، قال: إذًا تُعَصِّرُ عينيكَ عَلَيَّ، قال: أرني بيتك يا أبا عبيدة، فمضىٰ معه فلم يَجِدْ في البيت إلَّا سِرْجَ الفَرَس اتخذه أبو عبيدةَ وِطاءً، وَجَفْنَةً يَشْرَبُ ويتوضأ فيها، فقال عمر: أين المتاعُ يا أبا عبيدة، قال: هذا يُبَلِّغُنَا المَقِيلَ[٢] يا أميرَ المؤمنين؛ فبكىٰ عمر، وقال: واللَّهِ لقد غَيَّرَتْنَا الدُّنيا إلَّا أنتَ يا أبا عُبيدة.

إخوتاه.. الرِّضَا بالكَفَاف يُبَلِّغُكُم المَقِيل.. فارضَوْا؛ فإِنَّما السَّعادةُ سعادةُ القلب والإيمان[٣].

المشروع الحادي عشر: الذِّلَّةُ علىٰ المؤمنين:

وَصَفَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قومًا يحبهم.. فهل تُحِبُّ أَنْ تكونَ منهم؟.. أتحبُّ أَنْ يحبَّك اللَّه.. أتحبُّ ذلك؟.. أن تكون حبيبَ اللَّه؟.. قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٦٢)، وصححه الألباني (١٩٢٦) في «صحيح الترمذي».

(٢) قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].
أي: يَقِيلَ أولياءُ اللَّه علىٰ الأَسِرَّةِ مع الحُور العين، ويَقِيلُ أولياءُ الشيطان في النار. انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٤).

(٣) لنا محاضرة في شريط بعنوان «مقاومة الاختطاف»؛ استمِعْ إليها تُفِدْ بإذن اللَّه.

وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

أوَّلُ صفاتهم: أذلةٍ علىٰ المؤمنين.. إننا - مع شديد الأسف!! - نجدُ في هذه الأيام عَكْسًا واضحًا لهذه الآية؛ فالذُّلَّةُ للكافرينَ واضحة، والعِزَّةُ علىٰ المؤمنينَ ظاهرةٌ ومنتشرة.

إنَّكَ حينَ تمشي في شوارعِ المسلمين؛ لا تَجِدُ أحدًا يُريدُ أَنْ يَرْحَمَ أحدًا.. الكل يُريدُ أَنْ يأكلَ الكل.. في كل مكان.. في السيارات.. في «الميكروباص».. في «الأتوبيس».. في شراء شيءٍ من جمعيةٍ أو دُكَّانٍ أو مَحِلٍّ أو سُوق تِجاري.. حتىٰ في المساجد!!

تجدُ الكل يريدُ أن يأكل الآخرين.. شيءٌ عجيب!.. أين أخلاقُ المسلمين؟!.. أين: **«تَرَىٰ المُؤْمِنِيْنَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِم»**[1].. أين الود؟!.. أين الرحمة؟!.. أين العطف؟!.. أين اللُّطف؟!.. أين الشفقة؟!.. أين الإحسان؟!

وقد تقولُ لي: ماذا أصنع؟!.. هذه هي أخلاقيات الناس.. لن ينفع معهم إلا التعامل بهذه الطريقة.. أقول: هذا فهمٌ خاطِئ وسلوكٌ شائِن.. لِأنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

هذه الآيات تحتاج أن تكون نبراسًا: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾.. رجلٌ دفعكَ بِكَتِفِهِ فأوقعكَ علىٰ الأرض، قم وقل له: «أنا آسف».. هو ضربني!.. نعم.. قم وقل لهُ: «أنا آسف».. سامِحْنِي، أنا المُخطئ في حقِّك.. باللّهِ عليك ماذا سيصنع؟؛ تقول: سينظرُ إليَّ مِن فوق إلىٰ تحت ويترُكُنِي ويَمضي.. ولْيَكُن.. هذا رجلٌ لم يَصْلُحْ فيه المعروف!!

لكِنْ - باللّهِ عليك- لو صنعتَها مع رجلٍ آخر؛ هل سَتَجِدُ نَفْسَ النَّمَط؟!.. فليكن.. سيكون نفس النمط.. الثالث: لا.. لا يُمكن.. ستُرزَق ولابد إنسانًا كريمًا يقول لك: لا.. أنا الذي آسَف.. ويُقبِّلُ رأسَكَ ويدَكَ وقدَمَك.. ستُرزَق حتمًا: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].. هذا وعدُ اللّه.

تَسيرُ بالسيارة فيريد إنسانٌ أن يَمُرَّ بك؛ دَعْهُ يَمُر.. فإذا وَقَفَ، فاصطبر عليه؛ إنك لا تدري ماذا حَدَثَ له.. تُريد أن تنزل وهناك مَن يَقِفُ بالباب ولا يُعيرُكَ اهتمامًا؛ اصطبر.. تَلَطَّفْ: قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: ٣٥].. فاللهم ارزقنا حُسْنَ الخُلُق.

نعم: إننا بحاجةٍ إلىٰ الذِّلَّةِ علىٰ المؤمنين.. أن نَذِلَّ للمسلمين.. عبادة مهجورة نحتاج إلىٰ إحيائها من جديد؛ ليُجَدِّدَ اللّهُ لنا إيماننا.. اللهم جَدِّدِ الإيمانَ في قلوبنا.. اللهم ارزقنا قَلْبًا جديدًا.. خَالِصًا لك يا رَبَّ العالَمِين.

المشروع الثاني عشر: إِحْيَاءُ السُّنَن المَهجُورَة:

أُنَادِي وأُنَاشِد جميعَ الإخوةِ الملتزمين.. السُّنِّيَّة.. في كُلِّ أنحاءِ العالم.. أن يَهُبُّوا لِنَشرِ سُنَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ، وإحياءِ هَدْيِهِ ﷺ في كُلِّ الأمور.. والقيامِ بإخلاصٍ وصَبْرٍ وإصرارٍ علىٰ إحْلَالِ هذه السُّنَن مَحَلَّ تِلْكَ البِدَعِ الكثيرةِ المُنْتَشِرة.. وكما يقول العلماء: مَا مِنْ بِدْعةٍ حَيَّةٍ ظاهرة؛ إلَّا ووراؤها سُنَّةٌ مَيِّتَةٌ غائِبة.

فانشُرْ - أيُّها الحبيب - سُنَّةَ الحبيب ﷺ.. فإذا قابلتَ إنسانًا فاذْكُرْ له حَدِيثًا، أو عَلِّمْهُ سُنَّةً لا يعرِفُها، ثم اذْكُرْ له الدَّلِيلَ الصَّحِيحَ عليها من أحاديث الرَّسول ﷺ.. وعِندكَ كتاب «**زَادُ المَعَاد في هَدْيِ خَيْرِ العِبَاد**» **لابن القيِّم**.. اسْتَخْرِجْ منه كُلَّ فترة مجموعةً من السُّنَن وأَحْيِهَا بينَ أهلِ بيتِك والنَّاسِ مِنْ حولِك في منطقتك، وفي أيِّ مكانٍ تذهب إليه.

ويا هَنِيئًا لكَ حينما تكونُ مِنْ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ.. المُحِبِّينَ لِسُنَّتِه.. المُسْتَمْسِكِينَ بهَدْيِه.. العاملينَ علىٰ نَشْرِ السُّنَّة.. والمُدَافِعينَ عنها.. والمُتَصَدِّرِينَ للإِطَاحَةِ برأسِ أَيِّ بدعةٍ تحاول أن تقوم.. جَعَلَنِي اللَّهُ وإِيَّاكم مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة الفائزينَ يوم القيامة بالنَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ.. آمِين.

قال الحبيبُ مُحَمَّد رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا؛ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ، ورُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٩)، وصححه الألباني (٢٣٥٦) في «صحيح الترمذي».

فهيًا - إخوتاه - تاجروا مع الله . . يقول بعضُ المُرَبِّين المعاصرين - عليه رحمةُ الله - :

وشأنُ التجارةِ الرَّابحةِ مع الله أن تتناول كل مَرَاضِيه ، والذي يُفتِّش عن مُرَاداتِ إلهه ومَحَابِّه فيأتيها ؛ هو الحاذِقُ في تجارته مع ربِّه عزَّ وجَلَّ .

وقد اعتاد الناس عبادات معينة ظَنُّوها هِيَ وحدَها الأبواب المفتوحة إلىٰ الله ؛ لكن ينبغي أن يكون الساعي في مَرضاة ربه بحَّاثًا عن المسالك المهجورة والأبواب البعيدة ذات الطرق الوَعْرَة التي تَنَكَّبَتْ عنها إراداتُ الناس كَسَلًا أو عَجْزًا .

(١) **فمن تلك السُّنَن** التي غفل عنها الناس وأهملوها ، ولم نجد من يحافظ عليها إلا القليل : الاستغفار بالأسحار ، وهي عبادة الصادقين ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧] .

والسَّحَرُ هو آخِرُ الليل ، وهو وقت السُّحور ؛ لذا استُحِبَّ أن يَطْعَمَ مُرِيدُ الصومِ في هذا الوقت ، ثم يُستحبُّ له أن يُبْقِيَ وقتًا يسيرًا قبل الفجر للاستغفار ، وطلبِ العفو ، والصَّفحِ ، والعِتْقِ من النار . . وهذا الوقت زُبْدَةُ الأوقات العامِرة وخُلاصة الأزمنةِ السَّائِرة ، تَتَّصِلُ الأرضُ بالسماء ، ويَعْبَقُ ليلُ المتهجدين بأنفاسِ الملائكةِ المُنزَّلة ، والألطافِ الهاطِلة ، ويكونُ النزولُ الإلهيُّ المَهِيب في الثلثِ الأخيرِ من الليل ؛ حيثُ الأقدامُ

مصفوفةٌ في محاريب التَّبجيل، والمآقِي مُغْرَوْرِقَةٌ فَرَحًا بقُرْبِ الكبير الجليل، والأيادي مرفوعةٌ بالأدعية والتراتيل، والألسنة لَهِجَةٌ بالذِّكْرِ وتلاوةِ التنزيل.

② **ومن تلك السُّنَن:** سُنَّةُ التَّفكُّرِ والتَّأمُّلِ في مخلوقاتِ اللَّهِ وعجائبِ قَدَرِه، والتَّدَبُّرِ في أسمائه وصفاته وآلائِه ونعمته، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩] .

وغير ذلك من الآيات الدَّالَّةِ علىٰ قُدْرَةِ اللّه ، الدَّاعيةِ إلىٰ التفكرِ والتدبرِ والتأملِ فيها .

واعلم أنَّ هذه العبادة هي أصلُ طريق اليقين في اللّه عَزَّ وَجَلَّ ، وبهذا التدبر يَثْبُتُ - بالضرورة في الذهنِ - وجودُ الرَّبِّ الخالقِ المُدَبِّر ؛ ومن ثَمَّ إلٰهيةُ هذا الرَّبِّ المُدَبِّر واستحقاقُهُ للعبادةِ دونَ غيرِه ، وبهذا التقرير خاطب اللّه عَزَّ وَجَلَّ المشركين مطالبًا إيَّاهم بأن يتفكروا في هذه الحقائق ؛ قال تعالىٰ : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢] .

واعلم أيضًا أَنَّ هذه العبادة من أعظم ما يُقَرِّبُ الإنسانَ من ربِّه ، ويُوقِفُهُ علىٰ جلالِه وعظَمتِه . بل هِيَ العلمُ الذي أشار اللّه عزَّ وجلَّ إليه باعتباره مُوَصِّلًا لخشية اللّه ؛ قال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ

سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨] .

③ ومن السُّنن المهجورة ؛ بل مِنْ أعظمها : تَحْدِيثُ النَّفْسِ بالغَزْوِ والجهاد ؛ وخاصَّةً في شهر رمضان ، شهرِ المعارك الكبرىٰ كَبَدْرٍ وفَتْحِ مكة وغيرهما ، بل إنَّ المُتَبَادَرَ مِنَ الحديث أَنَّ هذه الطاعة واجبةٌ لا يجوز الانفكاكُ عنها ؛ فقال ﷺ : «**مَنْ مَاتَ ولَمْ يَغزُ ولَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ ؛ مَاتَ عَلَىٰ شُعْبَةٍ مِن نِفَاق**»[1] . فالظاهر وجوبُ أحدِ الأمرينِ حتىٰ يَبْرَأَ مِنَ هذا النِّفَاق .

وفائدة تحديث النفس بالغزو : إحياء معاني الجهاد والعِزَّة والولاء والنُّصْرَة للدِّين ، والبراء مِنَ الكفر والشرك ومعاداة أهله ، والوصول بالنَّفْسِ إلىٰ أعلىٰ مراتب البَذْل ، وهو بَذْلُ الأرواح والمُهَج في سبيلِ اللّه .

ولقد هُجِرَتْ هذه المعاني حتىٰ صارت بين الملتزمين - فضلًا عن المسلمين - نَسْيًا مَنسيًا ، وما أَجْدَرَنا أن نُعَاوِدَ إحياءَ هذه المعاني في هذا الشهر المبارك شَهْرِ الصَّبْرِ والبَذْلِ وجِهَادِ النَّفْس .

فهذه بعض نماذج من العبادات المهجورة الغائبة ، ولو تأملتَ قوله ﷺ : «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَة ، أو بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَة ، أَعْلَاها لا إله إِلَّا اللّه ، وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيق**» ؛ لَعَرَفْتَ كَمْ ضَيَّعَ النَّاسُ مِنْ

---

(١) متفق عليه ، البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

شُعَبِ الإيمانِ العَمَلِيَّة وطُرُقِ الخَيْرِ المُوَصِّلَةِ لِرِضَا الرَّبِّ تباركَ وتعالىٰ ، واللَّهُ المُسْتَعَانُ[1] .

وأخيرًا : أيُّها الإخوة . .

ما أَظُنُّ أنَّ أحدًا يعرفُ كُلَّ هذا الخير ، ولا يُدركُ منه شيئًا . . هكذا كن دائمًا : إنْ لم تستطع فِعْلَ شيءٍ مِنَ البر ؛ فامضِ في أعمالٍ أُخرىٰ ، لا تَفْتُر ، ولا تَسْتَحْسِر . . لا تيأس ؛ فأبوابُ الطاعات مفتوحة ، ورَحَمَاتُ ربِّك سابغة ، والسُّبُلُ كثيرة . .

فلا تَرْكَنْ لعَمَلٍ واحدٍ تراه عظيمًا ؛ فأنتَ لا تعرف مِنْ أينَ سيأتيك الخير . . اسْرِدِ الصِّيام . . وأكثِرِ الخُطا إلىٰ المساجد . . أكثر السجود . . لا تَتوانَ عن الصدقة . . يَلْهَج لسانُكَ بِذِكْرِ اللَّه . . اخْدِمِ المسلمين . . اتلُ القرآن . . عَلِّمِ الناسَ الخير . . افعل وافعل وافعل . .

والقاعدةُ هنا : أنه كُلَّمَا فُتِحَ بَابٌ في الخَيرِ ؛ فلا تَتَوانَ في الدُّخُولِ إلَيه ، والمُشَارَكَةِ فِيه .

وقد علَّمَكَ ابنُ القيِّمِ الأَرِيبِ - عليه رحمةُ اللَّه وبركاتُه - في «طريق الهجرتين» أَنَّ الوَاصِلَ إلىٰ اللَّه علىٰ الحقيقة هُوَ السَّالك إلىٰ اللَّه في كُلِّ وادٍ وفي كُلِّ طريق ؛ فأينما كانتْ العبوديةُ وَجَدْتَهُ هناك .

---

(١) القواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان ، لأبي محمد المعتز باللَّه ، ص (١١١ وما بعدها) بتصرف .

فكُنْ مِنْ أهل الخيرِ المُكْثِرِين . . واعملْ علىٰ تنميةِ حسناتِك يومًا بعدَ يوم . . اعْمَلْ حقيقةً لِلّه . . واسْتَعِنْ باللّه وأَخْلِص . . اللَّهُمَّ ارزقنا الإخلاصَ في القَوْلِ والعَمَل .

إخوتاه . .

إنَّ هذه المعاني العظيمة التي ذكرناها ، والتي نحتاجُ إلىٰ إحيائها في حياتك في هذه الأيام لتَسْهُلَ التَّخْلِيَةُ والتَّصْفِيَة . . إنَّ هذه العبادات المهجورة وتلك المشاريع الفَذَّة - أَعْلَمُ وأُدْرِكُ بِوَعْيٍ أنَّ أكثرَهَا يَحتاجُ إلىٰ مُجَاهَدَةٍ في عملها . . نعم : تحتاج إلىٰ بَذْلٍ وجُهْدٍ وجِهَاد . . جهادٍ مع النفس ، وجهادٍ مع الواقع ، وجهادٍ مع زوجتِك وأولادِك .

لكِنْ إنَّمَا الصَّبْرُ بالتَّصَبُّر ، والحِلْمُ بالتَّحَلُّم ، وإنَّمَا العِلْمُ بالتَّعَلُّم . . ومن يَتَصَبَّر يُصَبِّرْهُ اللّه . . فاجتهِدْ في افتعال الأعمال ؛ لِكَي يُعينَكَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ عليها . . وضَعْ هذه الآية أمام عينيك : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

❊ ❊ ❊

خامسًا : دَوَامُ المُحَاسَبَة

إخوتاه . .

هذه هي الخطوة الخامسة والأخيرة على طريق العلاج : دوام المحاسبة . . إنَّ هذه الرِّحلة الطويلة التي قطعناها في هذا الكتاب رحلةٌ مُضْنِيةٌ شاقَّة . . ليست باليسيرة على مَنْ اتخذها عملًا ، وسَلَكَها طريقًا وسبيلَ حقٍّ للهدايةِ والوصولِ إلى مَرْضَاةِ اللَّه عزَّ وجَلَّ .

ولذلك فإنَّ مِنْ أهمِّ عناصر هذا العلاج أَنْ يُدِيمَ الإنسانُ مُحاسَبَةَ نفسِه ومراقبتها . . لابد من وقفةٍ دائمةٍ للمحاسبة ؛ ليعرفَ الإنسانُ إلى أين صار ، وأين يريد ، وماذا بَقِيَ عليه ؟ . . أمَّا الذي يعيشُ حياتَهُ على هواه ، ويَتْرُكُ الأمورَ تجري كيفما اتَّفق ؛ فلا تؤولُ أمورُهُ إلى خيرٍ أبدًا .

قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «أي حاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحَاسَبوا، وانظروا ماذا ادَّخَرْتُم لأنفسِكم من الأعمال الصالحة ليومِ مَعَادِكم وعَرْضِكم على ربِّكم»[١] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٤٢) ، ط. دار الحديث بالقاهرة .

وجاء في «مختصر منهاج القاصدين»(١):

«قال اللّه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

وتحققَ أربابُ البصائر أنهم لا يُنَجِّيهم من هذه الأخطار إلا لزومُ المحاسبة لأنفسهم وصدقُ المراقبة. فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف في القيامة حسابه، وحَسُنَ مُنقَلَبُه. ومن أهملَ المحاسبةَ دامتْ حَسَرَاتُهُ.

فلمَّا علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم اللّه تعالىٰ بالصبر والمرابطة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]؛ فرابطوا أنفسهم أولًا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص (٣٧٠ - ٣٧٨) بتصرف.

بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم في المرابطة سِتُّ مَقَامات ، وأَصْلُها المحاسبة ، ولكن كل حساب يكون بعد مُشَارَطَة ومراقبة ، ويتبعه عند الخُسْران المعاتبة والمعاقبة ، ولابد من شرح ذلك :

المقام الأول : المُشَارَطَة :

اعلم : أنَّ التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلبًا للربح ، ويُشارطه ويحاسبه ، كذلك العقل يَحتاج إلىٰ مشاركة النفس ، ويوظِّفُ عليها الوظائف ، ويَشْرِط عليها الشروط ، ويُرشدها إلىٰ طريق الفلاح ، ثم لا يغفل عن مراقبتها ، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال ، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ؛ فإن هذه التجارة ربحُها الفردوسُ الأعلىٰ . فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير في أرباح الدنيا .

فحَتْمٌ علىٰ كُلِّ ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أَن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها ، فإنَّ كل نَفَسٍ من أنفاس العُمر جوهرةٌ نفسيةٌ لاعِوضَ لها .

فإذا فرغ العبد من فريضة الصُّبح ؛ ينبغي أن يُفَرِّغَ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس : ما لي بضاعةٌ إلا العُمر ، فإذا فَنِيَ مني رأسُ المال وقع اليأس مِنَ التجارة ، وطلبِ الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني اللهُ فيه ، وأخّر أجلي ، وأنعم عليَّ به . ولو توفاني لكنت أتمنىٰ أن يُرجعني

إلىٰ الدنيا حتىٰ أعمل فيه صالحا ، فاحْسَبي يا نفسُ أنَّكِ قد تُوفِّيتِ ثم طلبتِ الرَّجْعَة فرُدِدْتِ يومًا ، فإياك أنْ تُضيِّعي هذا اليوم .

واعلمي أنَّ اليوم والليلة أربعٌ وعِشرون ساعة ، وأنَّ العبدُ ينشر له بكل يومٍ أربعٌ وعشرون خزانةً مصفوفة ، فيُفتح له منها خزانة ، فيراها مملوءة نورًا من حسناته التي عملها في تلك الساعة ، فيحصُلَ له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وُزِّعَ علىٰ أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار ، ويُفتح له خزانة أخرىٰ سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها ، وهي الساعة التي عصىٰ اللّٰه تعالىٰ فيها ، فيحصُلَ له من الفزع والخزي ما لو قُسِّمَ علىٰ أهل الجنة لنغَّصَ عليهم نعيمهم ، ويُفتح له خِزانة أخرىٰ فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح ، ويتحسر علىٰ خُلُوِّها ، ويناله من الندم ما نال القادر علىٰ الرِّبح الكثير إذا أهمله حتىٰ فاته .

وعلىٰ هذا تُعرض عليه خزائنُ أوقاته طول عمره ؛ فيقول لنفسه : اجتهدي اليوم في أن تَعْمُري خزانتك ، ولا تدعيها فارغة ، ولا تَميلي إلىٰ الكسل والدَّعَةِ والاستراحة ؛ فيفوتَكِ من درجات عِلِّيين ما يُدركه غيرك .

قال بعضهم : هَبْ أنَّ المُسِيءَ قد عُفِيَ عنه ، أليس قد فاته ثوابُ المُحْسِنين ؟!

فهذه وصيته في نفسه في أوقاته . ثم يستأنف لها وصيةً أخرىٰ في أعضائه السبعة ، وهي : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرِجل ، وتسليمها إلىٰ النفس ؛ فإنها رعايا خادمة لها في هذه التجارة

المُخَلَّدة ، بها يتم أعمالها ، ويُعَلِّمُها أنَّ أبواب جهنم سبعة علىٰ عدد هذه الأعضاء . فتعيين تلك الأبواب لمن عصىٰ اللّٰه تعالىٰ بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها .

أما العين فيحفظها عن النظر إلىٰ ما لا يَحِلُّ النظر إليه ، أو إلىٰ مسلم بعين الاحتقار ، وعن كل فضولٍ مُسْتَغْنًى عنه ، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو النظر إلىٰ ما خُلقت له من عجائب صنع اللّٰه تعالىٰ بعين الاعتبار ، والنظر إلىٰ أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب اللّٰه تعالىٰ ، وسُنَّة رسول اللّٰه ﷺ ، ومطالعة كتب الحِكَم للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يتقدمَ إلىٰ كل عضوٍ بالوصية بما يَليق به ، ولا سِيَّما اللِّسانُ والبطن . . فيشغله بما خُلِقَ له ، من الذِّكْرِ والتذكير ، وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد اللّٰه تعالىٰ إلىٰ طريق اللّٰه ، وإصلاح ذات البَيْن ، إلىٰ غير ذلك من الخير .

وأما البطن ، فيُكَلِّفُهُ تَرْكَ الشَّرَه ، واجتنابَ الشبهات والشهوات ، ويقتصر علىٰ قدر الضرورة ، ويشترط علىٰ نفسه إنْ خالفت شيئًا من ذلك أنْ يعاقبها بالمنع من شهوات البطن ؛ ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها . وهكذا في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، وكذلك لا تخفىٰ طاعات الأعضاء ومعاصيها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة ، وفي النوافل التي يقدر عليها ، وعلىٰ الاستكثار منها . وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلىٰ أن تتعود النفس ذلك ، فيستغني عن المشارطة ، ولكن

لا يخلو كل يوم من حادثة لها حُكم جديد للّه تعالىٰ عليه في ذلك حق .
ويَكْثُر هذا علىٰ من يشتغل بشيءٍ من أعمال الدنيا ، مِن ولايةٍ أو تجارةٍ أو نحو ذلك ؛ إذ قلَّ أن يخلوَ يومٌ عن واقعةٍ جديدة يحتاج إلىٰ أن يقضي حَقَّ اللّه فيها . فعليه أن يَشْرُط علىٰ نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق .

ورُوِيَ عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : **«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ** (أي حاسَبَها) **وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللّهِ الأَمَانِيّ»**[١] .

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسَكُم قَبْلَ أن تُحَاسبوا ، وزِنُوها قبلَ أنْ تُوْزَنُوا ، وتَهَيَّئُوا للعَرْضِ الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١٨] .

المَقَام الثاني : المُرَاقَبَة :

إذا أوصىٰ الإنسان نفسه ، وشَرَطَ عليها ما ذكرناه ؛ لم يبق إلا المراقبةَ لها وملاحظتَها . وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان ، لمَّا سُئِل عنه رسول اللّه ﷺ قال : **«أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاه ، فَإِنْ لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك»**[٢] ، أراد بذلك استحضار عظمة اللّه ومراقبته في حال العبادة .

قيل : دخل الشِّبْلِيُّ علىٰ ابن أبي الحُسَين النُّورِي وهو قاعِدٌ ساكن ، لا يتحرك من ظاهره شيء ، فقال له : ممن أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ ؛

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) ، وضعفه الألباني (٥٣١٩) في «الضعيفة» .
(٢) متفق عليه ، البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) .

فقال : من سِنَّوْرٍ (قِطَّة) كانت لنا ، إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجُحْر حتىٰ لا يتحرك لها شَعْرَة .

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل ، هل حرَّكه عليه هوىٰ النفس ، أو المُحرِّك له هو اللَّه تعالىٰ خاصة ؟ ؛ فإن كان اللَّه تعالىٰ ؛ أمضاه ؛ وإلَّا تركه ، وهذا هو الإخلاص .

قال الحسن : رَحِمَ اللَّه عبدًا وقف عند هَمِّه ؛ فإن كان لِلَّه مضىٰ ، وإن كان لغيرِهِ تأخَّر .

فهذه مراقبة العبد في الطاعة ، وهو أن يكون مخلصًا فيها ، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشكر علىٰ النعم ، فإنه لا يخلو من نعمةٍ لابد له من الشكر عليها ، ولا يخلو من بليةٍ لابد من الصبر عليها ، وكل ذلك من المراقبة .

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه في حِكْمَةِ آلِ داود : حَقٌّ علىٰ العاقل أن لا يُشغل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربَّه ، وساعة يحاسب فيها نفسَه ، وساعة يُفضي فيها إلىٰ إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ، ويَصْدُقُونه عن نفسه ، وساعة يُخَلِّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم ؛ فإن هذه الساعة عونٌ علىٰ هذه الساعات ، وإجمامٌ للقوة . وهذه الساعة التي هو مشغولٌ فيها بالمطعم والمشرب ؛ لا ينبغي أن تخلوَ عن عملٍ هو أفضلُ الأعمال ، وهو الذِّكر والفِكْر ؛ فإن الطعام الذي يتناوله ، فيه من العجائب ما لو تَفَكَّرَ فيه ؛ كان أفضلَ مِن كثيرٍ من أعمالِ الجوارح .

المَقام الثالث : المحاسبةُ بعدَ العمل :

قال اللّه تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨]، وهذه إشارة إلىٰ المحاسبة بعد مُضِي العمل ؛ ولذلك قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : حَاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا .

وقال الحسن : المؤمن قوَّامٌ علىٰ نفسه ، يحاسب نفسه . وقال : إنَّ المؤمن يَفجؤه الشيء يُعجبه فيقول : واللّهِ إني لأشتهيك ، وإنك لَمِن حاجتي ، ولكِنْ واللّهِ ما مِنْ حِيلةٍ إليكَ ، هيهاتَ ، حِيل بيني وبينك . ويَفْرُطُ منه الشيء فيرجع إلىٰ نفسه فيقول : ما أردتِ إلىٰ هذا ، ما لي ولهذا ؟ ، واللّهِ لا أعوُد إلىٰ هذا أبدًا إنْ شاء اللّه .

إنَّ المؤمنين قومٌ أوثقَهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إنَّ المؤمن أسيرٌ في الدنيا ، يسعىٰ في فِكَاكِ رقبته ، لا يأمنُ شيئًا حتىٰ يلقىٰ اللّه عزَّ وجَلَّ ، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذٌ عليه في ذلك كله .

واعلم : أنَّ العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه ؛ كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار ، ويحاسبها علىٰ جميع ما كان منها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنةٍ أو شهرٍ أو يوم .

ومعنىٰ المحاسبة : أَنْ ينظر في رأس المال ، وفي الرِّبْح ، وفي الخُسْران لتتبينَ له الزيادة من النُّقْصان ، فرأسُ المال في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وليحاسبها أوّلًا علىٰ

الفرائض ، وإن ارتكب معصيةً اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفيَ منها ما فَرَط .

كان توبةُ بنُ الصِمَّة وكان محاسبًا لنفسه ، فحسب يومًا فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمئة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتا ! أَلقىٰ الملِك بأحدٍ وعشرين ألف ذنبٍ وخمسمئة ذنب ؟! ، كيف وفي كل يوم عشرةُ آلافِ ذنب !! ، ثم خَرَّ مَغْشِيًّا عليه ؛ فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلًا يقول : يا لها مِنْ رَكْضَةٍ إلىٰ الفردوسِ الأعلىٰ !

فهكذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه علىٰ الأنفاس ، وعلىٰ معصية القلب والجوارح في كل ساعة ؛ فإن الإنسان لو رُمِيَ بكل معصيةٍ يفعلُها حَجَرًا في داره ؛ لامتلأت داره في مدة يسيرة ؛ ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مُثْبَتَة : ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة : ٦]

المقام الرابع : مُعَاقَبَةُ النَّفْسِ علىٰ تقصيرِها :

اعلم : أَنَّ العبد إذا حاسب نفسه فرأىٰ منها تقصيرًا ، أو فعلت شيئًا من المعاصي ؛ فلا ينبغي أن يُهملها ؛ فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفةُ الذنوب ويَعْسُرُ عليهِ فِطامُها ؛ بل ينبغي أنْ يعاقبها عقوبةً مباحةً كما يعاقب أهله وولده .

وكما رُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنه : أنه خرج إلىٰ حائطٍ له ، ثم رجع وقد صلَّىٰ الناس العصر . فقال : إنما خرجتُ إلىٰ حائطي ، ورجعت وقد

صلَّىٰ الناس العصر ، حائطي صدقةٌ علىٰ المساكين . قال اللَّيْث : إنما فاتته الجماعة ، وروينا عنه أنه شغله أمرٌ عن المغرب حتىٰ طَلَعَ نَجمان ، فلمَّا صلَّاها أعتق رقبتين .

وحُكِيَ أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِي رضي الله عنه نام ليلةً لم يَقُمْ يتهجَّد فيها ، حتىٰ أصبح ؛ فقام سَنَةً لم يَنَمْ فيها ؛ عقوبةً للذي صَنَع .

ومرَّ حسَّان بنُ سِنان بغرفةٍ فقال : متىٰ بُنيت هذه ؟ ، ثم أقبل علىٰ نفسه فقال : تسألين عما لا يَعنيكِ ! ، لأعاقبنَّكِ بصومِ سَنَة ؛ فصامها .

فأمَّا العقوبات بغير ذلك مِمَّا لا يَحِل ؛ فيحرم عليه فعلَهَ . مثال ذلك : ما حُكِي أَنَّ رجلًا من بني إسرائيل ، وضع يده علىٰ فخذ امرأة ، فوضعها في النار حتىٰ شُلَّت ، وأَنَّ آخَرَ حَوَّلَ رِجله لينزل إلىٰ امرأة ، ففكَّرَ وقال : ماذا أردتُ أنْ أصنع ؟ ، فلمَّا أراد أن يُعِيدَ رِجْلَه قال : هيهات رِجلٌ خرجتْ إلىٰ معصية الله لا ترجع معي ، فتركها حتىٰ تقطَّعت بالمطر والرياح . وأَنَّ آخر نظر إلىٰ امرأةٍ فقلع عينيه ، فهذا كله محرم ، ولَعَلَّهُ كان جائزًا في شريعتهم . وقد سلك نحو ذلك خَلْقٌ من أهل مِلَّتِنا ، حَمَلَهُم علىٰ ذلك الجهلُ بالعلم ، كما حُكِيَ عن غَزْوانَ الزاهد : أنه نظر إلىٰ امرأة ، فلَطَمَ عينه حتىٰ نَفَرَت .

وروينا عن بعضهم : أنه أصابته جنابة وكان البرد شديدًا ، وأنه وجد في نفسه توقفًا عن الغُسل ، فآلىٰ ألا يغتسل إلا في مرقعته ، ألا ينزعها ولا يَعْصُرَها ، فكانت شديدة الكثافة تَزيدُ علىٰ عشرين رَطْلًا . وهذا من الجهل بالعلم ؛ فإنه ليس للإنسان أنْ يتصرف في نفسه بمِثْلِ هذا . وقد

ذكرتُ كثيرًا من هذا الفن الصادر عن المتعبدين علىٰ الجهل في كتابي المسمىٰ بـ«تلبيس إبليس».

المقام الخامس: المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصيةً؛ أَنْ يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانىٰ بحُكْمِ الكَسَلِ في شيءٍ من الفضائل، أو وِرْدٍ من الأوراد؛ فينبغي أن يؤدِّبَها بتثقيلِ الأورادِ عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه أنه فاتته صلاةٌ في جماعة؛ فأحيا الليل كله تلك الليلة. وإذا لم تطاوعه نفسه علىٰ الأوراد؛ فإنه يجاهدها ويُكْرِهُها ما استطاع.

وقال ابن المبارك: إنَّ الصالحين كانت أنفسُهم تُواتِيهم علىٰ الخير عفوًا؛ وإِنَّ أنفسنا لا تُواتِينا إلا كَرْهًا؛ فينبغي أن نُكْرِهَهَا علىٰ الخير.

ومِمَّا يُستعان به عليها: أن يُسمِعَها أخبار المجتهدين، وما وَرَدَ في فضلهم، ويَصحبَ مَنْ يَقْدِرُ عليه منهم؛ فيقتديَ بأفعاله.

قال بعضهم: كنت إذا اعترتني فَتْرةٌ في العبادة؛ نظرتُ إلىٰ وجه محمد بنِ واسع وإلىٰ اجتهاد؛ فَعَمِلْتُ علىٰ ذلك أسبوعًا.

وقد كان عامر بن عبد قيس يُصَلِّي كل يومٍ ألفَ ركعة. وكان الأسود ابن يزيد يصوم حتىٰ يَخْضَرَّ ويَصْفَرَّ. وحج مَسْرُوق فما نام إلا ساجدًا.

وكان داود الطَّائِيُّ يشرب الفَتِيتَ مكانَ الخُبز، ويقرأ بينهما خمسين آية. وكان كَرْزُ بنُ وَبَرَة يَختم كل يوم ثلاث خَتَمات.

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيز وفَتْحُ المَوْصِلي يَبْكِيانِ الدَّم.

وصَلَّىٰ أربعونَ نَفْسًا من القدماء الفجرَ بوضوء العَتَمَة سِنينَ طويلة .

وجاورَ أبو محمد الجريري سَنَةً فلم ينم ولم يتكلم، ولم يَستند إلىٰ حائط، ولم يَمُدَّ رِجله، فقال له أبو بكر الكِتّاني : بِمَ قَدِرْتَ علىٰ هذا؟، قال : عَلِمَ اللّه سبحانه صِدْقَ باطني ؛ فأعانني علىٰ ظاهري .

ودخلوا علىٰ زَحْلَةَ العابدة فكلَّموها بالرِّفقِ بنفسِها فقالت : إنما هي أيامُ مبادَرة، فمن فاته اليومَ شيءٌ لم يدركْه غدًا، واللّهِ - يا إخوتاه - لَأُصَلِّيَنَّ لِلّهِ ما أَقَلَّتْنِي جوارحي، ولأصومنَّ له في أيام حياتي، ولأبكينَّ ما حَمَلَتْ الماءَ عيناي .

ومن أرادَ أنْ ينظرَ في سِيَرِ القوم، ويتفرَّج في بساتينِ مجاهداتهم ؛ فلينظر في كتابي المسمىٰ بـ«صفة الصفوة» ؛ فإنه يرىٰ من أخبار القوم ما يَعُدُّ نفسَه بالإضافة إليهم مِنَ الموتىٰ ؛ بل من أخبار المتعبدات من النِّسوة ما يَحتَقِرُ نفسَهُ عِنْدَ سَماعِه .

المَقَام السادس : في مُعاتَبةِ النفسِ وتوبيخِها :

قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : من مَقَتَ نفسه في ذاتِ اللّه ؛ آمَنَهُ اللّهُ مِن مَقْتِه .

وقال أنس رضي الله عنه : سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخل حائطًا، فسمعته يقول - وبيني وبينه جدار - : عمرُ بنُ الخَطّاب أميرُ المؤمنين، بَخٍ بَخٍ، واللّهِ لتتقِيَنَّ اللّهَ يا ابنَ الخَطّابِ أو لَيُعذِبَنَّك .

وقال البُخْتُرِيُّ بنُ حارثة : دخلتُ علىٰ عابدٍ ؛ فإذا بين يديه نارٌ قد أَجَّجَهَا وهو يُعاتب نفسه ، فلم يزل يُعاتبها حتىٰ مات .

وكان بعضهم يقول : إذا ذُكِرَ الصالحون ؛ فَأُفٍّ لي وتُفٍّ .

واعْلَمْ: أنَّ أَعْدَىٰ عَدُوٍّ لك نفسُك التي بينَ جنبيك ، وقد خُلِقَتْ أمَّارةً بالسوء ، مَيَّالةً إلىٰ الشر ، وقد أُمِرتَ بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها ، وأنْ تقودها بسلاسل القهر إلىٰ عبادة ربها ؛ فإن أهملتها جَمَحَتْ وشَرَدَتْ ، ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لَزِمْتَها بالتوبيخ ؛ رجونا أن تصيرَ مُطمئنة ؛ فلا تَغفلنَّ عن تذكيرِها .

وسبيلُك : أن تُقبِلَ عليها ؛ ، فتقرِّرَ عندها جهلَها وغباوَتَها وتقول : يا نفسُ ! ، ما أعظمَ جهلَكِ ، تَدَّعين الذكاء والفطنة وأنت أشدُّ الناس غباوةً وحُمقًا ، أما تعلمين أنك صائرةٌ إلىٰ الجنة أو النار؟ ؛ فكيف يلهو مَنْ لا يدري إلىٰ أيّتِهما يصير؟! ، وربما اخْتُطِفَ في يومِهِ أو في غَدِه!

أما تعلمين أَنَّ كُلَّ ما هُوَ آتٍ قريب ، وأَنَّ الموتَ يأتي بغتةً مِن غير مَوْعِد ، ولا يتوقف علىٰ سِنٍّ دون سِنّ ؛ بل كلُّ نَفَسٍ من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموتُ فجأة ، وإن لم يكن الموت فجأةً كان المرض فجأة ، ثم يُفضي إلىٰ الموت . فمالكِ لا تستعِدِّينَ للموت وهو قريبٌ منكِ؟!

يا نَفْسُ ! ، إنْ كانت جُرأتكِ علىٰ معصيةِ الله تعالىٰ لاعتقادِكِ أَنَّ الله لا يراكِ ؛ فما أعظمَ كُفرِكِ ! ، وإنْ كانت مع عِلْمِكِ باطلاعه عليكِ ؛ فما أشدَّ رَقَاعَتَكِ ، وأَقَلَّ حَيَاءَكِ !

أَلَكِ طاقةٌ علىٰ عذابه؟، جَرِّبي ذلك بالقعود ساعةً في الحمام، أو قَرِّبي أَصْبَعَكِ مِنَ النار.

يا نَفْسُ!.. إنْ كان المانعُ لكِ من الاستقامةِ حُبُّ الشهوات؛ فاطلبي الشهوات الباقية الصّافية عن الكَدَر في مُلْكٍ مُخَلَّد، ورُبَّ أكلةٍ منعت أكلات.

وما قولُكِ في عقلِ مريضٍ أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصحَّ ويتهيأ لشُربه طول العمر؟!، فما مقتضىٰ العقل في قضاء حق الشهوة؟، أيصبرُ ثلاثةَ أيام ليتنعم طول العمر؟، أم يقضي شهوته في الحال ثم يَلْزَمُهُ الألمُ أبدًا؟؛ فجميعُ عمرك وبالإضافة إلىٰ الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار؛ أقلُّ من ثلاثة أيام بالإضافة إلىٰ جميع العمر؛ بل أقلُّ من لحظةٍ بالإضافة إلىٰ عُمْرِ الدنيا.

ولَيْتَ شِعْرِي! أَلَمُ الصبر عن الشهوات أشدُّ وأطولُ، أم النارُ في الدَّرَكَات؟، فمن لا يُطيق الصبرَ علىٰ ألم المجاهدة؛ كيف يُطيقُ أَلَمَ العذابِ في الآخرة؟، أَشَغَلَكِ حُبُّ الجاه؟، أمَا بعد سِتِّينَ سَنَة أو نحوَها، لا تَبقينَ أنتِ ولا مَنْ كانَ لكِ عندَهُ جَاه؟!

هَلَّا تركتِ الدنيا لخسَّةِ شركائها، وكثرة عنائها، وخوفًا من سرعة فنائها؟، أتستبدلين بجوارِ ربِّ العالمين صَفَّ النِّعال في صُحبة الحَمْقىٰ؟!

قد ضاع أكثرُ البِضاعة، وقد بَقِيَت مِنَ العمر صُبَابة، ولو استدركتِ نَدمتِ علىٰ ما ضاع، فكيف إذا أَضَفْتِ الأخيرَ إلىٰ الأول؟!

اعْمَلِي في أيامٍ قِصَارٍ لأيامٍ طِوال، وأَعِدِّي الجوابَ للسؤال.

اخرُجِي مِنَ الدنيا خروجَ الأحرار ، قبل أن يكونَ خُروجَ اضطرار .

إنه مَنْ كانت مَطِيَّتُهُ الليلُ والنهار ؛ سِيْرَ به وإِنْ لَمْ يَسِرْ .

تَفَكَّرِي في هذه الموعظة ، فإِنْ عَدِمْتِ تأثيرَها ؛ فابْكي علىٰ مَا أُصِبْتِ به ؛ فمُسْتَقَىٰ الدَّمع مِن بَحْرِ الرَّحمة» اهـ .

كان في خَدِّ عمر بن الخطاب خطَّانِ أسودان من كثرة البكاء . .

وكان في وجهِ ابنِ عباسٍ كالشِّراكِ البالي من الدُّمُوع . .

كان الحسنُ يَبكي حتَّىٰ يُرْحَم . .

وكان الفُضَيلُ بنُ عِياض يَبكي في النَّوم مِن كثرة بكائه بالنهار ؛ حتىٰ ينتبه أهلُ الدَّارِ ببكائِه . .

وكان عطاءُ يبكي في غرفةٍ له حتىٰ تجري دموعه في المِيْزاب ، فقطرت يومًا إلىٰ الطريق علىٰ بعض المَارَّة ؛ فصاحَ : يا أهلَ الدَّار ، هَلْ ماؤُكم طاهر ؟ ؛ فصاحَ عطاء : اغْسِلْهُ ؛ فإنه دَمْعُ مَنْ عَصَىٰ اللّٰه . .

قالوا لعطاءِ السُّلَمي : ما تَشتهي ، قال : أشتهي أن أبكي حتىٰ لا أَقْدِرَ أن أبكي . .

قال الحسن : لو بَكَىٰ عبدٌ مِن خشيةِ اللّٰه ؛ لَرُحِمَ مَنْ حَوْلَه ؛ ولو كانوا عشرين ألفًا . .

وقيل لثابتِ البُنَانِيّ : عالِجْ عينيكَ ولا تَبْكِ ؛ فقال : وأيُّ خَيْرٍ في عَيْنٍ لا تَبكي . .

خُلاصَةُ القَوْلِ لَكَ : إِنَّ البُكَاءَ مُوَكَّلٌ بِعُيُونِ الخائفين ؛ كُلَّمَا هَمَّتْ بِفَتْحِ طَرَفٍ لِتَنْظُرَ إلىٰ طَرَفٍ مِنْ طَرَفِ الدُّنيا ؛ طَرَفَتْهُ دَمْعَة .

إخوتاه . .

هكذا كان سلفنا يحاسبون أنفسهم علىٰ ما يتكلمون به وما يفعلونه ، فَيُقَيِّدُونَهُ في دَفْتَر؛ فإذا كان بعدَ العِشَاء حاسبوا نفوسهم ، وأحضروا دفترهم ، ونظروا فيما صدر منهم مِنْ قولٍ وعمل ، وقابلوا كُلًّا بما يَستحقه ؛ إنِ استَحَقَّ استغفارًا استغفروا ، أو توبةً تابوا ، أو شكرًا شكروا ، ثم ينامون . . وكان بعضهم يحاسب نفسه علىٰ الخَطَرَات ؛ فكان يُقَيِّدُ ما تتحدثُ به نفسُه وما تهِمُّ به ؛ فيحاسِبَها عليه .

أخي في الله . . كيف تحاسب نفسك؟

لا تغفل عن نفسك ؛ وإلا أكلتك . . حاسبها وراقبها قبل أن تَستَأْسِدَ عليك . . تفكَّرَ وفتِّشْ وانظر . . جاء في «مختصر منهاج القاصدين» :

«فلينظر الإنسانُ في أربعةِ أنواع : **الطاعات ، والمعاصي ، والصفات المُهلِكات ، والصفات المُنجِيات** . فلا تغفل عن نفسك ، ولا عن صفاتك المباعدةِ عن الله ، والمُقَرَّبةِ إليه .

وينبغي لِكُلِّ «عَبْدٍ» أن تكون له جريدةٌ (ورقة) يُثبت فيها جُملةَ الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصي والطاعات ، ويَعرض ذلك علىٰ نفسه كُلَّ يوم .

ويَكفيه مِنَ **المهلكات** النظرُ في عَشَرَة ، فإنه إنْ سَلِمَ منها سلم من غيرها ، وهي : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشَرَهُ الطعام ، وشَرَهُ الوِقاع (الجِمَاع) ، وحُبُّ المال ، وحُبُّ الجاه .

ومِنَ **المُنجيات** عَشَرَة : الندمُ علىٰ الذنوب ، والصبرُ علىٰ البلاء ، والرضىٰ بالقضاء ، والشكرُ علىٰ النَّعْمَاء ، واعتدالُ الخوف والرجاء ، والزهدُ في الدنيا ، والإخلاصُ في الأعمال ، وحُسْنُ الخُلُقِ مع الخَلْقِ ، وحُبُّ اللَّه تعالىٰ ، والخُشُوع .

فهٰذه عِشرونَ خَصلة : عشرةٌ مذمومة ، وعشرةٌ محمودة ، فمتىٰ كُفِي من المذمومات واحدةً خَطَّ عليها في جريدته ، وترك الفكر فيها ، وشكر اللَّه تعالىٰ علىٰ كِفايته إياها . وليعلم أَنَّ ذلك لم يتم إلا بتوفيق اللَّه تعالىٰ وعونه ، ثم يُقبل علىٰ التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتىٰ يَخُطَّ علىٰ الجميع . وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات ، فإذا اتصف بواحدةٍ منها ، كالتوبة والندم مثلًا ، خَطَّ عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يَحتاج إليه «العبدُ» المُشَمِّر .

فأَمَّا أكثرُ الناس مِنَ المَعْدُودِينَ في الصَّالِحِين ؛ فينبغي أَنْ يُثْبِتُوا في جرائِدِهم **المعاصي الظاهرة** ؛ كأكل الشبهات ، وإطلاق اللِّسان بالغِيبة والنميمة ، والمِراء ، والثناءِ علىٰ النفس ، والإفراطِ في موالاة الأولياء ، ومعاداة الأعداء ، والمُدَاهَنة في تركِ الأمرِ بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ فإِنَّ أكثرَ مَنْ يَعُدُّ نفسَهُ مِن وجوه الصالحين ؛ لا يَنْفَكُّ عَنْ جُملةٍ من هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم تَطْهُرْ الجوارحُ مِنَ الآثام ؛ لا يُمْكِنُ الاشتغالُ بِعِمَارَةِ القلبِ وتَطْهِيرِه»[1] .

❊ ❊ ❊

(١) مختصر منهاج القاصدين ، ص (٣٧٩) بتصرف يسير جدًا .

جدول محاسبة النفس

المهلكات (الذنوب الخفية)	المنجيات	المعاصي الظاهرة
١- البخل	١- الندم على الذنوب	١- أكل الشبهات
٢- الكبر	٢- الصبر على البلاء	٢- إطلاق اللسان بالغيبة والنميمة
٣- العجب	٣- الرضا بالقضاء	٣- المِرَاء
٤- الرياء	٤- الشكر على النعماء	٤- الثناء على النفس
٥- الحسد	٥- اعتدال الخوف والرجاء	٥- الإفراط في موالاة الأولياء ومعاداة الأعداء
٦- شدة الغضب	٦- الزهد في الدنيا	٦- المُدَاهَنَة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٧- شَرَهُ الطعام	٧- الإخلاص في الأعمال	
٨- شَرَهُ الوقاع	٨- حسن الخُلُق مع الخَلْق	
٩- حب المال	٩- حب الله تعالىٰ	
١٠- حب الجاه	١٠- الخشوع	

وعلاج هذه المهلكات العشرة، وتلك المعاصي الظاهرة موجودٌ بتفصيلٍ ودِقَّة في «مختصر منهاج القاصدين»؛ فارجع إليه وأفِدْ منه ما أمكنك؛ فإنه كتابٌ غايةٌ في الأهمية.

وقد رَدَّ شيخُ الإسلام ابنُ القيِّم - عليه رحمةُ الله - المهلكات العشرة إلىٰ ثلاثة؛ فقال: «أصولُ الخطايا كُلُّها ثلاثة:

١- الكِبر: وهو الذي أصار إبليس إلىٰ ما أصاره.

٢- والحِرص : وهو الذي أخرج آدم من الجنة .

٣- والحسد : وهو الذي جرَّأَ أحدَ ابنَيْ آدم علىٰ أخيه .

فمن وُقِيَ شَرَّ هذه الثلاثة وُقِيَ الشر ؛ فالكفر من الكبر ، والمعاصي من الحرص ، والبغي والظلم من الحسد»[1] .

وقال في موضعٍ آخر : «**أركان الكفر أربعة :**

الكبر ، والحسد ، والغضب ، والشهوة

فالكبر يمنعُهُ الانقياد ، **والحسد** يمنعه قبولَ النصيحة وبذلها ، **والغضب** يمنعه العدل ، **والشهوة** تمنعه التفرغَ للعبادة .

فإذا انهدم رُكْنُ الكبر سَهُلَ عليه الانقياد . وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قَبولُ النصح وبذلُه . وإذا انهدم ركنُ الغضبِ سهُل عليه العدلُ والتواضع . وإذا انهدم ركنُ الشهوةِ سهُل عليه الصبرُ والعفافُ والعبادةُ .

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمَّن بُلِيَ بها ؛ ولا سِيَّما إذا صارت هيئاتٍ راسخةً ومَلَكَاتٍ وصفاتٍ ثابتة ؛ فإنه لا يستقيم له معها عَمَلٌ البَتَّة ، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها ، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة ، وكل الآفات مُتَوَلِّدَةٌ منها .

وإذا اسْتَحْكَمَتْ في القلب أَرَتْهُ الباطلَ في صورةِ الحق ، والحَقَّ في صورة الباطل ، والمعروفَ في صورة المنكر ، والمنكرَ في صورة المعروف ، وقَرَّبَتْ منه الدنيا ، وبَعَّدَتْ منه الآخرة .

---

(١) الفوائد ، ص (٦٢) .

وإذا تأملتَ كُفْرَ الأمم رأيته ناشئًا منها ، وعليها يقع العذاب ، وتكون خِفَّتُهُ وشِدَّتُهُ بِحَسْبِ خِفَّتِها وشِدَّتِها .

فَمَنْ فتحها علىٰ نفسه ؛ فتح عليه أبواب الشرور كُلِّها عاجِلًا وآجِلًا . ومَنْ أغلقها علىٰ نفسه ؛ أغلق عنه أبواب الشرور ؛ فإنها تَمنع الانقياد ، والإخلاص ، والتوبة ، والإنابة ، قَبُولَ الحق ، ونصيحةَ المسلمين ، والتواضعَ لِلَّهِ ولِخلقِه »(١) .

أخي الحبيب . .

انتبه ؛ كُلُّ الكلام السابق يَخُصُّك . . وإن كان عامًّا لجميع الخلق ؛ إلا أنك به أحقّ . . تأمَّلْهُ وأسقِطْهُ علىٰ قضية التخلص من رواسب الجاهلية . . ولتكن محاسبتك لنفسك أخصَّ فيما تخلَّصْتَ منه وفيما سوف تتخلَّص ، وفيما زَرَعْتَهُ وفيما قَلَعْتَه ، وفيما سوف تفعل .

إيَّاكَ أن يأخذك الكلامُ النظري فتُمِرَّ نظرَكَ عليه وتتركه وتغفل ؛ بل اعمل وحاسب ، وكن جادًا في الثباتِ وطَلَبِ النَّجاة . . واحرص ألا يعودَ إليك شيءٌ مِمَّا تَخَلَّصْتَ منه ؛ فإنَّ الانتكاسَ أخطر ، والعُمْرُ لا يَسْمَح ؛ فورَاءَك مُهِمَّاتٌ أعظم .

انتبه – أيها الحبيب – ؛ فأنتَ علىٰ خطرٍ عظيم . . واستعن بالله واصدق واصبر في قضية المُرَاقبةِ والمُحاسَبَة ؛ فإنَّها نَجاتُك . . أو النَّارَ النَّارَ النَّار .

❊ ❊ ❊

وِرْد محاسَبة

اعلم - حبيبي في الله - أنَّك إنْ لم تحاسب نفسك فستضيع في غَيابات الغفلة، ويصعب حينها التخلُّص من آفاتك وعلاج أمراضك المُسْتَوْطِنَة.. فلابد من دوام المحاسبة كُلَّ يوم، ولابد أن تجعل لنفسك - يوميًا - وِرْدَ محاسبة، تحاسبها فيه علىٰ كُلِّ صغيرةٍ وكبيرة.

وقد أعددتُ لك هذا الوِرْدَ المُحَاسَبِيِّ كمثال؛ فراجعه كل يوم، وزد فيه ما شئت؛ فكلٌّ أدرىٰ بحاله.. وعليك ألا تستكثر إذا وجدت نفسك بعيدةً عن هذه الأمور؛ بل اسعَ كل يوم في أنْ تطبِّق عملًا واحدًا منها أو أكثر فتزدادَ به إيمانًا، فتَزيد بذلك في طاعاتك، وتُصلحَ ما فسد منها.. وعليكَ بدايةً قبل هذا الوِرد بمنهجٍ تربويٍّ تلتزمُ به[1].. واللّٰه المستعان.

أوَّلًا: أعمال القلوب

- هل استحضرتَ النِّية قبل القيام بالطاعة؟
- هل كُنْتَ مُعَظِّمًا لشعائر اللّٰه، مسارعًا في تلبية أوامره؟
- هل كنت معظمًا لحُرُمات اللّٰه، مسارعًا في اجتناب نواهيه؟

---

(١) راجع المنهج التربوي الموجود في المنطلق العاشر «من أين نبدأ» في كتابنا «منطلقات طالب العلم»، ص (٣٤٧ - ٣٦٧).

- هل خالفتَ هواك وسارعتَ إلىٰ الطاعات؟
- هل أتبَعْتِ السيئةَ الحسنة؟
- هل سارعتَ بالتوبة؟ وصدقتَ في التوبة؟ وعزمتَ علىٰ عدم العودة؟
- هل أفشيتَ سرَّك وتحدَّثت بعملك وطاعتك أمام الناس؟
- هل تَوَارَدَ علىٰ خاطرك الإعجابُ بعملك وطاعتك؟

وإذا خطر خاطرُ العُجب هل قاومته أم استسلمتَ له؟

- هل كان تأثير القيام بالطاعة هو رؤية نفسك وإحساسُك بأَنَّ لك مكانًا ومنزلةً عند الناس؟، أم أنك أدَّيتها وأنت لا ترىٰ عملك؟
- هل نظرت إلىٰ غيرك نظرة انتقاص؟، وإلىٰ نفسك نظرة إجلال وعُلُوٍّ لقيامك بعملٍ لم يعملوه؟
- هل احتقرت الآخرين وفرِحت بنفسك؟
- هل تاقت نفسك إلىٰ الإمارة أو الإمامة أو تقديم الناس لك؟
- هل انتظرت من أحدٍ شيئًا وتعلَّقْتَ به ونَسِيتَ اللَّه؟
- هل سَخِرْتَ من أحدٍ ولو في نفسك؟
- هل كان قلبك تجاه المسلمين سليمًا؟
- هل رآك أحدٌ في موقعٍ حسنٍ فسُرِرتَ وأحببتَ ذلك؟
- هل اغتررت بنفسك وظننت أنك تستطيع القيام بأفعالٍ معينة بسبب خِبْرَتِكَ وذكائك، ونسيتَ الاستعانة باللَّه؟

• هل ضاقت نفسك عندما رآك أحدٌ مِمَّن تعرفهم في موضعٍ لا تُحِبُّ أَنْ يراك فيه، ونسيتَ نظرَ اللَّه إليك؟

• هل رَضِيتَ بما قسم اللَّه لك من الرِّزق؟، أم شكوت وتسخَّطْتَ؟

• هل رضيت بقضاء اللَّه وقدره؟

• هل أرضيت اللَّه في يومك؟

• هل تاقت نفسك إلىٰ الجنة؟

• هل وَجِلَ قلبك؟ ، هل خَشَعَ قلبُك؟، هل دَمَعَتْ عينُك؟

• هل خَشِيتَ اللَّه في السِّرِّ والعَلَن؟

• هل عظَّمْتَ قَدْرَ رَبِّك؟

• هل تُحِبُّه سبحانه أكثر من نفسك وولدك والناس أجمعين؟

ثانيًا: العبادات

• هل اجتهدت في تَحَرِّي السُّنَّة قبلَ البَدْءِ في العمل؟

• هل صَلَّيْتَ الصلوات الخمس في جماعة؟

• هل تهاونت في تكبيرة الإحرام؟

• هل تجمَّعتِ الدنيا عليك وأنت في الصلاة ، فخرجتَ من الصلاة كما دخلتَ فيها؟

- هل حافظت علىٰ السُّنن الرَّواتب؟
- هل استيقظت وتهجَّدت، ثم جلست تذكرُ اللّه في جَوْفِ الليل حتىٰ أذان الصبح؟
- هل تصدَّقْتَ وأنت مُعْسِرٌ؟
- هل صُمْتَ تطوعًا للّه؟ وهل حصَّلتَ ثمرةَ الصيام (التقوىٰ)؟
- هل اعتكفت اليومَ في سبيل اللّه؟
- هل حافظت علىٰ وِرْدِ القرآن؟
- هل تختم القرآن كُلَّ أسبوع؟، أو حتىٰ كل شهر؟
- هل حضرت دروس العلم؟، وماذا طالعت من كتب العلماء؟
- هل خَارَتْ قُوَاك فلم تَقْدِرْ علىٰ القيام بعزائم اللّه؟
- هل تاقت نفسُك للشهادة في سبيل اللّه؟

ثالثًا: الأخلاق والسلوك

- هل كَظَمْتَ غيظك؟، أم كنت سريعَ الغضب؟
- هل غضِبْتَ لنفسك وحاولتَ الانتصارَ لها؟
- هل ظلمتَ أحدًا من الناس؟
- هل ضاقت نفسك لعدم احترامِ الناسِ لك؟

- هل آثرت نفسك علىٰ غيرك؟، أم أنك لا تُؤْثِر إلا نفسك علىٰ الآخرين؟
- هل تَمَنَّيْتَ خطأ من يُجَادِلُك؛ لإثبات صِحَّةِ رأيك؟
- هل تكلَّمتَ عن نفسك بما يُزَكِّيها؟
- هل حسدتَ أحدًا علىٰ خيرٍ آتاهُ اللَّه إيَّاه؟
- هل حاولت مَنْعَ الآخرين عن ظلم أحدٍ من الناس؟
- هل أهملت من يحدِّثُك ولم تُعِرْهُ اهتمامًا؟
- هل ظننت سُوءًا بأحدٍ من المسلمين؟
- هل جلست مَجْلِسًا فارِغًا، وأكثرت فيه من اللَّغْوِ والضَحِك؟
- هل اغتبتَ أحدًا؟، هل آذَيْتَ مسلمًا؟
- هل سَعَيْتَ بنميمة؟
- هل تَحَرَّيْتَ الصِّدْقَ فيما تقول؟
- هل احتقرت أحدًا؟
- هل حَفِظْتَ الأمانة وأَدَّيتها؟
- هل قاطعتَ من يتحدَّث إليك؟
- هل مَدَحْتَ أحدًا بما ليس فيه؛ مجاملةً زائفةً ونفاقًا اجتماعيًا؟
- هل اتقيت اللَّه في كسبك؛ فتَحَرَّيْتَ الحلال وابتعدت عن الشبهات؟
- هل كنت مُنَظِّمًا لشئونك، مَرَتِّبًا لأولوياتك؟، أم أَنَّ حياتك حالةٌ من الفوضىٰ؟

- هل غَدَرْت؟
- هل خُنْت؟
- هل خوَّنت؟
- هل غششت أحدًا؟
- هل كنت ذليلًا علىٰ إخوانك؟
- هل كنت رفيقًا بالناس؟
- هل كنت تمشي علىٰ الأرض هونًا، أم اخْتَلْتَ في مِشيتك؟
- هل مَنَنْتَ علىٰ أحدٍ بخدمتك له؟
- هل تَقَعَّرْتَ في كلامِك، أو تَنَطَّعْتَ في حركاتِك؟
- هل تبسَّمتَ في وجه أخيك لتكسِبَ صدَقة؟
- هل ضاقت نفسك عندما سمعت أحدًا ينتقدك؟
- هل سارعت في خدمة الناس أم تباطأت ليقوم غيرُك بها؟
- هل شاركتَ في مجلس غِيبة ولم تَذُبَّ فيه عن عِرْضِ المسلمين؟
- هل تحدثت بخِدْمَاتِك أمامَ الناس؟
- هل سألت عَمَّا لا يَعنيك؟
- هل كافأتَ من أَسْدَىٰ إليك معروفًا؟
- هل تعصبت للحقِّ أم أَنَّ تعصبَكَ دائمًا للأشخاص؟

- هل أكثرت من الطعام والشراب حتىٰ بلغتَ درجة الشِّبَع والامتلاء؟، أم اكتفيت بلُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَك؟

- هل أحسنت إلىٰ والديك؟

- هل وصلت رحمك؟

- هل أحسنت إلىٰ جيرانك؟

- هل حفظت بصرك؛ فلم تنظر إلىٰ ما لا يَحِلُّ لك؟

- هل حفظت سمعك؛ فلم تسمع الحرام؟

- هل وصلت من قطعك، وأعطيت من حرمك؟

- هل عفوت عمَّن ظلمك؟

- هل قدَّمت مصلحةَ دينِك عندما تعارضتْ مع مصلحة دُنياك؟، أم أنك دائمًا أبدًا تُقدِّم مصلحة الدنيا؟

- هل اتَّسَمْتَ اليومَ بخُلُقِ الإسلام : الحياء؟

- هل عَمِلْتَ بالآية الجليلة الجميلة التي جَمَعَتِ الأخلاق كُلَّها : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؟

- هل تَخَلَّصْتَ اليوم من خُلُقٍ ذميمٍ أو سلوكٍ مرفوض؟

- هل اتَّصَفْتَ اليومَ بأصولِ الأخلاق : الصبر، والعِفَّة، والشجاعة، والعدل.

- هل كان خُلُقُكَ القرآن؟

رابعًا : الأذكار والأدعية[١]

• هل داومتَ علىٰ ذكر اللّٰه؟

• هل حافظت علىٰ الأذكار المَسنونة في كل وقتٍ؟
(الدخول والخروج : المنزل ، المسجد ، الخلاء . . .الخ) .

• هل أكثرت من الاستغفار؟

• هل أكثرت من التسبيح والتحميد والتهليل؟، ومن قول : سبحان اللّٰه وبحمده ، سبحان اللّٰه العظيم .

• هل احترزت بقول : لا إله إلا اللّٰه ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير؟

• هل أكثرت من الحَوْقَلَة (قول : لا حول ولا قوة إلا باللّٰه)؟

• هل أكثرت من الصلاة علىٰ النبي ﷺ؟

• هل حافظت علىٰ أذكار الصباح والمساء؟

• هل رددتَ ألفاظ الأذان؟

• هل سألت اللّٰه الوسيلة والفضيلة لرسوله ﷺ بعد الأذان؟

---

(١) أنصحك - حبيبي في اللّٰه - أن تقتنيَ كُتيّبًا صحيحًا للأذكار والأدعية ، وأدم علىٰ حفظ ذكر أو دعاء كُلّ يوم ، لا تفارق ذلك ما بَقِيتَ ؛ فاقتنِ مثلًا : «مختصر النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة» أو «حصن المسلم» أو الاثنين معًا أفضل .

- هل دعوت اللّه بين الأذان والإقامة؟
- هل جرَّبت أن تُلِحَّ في الدعاء؟
- هل دعوت اللّه بأدعية الكَرْب؟
- هل سألت اللّه الفردوس الأعلىٰ والإجارة من النار؟
- هل تَمَلَّقْتَ ربَّك فأثنيتَ عليه بما هو أهلُه؟
- هل دعوت اللّه باسمه الأعظم؟

خامسًا: الدَّعوة

- هل أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر؟
- هل كنت حليمًا وحكيمًا مع من تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؟
- هل نصحت أحدًا بنصيحةٍ صادقةٍ ابتغاءَ وجهِ اللّه؟
- هل احتسبت عند اللّه عملك وجهادك وما تَلْقَاه من الأذىٰ؟
- هل خَشِيت أن تقول: لا أدري؛ حتىٰ لا تُنتقص مكانتك عند الناس؟
- هل قلت الحق ولو كان علىٰ نفسك أو أهلك وإخوانك؟
- هل كنت مهتمًا بأحوال المسلمين؟
- هل كان لك عملٌ إيجابي للإسلام؟

● هل سَخَّرتَ المَنَاصِبَ المُؤثِّرة لخدمةِ الدِّين؟

● هل شجَّعْتَ صاحبَ مالٍ علىٰ المساهمة في المشروعات الدَّعَوِيَّة؟

● هل عَمِلْتَ علىٰ إنجاح دَوْرِ المسجد في الدَّعْوَة؟

● هل سَعَيْتَ في إيصال الخير وتبليغ الحقِّ للناس؟

● بِمَ خدمت اليوم دِينَ اللَّه تعالىٰ؟

● هل بحثت عن وسيلةٍ جديدةٍ لمحاربة المنكرات والبدع؟

● هل قرأت كتابًا عن الدَّعْوَةِ والدُّعَاة؟

● هل علَّمْتَ أخًا في اللَّه أُسلوبًا جديدًا في الدعوة؟

● هل نشرت بين من تعرف آيةً أو حديثًا أو أَثَرًا تعلمته؟

● هل استغرقت في التفكير؛ كي تبتكر طُرُقًا جديدةً تجذب بها الناس إلىٰ الالتزام؟

● هل قمت بالدعوة الفردية؟

● ماذا عن الدعوة في الوسط العائلي؟، وماذا عن الدعوة مع جيرانك؟، وماذا عن الدعوة بين زملائك وأصدقائك؟

● هل اشتريت كُتَيِّباتٍ أو رسائلَ أو مطوياتٍ فوزعتها كي يَعُمَّ الخير؟

● هل اشتريت شريطًا لمحاضرة أو خطبة؛ فأعطيته لغيرك، أو أنزلته علىٰ «الانترنت» أو «إسطوانات اللِّيزر»؟

● هل اتصلتَ هاتفيًا بأحدٍ تُخبره بموعدِ دَرْسٍ مفيد؟

- هل أصلحت ذَاتَ بَيْن؟
- هل قضيتَ علىٰ بدعة؟
- هل ربَّيْتَ طِفلًا علىٰ التوحيد والقرآن؟
- هل اعتنيت بدعوة الشباب؟
- هل زُرْتَ إخوانك في الله، وتكلَّمتم في الدَّعوة
- هل ساعدت فقيرًا أو يتيمًا أو مسكينًا؟
- هل حاولت أن تكون دَاعِيَةً مَيْدَانِيًّا؟
- هل راسلتَ أحدًا أو هيئةً أو مُنَظَمةً تدعوها إلىٰ الله؟
- هَلْ تَحدَّثْتَ بِالْفُصْحَىٰ، وَأَظْهَرْتَ اعْتِزَازَكَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؟
- هل تدعو الناس لِأَنَّكَ تُحِبُّ أَنْ يُطِيعُوا الله؟، أم أَنَّكَ لا تدعوهم لِأَنَّكَ تَجِدُ في نفسِكَ شَوائِبَ كِبْرٍ وعُلُوٍّ وفَخْرٍ؟، ولِمَ لَمْ تَبْدَإِ العِلاجَ؟!

هكذا.. ولَسْتُ بِمُسْتَقْصٍ لكَ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ تُحاسِبَ نفسَك عليه؛ لِأَنَّنَا اتَّفَقْنَا بِدَايةً أَنَّ المُحاسَبَةَ ينبغي أَنْ تكون علىٰ كُلِّ صغيرٍ وكبير، علىٰ العَمَلِ الظاهرِ والباطن، علىٰ تَجْوِيدِ الطاعات، واجتنابِ المعاصي والسَّيِّئَات.. واتَّفَقْنَا أَنَّ كُلَّ إنسانٍ أَدْرَىٰ بنفسِه، وله مسئولياتٌ وهمومٌ خاصَّةٌ يَجِبُ أَنْ يُحاسِبَ عليها نفسَه؛ لذلك اعْتَبِرْ هذا نَمُوذَجًا فقط، أَضِفْ إِلَيْهِ وزِدْ عَلَيه، ولا تُهْمِلِ المُحَاسَبَةَ يَوْمِيًّا وبِتَرْكِيز.. واسْتَعِنْ بِاللهِ.. فاللهُ تَعَالَىٰ رَبُّنا الرَّحْمَنُ المُسْتَعَان.

❊ ❊ ❊

موعظة الوداع

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ
الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

(الحج: ٣٤-٣٥)



مَوْعِظَةُ الوَدَاع

كَانَ مِنْ عَادَةِ الشَّيْخِ أَنْ يَتَخَوَّلَ صَاحِبَنَا بِالموعظةِ عِنْدَ استراحاتِ السَّفَر، وبين فتراتِ العِلاجِ ومراحِلِه.. يُهَيِّئ بذلكَ أَرْضَ قلبِه، ويُنَقِّيها مِنَ الحشائشِ والآفات.. فَكَانَ الشَّيْخُ يَرْمِي بالسَّمَادَاتِ النَّافِعَةِ القَوِيَّةِ (المواعظ) عَلَىٰ وَجْهِ أَرْضِ القَلْب؛ لِيَقْوَىٰ العُود.. وتَسْهُلَ الزِّراعة.. زِرَاعَةُ حقيقيةِ الالتزام.

والموعظةُ بينَ الفَيْنَةِ والفَيْنَة.. **قَاعِدَةٌ**.. ينبغي أَنْ يَتَنَبَّهَ إليها الدُّعَاةُ والمُرَبُّون.. القَائِمُونَ علىٰ تطهيرِ مجتمعِ المُلْتَزِمِين مِنْ رَوَاسِبِ الجاهِلِيَّة.

فمِنْ عَوَامِلِ إِصْلَاحِ القَلْب وإِيقَاظِ الضَّمِير وزِيَادَةِ الإِيمان؛ سَمَاعُ المَوَاعِظِ؛ فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الوَابِلِ الصَّيِّب الذي يَرْوِي الزَّرْعَ الذي زَرَعْنَاهُ فِي القُلُوب.

إخوتاه..

افْتَحُوا لي قُلُوبَكُمُ الآنَ لِأَدْخُلَ إِلَيها أُنَظِّفَها بِتِلْكَ المَوْعِظَة.. فَلَعَلِّي لَا أَلْقَاكُم بَعْدَ عامِي هَذَا..

إخوتاه.. ابكوا علىٰ أنفسِكُم وتوبوا:

قال يحيىٰ بن معاذ: الذي حَجَبَ النَّاسَ عنِ التوبة: طُولُ الأَمَل، **وعَلَامَةُ التَّائِب**: إِسْبَالُ الدَّمْعَة، وحُبُّ الخَلْوَة، والمُحَاسَبَةُ لِلنَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ هِمَّة.

أَفَلَمْ يَئِنِ لكم بعدُ - إخوتي في الله - أن تتوبوا وتتَّعِظُوا فتصلحوا أنفسَكم؟!.. متىٰ تُفيقُون؟!.. هل علىٰ بابِ القبر؟!!..

شَيْخُ الوُعَّاظِ ابنُ الجَوزِي يَصِيحُ فِيكُم فِي «التَّبْصِرَة» فيقول:

«يا مُقبِلًا عَلَىٰ المعاصي ..... أدبَرتْ..

وَيْحكَ إِذَا أُخْرِجَتْ مِنْ يَدَيْكَ فَمَنْ يُحَصِّلُهَا لَك؟!

كَمْ تَعِدُ بِالتَّوْبَةِ وَلَا تَفِي..

وَيْحَكَ إِنَّ اللَّذَّةَ بِالْعُقُوبَةِ لَا تَفِي..

ضَمَانُكَ عَقِيم.. وَوَعْدُكَ عَاقِر..

إِذَا أَقَمْتَ بِنَاءَ تَوْبَة؛ اكْتَرَيْتَ أَلْفَ نَقَّاض.. وَيْحكَ لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّهُ مَا سَحَبَ أَحَدٌ ذَيْلَ الهَوَىٰ إِلَّا تَعَثَّر..

اكْتُبْ قِصَّةَ النَّدم بِمِدَادِ الدُّمُوع.. وفِي الحَالِ تَصِل..

لِلْقَطَاةِ أُفْحُوص.. وَلِابْنِ آوَىٰ مَأْوَىٰ.. وَأَنْتَ مُنْذُ سِنِينَ تُجَدِّفُ فِي العُبُورِ إِلَىٰ سَاحِلِ التَّوْبة.. وَمَا تَلْحَقُ الشَّط..

قُوَّةُ الأَمَل عُقْدَةٌ فِي وَجْهِ مِنْشَارِ الجِدّ..

الرِّيَاءُ عَيْبٌ فِي رِئَةِ الإِيمَان.. يَسُلُّ المَرَضَ إِلَىٰ السُّلّ..

شِدَّةُ الحِرْصِ عَلَىٰ الفَانِي ثُلْمَةٌ فِي كَبِدِ اليَقِين..

ومَنْ صَبَرَ عَلَىٰ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ عُوفِي..

أَذَّنَ المُؤَذِّن ولَمْ تَصْحُ.. وصَاحَ الدِّيكُ فَلَمْ تَنْتَبِهْ.. وَأَعَادَ فَلَمْ تُفِقْ.. فَقَوِيَ ضَرْبُ الجَنَاحَيْنِ لَطْمًا عَلَىٰ غَفْلَتِك..

يَا مَسْدُودَ الفَهْمِ بِكَثْرَةِ الشَّوَاغِل.. أَحْضِرْ قَلْبَكَ لَحْظَةً لِلْعِظَة..

يَا جَامِدًا عَلَىٰ وَضْعِ طَبْعِهِ تَحَرَّكْ إِلَىٰ قَطْرِ التَّذْكِرَة..

يَا عَبْدَ الطَّمَع.. طَالِعْ دِيَارَ الأَحْرَار..

مَا أَطْوَلَ غَفْلَتَكَ.. فَلِمَنْ نُحَدِّث؟..

قَلْبُكَ فِي غُلَافِ غَفْلَة.. وَفِطْنَتُكَ فِي غَشَاوَةِ غَبَاوَة.. وحَبْلُ عَزْمِكَ وَاهٍ..

لَوْ خَرَجَ عَقْلُكَ مِنْ سُلْطَانِ هَوَاكَ؛ لاسْتَقَامَ أَمْرُك..

لَوْ صَحَّتْ فِطْرَتُكَ؛ حَلَا طَعْمُ النُّصْحِ فِي فَمِك..

المَفْرُوضُ عِنْدَكَ مَرْفُوض.. وَكَلَامُ النَّصِيحِ صَوْتُ الرِّيح..

يَا هَذَا لَوْ وَقَفَ مَرَضُكَ؛ رَجَوْنَا لَكَ الْبُرْء..

وَلَكِنَّ الْمَرَضَ يَزِيد.. وَقُوَّةُ الْعَزْمِ تَضْعُف».

إخوتاه..

«مَا مِنَ المَوْتِ بُدّ.. بابُ البَقَاءِ فِي الدُّنيا قَدْ سُدّ.. كَمْ قَدٍّ فِي القَبْرِ قَدْ قُدّ.. كَمْ خَدٍّ فِي الأُخْدُودِ قَدْ خُدّ.. يَا مَنْ ذُنُوبُهُ لَا تُحْصَىٰ، إِنْ شَكَكْتَ عُدّ.. يَا مَنْ أَتَىٰ بَابَ الإِنَابَةِ كَاذِبًا فَرُدّ..

كَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ بَضَائِعُهُ القَبَائِح.. كَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ شُهُودُهُ الجَوَارِح..

يَا شِدَّةَ الْوَجَلِ عِنْدَ حُضُورِ الأَجَل.. يَا قِلَّةَ الحِيَلِ إِذَا حَلَّ المَوْتُ وَنَزَل..

يَا قُوَّةَ الأَسَىٰ إِذَا نُوقِشَ مَنْ أَسَا..

يَا خَجَلَ العَاصِين . . يَا حَسْرَةَ المُفَرِّطِين . .

يَا أَسَفَ المُقَصِّرِين . . يَا سُوءَ مَصِيرِ الظَّالِمِين . .

آهِ لَوْ رَأَيْتَ العَاصِي وقَدْ شَقِي . . يَصِيحُ فِي الْمَوْقِفِ : واقَلَقِي . . اشْتَدَّ عَطَشُهُ ومَا سُقِي . . وشَرَرُ النَّارِ إِلَيْهِ يَرْتَقِي . . فَمَنْ يَتَّقِي تِلْكَ الرَّامِيَة . . **نارًا حَامِيَة** . .

لَوْ رَأَيْتَهُ يُقَاسِي حَرَّهَا ويُعَانِي ضَرَّهَا . . جَحِيمَهَا وقَرَّهَا . . واللَّهِ لا تَدْفَعُ الْيَوْمَ شَرَّهَا إِلَّا عَيْنٌ هَامِيَة . . نَارٌ حَامِيَة . .

يَفِرُّ الْوَلَدُ مِنْ أَبِيه . . والأَخُ مِنْ أَخِيه . . وكُلُّ قَرِيبٍ مِنْ ذَوِيه . . أَسَمِعْتَ يَا مَنْ مَعَاصِيه نَامِيَة . . نارٌ حَامِيَة . .

فَارْحَلْ - أَيُّهَا الْحَبِيبُ - إِلَىٰ دَارِ الْخُلْدِ جَنَّةِ عَدْن . . دَارٌ لَيْسَ فِيهَا مَا يَشِينُهَا . . دَارٌ لَا يَفْنَىٰ مِنْهَا مَا يَزِينُهَا . . دَارٌ لَا يَزُولُ عِزُّهَا وتَمْكِينُهَا . . دَارٌ لَا تَهْرَمُ فِيهَا عِينُهَا . .

دَارٌ أَشْرَقَتْ حِلَاهَا . . دَارٌ عَزَّ عُلَاهَا . . دَارٌ جَلَّ مَنْ بَنَاهَا . . دَارٌ طَابَ لِلأَبْرَارِ سُكْنَاهَا . . دَارٌ تَبْلُغُ النُّفُوسُ فِيهَا مُنَاهَا . . أَيْنَ خَاطِبُوهَا ؛ فَقَدْ وَصَفْنَاهَا ؟! . .

مَا أَتَمَّ نَعِيمَهُم . . مَا أَعَزَّ تَكْرِيمَهُم . . مَا أَظْرَفَ حَدِيثَهُم وقَدِيمَهُم . . مَا أَصْوَنَ حَرِيمَهُم . . مَا أَكْرَمَ كَرِيمَهُم . . قَدْ مُنِحُوا الخُلُودَ فَمَا يَبْرَحُون . . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولَا يُنْزِفُون » .

فَيَا بَائِعًا هَذَا بِبَخْسٍ مُعَجَّلٍ　　كَأَنَّكَ لَا تَدْرِي بَلَىٰ سَوْفَ تَعْلَمُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ　　وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

إخوتاه . .

«كيفَ الفِكْرَةُ لقلبِ غافِل ، وكيفَ تَنفَعُ اليَقَظَةُ لِعَقْلٍ ذاهِل ، وكيفَ يَحصُلُ الفَهمُ لِلُبٍّ عاطِل . . عَجَبًا لِمُفرِّطٍ والأيامُ قَلائِل ، ولِمَائِلٍ إلىٰ رُكْنٍ مَائِل . . لقد خَابَ الغافلون ، وفَازَ المُتَّقُون ، وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤمنون . .

مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ كيفَ يَسْلَم ، ومَنْ عَمِيَ قلبُهُ كيفَ يَفْهَم ، ومَنْ أَمْرَضَهُ طبيبُهُ كيفَ لا يَسْقَم ، ومَنْ اعْوَجَّ في أَصْلِ وَضْعِه ؛ فبَعِيدٌ أَنْ يَتَقَوَّمَ هَيْهَات . . مَنْ خُلِقَ لِلشَّقَاءِ فَلِلشَّقَاءِ يكون ، وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤمنون .

كَمْ عَمَلٍ رُدَّ علىٰ عامِلِه ، وكَمْ أَمَلٍ رَجَعَ بِالخَيْبَةِ علىٰ آمِلِه ، وكَمْ عَامِلٍ بَالَغَ في إتْعَابِ مَفَاصِلِه فَهَبَّتْ رِيحُ الشَّقَاءِ لِتَبْدِيدِ حَاصِلِه . . لَقَدْ نُودِيَ علىٰ المَطْرُودِين ؛ ولكِنَّهم لا يَسمعون ، وما تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قومٍ لا يُؤمنون» .

إخوتاه . . اللَّهُ يُنادِيكُم . . لِتُحيُوا قُلوبَكم :

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧] .

إخوتاه . .

أَيْنَ مَنْ يَبْكِي عَلَىٰ ضَيَاعِ قلبِهِ؟!.. أَيْنَ أَنِينُ المُذْنِبِين؟!

أنا العبدُ الذي كَسَبَ الذُّنوبَا ... وَصَدَّتْهُ الأَمَانِي أَنْ يَتُوبَا

أنا العبدُ الذي أَضْحَىٰ حَزِينًا ... عَلَىٰ زَلَّاتِهِ قَلِقًا كَئِيبًا

أنا العبدُ الذي سُطِرَتْ عَلَيْهِ ... صَحَائِفُ لَمْ يَخَفْ فِيهَا الرَّقِيبَا

أنا العبدُ المُسِيءُ عَصَيْتُ سِرًّا ... فَمَا لِي الآنَ لا أُبْدِي النَّحِيبَا

أنا العبدُ المُفَرِّطُ ضَاعَ عُمْرِي ... فَلَمْ أَرْعَ الشَّبِيبَةَ والمَشِيبَا

أنا العبدُ الغَرِيقُ بِلُجِّ بَحْرٍ ... أَصِيحُ لَرُبَّمَا أَلْقَىٰ مُجِيبَا

أنا العبدُ السَّقِيمُ مِنَ الخَطَايَا ... وقَدْ أَقْبَلْتُ أَلْتَمِسُ الطَّبِيبَا

أنا العبدُ المُخَلَّفُ عَنْ أُنَاسٍ ... حَوَوْا مِنْ كُلِّ مَعْرُوفٍ نَصِيبَا

أنا العبدُ الفَقِيرُ مَدَدْتُ كَفِّي ... إِلَيْكُمْ فَادْفَعُوا عَنِّي الخُطُوبَا

أنا الغَدَّارُ كَمْ عَاهَدْتُ عَهْدًا ... وكُنْتُ عَلَىٰ الوَفَاءِ بِهِ كَذُوبَا

أنا المَقْطُوعُ فَارْحَمْنِي وَصِلْنِي ... ويَسِّرْ مِنْكَ لِي فَرَجًا قَرِيبَا

أنا المُضْطَرُ أَرْجُو مِنْكَ عَفْوًا ... ومَنْ يَرْجُو رِضَاكَ فَلَنْ يَخِيبَا

فَيَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ عُمْرٍ تَقَضَّىٰ ... ولَمْ أَكْسِبْ بِهِ إِلَّا الذُّنُوبَا

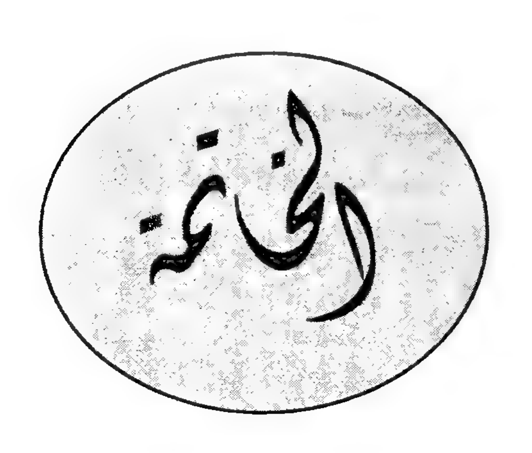
وأَحْذَرُ أَنْ يُعَاجِلَنِي مَمَاتٌ ... يُحَيِّرُ هَوْلُ مَصْرَعِهِ اللَّبِيبَا
ويَا حُزْنَاهُ مِنْ حَشْرِي ونَشْرِي ... بِيَوْمٍ يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيبَا
تَفَطَّرَتِ السَّماءُ بِهِ ومَارَتْ ... وأَصْبَحَتِ الْجِبَالُ بِهِ كَثِيبَا
إِذَا مَا قُمْتُ حَيْرَانًا ظَمِيئًا ... حَسِيرَ الطَّرْفِ عُرْيَانًا سَلِيبَا
ويَا خَجْلَاهُ مِنْ قُبْحِ اكْتِسَابِي ... إِذَا مَا أَبْدَتِ الصُّحُفُ العُيُوبَا
وذِلَّةِ مَوْقِفٍ وحِسَابِ عَدْلٍ ... أَكُونُ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِي حَسِيبَا
ويَا حَذَرَاهُ مِنْ نَارٍ تَلَظَّىٰ ... إِذَا زَفَرَتْ وأَقْلَقَتِ القُلُوبَا
تَكَادُ إِذَا بَدَتْ تَنْشَقُّ غَيْظًا ... عَلَىٰ مَنْ كَانَ ظَلَّامًا مُرِيبًا
فَيَا مَنْ مَدَّ فِي كَسْبِ الخَطَايَا ... خُطَاهُ أَمَا آنَ الأَوَانُ لِأَنْ تَتُوبَا

بَلَىٰ : آنَ الْأَوَانُ يَا رَبِّ :

قَدْ تُبْتُ فَهَلْ تَقْبَلُ؟

آمين .. آمين

❊ ❊ ❊



تَرَفَّقْ بِدَمْعِكَ لَا تُفْنِهِ

فَبَيْنَ يَدَيْكَ بُكَاءٌ طَوِيلْ



الخاتمة

رَزَقَنا اللَّهُ حُسْنَها

وهُنا وَضعَ الشَّيْخُ عَصَا التَّرْحَال عَنْ عَاتِقِه، وقالَ لصاحِبِنا: هُنَا - أيُّها الحبيب - قدِ انتهتْ مُهِمَّتِي، وأدَّيْتُ ما عَلَيَّ، وبَذَلْتُ وُسْعِيَ في نُصْحِك، ولم أَبْخَلْ عليكَ بِخالصِ خِبْرَتِي في الحياة.

ساعَدْتُكَ عَمَلِيًّا في تشخيصِ دَائِك، وسَافَرْتُ مَعَكَ طريقَ العِلاج.. وبَقِيَ عليكَ في النهاية تنفيذُ المنهج الذي أوْصَيتُكَ به.. وبَقِيَ أَنْ أَقولَ لك **كما قالَ ابنُ القَيِّم في «طريق الهجرتين وباب السعادتين»**:

«وكذلكَ السَّائِرُ إلىٰ ربِّه إذا أبصرَ الطريقَ وأعلامَها، وأبصرَ المَعَاثِرَ والوِهَادَ والطُّرُقَ النَّاكِبَةَ عنها[1]، فقد حَصَلَ له شطرُ (نصف) السعادةِ والفلاح، وبَقِيَ عليه الشَّطْرُ الآخر؛ وهو أَنْ يَضَعَ عصاه علىٰ عاتقه، ويُشَمِّرَ مُسَافِرًا في الطريق، قاطِعًا مَنَازِلَها منزلةً بعدَ منزلة، فكُلَّمَا قطع مرحلة استعدَّ لقطع الأُخرىٰ، واستشعرَ القُرْبَ مِنَ المنزل؛ فهَانَتْ عليه مَشَقَّةُ السَّفر.

وكُلَّمَا سَكَنَتْ نفسُه مِنْ كَلالِ السَّيرِ ومواصلةِ الشَّدِ والرَّحِيل؛ وَعَدَهَا

---

(١) قد بَانَ ذلك خلال هذا الكتاب كُلِّه: المطلوب والمحذور؛ فقد حصل لك بالعلم به نصفُ الأمر، وبقِي عليك النصف الآخر وهو العمل به.

قُرْبَ التَّلاقِي وبَرْدَ العَيْشِ عِنْدَ الوُصُول ؛ فَيُحْدِثَ لها ذلكَ نَشَاطًا وفَرَحًا وهِمَّة ؛ فهو يقول : يا نَفْسُ أَبشري فقد قَرُبَ المنزل ودَنَا التَّلاقِي ؛ فلا تنقطعِي في الطريق دونَ الوصول ؛ فَيُحَالَ بينكِ وبين منازِلِ الأَحِبَّة .

فإنْ صَبَرْتِ وواصلتِ المَسْرَي ؛ وَصَلْتِ حميدةً مسرورةً جَذْلَةً ، وتَلَقَّتْكِ الأَحِبَّةُ بأنواعِ التُّحَفِ والكَرَامَات ، وليسَ بينكِ وبينَ ذلكَ إلَّا صَبْرُ ساعة ؛ فإنَّ الدنيا كُلَّها كساعةٍ مِنْ ساعات الآخِرة ، وعُمُرُكِ درجةٌ مِنْ دَرَجِ تِلكَ الساعة ؛ فاللَّهَ اللَّهَ لا تنقطعِي في المَفَازَة ؛ فهو واللَّهِ الهَلَاكُ والعَطَبُ لو كُنْتِ تَعْلَمِين .

فإن اسْتَصْعَبَتْ عليهِ ؛ فَلْيُذَكِّرْهَا بمَنْ أمامها مِن أحبابها ، وما لَدَيْهِم مِنَ الإكرامِ والإنعام ، وما خلفها مِن أعدائها ، وما لَدَيْهِم مِنَ الإهانةِ والعذابِ وأنواعِ البَلاء ؛ فإنْ رَجعتْ فإلىٰ أعدائها رُجُوعُها ، وإنْ تَقَدَّمَتْ فإلىٰ أحبابها مصيرُها ، وإنْ وَقفتْ في طريقها أَدْرَكَها أعداؤها ، فإنهم وراءَها في الطَّلَب . ولابُدَّ لها مِن قِسْمٍ مِن هذه الأقسامِ الثلاثة ؛ فلْتَخْتَرْ أَيَّها شاءَت .

ولْيَجْعَلْ حديثَ الأَحِبَّةِ حَادِيَها وسائِقَها ، ونُورَ معرفتِهم وإرشادِهم هادِيَها ودَلِيلَها ، وصِدْقَ وِدَادِهم وحُبِّهم غِذَاءَها وشَرَابَها ودَوَاءَها .

ولا يُوحِشْهُ انفرادُهُ في طريقِ سَفَرِه ، ولا يَغْتَرُّ بكثرةِ المنقطعين ؛ فألَمُ انقطاعِهِ وبِعَادِه وَاصِلٌ إليهِ دُونَهم ، وحَظُّهُ مِنَ القُرْبِ والكَرَامةِ مُخْتَصٌّ به دُونَهم ؛ فما معنىٰ الاشتغالِ بهم والانقطاعِ معهم؟

ولْيَعْلَمْ أَنَّ هذه الوَحْشَةَ لا تَدُوم؛ بل هِيَ مِنْ عَوارِضِ الطَّرِيق؛ فسوف تبدو له الخِيَام، وسوف يَخْرُجُ إليهِ المُتَلَقُّونَ يُهَنِّئُونَهُ بِالسَّلامَةِ والوُصُولِ إلَيْهِم؛ فَيَا قُرَّةَ عَيْنِهِ إذْ ذَاك، ويَا فَرْحَتَهُ إذ يقول: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

ولا يَسْتَوْحِشُ مِمَّا يَجِدُهُ مِنْ كَثَافَةِ الطَّبْع، وذَوْبِ النَّفْس، وبُطْءِ سَيْرِها، فكُلَّمَا أَدْمَنَ علىٰ السَّير وواظَبَ عليه غُدُوًّا ورَوَاحًا وسَحَرًا؛ قَرُبَ مِنَ الدَّار، وتَلَطَّفَتْ تلكَ الكثافة، وذَابَتْ تلكَ الخَبَائِثُ والأَدْرَان؛ فظهرتْ عليه هِمَّةُ المسافرين وسِيمَاهُم؛ فتبدَّلَتْ وَحْشَتُهُ أُنْسًا، وكَثَافَتُهُ لَطَافَةً، ودَرَنُهُ طَهَارَة»[1].

هذا الكلامُ النَّفِيسُ لابن القيِّم وإنْ كانَ أُسلوبُهُ أعْلَىٰ وأرْقَىٰ؛ إلَّا أنَّهُ يَدُلُّكَ علىٰ تِلْكَ النهايةِ السَّعيدةِ لِهذا الكِتَاب: أَنْ تَتَرَقَّىٰ وتَسْمُوَ بنفسِكَ وهِمَّتِكَ وتَنْطَلِقَ بلا قُيُود؛ لِتكونَ في زُمْرَةِ السُّعَدَاءِ المُفْلِحِين.

وخُلاصَةُ هذا الكلام تحديدًا في نقاط:

١) أَنَّهُ بقراءةِ هذا الكتاب حَصَلَ لكَ نصفُ السعادة وهو العلمُ بطريقها، وبَقِيَ عليكَ النصفُ الآخر وهو العملُ به.

٢) كُلَّمَا حَصَلَ لك فتورٌ أو مَلال؛ حَدِّثْ نفسَكَ بقُرْبِ الوُصُول إلىٰ رِضوان اللّٰهِ والجَنَّة؛ يُحْدِثُ ذلك لكَ نَشَاطًا.

---

(١) طريق الهجرتين، ص (١٧٤ - ١٧٥).

③ إذا استَصْعَبَتْ عليكَ نفسُك ؛ فَذَكِّرْها بِمَنْ أمامها : مُحَمَّدٍ ﷺ وآلِهِ وصحبِهِ الكِرام لِتُقْبِلَ عليهم . وحَذِّرْها أنَّها إنْ رَجَعَتْ رَجَعَتْ إلىٰ أعدائِها : أبي لهبٍ وأبي جهل في جهنم ، وإنْ وَقَفَتْ فلَمْ تتقدَّمْ أَدْرَكَها أعداؤها : الشيطانُ وحِزْبُه ؛ فهم وراءَها في طلبها .

④ لا تَسْتَوْحِشْ مِنْ قِلَّةِ السَّالِكين ولا تَغْتَرَّ بكثرةِ المُنْقَطِعِين .

⑤ هذه الوحشة مِنْ عَوارِضِ الطريق ؛ فلا تَخَفْ . . انطلق انطلق .

⑥ لا تَسْتَوْحِشْ مِنْ بُطْءِ السَّير ؛ فإنَّك في البداية ؛ ولكِنْ كُلَّما أَدْمَنْتَ الطاعات والعبادات والقُرُبات ؛ زادتْ سُرْعَةُ سَيْرِكَ إلىٰ الله ووَصَلْتَ سَعِيدًا حَمِيدًا .

وفي النِّهايَةِ - إخوتاه . . وقَبْلَ أَنْ أُنْزِلَ القَلَمَ مِنْ يَدِي . . أَرَىٰ أَنَّهُ مِنَ الأَدَب الوَاجِبِ عَلَيَّ . . أَنْ أَضْرَعَ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الكريم الرَّحيم الذي أَتَمَّ عَلَيَّ هذا العمل : فاللَّهُمَّ اجْعَلْني وإيَّاكم مِنَ الشَّاكرين الصَّالحين ، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] .

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] . . ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] . . ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨] .

«رَبِّ أَعِنِّي ، ولا تُعِنْ عَلَيَّ ، وانْصُرْني ، ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ ، وامْكُرْ لِي ، ولا تَمْكُرْ عَلَيَّ ، واهْدِنِي ، ويَسِّرْ الهُدَىٰ لِي ، وانْصُرْني عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ ، رَبِّ اجْعَلْني لَكَ ذَكَّارًا ، لَكَ شَكَّارًا ، لَكَ رَهَّابًا ، لَكَ مِطْوَاعًا ،

لَكَ مُخْبِتًا ، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا ، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي ، واغْسِلْ حَوْبَتِي ، وأَجِبْ دَعْوَتِي ، وثَبِّتْ حُجَّتِي ، واهْدِ قَلْبِي ، وسَدِّدْ لِسَانِي ، واسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي » .

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِك ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِك ، وفُجَاءَةِ نِقْمَتِك ، وجَمِيعِ سُخْطِك » .

« أَسْأَلُ اللَّهَ لِي ولَكُمُ العَافِيَة ، وتَمَامَ العَافِيَة ، ودَوَامَ العَافِيَةَ ، والشُّكْرَ عَلَىٰ العَافِيَة » . . « اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ القَسْوَةِ ، والغَفْلَةِ ، والعَيْلَةِ ، والذِّلَّةِ ، والمَسْكَنَة ، ونَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ والكُفْرِ ، والفُسُوقِ ، والشِّقَاقِ ، والسُّمْعَةِ والرِّيَاء ، ونَعُوذُ بِكَ مِنَ الصَّمَمِ والبَكَمِ ، والجُنُونِ والجُذَامِ ، وسَيِّئِ الأَسْقَام » .

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] . . ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] . . ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦] . . ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨] .

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩] .

«اللَّهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ وعِبَادُكَ الصَّالِحُون ، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ وعِبَادُكَ الصَّالِحُون ، وأَنْتَ المُسْتَعانُ ، وعَلَيْكَ البَلاَغُ ، وَلَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّه».

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

آمين . . آمين . . آمين

وصَلَّىٰ اللَّهُ وسَلَّمَ وبَارَكَ عَلَىٰ سَيِّدِ المُرْسَلِين وخَاتَمِ النَّبِيِّين

سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِين

والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين

وكَتَبَ

محمد بن حسين آل يعقوب

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ولِوَالِدَيْهِ وزَوْجَاتِهِ وَأَوْلَادِهِ

والمُسْلِمِينَ والمُسْلِمَات

فهرس

قصة الالتزام

على الرَّغم مِمَّا يبدو من زحمة في الحياةِ وامتلاء، إلا أنَّ إنسانَ هذه الأيام يشعرُ بالخُواء.. الخواءِ الرُّوحي.. الخواءِ الحقيقي داخله وإن ازدحمت الحياةُ مِن حوله.

نعم: هنالكَ مَرحٌ كثير يُخيَّل إلى مَنْ لا يعرف؛ أنهُ سعادة:

تلكَ الضَّحكاتُ التي تَرِنُّ في الهواء.

تلكَ المهارَشات التي تتحسَّسُ مَساقِطَ اللَّذةِ في الأجساد.

تلكَ الكؤوس التي لا تَفرُغ مِنَ المشروبات.

تلكَ الضَّجَّة التي لا تهدأ ولا تَسكُن.

ولكنه المرحُ الحيواني لا السعادة القلبية ولا الفرح الرُّوحي؛ إذ إنْ عَربَدَةَ السُّكارَى ليست سعادة، كذلك المرحُ الحيواني ليس فَرَحًا.. إنها قَرْقَعَةٌ كقرقعةِ الآلاتِ لتفريغِ البُخار..

إنه انطلاقُ الطَّاقة المكبوتةِ تحتَ ضغطِ الواقعِ المرِّ..

ولكنْ أينَ الإنسان؟

أين هدوءُ القلب، واطمئنان النفس؟.. أين الرُّوحُ والقَلْب؟

أين المسلمُ في كُلِّ هذا الرُّكام؟

أين الإنسانُ المتَميِّز عنِ الآلةِ والحيوان؟

أيُّها الإنسان، إنَّكَ بحاجة إلى الإسلام..

بحاجة إلى الإسلام لتفهمَ ما تُريد، ولتعرفَ كيف تكون، ولتتعلمَ كيف تعيش، ولتكونَ سعيدًا ككل؛ قلبًا وقالبًا، جسدًا ورُوحًا..

إنَّهُ سببُ الالتزام بدينِ الإسلام

إنَّها قِصَّةُ الالتزام